تفسير سورة الفرقان

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ
شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا
﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ
جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ
بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾) [الفرقان: ١-٦].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿تَبَارَكَ – نَزَّلَ – ٱلْفُرْقَانَ – نَذِيرًا – فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا – نُشُورًا – إِفْكٌ – ٱفْتَرَىٰهُ – فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا – أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ – ٱكْتَتَبَهَا – تُمْلَىٰ عَلَيْهِ – بُكْرَةً – وَأَصِيلًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تَبَارَكَ﴾	تكاثر الخير الوارد منه والواصل إلى عباده – دام خيره وثَبُت – تقدس وتعاظم
﴿نَزَّلَ﴾	أنزل شيئًا بعد شيء
﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾	القرآن الذي يفرق به بين الحق والباطل والصواب والخطإ
﴿نَذِيرًا﴾	مُحذرًا مخوِّفًا
﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾	فخلقه بقدر (على قدر الحاجة) وسيَّر كلًّا لما خُلِقَ له
﴿نُشُورًا﴾	بعثًا بعد الموت – إخراجًا للناس من قبورهم أحياء بعد الموت
﴿إِفْكٌ﴾	كذبٌ يُصرف به الناس عن دينهم
﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾	اختلقه وتقوّله من عند نفسه
﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾	فقد أتوا بقولهم هذا بظلم وزور ووقعوا في ظلم وزورٍ
﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾	حكايات الأولين – خرافاتهم

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾	طلب أن تُكتب له
﴿تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾	تُقرأ عليه
﴿بُكۡرَةٗ﴾	غدوة – صباحًا
﴿وَأَصِيلٗا﴾	عشيًّا – مساءً

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: تكاثر الخير والوارد منه سبحانه وتعالى ودام إنعامه وثَبُتَ إحسانه، ربنا الذي نزَّل القرآن الذي به يُفرق بين الحق والباطل ويفصل بينهما، ويعلم الحق من الباطل، نزَّله على عبده ورسوله محمد ﷺ سورة بعد سورة ليكون رسوله ﷺ للإنس والجن نذيرًا محذِّرًا من النار مخوفًا منها، والذي نزَّل الفرقان هو الله الذي له ملك السموات والأرض هما ملك له سبحانه وتعالى يتصرف فيهما كيف يشاء ويقضي فيهما بالذي يريد لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه، هو ربهما ومالكهما، ولم يتخذ ولدًا، ولم يكن له ولد وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وكذا فليس له شريك في ملكه سبحانه وتعالى، وقد خلق ﷻ كل شيءٍ مُقدرًا تقديرًا، خلق كل شيء وهيَّأه ويسره لما خلق له، خلق كل شيء بقدر، فترى النسور طويلة العمر بيضها قليل، وترى الذباب يتكاثر بالملايين وعمره قصير، وترى الماء

ينزل من السماء بقدر ولو شاء لأهلك به الخلق كلهم، وترى الطول والعرض لبني آدم متقارب، وهكذا خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

تبارك تفاعل من البركة، ثم قال: فقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يقول: تبارك الذي نزل الفصل بين الحق والباطل، فصلا بعد فصل وسورة بعد سورة، على عبده محمد ﷺ؛ ليكون محمد لجميع الجن والإنس، الذين بعثه الله إليهم داعيًا إليه، نذيرًا: يعني: منذرًا ينذرهم عقابه ويخوفهم عذابه، إن لم يوحدوه ولم يخلصوا له العبادة، ويخلعوا كل ما دونه من الآلهة والأوثان.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ قال: النبي النذير. وقرأ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: ٢٤]، وقرأ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨﴾ [الشعراء: ٢٠٨]، قال: رسل. قال: المنذرون: الرسل. قال: وكان نذيرًا واحدًا بلغ ما بين المشرق والمغرب، ذو القرنين، ثم بلغ السدين، وكان نذيرًا، ولم أسمع أحدًا يحق أنه كان نبيًّا ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] قال: من بلغه القرآن من الخلق، فرسول الله ﷺ نذيره. وقرأ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال: لم يرسل الله رسولًا إلى الناس عامة إلا نوحا، بدأ به الخلق، فكان رسول أهل الأرض كلهم، ومحمد ﷺ ختم به.

يقول تعالى ذكره: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالذي الثانية من نعت الذي الأولى، وهما جميعًا في

موضع رفع؛ الأولى بقوله تبارك، والثانية نعت لها ويعني بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السماوات والأرض، ينفذ في جميعها أمره وقضاءه، ويمضي في كلها أحكامه، يقول: فحقٌّ على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته، ومن في سلطانه، ولا يعصوه، يقول: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس، واتبعوه، واعملوا بما جاءكم به من الحق ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ يقول: تكذيبًا لمن أضاف إليه الولد، وقال: الملائكة بنات الله، ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ولدًا، فمن أضاف إليه ولدًا فقد كذب وافترى على ربه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يقول تكذيبًا لمن كان يُضيف الألوهة إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لبيك لا شريك لك، إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، كذب قائلو هذا القول، ما كان لله من شريك في ملكه وسلطانه، فيصلح أن يُعبد من دونه. يقول تعالى ذكره: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة، وأخلصوا له العبادة دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خَلْقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وخلق الذي نزَّل على محمد الفرقان كل شيء، فالأشياء كلها خلقه وملكه، وعلى المماليك طاعة مالكهم، وخدمة سيدهم دون غيره. يقول: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادة دون غيري، وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ يقول: فسوَّى كل ما خلق، وهيَّأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى حامدًا نفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لِتَقْرَأَهُۥ..﴾ الآية [الكهف: ١ –٣] وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعَلَ من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزل: فَعَّل، من التكرر، والتكثر، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلا آيات بعد آيات، وأحكاما بعد أحكام، وسورًا بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)﴾ [الفرقان: ٣٢،٣٣]. ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحرام والحلال.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ أي: إنما خصَّه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢]، الذي جعله فرقانًا عظيمًا -إنما خصَّه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال -صلوات الله وسلامه عليه-: «**بُعثت إلى الأحمر والأسود**». وقال: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي**»، فذكر منهن: أنه «**كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة**»، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ﴾ [الأعراف: ١٥٨] أي: الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض، الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الذي يحيي ويميت، وهكذا قال هاهنا: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فَنَزَّه نفسه عن الولد، وعن الشريك.

ثم أخبر أنه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ أي: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره وتسخيره، وتدبيره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عظَّم تعالى نفسه و ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ نزَّه سبحانه وتعالى نفسه عمَّا قاله المشركون من أن الملائكة أولاد الله يعني: بنات الله سبحانه وتعالى وعما قالت اليهود: عزير ابن الله - جلَّ الله تعالى - وعما قالت النصارى: المسيح ابن الله - تعالى الله عن ذلك- ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما قال عبدة الأوثان ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ لا كما قال المجوس والثنوية: إن الشيطان أو الظلمة يخلق بعض الأشياء ولا كما يقول

من قال: للمخلوق قدرة الإيجاد فالآية ردٌّ على هؤلاء ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ أي: قدَّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة وبعد القيامة فهو الخالق المقدر فإياه فاعبدوه.

❁ ❁ ❁

الآلهة المعبودة من دون الله
لا تملك لنفسها فضلا عن غيرها نفعًا ولا ضرًا

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ٣﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: واتخذ هؤلاء المشركون من أهل مكة وغيرهم آلهة يعبدونها من دون الله ﷻ، وكلمة من دون الله تحتمل معنيين أحدهما: مع الله ﷻ، والثاني: بدلًا من عبادة الله ﷻ، وهذه الآلهة التي عبدوها من دون الله لا تخلق شيئًا، ولا تقدر على ذلك بل هي مخلوقة كغيرها من المخلوقات بل إنهم صنعوها بأيديهم وعبدوها (تلك الأصنام والأوثان) ولا تملك لنفسها - فضلًا عن غيرها - دفع ضُرٍّ ولا جلب نفع، بل قد كسر أمثالها الخليل إبراهيم عليه السلام ولم تدفع عن نفسها شيئًا، ولا تملك تلك الآلهة لعابديها موتًا، أي: لن تستطيع أن تُميتهم إذا أراد الله لهم حياة، ولن تستطيع أن تحييهم إذا أراد الله بهم موتًا، وكذا لا تستطيع تلك الآلهة المعبودة من دون الله ﷻ أن تُبعث أحدًا قد مات من قبره.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مُقرعًا مشركي العرب بعبادتهم ما دونه من الآلهة، ومعجبًا أولي النهي منهم، ومنبههم على موضع خطإ فعلهم، وذهابهم عن منهج الحق، وركوبهم من سبل الضلالة ما لا يركبه إلا كل مدخول الرأي، مسلوب العقل - واتخذ هؤلاء المشركون بالله- من دون الذي له مُلك السموات والأرض وحده، من غير شريك، الذي خلق كل شيء فقدّره- آلهة:

يعني أصنامًا بأيديهم يعبدونها، لا تخلق شيئًا وهي تُخلق، ولا تملك لنفسها نفعًا تجرّه إليها، ولا ضرًّا تدفعه عنها ممن أرادها بضرّ، ولا تملك إماتة حيّ، ولا إحياء ميت، ولا نشره من بعد مماته، وتركوا عبادة خالق كل شيء، وخالق آلهتهم، ومالك الضرّ والنفع، والذي بيده الموت والحياة والنشور. والنشور: مصدر نُشر الميت نشورًا، وهو أن يُبعث ويُحيا بعد الموت.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأزمّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعابديهم؟! ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو الذي هو يُحيي ويُميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]. فهو الله الذي لا إله غيره ولا ربَّ سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ ذكر ما صنع المشركون على جهة التعجيب في اتخاذهم الآلهة مع ما أظهر من الدلالة على وحدانيته وقدرته ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يعني: الآلهة ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لما اعتقد المشركون فيها أنها تضرُّ وتنفع عبَّر عنها كما يعبر عما يعقل ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا ضُرَّ وجلب نفع فحذف المضاف وقيل: لا يقدرون أن يضروا أنفسهم أو ينفعوها بشيء ولا لمن يعبدهم؛ لأنها جمادات ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: لا يميتون أحدًا ولا يحيونه والنشور: الإحياء بعد الموت أنشر الله الموتى فنشروا وقد تقدم. قول الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبًا للميت الناشر

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا رسل الله، قالوا عن هذا القرآن ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد ﷺ من عند نفسه ليصرف الناس عن عبادة آلهتهم إلى عبادة الله وحده، اختلقه محمد من عند نفسه وساعده على اختلاقه واختلقه معه أيضًا قوم آخرون من اليهود وغيرهم، فقد علموه ودارسوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وهنا كذَّب الله ﷻ هؤلاء الكفار بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾، أي: ولقد أتوا لما قالوا هذه المقولة بمنكرٍ من القول وزور وظلم، لقد ظلموا النبي

ﷺ وبخسوه حقه، لما قالوا: إنه افترى هذا القرآن، فالنبي ﷺ الصادق المصدوق فكان من حقه أن يُشكر وأن يُصدق، وأن يُؤمنوا به فبخسوه حقه وكذبوه وأتوا بميلٍ من القول عن الحق، فالزور الميل عن الحق إلى الباطل.

وكذا ظلموا هذا القرآن لكونهم وصفوه بأنه قول بشر، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بالله، الذين اتخذوا من دونه آلهة: ما هذا القرآن الذي جاءنا به محمد ﴿إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ يعني: إلا كذب وبهتان ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ اختلقه وتخرصه بقوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ذكر أنهم كانوا يقولون: إنما يعلم محمدًا هذا الذي يجيئنا به اليهود، فذلك قوله: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ يقول: وأعان محمدًا على هذا الإفك الذي افتراه يهود.

وقوله: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤﴾ يقول تعالى ذكره: فقد أتى قائلو هذه المقالة، يعني الذين قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظلمًا، يعني بالظلم نسبتهم كلام الله وتنزيله إلى أنه إفك افتراه محمد ﷺ. وقد بينا فيما مضى أن معنى الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فكان ظلم قائلي هذه المقالة القرآن بقيلهم هذا وصفهم إياه بغير صفته، والزور: أصله تحسين الباطل. فتأويل الكلام: فقد أتى هؤلاء القوم في قيلهم ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ كذبًا محضًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾: أي: كذب، ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ يعنون النبي ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ

﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: واستعان على جمعه بقوم آخرين. قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ أي: فقد افتروا هم قولًا باطلًا هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

وصف الكفار للقرآن بأنه أساطير والردُّ عليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقال أيضًا أهل الكفر والجحود والشرك بالله، قالوا عن هذا القرآن: إنه حكايات وقصص وخرافات الأولين، يعنون الذين سبقوا ومضوا أمر محمد من يكتبها له وتُقرأ عليه غدوة وعشيًّا.

والظاهر - والله أعلم -: أن فريقًا من أهل الكفر قال عن القرآن: إنه إفك افتراه محمد ﷺ، وفريق آخر منهم قالوا: إنه أساطير الأولين، ويحتمل أيضًا أن قائلي هذه المقولة وتلك هم صنف واحدٌ من الكفار.

فقل يا رسول الله لهؤلاء القائلين عن هذا القرآن: إنه كذب مفترى، ولهؤلاء القائلين: إنه أساطير الأولين اكتتبها، قل لهؤلاء وأولئك: كلا فليس هو بالإفك المفترى، وليس هو بأساطير الأولين، بل أنزله الله ﷻ الذي يعلم حقائق الأمور، ويعلم ما خفي في السموات والأرض، ويعلم ما أضمرته النفوس وأخفته الصدور إنه كان غفورًا رحيمًا، غفورًا لعباده التائبين والمذنبين والمفترين والمتقولين إن هم تابوا إليه واستغفروه، فتوبوا إلى الله واستغفروه ولا تفتروا بإمهاله لكم وترك تعذيبكم فإنه بكم رحيم إذا أمهلكم

حتى تتوبوا وتُقلعوا عن غيِّكم وضلالكم. والله أعلم. وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام: وقال هؤلاء المشركون بالله، الذين قالوا لهذا القرآن: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ محمد ﷺ: هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأولين، يعنون: أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد ﷺ من يهود، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ يعنون بقوله: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ فهذه الأساطير تُقرأ عليه، من قولهم: أمليت عليك الكتاب وأمللت ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ يقول: وتُملى عليه غدوة وعشيًّا.

وقوله: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بآيات الله من مشركي قومك: ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين، وأن محمدًا ﷺ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، بل هو الحق، أنزله الربُّ الذي يعلم سرَّ من في السماوات ومن في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، ومُحصي ذلك على خلقه، ومجازيهم بما عزمت عليه قلوبهم، وأضمروه في نفوسهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ يقول: إنه لم يزل يصفح عن خلقه ويرحمهم، فيتفضل عليهم بعفوه، يقول: فلأن ذلك من عادته في خلقه، يُمهلكم أيها القائلون ما قلتم من الإفك، والفاعلون ما فعلتم من الكفر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل استحسنها ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ أي: تُقرأ عليه ﴿بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ أي: في أول النهار وآخره.

وهذا الكلام -لسخافته وكذبه وبهْته - كُلّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوًا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بُعِث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبِرَّه. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، وَرَموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، قال الله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾.

[الإسراء: ٤٨]

وقال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخبارًا حقًّا صدقًا مطابقًا للواقع في الخارج، ماضيًا ومستقبلًا ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أي: الله الذي يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾: دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حِلْمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام

والهدى كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة!

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

ومن جملة أقاويلهم فيه أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تتلقاها الأفواه وينقلها كل أحد استنسخها محمد ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبرُّ الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته وهم أشد الناس علمًا بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له وهم قد زعموا ذلك.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ
يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾
ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾
تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا
﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا
مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا
وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ
ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ٧-١٦].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿كَنزٌ﴾ – ﴿جَنَّةٌ﴾ – ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ – ﴿مَّسْحُورًا﴾ – ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ – ﴿تَبَارَكَ﴾ – ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ – ﴿سَعِيرًا﴾ – ﴿تَغَيُّظًا﴾ – ﴿وَزَفِيرًا﴾ – ﴿أُلْقُوا۟ مِنْهَا﴾ – ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾ – ﴿ثُبُورًا﴾ – ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿كَنزٌ﴾	ذهب أو فضة
﴿جَنَّةٌ﴾	حديقة – بستان
﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾	ما تتبعون
﴿مَّسْحُورًا﴾	أصابه السحر (فجعله يخرِّف ويهذي)
﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾	فلا يستطيعون الاهتداء إلى طريق الحق والصواب
﴿تَبَارَكَ﴾	تكاثر الخير الوارد منه – تقدس وتعاظم
﴿وَأَعْتَدْنَا﴾	أعددنا
﴿سَعِيرًا﴾	نارًا مستعرة
﴿تَغَيُّظًا﴾	غيظًا عليهم
﴿وَزَفِيرًا﴾	هواءً شديدًا يخرج منها
﴿أُلْقُوا۟ مِنْهَا﴾	ألقوا فيها
﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ﴾	دعوا عندئذٍ – سألوا الله عندها وفيها
﴿ثُبُورًا﴾	هلاكًا – تندمًا – خيبةً – تحسرًا

﴿وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾	وعدًا وعده الله عباده في الدنيا ويسألونه يوم القيامة أن يحققه لهم.

بشرية رسول الله ﷺ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن أهل الكفر الذين هم أهل الجحود، جحود وحدانية الله ﷻ، وهم أهل الشرك قالوا مُنفرين عن رسول الله ﷺ مالِ هذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الأسواق يبيع ويشتري كما نمشي نبيع ونشتري، فإن كان رسولًا من عند الله ﷻ فلِمَ لم يُنزل معه ملك يؤيده في دعوته ويخبر الناس أن هذا مُنذر ورسول من عند الله حتى يصدقه الناس، أو يُلقى إليه من السماء كنزٌ من ذهب أو فضة حتى يتفرغ لدعوته ويكف عن البيع والشراء والمشي في الأسواق، أو تكون له حديقة عظيمة وبستان عظيم يجعله الله له ليأكل منه بدلًا من الخروج إلى السوق للبيع والشراء ثم تمادى أهل الظلم قائلين ما تتبعون يا أصحاب محمدٍ إلا رجلًا مسحورًا قد أصابه السحر فأثر على عقله وجعله يخرّف ويدعي الرسالة، فيقول تعالى مُصبرًا نبيه ﷺ ومُسليًا له ومطمئنًا، انظر إلى ضلال هؤلاء كيف ضربوا لك الأمثال فأرادوا معك ملكًا أو أرادوك مَلَكًا وأرادوا السماء أن تمطر

عليك ذهبًا وفضة... إلى غير ذلك مما ذكروه، فضلوا عن الحق والصواب بذلك فلا يستطيعون اهتداء إلى الحق ولو فكروا وأمعنوا النظر وتأملوا وتدبروا لوجدوا أن هذا القرآن الذي يتلوه رسول الله ﷺ بما فيه من الهدى والنور والآيات النيرات البينات أفضل من كل ما سألوه، فإن الآيات التي طلبوها وسألوها توشك أن تزول وتنتهي أما القرآن فمعجزة باقية، كما قال ﷺ: «**ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُوتي من الآيات ما على مثله آمن البشر، إنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أنا أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

ويقول تعالى ردًّا على هؤلاء المشركين: ﴿تَبَارَكَ﴾ تقدس وتعاظم وتكاثر الخير الوارد من قبله ودام هذا الخير، تعاظم وتكاثر الخير الوارد من الله الذي إن شاء جعل لك خيرًا من كل ما ذكروه، جعل لك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك إن شاء في الدنيا قصورًا تسكنها، ولكن كل هذا الذي في الدنيا متاعٌ زائل، وذاهب. وما عند الله خيرٌ وأبقى.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام: وقال المشركون ما لهذا الرسول يعنون محمدًا ﷺ، الذي يزعم أن الله بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما نمشي ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يقول: هلا أنزل إليه ملك إن كان صادقًا من السماء، فيكون معه منذرًا للناس، مصدقًا له على ما يقول، أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرف في طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ يقول: أو يكون له بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وبعد، فإن في قوله تعالى ذكره: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ دليلًا بينًا على أنهم إنما قالوا له: اطلب ذلك لنفسك، لتأكل أنت منه، لا نحن.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يقول: وقال المشركون للمؤمنين بالله ورسوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أيها القوم باتباعكم محمدًا ﴿إِلَّا رَجُلًا ﴾ به سحر.

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين الذين شبهوا لك الأشباه بقولهم لك: هو مسحور، فضلوا بذلك عن قصد السبيل، وأخطؤوا طريق الهدى والرشاد، فلا يستطيعون يقول: فلا يجدون سبيلًا إلى الحق، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجه الذي ضلوا عنه.

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يقول تعالى ذكره: تقدس الذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك.

واختلف أهل التأويل في المعني بـ: ﴿ذَٰلِكَ ﴾ التي في قوله: ﴿جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: خيرًا مما قال هؤلاء المشركون لك يا محمد: هلا أوتيته وأنت لله رسول، ثم بين تعالى ذكره عن الذي لو شاء جعل له خيرًا مما قالوا، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

وقال آخرون: عنى بذلك المشي في الأسواق، والتماس المعاش.

قال الطبري: وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ يعني بالقصور: البيوت المبنية.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل

منهم، وإنما تعللوا بقولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾، يعنون: كما نأكله، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه، ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: يتردد فيها وإليها طلبًا للتكسب والتجارة، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ يقولون: هلا أنزل إليه ملك من عند الله، فيكون له شاهدًا على صِدْق ما يدَّعيه! وهذا كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٣]. وكذلك قال هؤلاء على السواء، تشابهت قلوبهم؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي: علم كنز [يكون] ينفق منه، ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أي: تسير معه حيث سار. وهذا كله سهل يسير على الله، ولكن له الحكمة في ترك ذلك، وله الحجة البالغة ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟﴾ أي: جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك، من قولهم «ساحر، مسحور، مجنون، كذاب، شاعر» وكلها أقوال باطلة، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن طريق الهدى، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد، يُصَدّق بعضه بعضا.

ثم قال تعالى مخبرًا نبيه أنه لو شاء لآتاه خيرًا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

قال مجاهد: يعني: في الدنيا، قال: وقريش يسمون كل بيت من حجارة

قصرًا، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا

❁ ❁ ❁

سحر النبي ﷺ

س: هل ثبت أن النبي ﷺ سُحر؟

ج: نعم ثبت أن النبي ﷺ قد سُحر لكن هذا السحر لم يكن بالسحر المتعلق بتبليغ الشريعة، إنما كان متعلقًا بمسألة إتيان الأزواج وقد قدمت في سورة البقرة في مبحث السحر ما يفيد أن النبي ﷺ قد سُحر، وفيه أن عائشة قالت: «سُحر النبي ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أن يفعل الشيء وما فعله...»(١).

❁ ❁ ❁

الجمع بين الآية والحديث

س: كيف الجمع بين ما ورد في سحر النبي ﷺ، وبين تكذيب الكفار القائلين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾؟

ج: معلوم - والله أعلم - أن السحر مراتب والرسول ﷺ بشر، يصاب بما يصاب به البشر ويبتلى بما يبتلى به البشر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، إلا أن الرسول ﷺ معصوم في تبليغه للشريعة والوحي.

فعلى ذلك، يجاب - والله أعلم - بأن نوع السحر الذي تأثر به النبي ﷺ إنما كان سحرًا يتعلق بأمره مع النساء حتى كان يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتيهن، ولم يكن لهذا السحر تأثير على تبليغ الشريعة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(١) البخاري (٥٧٦٥، ٥٧٦٦)، ومسلم (٢١٨٩).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن أهل الشرك والجحود والنكران ليسوا في حقيقة الأمر بمستنكرين عليك كونك تأكل الطعام وتمشى في الأسواق، ليس هذا هو أساس تكذيبهم بل أصل تكذيبهم أنهم ينكرون البعث كذا قال بعض أهل العلم.

ويبدو - والله أعلم - أن هناك وجهًا آخر حاصله أنهم لم يقتصروا على ردهم عليك بقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق... إلى آخر ما ذكروه، وإنما فعلوا شيئًا آخر هو أعظم وارتكبوا جرمًا آخر هو أخطر، ألا وهو تكذيبهم بيوم القيامة، وقد أعددنا لمن كذب بيوم القيامة نارًا مستعرة عظيمة هائلة إذا رأت أهلها المكذبين بيوم القيامة من مكان بعيد سمعوا لها تغيظًا وصوتًا عظيمًا للزفير، وهو الهواء الشديد الذي يخرج منها.

هذا، وإن كان صوت التغيظ لا يسمع إلا أن الله سبحانه وتعالى يجعل صوت تغيظها يُسمع.

هذا، وإذا أُلقوا فيها فإنهم يُلقون في أماكن ضيقة شديدة الضيق، ويلقون مقرنين مقيدين.

قيل: ضُمَّت أيديهم إلى رقابهم وربطت معها.

وقيل: قُرِن كل شخص مع قرينه، أي رُبط كل شخص مع شيطانه الذي أضله في الدنيا.

وقيل: ربط (قيِّد) كل شخص مع قرينه من بني آدم الذين كانوا على

شاكلته.

فإذا أُلقوا فيها على هذه الحال - والعياذ بالله - ألقوا مقترنين ومقرنين في نارٍ عظيمة هائلة صوتها مزعج هائل، يلقون وقد ربطت أيديهم إلى رقابهم وقد ربطوا مع بعضهم ومع شياطينهم، ألقوا في أماكن ضيقة شديدة الضيق، فعياذًا بالله نارٌ وقيودٌ وضيق مكان!!!

نارٌ، وأي نارٍ، نارٌ عظيمة هائلة!!!

وقيود شديدة!!!

وأماكن شديدة الضيق!!!

فعندها ماذا يقولون؟!! وماذا يصنعون؟!!

إنهم عند ذلك يدعون على أنفسهم بالموت والهلاك يدعون على أنفسهم متندمين مُتحسرين متأسفين على عدم طاعتهم في الدنيا، فيقال لهم: لا تدعوا على أنفسكم بالهلاك مرة واحدة، بل ادعو مرات ومرات، وتندموا مرات ومرات، وتحسروا مرات ومرات.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ما كذب هؤلاء المشركون بالله، وأنكروا ما جئتهم به يا محمد من الحق من أجل أنك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد، ولا يصدقون بالثواب والعقاب تكذيبًا منهم بالقيامة، وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة.

﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ يقول: وأعددنا لمن كذب ببعث الله الأموات أحياء بعد فنائهم

لقيام الساعة، نارًا تسعر عليهم وتتقد ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، يقول: إذا رأت هذه النار التي اعتدناها لهؤلاء المكذبين أشخاصهم من مكان بعيد، تغيظت عليهم، وذلك أن تغلي وتفور، يقال: فلان تغيظ على فلان، وذلك إذ غضب عليه، فغلى صدره من الغضب عليه، وتبين في كلامه، ﴿وَزَفِيرًا ١٢﴾، وهو صوتها.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ والتغيظ لا يسمع، قيل معنى ذلك: سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد.

وقال تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٣ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾.

يقول تعالى ذكره: وإذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكانًا ضيقًا، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٣﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى الثبور، فقال بعضهم: هو الويل.

وقال آخرون: الثبور: الهلاك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والثبور في كلام العرب: أصله انصراف الرجل عن الشيء، يقال منه: ما ثبرك عن هذا الأمر: أي ما صرفك عنه، وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة منه، كما يقول القائل: واندامتاه، واحسرتاه على ما فرطت في جنب الله، وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول في قوله: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ١٣﴾ أي: هلكة،

ويقول: هو مصدر من ثبر الرجل أي: أهلك، ويستشهد لقيله في ذلك ببيت ابن الزبعرى:

إذ أجاري الشيطان في سنن الغي ومن مال ميله مثبور

وقوله: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ﴾ أيها المشركون ندمًا واحدًا: أي مرة واحدة، ولكن ادعوا ذلك كثيرًا. وإنما قيل: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ لأن الثبور مصدر؛ والمصادر لا تجمع، وإنما توصف بامتداد وقتها وكثرتها، كما يقال: قعد قعودا طويلا وأكل أكلًا كثيرًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبًا وعنادًا، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرًا واسترشادًا، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي: وأرصدنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ أي: عذابًا أليمًا حارًّا لا يُطاق في نار جهنم.

وقال الثوري، عن سلمة بن كُهَيْل، عن سعيد بن جبير: (السَّعِير): وادٍ من قيح جهنم.

وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ أي: جهنم ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني: في مقام المحشر. قال السدي: من مسيرة مائة عام ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: حنقًا عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧، ٨] أي: يكاد ينفصل بعضها من بعض؛ من شدة غيظها على من كفر بالله.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ قال أبو صالح: يعني مكتفين: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾

أي: بالويل والحسرة والخيبة. ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأظهر: أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار، كما قال موسى لفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكًا.

وقال عبد الله بن الزبَعْرى:

إذْ أجَارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغـيِّ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾.

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن النار يوم القيامة، إذا رأت الكفار ﴿مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أي: في عرصات المحشر اشتد غيظها على من كفر بربها وعلا زفيرها فسمع الكفار صوتها من شدة غيظها، وسمعوا زفيرها.

وما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة بين بعضه في سورة الملك، فأوضح فيها شدة غيظها على من كفر بربها، وأنهم يسمعون لها أيضًا شهيقًا مع الزفير الذي ذكره في آية الفرقان هذه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: يكاد بعضها ينفصل عن بعض من شدة غيظها، على من كفر بالله تعالى.

وللعلماء أقوال في معنى الزفير والشهيق، وأقربها أنهما يمثلهما معًا صوت الحمار في نهيقه، فأوله زفير، وآخره الذي يردده في صدره شهيق.

والأظهر أن معنى قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ أي: سمعوا غليانها من شدة غيظها، ولما كان سبب الغليان التغيظ أطلقه عليه، وذلك أسلوب عربي

معروف. وقال بعض أهل العلم: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا﴾ أي: أدركوه، والإدراك يشمل الرؤية والسمع، وعلى هذا فالسمع مضمن معنى الإدراك، وما ذكرنا أظهر.

وقال القرطبي: «قيل المعنى: إذا رأتهم جهنم سمعوا لها صوت التغيظ عليهم»، ثم ذكر في آخر كلامه أن هذا القول هو الأصح.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في (أضواء البيان):

مسألة

اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة، كما صرح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدل على حدة بصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠]، والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن الله جلَّ وعلا صرح في هذه الآية، أنها تراهم وأن لها تغيظًا على الكفار، وأنها تقول: هل من مزيد.

واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم، من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاظ. وأن ذلك كله من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا.

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة، لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، كما هو

معلوم في محله.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: وقت عذابهم وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس وحبسوا في أشر حبس ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ١٦﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين الذين أعددت لهم سعيرًا يسمعون لها تغيظًا وزفيرًا، الذين يلقون مقرنين في السعير داعين على أنفسهم بالويل والخيبة والحسرة والهلاك، قل لهم: أذلك الذي ذكرته لكم من الوعيد لأهل الكفر والإجرام خيرٌ أم جنة الخلد التي لا تزول ولا تفنى ولا يتحول عنها أهلها بحال ولا يموتون فيها خير، أجنة الخلد خيرٌ أم العذاب الذي أعدَّ لكم.

إن جنة الخلد وعدها الله المتقين الذين اتقوا الشرك بالله والكفر به

وطرائق المجرمين، أعد الله ﷻ جنة الخلد لأهل التقى جزاء لهم على ما أطاعوه وعبدوه ووحدوه ومصيرًا يصيرون إليه بعد مماتهم لهم فيها ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم خالدين في النعيم المقيم كان على ربك وعدًا وعده الله العباد المؤمنين وسيسألون ربهم يوم القيامة عن إنجازه، فرب العزة وعدهم في دنياهم جنات النعيم فيطلبون من الله يوم القيامة أن يحقق لهم الوعد الذي وعدهم في الدنيا وينجزه لهم، كما كانوا في الدنيا يقولون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٤].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بالساعة: أهذه النار التي وصف لكم ربكم صفتها وصفة أهلها خير؟ أم بستان الخلد الذي يدوم نعيمه ولا يبيد، الذي وعد من اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره ونهاه؟ وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ يقول: كانت جنة الخلد للمتقين جزاء أعمالهم لله في الدنيا بطاعته، وثواب تقواهم إياه، ومصيرًا لهم، يقول: ومصيرًا للمتقين يصيرون إليها في الآخرة. وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ يقول: لهؤلاء المتقين في جنة الخلد التي وعدهموها الله ما يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها، يقول: لابثين فيها ماكثين أبدًا، لا يزولون عنها ولا يزول عنهم نعيمها. وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم ذلك في الدنيا حين قالوا: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] يقول الله تبارك وتعالى: وكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي وصف صفتها في الآخرة وعدًا وعدهم الله على طاعتهم إياه في الدنيا، ومسألتهم إياه ذلك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: يا محمد، هذا الذي وصفناه من حال هؤلاء الأشقياء، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم، فتتلقاهم بوجه عبوس وبغيظ وزفير، ويُلقَون في أماكنها الضيقة مقرَّنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا انتصارًا ولا فكاكًا مما هم فيه -: أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله للمتقين من عباده، التي أعدها لهم، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه في الدنيا، وجعل مآلهم إليها.

﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ﴾ من الملاذ: من مآكل ومشارب، وملابس ومساكن، ومراكب ومناظر، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قلب أحد. وهم في ذلك خالدون دائمًا أبدًا سرمدًا بلا انقطاع ولا زوال، ولا انقضاء، ولا يبغون عنها حِوَلًا. وهذا من وَعْد الله الذي تفضل به عليهم، وأحسن به إليهم، ولهذا قال: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ١٦﴾ أي لا بد أن يقع وأن يكون، كما حكاه أبو جعفر بن جرير، عن بعض علماء العربية أن معنى قوله: ﴿وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ١٦﴾ أي: وعدًا واجبًا.

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء[1]، عن ابن عباس ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ١٦﴾ يقول: سلوا الذي واعدتكم -أو قال: واعدناكم- نُنْجِز.

وقال محمد بن كعب القُرَظي في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ١٦﴾: إن الملائكة تسأل لهم ذلك: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ [غافر: ٨].

وقال أبو حازم: إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون: ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا، فأنجز لنا ما وعدتنا. فذلك قوله: ﴿وَعۡدًا مَّسۡـُٔولًا ١٦﴾.

---

(١) عطاء هو الخراساني، ولم يسمع ابن عباس.

وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة، كما ذكر تعالى في «سورة الصافات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الكلبي: وعد الله المؤمنين الجنة جزاء على أعمالهم فسألوه ذلك الوعد فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤] وهو معنى قول ابن عباس وقيل: إن الملائكة تسأل لهم الجنة دليله قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ [غافر: ٨] الآية وهذا قول محمد بن كعب القرظي وقيل معنى ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾ أي واجبًا وإن لم يكن يسأل كالدين حكي عن العرب: لأعطينك ألفًا وقيل: ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾ يعني أنه واجب لك فتسأله وقال زيد بن أسلم: سألوا الله الجنة في الدنيا ورغبوا إليه بالدعاء فأجابهم في الآخرة إلى ما سألوا وأعطاهم ما طلبوا وهذا يرجع إلى القوم الأول.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة والملابس الفاخرة والنساء الجميلات والقصور العاليات والجنات والحدائق المرجحنة والفواكه التي تسر ناظريها وآكليها، من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها والأنهار التي تجري في رياض الجنة

وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارًا من ماء غير آسن وأنهارًا من لبن لم يتغير طعمه وأنهارًا من خمر لذة للشاربين وأنهارًا من عسل مصفى وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم وسماع كلامه، والحظوة بقربه والسعادة برضاه والأمن من سخطه واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات وتعاقب الآنات ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟

لقد وضح الحق واستنار السبيل فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أضواء البيان):

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ فيه وجهان معروفان.

أحدهما: أن معنى كونه ﴿مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ أن المؤمنين كانوا يسألونه، وكانت الملائكة أيضًا تسأله لهم، أما سؤال المسلمين له فقد ذكره تعالى: بقوله عنهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

وسؤال الملائكة لهم إياه ذكره تعالى أيضًا في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾ الآية، وقال بعض العلماء: ﴿مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ أي: واجبًا لأن ما وعد الله به فهو واجب الوقوع، لأنه لا يخلف الميعاد، وهو جل وعلا يوجب على نفسه بوعده الصادق ما شاء لا معقب لحكمه ويستأنس لهذا القول بلفظة (على) في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ۝١٦﴾ كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧]، وقال بعض أهل العلم: إن المسلمين يوم القيامة يقولون: قد فعلنا في دار الدنيا كل ما أمرتنا به فأنجز لنا ما وعدتنا، والقولان الأولان أقرب من هذا. والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ﴾ ولا مقارنة بين أهل النار وأهل الجنة، ولا خيرية في أهل النار أصلًا؟

ج: أجاب بعض أهل العلم بما حاصله أن هذا من باب أفعل التفضيل الذي ليس في المقابل منه شيء كقوله تعالى: ﴿ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٌ مُّسۡتَقَرًّا وَأَحۡسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول الصحابيات لعمر رضي الله عنه: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ»، ولا فظاظة ولا غلظة في رسول الله ﷺ.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ إن قيل: كيف قال ﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ ﴾ ولا خير في النار فالجواب أن سيبويه حكى عن العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة وقد علم أن السعادة أحب إليه وقيل: ليس هو من باب أفعل منك وإنما هو كقولك: عنده خير قال النحاس: وهذا قول حسن كما قال:

فشركما لخيركما الفداء

قيل: إنما قال ذلك لأن الجنة والنار قد دخلتا في باب المنازل فقال ذلك لتفاوت ما بين المنزلين وقيل: هو مردود علي قوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ الآية وقيل: هو مردود على قوله: ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأۡكُلُ مِنۡهَا ﴾ وقيل: إنما قال ذلك على معنى علمكم واعتقادكم أيها الكفار وذلك أنهم لما كانوا يعملون عمل أهل النار صاروا كأنهم يقولون إن في النار خيرًا.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ
عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن
نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ
وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ
صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى
ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان: ١٧-٢٠].

س: وضح معنى ما يلي:
﴿يَحْشُرُهُمْ - أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي - ضَلُّوا السَّبِيلَ - سُبْحَانَكَ - مِن دُونِكَ - أَوْلِيَاءَ - نَسُوا الذِّكْرَ - بُورًا - صَرْفًا - نَصْرًا - وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿يَحْشُرُهُمْ﴾	يجمعهم يوم القيامة
﴿أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾	صرفتم عبادي عن الحق إلى الباطل
﴿ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾	أخطأوا طريق الحق والصواب وحادوا عنه
﴿سُبْحَانَكَ﴾	تنزهت - تبرئة لك
﴿مِن دُونِكَ﴾	غيرك
﴿أَوْلِيَاءَ﴾	أنصار
﴿نَسُوا الذِّكْرَ﴾	تركوا العمل بالقرآن - تركوا ذكرك وطغوا وبغوا
﴿بُورًا﴾	هلكى - لا خير فيهم
﴿صَرْفًا﴾	صرف العذاب وتحويله (عن أنفسهم وعن غيرهم)
﴿نَصْرًا﴾	نصر أنفسهم
﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾	جعلنا بعضكم سببًا لانصراف بعض عن الدين والحق والصواب

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - واذكر يا رسول الله، واذكر أيها المؤمن، واذكروا جميعًا يوم يجمع الله ﷻ أهل الكفر والشرك بالله، يجمعهم وآلهتهم التي عبدوها مع الله، وكذا يجمع عباد الملائكة مع الملائكة وعباد عزيرٍ مع عزيز وعباد عيسى عليه السلام مع عيسى فيقول للمعبودين الذين عُبدوا من دون الله: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء، أأنتم صرفتم عبادي هؤلاء الذين أشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانًا، أأنتم صرفتموهم عن عبادتي وحدي لا شريك لي إلى عبادة غيري؟! أم أنهم هم الذين سلكوا طريق الغواية وابتعدوا عن سبيل الهدى والرشاد؟؟

فعندها قالت الملائكة وعُموم من عُبد من دون الله: تنزهت يا ربنا عن الشريك والمثيل والند والصاحبة والولد، تنزهت يا ربنا عن كل ما لا يليق بك، تبرئة لك يا ربنا عن كل شيء وصفك به واصف مما لا يليق بك، ما كان ينبغي لنا، وليس من شأننا ولا من حقنا ولا يليق بنا أن نتخذ وليًا غيرك يتولانا أو ناصرًا غيرك ينصرنا، أو أحدًا من عبادك يعبدنا فيا ربنا ما دعوناهم أبدًا إلى عبادتنا بل دعوناهم إلى عبادتك وحدك لا شريك لك، وذلك كما قال عيسى عليه السلام إذ سأله ربه ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ

سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ ..﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وكذا كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ثم يقول من عُبد من دون الله - بعد أن قال ما حاصله يا ربنا ما أمرناهم بعبادتنا بل بعبادتك وحدك لا شريك لك -: ولكن يا ربنا لما تفضَّلت عليهم وأنعمت عليهم وعلى آبائهم بنعمك وعظيم آلائك ما شكروك بل طغوا وبغوا لما أنعمت عليهم.

وحملهم النعيم الذي هم فيه على ترك العمل بالقرآن، وعلى ترك ذِكرك وتوحيدك إلى الشرك بك وكانوا قومًا هلكى لا خير منهم يُرجى، ولا صلاح منهم يؤمَّل.

ثم يرجع الكلام إلى هؤلاء المشركين فيقول الله لهم: فها أنتم يا أهل الشرك هؤلاء قد كُذِّبتم، وقد كذبتكم الآلهة التي عبدتموها من دوني، كذبوكم في دعواكم أنهم أضلوكم فالآن، وقد وقع القول وحق القول لا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم، ولا نصر أنفسكم فليس لكم ناصر ينصركم ولا تستطيعون نصر أنفسكم ولا صرف العذاب عنها، وها نحن في الدنيا نحذركم إنه من يشرك بالله منكم نذقه عذابًا شديدًا، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة، العابدين الأوثان، وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يقول: فيقول الله للذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء؟! يقول: أنتم أزلتموهم عن طريق الهدى، ودعوتموهم إلى الغي والضلالة حتى تاهوا وهلكوا، أم هم ضلوا السبيل، يقول: أم عبادي هم الذين ضلوا سبيل الرشد والحق وسلكوا العطب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى: تنزيهًا لك يا ربنا، وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم، أنت ولينا من دونهم، ولكن متعتهم بالمال يا ربنا في الدنيا والصحة، حتى نسوا الذكر وكانوا قومًا هلكى، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ فقرأ ذلك عامة قراء الأمصار ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بفتح النون سوى الحسن ويزيد بن القعقاع، فإنهما قرآه: ﴿**أن نُتخذ**﴾ بضم النون. فذهب الذين فتحوها إلى المعنى الذي بيناه في تأويله من أن الملائكة وعيسى، ومن عبد من دون الله من المؤمنين، هم الذين تبرءوا أن يكون كان لهم ولي غير الله تعالى ذكره. وأما الذين قرءوا ذلك بضم النون، فإنهم وجهوا معنى الكلام إلى أن المعبودين في

الدنيا إنما تبرءوا إلى الله أن يكون كان لهم أن يعبدوا من دون الله جلَّ ثناؤه، كما أخبر الله عن عيسى، أنه قال إذا قيل: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦] ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال أبو جعفر: وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب قراءة من قرأه بفتح النون، لِعِلَلٍ ثلاث، إحداهن: إجماع من القراء عليها. والثانية: أن الله جل ثناؤه ذكر نظير هذه القصة في سورة سبأ، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، فأخبر عن الملائكة أنهم إذا سئلوا عن عبادة من عبدهم تبرءوا إلى الله من ولايتهم، فقالوا لربهم: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١] فذلك يوضح عن صحة قراءة من قرأ ذلك ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ بمعنى: ما كان ينبغي لنا أن نتخذهم من دونك أولياء. والثالثة: أن العرب لا تدخل «من» هذه التي تدخل في الجحد إلا في الأسماء، ولا تدخلها في الأخبار، لا يقولون: ما رأيت أخاك من رجل، وإنما يقولون: ما رأيت من أحد، وما عندي من رجل، وقد دخلت ها هنا في الأولياء، وهي في موضع الخبر، ولو لم تكن فيها «من» كان وجهًا حسنًا. وأما البور: فمصدر واحد وجمع للبائر، يقال: أصبحت منازلهم بورًا: أي خالية لا شيء فيها، ومنه قولهم: بارت السوق وبار الطعام إذا خلا من الطلاب والمشتري، فلم يكن له طالب، فصار كالشيء الهالك.

وقد قيل: إن بور: مصدر، كالعدل والزور والقطع، لا يثنى ولا يجمع ولا

يؤنث، وإنما أريد بالبور في هذا الموضع أن أعمال هؤلاء الكفار كانت باطلة؛ لأنها لم تكن لله كما ذكرنا عن ابن عباس.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ ما يلي:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عما هو قائل للمشركين عند تبري من كانوا يعبدونه في الدنيا من دون الله منهم: قد كذبوكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم، ودعوكم إلى عبادتهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقول: كذبوكم بكذبكم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾ قال: كذبوكم بما تقولون بما جاء من عند الله جاءت به الأنبياء والمؤمنون آمنوا به، وكذب هؤلاء.

قال الطبري:

وقوله جل ثناؤه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾ يقول: فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف عذاب الله حين نزل بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من الله حين عذبها وعاقبها.

وأورد بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ﴾ قال: لا يستطيعون يصرفون عنهم العذاب الذي نزل بهم حين كذبوا، ولا أن ينتصروا قال: وينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق: ما لكم لا تناصرون، قال: من عبد من دون الله لا ينصر اليوم من عبده، وقال العابدون من دون الله: لا ينصره اليوم إلهه الذي يعبد من دون الله، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٦]، وقرأ قول الله جلَّ ثناؤه ﴿فَإِن

كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٩].

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون- يعني بقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ ومن يشرك بالله فيظلم نفسه، فذلك نذقه عذابًا كبيرًا كالذي ذكرنا أنا نذيقه الذين كذبوا بالساعة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون الله، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾. قال مجاهد: عيسى، والعُزَير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ أي: فيقول الرب تبارك وتعالى: أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾ إلى آخر الآية؛ [المائدة:١١٦-١١٧] ولهذا قال تعالى مخبرًا عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم قالوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

قَالُوا۟ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُوا۟ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ -٤١]. وقرأ آخرون: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن تَتَّخَذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنا عبيد لك، فقراء إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أي: طال عليهم العمر حتى نَسُوا الذكر، أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك.

﴿وَكَانُوا۟ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس: أي هلكى. وقال الحسن البصري، ومالك عن الزهري: أي لا خير فيهم. وقال ابن الزبعرى حين أسلم:

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنّ لِسَاني رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

إذْ أجاري الشَّيطانَ في سَنَنِ الغيِّ، وَمَن مالَ مَيْلَه مَثْبُورُ

قال الله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذبكم الذين عَبَدْتُم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء، وأنكم اتخذتموهم قربانًا يقربونكم إليه زلفى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ -٦].

وقوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ أي: لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم، ﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ أي: يشرك بالله، ﴿نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ﴿١٩﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ أي في الدنيا بالصحة والغنى وطول العمر بعد موت الرسل صلوات الله عليهم ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي تركوا ذكرك فأشركوا

بك بطرًا وجهلًا فعبدونا من غير أن أمرناهم بذلك وفي الذكر قولان: أحدهما: القرآن المنزل على الرسل تركوا العمل به قاله ابن زيد الثاني: الشكر على الإحسان إليهم والإنعام عليهم إنهم ﴿وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٨﴾ أي: هلكى قاله ابن عباس مأخوذ من البوار وهو الهلاك.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: يقول الله تعالى عند تبري المعبودين: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: في قولكم إنهم آلهة ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ يعني الآلهة صرف العذاب عنكم ولا نصركم وقيل: فما يستطيع هؤلاء الكفار لما كذبهم المعبودون ﴿صَرۡفٗا﴾ للعذاب ﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ من الله وقال ابن زيد: المعنى فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء الكفار بما جاء به محمد وعلى هذا فمعنى ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بما تقولون من الحق وقال أبو عبيد: المعنى فما تقولون فيما يستطيعون لكم صرفًا عن الحق الذي هداكم الله إليه ولا نصرا لأنفسهم مما يزيل بهم من العذاب بتكذيبهم إياكم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ﴾ قال ابن عباس: من يشرك منكم ثم مات عليه ﴿نُذِقۡهُ﴾ أي: في الآخرة ﴿عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ أي: شديدًا كقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤﴾ [الإسراء: ٤] أي: شديدًا.

❀ ❀ ❀

النعم كثيرًا ما تُطغي بني آدم

س: المتاع الدنيوي الزائد يطغي أهله. دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦-٧].

وقوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفرقان: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ﴾ [فصلت: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله تعالى: ﴿... فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد: ١٦].

قيل في تفسيرها: فطال عليهم الأمد في النعيم والعافية فتسربت القسوة إلى قلوبهم.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – ردٌّ على المشركين الذين قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ...﴾ [الفرقان: ٧]، يُقال لهم: إن كل رسولٍ أُرسل قبل رسول الله محمد ﷺ كل المرسلين كانوا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، شأنهم شأن سائر البشر في التماس أسباب الرزق، وجعلنا بعضكم أيها البشر فتنة لبعض ينصرف كثيرون بسببهم عن الدين أتصبرون على قضاء الله وقسمته وقدره أم لا؟ وكان ربك يا رسول الله بصيرًا بما تصنعه ويصنعه قومك.

هذا، ومن صور هذه الفتنة، إذ الله قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أن أهل الكفر من الكبراء والأثرياء والوجهاء قالوا – وقد نظروا إلى أتباع النبي ﷺ فإذا هم الفقراء والضعفاء– فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

فتركوا الإيمان لكون الفقراء آمنوا، فهكذا افتتن الكبراء بالفقراء.

وكذا كان الكبراء هم الآخرون سببًا لفتنة الضعفاء، وذلك بحملهم على الكفر وتهديدهم إن هم آمنوا.

وهكذا يطرد افتتان البشر ببعضهم البعض فترى الفتاة الجميلة الحسناء فتنة للدميمة والدميمة فتنة للجميلة.

وذلك أن الدميمة تعترض على القدر قائلة: لماذا خلقني الله دميمة وخلقها جميلة؟!! فتسخط الأقدار وكذا الجميلة تزدري الدميمة وتحتقرها فتصرف عن الخير والحق بسببها.

والعالم فتنة للجاهل، والجاهل فتنة للعالم.

العالم يزدري الجاهل فيضرُّ في دينه.

والجاهل يعترض على القدر بجهله.

والقوي فتنة للضعيف والضعيف فتنة للقوي وذو المنصف فتنة للوضيع، والوضيع له فتنة، والغني فتنة للفقير، والفقير له فتنة وهكذا، يفتن كثيرون ببعضهم البعض، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾ [التغابن: ١٥]، وهكذا الزوج قد يتسبب في فتنة زوجته وهي الأخرى قد تتسبب في فتنته.

أما قوله تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فحثٌّ على الصبر وعلى الرضا بقضاء الله، وعلى التسليم له سبحانه، عدم التسخط على أقداره وقضائه، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ أي: كان ربك بصيرًا بك بأعمالك وبأحوالك، بصيرًا بالعباد كذلك وما أجابوك به، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: ﴿مَالِ

﴿هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، وجواب لهم عنه يقول لهم جلَّ ثناؤه: وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق؟! من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، وأنت لله رسول، فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، كالذي تأكل أنت وتمشي، فليس لهم عليك بما قالوا من ذلك حجة.

فإن قال قائل: فإن «من» ليست في التلاوة، فكيف قلت: معنى الكلام: إلا من إنهم ليأكلون الطعام؟ قيل: قلنا في ذلك: معناه: أن الهاء والميم في قوله: إنهم، كناية أسماء لم تذكر، ولا بد لها من أن تعود على من كني عنه بها، وإنما ترك ذكر «من» وإظهاره في الكلام اكتفاء بدلالة قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ عليه، كما اكتفي في قوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: ١٦٤] من إظهار «من»، ولا شك أن معنى ذلك: وما منا إلا من له مقام معلوم، كما قيل ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] ومعناه: وإن منكم إلا من هو واردها، فقوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ صلة لمن المتروك، كما يقال في الكلام: ما أرسلت إليك من الناس إلا من إنه ليبلغك الرسالة، فإنه ليبلغك الرسالة، صلة لمن.

وقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ يقول تعالى ذكره: وامتحنا أيها الناس بعضكم ببعض، جعلنا هذا نبيًّا وخصصناه بالرسالة، وهذا ملكًا وخصصناه بالدنيا، وهذا فقيرا وحرمناه الدنيا لنختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغني، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره. يقول فمن أجل ذلك لم أعط محمدًا الدنيا، وجعلته يطلب المعاش في الأسواق، ولأبتليكم أيها الناس، وأختبر طاعتكم ربكم وإجابتكم رسوله إلى ما دعاكم إليه،

بغير عرض من الدنيا ترجونه من محمد أن يعطيكم على اتباعكم إياه، لأني لو أعطيته الدنيا، لسارع كثير منكم إلى اتباعه طمعًا في دنياه أن ينال منها.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن عبد القدوس، عن الحسن، في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾... الآية، يقول هذا الأعمى: لو شاء الله لجعلني بصيرًا مثل فلان، ويقول هذا الفقير: لو شاء الله لجعلني غنيًا مثل فلان، ويقول هذا السقيم: لو شاء الله لجعلني صحيحًا مثل فلان.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ يقول: وربك يا محمد بصير بمن يجزع ومن يصبر على ما امتحن به من المحن.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن جميع مَنْ بعثه من الرسل المتقدمين: إنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به ﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله عَزَّ وَجَلَّ. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾ [الأنبياء: ٨].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: اختبرنا بعضكم ببعض، وبلونا بعضكم ببعض، لنعلم مَن يُطيع ممن يعصي؛ ولهذا قال: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢٠﴾ أي: بمن يستحق أن يوحى إليه، كما قال

تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به، ومن لا يستحق ذلك.

وأورد ما أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله: إني مبتليك ومبتل بك**»[(١)].

قال القرطبي رحمه الله في تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي إن الدنيا دار بلاء وامتحان فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر فالصحيح فتنة للمريض والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغني ممتحن بالفقير عليه أن يواسه ولا يسخر منه والفقير ممتحن بالغني عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه وأن يصبر كل واحد منهما على الحق كما قال الضحاك في معنى ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي: على الحق وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعاف؟ والأعمى يقول: لم لم أجعل كالبصير؟ وهكذا صاحب كل آفة والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره وكذلك العلماء وحكام العدل ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فالفتنة: أن يحسد المبتلى المعافى ويحقر المعافى المبتلى والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر وذاك عن الضجر ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ محذوف الجواب يعني أم لا تصبرون فيقضي جوابًا كما قاله المزني وقد أخرجته الفاقة فرأى خصيًّا في مراكب ومناكب فخطر بباله شيء فسمع من يقرأ الآية:

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ فقال: بلى ربنا! نصبر ونحتسب وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز في مملكته عابرًا عليه ثم أجاب نفسه بقوله: سنصبر.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ٢٠﴾ أي بكل امرئ وبمن يصبر أو يجزع ومن يؤمن ومن لا يؤمن وبمن أدى ما عليه من الحق ومن لا يؤدي وقيل: ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ أي اصبروا مثل: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩١] أي انتهوا فهو أمر النبي ﷺ بالصبر.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أضواء البيان):

وإذا علمت معنى كون بعضهم فتنة لبعض. فاعلم أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣] الآية. فيه فتنة أغنياء الكفار بفقراء المسلمين، حيث احتقروهم وازدروهم، وأنكروا أن يكون الله من عليهم دونهم لأنهم في زعمهم لفقرهم، ورثاثة حالهم، لا يمكن أن يرحمهم الله ويعطيهم من فضله الواسع كما قال تعالى عنهم إنهم قالوا فيهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: ٨] إلى غير ذلك من الآيات، وسيوبخهم الله يوم القيامة على احتقارهم لهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾ [الأعراف: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٢] وقوله تعالى: أتصبرون، أي على الحق أم لا تصبرون. والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: كيف الجمع بين ما ورد عن رسول الله ﷺ من أن شر البقاع الأسواق، وبين كونه كان يمشي في الأسواق، وكذا المرسلون عليهم السلام كانوا يمشون في الأسواق؟

ج: الظاهر - والله أعلم - أن المساجد وصفت بأنها خير البقاع لكثرة ذِكر الله عز وجل فيها فضلًا عن إقامة الصلوات فيها وتلاوة القرآن، وأن الأسواق وصفت بأنها شر البقاع لما فيها من اللغو والأيمان الكاذبة والغش وغير ذلك ولكن دخول المرسلين فيها ليس لشيء من ذلك إنما للبيع والشراء، وكذا فإن ذكر الله لا يفارقهم ولا يعتريهم الغش ولا الكذب ولا التدليس ولا الأيمان الفاسدة، بل هم أسوة حسنة بذكرهم لله وحسن معاملاتهم، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض ما ورد في الأسواق.

ج: هنالك من الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

وأورد البخاري[1] عدة أحاديث في هذا الصدد، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَقُولُونَ مَا بَالُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ لَا يُحَدِّثُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَإِنَّ إِخْوَتِي مِنْ الْمُهَاجِرِينَ كَانَ يَشْغَلُهُمْ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ وَكُنْتُ أَلْزَمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي فَأَشْهَدُ إِذَا غَابُوا وَأَحْفَظُ إِذَا نَسُوا وَكَانَ يَشْغَلُ إِخْوَتِي مِنْ الْأَنْصَارِ عَمَلُ أَمْوَالِهِمْ وَكُنْتُ امْرَأً مِسْكِينًا مِنْ مَسَاكِينِ

(١) البخاري (٢٠٤٧).

الصُّفَّةِ أَعِي حِينَ يَنْسَوْنَ».

وحديث[١]:

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ إِنِّي أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ مَالًا فَأَقْسِمُ لَكَ نِصْفَ مَالِي وَانْظُرْ أَيَّ زَوْجَتَيَّ هَوِيتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا قَالَ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ قَالَ: سُوقُ قَيْنُقَاعٍ قَالَ: فَغَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَأَتَى بِأَقِطٍ وَسَمْنٍ قَالَ: ثُمَّ تَابَعَ الْغُدُوَّ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ أَثَرُ صُفْرَةٍ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَزَوَّجْتَ؟**» قَالَ: نَعَمْ.

وحديث[٢]:

أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ فَآخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًى فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أُقَاسِمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَأُزَوِّجُكَ قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ.

وحديث[٣]:

ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ فَكَأَنَّهُمْ تَأَثَّمُوا فِيهِ فَنَزَلَتْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ.

وحديث[٤]:

---

(١) البخاري (٢٠٤٨).
(٢) البخاري (٢٠٤٩).
(٣) البخاري (٢٠٥٠).
(٤) البخاري (٢١١٨).

عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الْأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**».

وحديث[(١)]:

أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**صَلَاةُ أَحَدِكُمْ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**».

وحديث[(٢)]:

أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّوقِ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّمَا دَعَوْتُ هَذَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سَمُّوا بِاسْمِي وَلَا تَكَنَّوْا بِكُنْيَتِي**».

وحديث[(٣)]:

أَبِي هُرَيْرَةَ الدَّوْسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةِ النَّهَارِ لَا يُكَلِّمُنِي وَلَا أُكَلِّمُهُ حَتَّى أَتَى سُوقَ بَنِي قَيْنُقَاعَ.

(١) البخاري (٢١١٩).
(٢) البخاري (٢١٢٠).
(٣) البخاري (٢١٢٢).

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ
ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ
يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ
فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ
مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ
ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ
يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا
خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ
لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ
مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا
وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٢١-٣١].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - وقال الذين لا يخافون لقاء الله ﷻ ولا يتوقعون حدوث يوم القيامة، من ثَمَّ فكذبوا النبي ﷺ وأنكروا أن يكون القرآن من عند الله واستمروا في شركهم وكفرهم، قال هؤلاء: لو أنزل علينا الملائكة فيوحون إلينا كما أُوحي إليك يا محمد أو يشهدون لك بأنك رسول من عند الله فنسمع شهادتهم لك بذلك.

ويشهد للمعنيين المتقدمين قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢]، أي: أن كل كافر يريد أن يكون رسولًا وينزل عليه وحيٌ وتنزل عليه كتب، ويشهد للمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢]، أي: تأتي بالله فنراه عيانًا ويشهد لك أنك رسولٌ من عنده ﷻ، وكذا نرى الملائكة عَيانًا فيشهدون لك.

قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لقد ملأهم الكبر وجحد الحق وتجاوزا الحدَّ في الاستكبار والتعالي عن قبول الحق.

فقل لهؤلاء: إنهم يوم يرون الملائكة لن يُبشروا بخير، فالملائكة لا تنزل على أهل الشرك تبشرهم بخير إنما تبشر أهل الإيمان، أما هؤلاء فإذا جاءتهم

الملائكة فإنها تأتيهم بالعذاب والعياذ بالله، كما أتت قوم لوطٍ، وكما تأتي المحتضرين الذين يعاينون الموت بين يدي الموت كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠]، فهذا قوله لا بشرى يومئذ للمجرمين، لن يبشروا بخيرٍ عند نزول الملائكة عليهم.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٢]، فالقائلون - عند جمهور المفسرين - هم الملائكة يقولون حرامًا محرمًا أن تبشروا بخيرٍ يا أهل الإجرام عند نزول الملائكة عليكم، بل تُبشروا بما يسؤوكم.

ثم يخبر الله ﷻ بأن أعمال أهل الكفر التي عملوها في دنياهم يتبررون بها كصلة الأرحام وإكرام الضيف والإحسان إلى المساكين كل ذلك يُبطله الشرك بالله.

وكذا العبادات التي اجتهدوا فيها على طريقتهم، وهم بالله مشركون، كل ذلك ذهب باطلًا فضاع عليهم ولم ينتفعوا به وأصبح هباءً منثورًا، والمراد بالهباء المنثور ذرات الغبار التي تُرى مع شعاع الشمس إذا دخل الشعاع من فتحة من الفتحات إلى الغرفة يأتي شخص كي يمسكه بيده فلا يستطيع، وقيل: المراد بالهباء المنثور الماء المهراق.

والأول أشهر، والحاصل أن أهل الكفر لا ينتفعون بعمل عملوه في الدنيا من الأعمال التي يظنونها تقربهم إلى الله فقد أبطلها شركهم بالله ﷻ، وذهب

الشرك بثوابها.

أما قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ فحاصل معناه - والله أعلم - أن أصحاب الجنة لا يأتي عليهم وقت القيلولة يوم القيامة إلا وقد استقروا في الجنة بفضل الله، أي أن يوم القيامة - ذلك اليوم الطويل الذي هو كألف سنة مما يعد الناس لا يأتي بطوله على المؤمنين ولكن لا يمر نصفه إلا وقد استقر المؤمنين في الجنة بإذن الله وبنحو ما ذكرنا في الآيات المتقدمة قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال المشركون الذين لا يخافون لقاءنا، ولا يخشون عقابنا، هلا أنزل الله علينا ملائكة، فتخبرنا أن محمدًا محق فيما يقول، وأن ما جاءنا به صدق، أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك، كما قال جل ثناؤه مخبراً عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم قال بعد: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢] يقول الله: لقد استكبر قائلو هذه المقالة في أنفسهم، وتعظموا، ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١] يقول: وتجاوزوا في الاستكبار بقيلهم ذلك حده.

يقول تعالى ذكره: يوم يرى هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ بتصديق محمد الملائكة، فلا بشرى لهم يومئذ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ يعني أن الملائكة يقولون للمجرمين حجرًا محجورًا، حرامًا محرمًا عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله؛ ومن الحجر قول المتلمس:

حنت إلى نخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

ومنه قولهم: حجر القاضي على فلان، وحجر فلان على أهله؛ ومنه حجر الكعبة، لأنه لا يدخل إليه في الطواف، وإنما يطاف من ورائه؛ ومنه قول الآخر.

فهممت أن ألقى إليها محجرا فلمثلها يلقى إليه المحجر

أي مثلها يركب منه المحرم.

واختلف أهل التأويل في المخبر عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ ومن قائلوه؟ فقال بعضهم: قائلو ذلك الملائكة للمجرمين نحو الذي قلنا فيه.

وقال آخرون: ذلك خبر من الله عن قيل المشركين إذا عاينوا الملائكة.

وقال الطبري رحمه الله:

وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك من أجل أن الحجر هو الحرام، فمعلوم أن الملائكة هي التي تخبر أهل الكفر أن البشرى عليهم حرام. وأما الاستعاذة فإنها الاستجارة، وليست بتحريم، ومعلوم أن الكفار لا يقولون للملائكة حرام عليكم، فيوجه الكلام إلى أن ذلك خبر عن قيل المجرمين للملائكة.

في تأويل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ وعمدنا إلى ما عمل هؤلاء المجرمون ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾؛ ومنه قول الراجز:

وقدم الخوارج الضلال إلى عباد ربهم وقالوا

إن دماءكم لنا حلال

يعني بقوله: قدم: عمد.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ يقول: فجعلناه باطلًا لأنهم لم يعملوه لله وإنما عملوه للشيطان. والهباء: هو الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة يحسبه الناظر غبارًا ليس بشيء تقبض عليه الأيدي ولا تمسه، ولا يرى ذلك في الظل.

وقال آخرون: بل هو ما تسفيه الرياح من التراب، وتذروه من حطام الأشجار، ونحو ذلك.

وقال آخرون: هو الماء المهراق.

وقوله جلَّ ثناؤه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ يقول تعالى ذكره: أهل الجنة يوم القيامة خير مستقرًّا، وهو الموضع الذي يستقرون فيه من منازلهم في الجنة من مستقر هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم، وما أوتوا من عرض هذه الدنيا في الدنيا، وأحسن منهم فيها مقيلًا.

فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة، فيقال: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ فيها؟ قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قرارًا في أوقات قائلتهم في الدنيا، وذلك أنه ذكر أن أهل الجنة لا يمر فيهم في الآخرة إلا قدر ميقات النهار من أوله إلى وقت القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

وإنما قلنا: معنى ذلك: خير مستقرًّا في الجنة منهم في الدنيا، لأن الله تعالى ذكره عم بقوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ جميع أحوال الجنة في الآخرة أنها خير في الاستقرار فيها، والقائلة من جميع أحوال أهل النار، ولم يخص بذلك أنه خير من أحوالهم في النار دون الدنيا، ولا في

الدنيا دون الآخرة، فالواجب أن يعم كما عم ربنا جلَّ ثناؤه، فيقال: أصحاب الجنة يوم القيامة خير مستقرًا في الجنة من أهل النار في الدنيا والآخرة، وأحسن منهم مقيلا وإذا كان ذلك معناه، صح فساد قول من توهم أن تفضيل أهل الجنة بقول الله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ على غير الوجه المعروف من كلام الناس بينهم في قولهم: هذا خير من هذا، وهذا أحسن من هذا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن تَعَنُّت الكفار في كفرهم، وعنادهم في قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالة كما نزل على الأنبياء، كما أخبر عنهم تعالى في الآية الأخرى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويحتمل أن يكون مرادهم هاهنا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ فنراهم عيانًا، فيخبرونا أن محمدًا رسول الله، كقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢]. وقد تقدم تفسيرها في سورة «سبحان»؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾. وقد قال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يَصْدُق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سَموم وحَميم، وظلٍّ من

يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٩٣﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١] وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب: أن الملائكة تقول لروح المؤمن: «**اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب، كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان**». وقد تقدم الحديث في سورة «إبراهيم» عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك؛ وغيرهما.

ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين.

﴿وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾ أي: وتقول الملائكة للكافرين حَرَام محرم عليكم الفلاح اليوم.

وأصل «الحجر»: المنع، ومنه يقال: حَجَر القاضي على فلان، إذا منعه التصرف إما لسفَه، أو فَلَس، أو صغر، أو نحو ذلك. ومنه سمي «الحجْر» عند البيت الحرام؛ لأنه يمنع الطُّوَّاف أن يطوفوا فيه، وإنما يطاف من ورائه. ومنه يقال للعقل «حجر»؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق.

والغرض أن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائد على الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾، وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معًا، فتكون أبعد من القبول حينئذ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾.

قال مجاهد والثوري: ﴿وَقَدِمۡنَآ﴾ أي: عمدنا.

وقال السدي: قدمنا: عمدنا. وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وأورد ابن كثير أقوالًا في تفسير الهباء المنثور منها: الغبار الذي في شعاع الشمس، ومنها الماء المهراق، ومنها الرماد، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالًا اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا

يظلم أحدًا، إذا إنها لا شيء بالكلية. وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩] وتقدم الكلام على تفسير ذلك، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحشر: ٢٠]؛ وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات، والغرفات الآمنات، فهم في مقام أمين، حسن المنظر، طيب المقام، ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٦]، وأهل النار يصيرون إلى الدركات السافلات، والحسرات المتتابعات، وأنواع العذاب والعقوبات، ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٦] أي: بئس المنزل منظرًا وبئس المقيل مقامًا؛ ولهذا قال: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: بما عملوه من الأعمال المتقبلة، نالوا ما نالوا، وصاروا إلى ما صاروا إليه، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضي لهم دخول الجنة والنجاة من النار، فنَبَّه -تعالى- بحال السعداء على حال الأشقياء، وأنه لا خير عندهم بالكلية، فقال تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

قال الضحاك: عن ابن عباس: إنما هي ضحوة، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين، ويَقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أضواء البيان):

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الذين لا يرجون لقاء الله قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾، و﴿لَوْلَآ﴾ في هذه الآية للتحضيض.

والمعنى أنهم طلبوا بحث وشدة أن تنزل عليهم الملائكة أو يرون ربهم، وهذا التعنت الذي ذكره الله عنهم هنا من طلبهم إنزال الملائكة عليهم، أو رؤيتهم ربهم ذكره في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢]، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قيل: فتوحى إلينا كما أوحت إليك، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤] وقيل: لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عيانًا، وهذا يدل له قوله تعالى: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: ٩٢] أي: معاينة على القول بذلك، وقد قدمنا الأقوال في ذلك في سورة بني إسرائيل.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ قال بعض العلماء: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ أي: لا يخافون لقاءنا لعدم إيمانهم بالبعث. والرجاء يطلق على الخوف كما يطلق على الطمع. قال بعض العلماء: ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣] قال أي: لا تخافون لله عظمة، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها   وخالفها في بيت نوب عواسل

فقوله لم يرج لسعها: أي: لم يخف لسعها، وقال بعض أهل العلم: إطلاق

الرجاء على الخوف لغة تهامة، وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يأملون، وعزاه القرطبي لابن شجرة وقال: ومنه قول الشاعر:

أترجو أمة قتلت حسينا شفاعة جده يوم الحساب

أي: أتأمل أمة إلخ. والذي لا يؤمن بالبعث لا يخاف لقاء الله، لأنه لا يصدق بالعذاب، ولا يأمل الخير من تلقائه، لأنه لا يؤمن بالثواب.

وقوله جلا وعلا: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: أضمروا التكبر عن الحق في قلوبهم، واعتقدوه عنادًا وكفرًا، ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ أي: تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان يقال: عتا علينا فلان: أي تجاوز الحد في ظلمنا، ووصفه تعالى عتوهم المذكور بالكبر، يدل على أنه بالغ في إفراطه، وأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو، وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات، ووضوح الحق وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة، أو رؤية الله استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال، والتقريع، ولذا شدد الله النكير على من تعنت ذلك التعنت واستكبر عن قبول الحق كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ﴾ الآية [النساء: ١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥]، واستدلال المعتزلة بهذه الآية، وأمثالها على أن رؤية الله مستحيلة استدلال

باطل ومذهبهم والعياذ بالله من أكبر الضلال، وأعظم الباطل، وقول الزمخشري في كلامه على هذه الآية: إن الله لا يرى قول باطل، وكلام فاسد.

والحق الذي لا شكَّ فيه: أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدوق ﷺ، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقًا ومفهومًا. كما أوضحناه في غير هذا الموضع.

ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار الذين طلبوا إنزال الملائكة عليهم، أنهم يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم، أي: لا تسرهم رؤيتهم ولا تكون لهم في ذلك الوقت بشارة بخير، ورؤيتهم للملائكة تكون عند احتضارهم، وتكون يوم القيامة ولا بشرى لهم في رؤيتهم في كلا الوقتين.

أما رؤيتهم الملائكة عند حضور الموت فقد دلت آيات من كتاب الله أنهم لا بشارة لهم فيها لما يلاقون من العذاب من الملائكة عند الموت، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]، وأما رؤيتهم الملائكة يوم القيامة فلا بشرى لهم فيها أيضًا، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام: ٨].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - واذكر يوم تتشقق السماء وينزل منها الغمام، وقد قيل إن الغمام غمام أبيض مثل الغمام الذي ظُلل على بني إسرائيل، هذا وإذا تشققت السماء ونزل منها الغمام وتتنزل معه الملائكة، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠].

فعند ذلك فلا ينازع في كون الملك لله منازع، وإن كان الملك دائمًا لله، لكن في الدنيا قد يأتي شخص ويدعي أن لنفسه شيئًا من الملك، أما يوم القيامة فلا يدعي مُدعي ولا ينازع منازع.

بل الملك كله لله، قضاء الحق وقول الحق، وكان هذا اليوم يومًا شديدًا شاقًّا على الكافرين وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿تَشَقَّقُ﴾ فقرأته عامة قراء الحجاز ﴿وَيَوْمَ تَشَّقَّقُ﴾ بتشديد الشين بمعنى: تتشقق، فأدغموا إحدى التاءين في الشين فشددوها، كما قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨].

وقرأ ذلك عامة قراء أهل الكوفة: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين والاجتزاء بإحدى التاءين من الأخرى.

والقول في ذلك عندي: أنهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب. وتأويل الكلام: ويوم تشقق السماء عن

الغمام. وقيل: إن ذلك غمام أبيض مثل الغمام الذي ظلل على بني إسرائيل، وجعلت الباء، في قوله: ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ مكان «عن» كما تقول: رميت عن القوس وبالقوس وعلى القوس، بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ يقول: ونزل الملائكة إلى الأرض تنزيلًا ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يقول: الملك الحق يومئذ خالص للرحمن دون كل من سواه، وبطلت الممالك يومئذ سوى ملكه. وقد كان في الدنيا ملوك، فبطل الملك يومئذ سوى ملك الجبار ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ يقول: وكان يوم تشقق السماء بالغمام يومًا على أهل الكفر بالله عسيرًا، يعني صعبًا شديدًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن هَول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظُلَل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر. ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

قال مجاهد: وهذا كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]، وفي الصحيح[1]: «**أن الله تعالى يطوي السموات بيمينه، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى، ثم يقول:**

---

(١) صحيح مسلم حديث (٢٧٨٨) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وليس فيه: «أنا الديان».

أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الأرض؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وقوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: شديدًا صعبًا؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٨ - ١٠]، فهذا حال الكافرين في هذا اليوم. وأما المؤمنون فكما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي: واذكر يوم تشقق السماء بالغمام وقرأه عاصم والأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وأبو عمرو: ﴿تشقق﴾ بتخفيف الشين وأصله تتشقق بتاءين فحذفوا الأولى تخفيفًا واختاره أبو عبيد الباقون (تشَّقَّقُ) بتشديد الشين على الإدغام واختاره أبو حاتم وكذلك في «ق»، ﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾ أي عن الغمام والباء وعن يتعاقبان كما تقول: رميت بالقوس وعن القوس ورمي أن السماء تتشقق عن سحاب أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم فتنشق السماء عنه وهو الذي قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من السموات ويأتي الرب جل وعز في الثمانية الذين يحملون العرش لفصل القضاء.

وقال القرطبي أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة له و﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ الخبر لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك فبطلت يومئذ

أملاك المالكين وانقطعت دعاويهم وزال كل مالك وملكه وبقي الملك الحق لله وحده ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لما ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان وهو على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة على ما تقدم في الحديث وهذه الآية دالة عليه لأنه إذا كان على الكافرين عسيرًا فهو على المؤمنين يسير يقال: عَسِرَ يَعسَر وعَسُر يَعسُر.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، من فوق السماوات فتنفطر له السماوات وتشقق وتنزل ملائكة كل سماء فيقفون صفًّا صفًّا، إما صفًّا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفًّا ثم السماء التي تليها صفًّا وهكذا.

القصد أن الملائكة -على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف خصوصًا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن فإنه يسير عليه خفيف الحمل.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يبقى لأحد من

المخلوقين ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أنه أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه «الرحمن» الذي وسعت رحمته كل شيء وعمت كل حي وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتمَّ بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب.

❀ ❀ ❀

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ سبب نزول؟

ج: أورد السيوطي في الدر المنثور من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أن أبا معيط كان يجلس مع النبي ﷺ بمكة لا يؤذيه، وكان رجلًا حليمًا، وكان بقية قريش إذا جلسوا معه آذوه، وكان لأبي معيط خليل غائب عنه بالشام فقالت قريش: صبأ أبو معيط، وقدم خليله من الشام ليلًا فقال لامرأته: ما فعل محمد مما كان عليه؟ فقالت: أشد مما كان أمرًا فقال: ما فعل خليلي أبو معيط؟ فقالت: صبأ. فبات بليلة سوء، فلما أصبح أتاه أبو معيط

فحياه، فلم يرد عليه التحية فقال: ما لك؟ لا ترد عليَّ تحيتي؟ فقال: كيف أرد عليك تحيتك وقد صبوت؟ قال: أوقد فعلتها قريش؟! قال: نعم. قال: فما يبرئ صدورهم إن أنا فعلت؟ قال: تأتيه في مجلسه، وتبصق في وجهه، وتشتمه بأخبث ما تعلمه من الشتم. ففعل، فلم يزد النبي ﷺ أن مسح وجهه من البصاق، ثم التفت إليه فقال: «**إن وجدتك خارجًا من جبال مكة أضرب عنقك صبرًا**».

فلما كان يوم بدر، وخرج أصحابه، أبى أن يخرج فقال له أصحابه: اخرج معنا قال: قد وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجًا من جبال مكة أن يضرب عنقي صبرًا فقالوا: لك جمل أحمر لا يُدْرَكَ، فلو كانت الهزيمة طرت عليه، فخرج معهم، فلما هزم الله المشركين، وحلَّ به جَمَلُهُ في جدد من الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ أسيرًا في سبعين من قريش، وقدم إليه أبو معيط فقال: تقتلني من بين هؤلاء؟ قال: «**نعم. بما بصقت في وجهي**»، فأنزل الله في أبي معيط ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾».

وله وجه آخر عند عبد الرزاق[1] في «مصنفه» بسندٍ مرسل من طريق معمر عن مقسم مولى ابن عباس، قال معمر: وحدثني الزهري ببعضه قال: إن ابن أبي مُعَيط وأُبيّ بن خلف الجمحي التقيا، فقال عقبة بن أبي مُعَيط لأُبَيّ بن خلف، وكانا خليلين من الجاهلية، وكان أُبَيّ بن خلف أتى النبي ﷺ، فعرض عليه الإسلام، فلما سمع ذلك عقبة قال: لا أرضى عنك حتى تأتي محمدًا

(١) وصحح السيوطي إسناده، وفي هذا التصحيح نظر، وقد أعله بعض أهل العلم.

فتتفُل في وجهه، وتشتمه وتُكَذِّبه، قال: فلم يُسَلِّطه الله على ذلك، فلما كان يوم بدر أُسِرَ عقبة بن أبي معيط في الأُسارى فأمر النبي ﷺ عليَّ بن أبي طالب أن يقتله، فقال: عقبة: يا محمد! مِنْ بين هؤلاء أُقتل؟

قال: «**نعم**».

قال: لِمَ؟

قال: «**بكفرك، وفجورك، وعُتُوّك على الله ورسوله**».

قال معمر: وقال مقسم: فبلغنا - والله أعلم - أنه قال: فمَن للصبية؟ قال: «**النار**»، قال: فقام إليه علي بن أبي طالب فضرب عنقه.

وأمَّا أُبَيّ بن خلف فقال: والله لأقتلنَّ محمدًا.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**بل أنا أقتله - إن شاء الله -**»، قال: فانطلق رجل ممن سمع ذلك من النبي ﷺ إلى أُبَيّ بن خلف، فقيل: إنَّه لَمَّا قيل لمحمد ﷺ ما قلت، قال: «**بل أنا أقتله - إن شاء الله -**»، فأفزعه ذلك، وقال: أَنْشُدُك بالله أسمعته يقول ذلك؟ قال: نعم، فوقعت في نفسه؛ لأنهم لم يسمعوا رسول الله ﷺ يقول قولًا إلا كان حقًّا، فلما كان يوم أُحد خرج أُبيّ بن خلف مع المشركين، فجعل يلتمس غفلة النبي ﷺ ليحمل عليه، فيحول رجل من المسلمين بينه وبين النبي ﷺ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «**خَلُّوا عنه**»، فأخذ الحربة فجزله بها - يقول: رماه بها - فيقع في ترقوته، تحت تسبغة البيضة، وفوق الدِّرع، فلم يخرج منه كبير دمٍ، واحتقن الدم في جوفه، فجعل يخور كما يخور الثور، فأقبل أصحابه، حتى احتملوه وهو يخور، وقالوا: ما هذا؟ فوالله ما بك إلا خدش، فقال: والله لو لم يصبني إلا بريقِه

لقتلني، أليس قد قال: «**أنا أقتله – إن شاء الله –**»، والله لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لقتلهم، قال: فما لبث إلا يومًا أو نحو ذلك حتى مات إلى النار فأنزل الله فيه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾(١).

❀ ❀ ❀

ندم الكافر يوم القيامة

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – واذكر يا رسول الله يوم القيامة عندما يجازى الناس بأعمالهم، اذكر يومها إذ يعض الظالم على يديه، وهي كلمة تذكر عن من وقع في أشد الندم والحسرة والأسى، يعض على يديه قائلًا: يا ليتني اتخذت مع رسول الله ﷺ في الدنيا طريقًا يوصلني إلى الجنة، يا ليتني سلكت معه الطريق الذي سلكه وسرت معه في الطريق الذي سار فيه واتبعته إلى ما دعاني إليه، يا ويلتي، يا ندمى، ويا أسفي، ليتني لم أتخذ هذا الغاوي الذي أغواني خليلًا وصديقًا، ليتني تركته وابتعدت عنه، فقد أضلني صرفني عن الحق بعد وصول الحق إليَّ، أن أهتدي، فأضلني هذا الغوي المبين، ثم تحذير من الشيطان الذي أغوى بني آدم، ومن طرائقه،

(١) ولذلك وجوه أُخر بأسانيد أُخر فيها مقالات.
انظر أبا نعيم في «دلائل النبوة» (٢/ ٦٠٦)، والطبري (٣/ ٣٨٥)، وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٨٣)، وتفسير عبد الرزاق (٢/ ٥٧) وغير ذلك.

فيقول تعالى: إن الشيطان كان للإنسان خذولًا. يخذله عن اتباع الحق ويصرفه عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم يعض الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندمًا وأسفًا على ما فرط في جنب الله، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صده عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلًا يعني طريقا إلى النجاة من عذاب الله، وقوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾﴾.

اختلف أهل التأويل في المعني بقوله: ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ وبقوله: ﴿فُلَانًا﴾ فقال بعضهم: عني بالظالم: عقبة بن أبي معيط، لأنه ارتد بعد إسلامه، طلبًا منه لرضا أبي بن خلف، وقالوا: فلان هو أُبيّ.

وقوله: ﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ يقول جل ثناؤه مخبراً عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا، من معصية ربه في طاعة خليله: لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند الله، فصدني عنه، يقول الله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾ يقول: مسلمًا لما ينزل به من البلاء غير منقذه ولا منجيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحق المبين، الذي لا مرْية فيه، وسلك طريقًا أخرى غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة نَدمَ حيثُ لا ينفعه النَدَمُ، وعضّ على يديه حسرةً

وأسفًا.

وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب:٦٦ -٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويعض على يديه قائلًا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني: مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما.

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ أي: بعد بلوغه إلي، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: يخذله عن الحق، ويصرفه عنه، ويستعمله في الباطل، ويدعوه إليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي يقول هذا النادم: لقد أضلني من اتخذته في الدنيا خليلًا عن القرآن والإيمان به وقيل: ﴿عَنِ الذِّكْرِ﴾ أي: عن الرسول ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ قيل: هذا من قول الله لا من قول الظالم وتمام الكلام على هذا عند قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ والخذل: الترك من الإعانة ومنه خذلان إبليس للمشركين لما ظهر لهم في صورة سراقة بن مالك فلما رأى الملائكة تبرأ منهم وكل من صد عن سبيل الله وأطيع في معصية الله فهو شيطان للإنسان خذولًا عند نزول العذاب والبلاء.

❁ ❁ ❁

بعض الآثار السيئة لمجالسة الشريرين

س: اذكر بعض الآثار السيئة لمجالسة أهل الشر والفساد.

ج: لجلساء السوء خطرٌ عظيم فقد يصرفون الشخص عن دينه بالكلية ومن ثم يتردى في جهنم خالدًا فيها أبدًا والعياذ بالله، وقد يوقعونه في البدعة والكبيرة والمعصية، إلى غير ذلك من الشرور والآثام.

قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [فصلت: ٢٥].

وها هو رجل كان حليمًا[(١)] وتسبب صاحبه وخليله في إضلاله وإغوائه وفيه نزل: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وهذه مجالس نحس مستمر

تلك المجالس التي يقعد أهلها بكل صراطٍ يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجًا.

تلك المجالس التي شُغِل أهلها بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله فأصبحوا من الخاسرين.

مجالس اتبع أهلها من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا.

---

(١) وانظر ما تقدم من أسباب النزول.

مجالس أهل الظلم وأهل الكفر، تلك التي تئول بأهلها إلى الجحيم والعياذ بالله.

ها هم جلساء سوءٍ أردوا صاحبهم إلى الجحيم بعد أن كاد أن يُسلم، ألا وهو أبو طالب عم رسول الله ﷺ الذي كان ينافح عن الرسول ويدافع، فقد ذكر العلماء من أبياته التي كان ينافح بها عن رسول الله ﷺ هذه الأبيات(١):

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في نعمة وفواضل
كذبتم وبيت الله يبزى محمدٌ ... ولما نقاتل دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

وذكروا منها أيضًا قوله:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد في التراب(٢) دفينا

وذكروا أيضًا مقولته:

ودعوتني وعلمت أنك صادقٌ ... ولقد صدقت وكنت قبل أمينا(٣)

فانظر إلى الضرر العظيم الذي ألحقه رفيق السوء أبو جهل بأبي طالب في «الصحيحين»(٤) طريق سعيد بن المسيب عن أبيه قال:

لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهلٍ،

(١) البداية والنهاية (٦/ ٩٣).
(٢) فتح الباري (٧/ ١٩٤).
(٣) فتح الباري (٧/ ١٩٦).
(٤) البخاري (حديث ٣٨٨٤)، ومسلم (حديث ٢٤).

وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة.

فقال رسول الله ﷺ: «**يا عم؛ قل: لا إله إلا الله. كلمةٌ أشهد لك بها عند الله**».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب؛ أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب. وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «**أما والله؛ لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك**» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]. وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

وهرقل كاد أن يُسلم، وتمنى أن يكون عند رسول الله ﷺ يغسل التراب عن رجليه، ولكن قرناء السوء وخِلّان الشر والفساد تسببوا في ضلاله لما آثر رغبتهم على ما عند الله ﷻ، فقد سأل هرقل أبا سفيان جملة من الأسئلة عن رسول الله ﷺ وعلم من أجوبتها ما يقطع بصحة نبوة رسول الله ﷺ، ومع ذلك ضل لما آثر مُلكه وآثر مجالسة حاشيته وبطانته وأن يبقى ملكًا عليهم ويرضون عنه، فكفر بذلك وخُذِل.

في «الصحيح»[(١)] من حديث أبي سفيان بن حرب أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش.. فذكر الحديث وفيه أن هرقل قال له بعد جملةٍ من الأسئلة التي وجهها إليه وأجابه عليها أنه قال للترجمان:

---

(١) البخاري (حديث ٧)، ومسلم ببعضه (حديث ١٧٧٣).

قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يَتَأَسَّى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا، فقد أعرفه أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت: أنهم يزيدون،، كذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحدٌ سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارجٌ لم أكن أظنُّ أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه.

فذكر الحديث وفيه:

فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد

غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي. وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل.

وها هو جليس سوء كاد أن يُردي جليسه، ولكن الله سلَّم قال تعالى في شأن أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٠-٥٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرها:

لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم بالمآكل والمشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث، عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ في الدنيا، ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به. و﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا، فصرنا ترابًا وعظامًا، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني. مازلت أنا مؤمنًا مصدقًا، وهو ما زال مكذبًا منكرًا للبعث، حتى متنا، ثم بُعثنا.

فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسرورًا بما نحن فيه، ويكون ذلك رَأي عين؟

والظاهر من حال أهل الجنة وسرور بعضهم ببعض وموافقة بعضهم على قرينه بعضًا أنهم أجابوه لما قال وذهبوا تبعًا لهم للطلاع على قرينه.

﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ﴾ أي: رأى قرينه ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

﴿قَالَ﴾ له لائمًا على حاله، وشاكرًا للّه على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت عليَّ من الشُّبَه بزعمك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ في العذاب معك.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات: ٥٨-٥٩].

أي: يقوله المؤمن، مبتهجًا بنعمة اللّه على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها والسلامة من العذاب؛ استفهام بمعنى الإثبات والتقرير.

وجلساء السوء يزينون لك الباطل ويحببونك فيه:

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

وجلساء السوء يصرفونك عن الخير ويزهدونك فيه قال تعالى: ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: ٤٧].

وكذا فإنهم يشككونك فيما أنت عليه من الحق:

قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

وهم - أعني جلساء السوء - أتباع للشيطان، والشيطان قد قعد لابن آدم عند طرق الخير يصرفه عنها ويصده عنها:

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تُسلمْ وتذر دينكَ ودينَ آبائك وآباء أبيك؟! فعصاه، فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك؟! وإنما مثلُ المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه، فهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتُقاتل فتقتل فتنكحُ المرأة ويقسم المال؟! فعصاه، فجاهد»، فقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك كان حقًّا على الله ﷻ أن يدخله الجنة ومن قُتل كان حقًّا على الله ﷻ أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًّا على الله أن يدخل الجنة»[(١)].

وقد قال الشيطان لربه: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

(١) النسائي (٦/ ٢١-٢٢)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٨٣) وإسناده حسنٌ، وأشار بعض العلماء إلى اختلاف وقع في إسناده، انظر «الإصابة» ترجمة سبرة.

فما من سبيل من سبل الخير إلا وعليه شيطان يصرف الناس عنه ويصد الناس عنه، شيطان إنس كان أو شيطان جن، ومن ثمَّ قال نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ [الأعراف: ٨٦].

فإذا أقبل الشخص على الاستقامة وجد هناك من جلساء السوء من يُرَهِّبه منها ويثقِّلها عليه.

وإذا أقبل على الصدقة وجد هناك من يُزهده فيها ويبخله عن إخراجها.

وإذا أقبل على الحج يجد من يثبطه ويُسَوِف له، وهكذا جلساء السوء على الدوام أتباع للشياطين يصدون الناس عن الخير.

واحذر فإن من جلساء السوء:

دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها:

أخرج البخاري ومسلم[(١)] من حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير. وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله؛ إنا كنا في جاهلية وشر. فجاءنا الله بهذا الخير. فهل بعد هذا الخير شرٌّ؟ قال: «**نعم**»، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم. وفيه دخنٌ**»[(٢)]، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قومٌ يستنونَ بغيرِ سنتي. ويهدونَ بِغَيرِ هدْيي. تعرفُ منهمْ وتنكرُ**». فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم**

---

(١) البخاري (حديث ٣٦٠٦)، ومسلم (حديث ١٨٤٧)، واللفظ له.

(٢) الدخن: لون يميل إلى السواد، والمراد أن القلوب لا تصفو لبعضها ولا يزول خبثها كذا نقل عن النووي رحمه الله بمعناه.

دعاةٌ على أبواب جهنم[١] **من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، فقلت: يا رسول الله؛ صفهم لنا. قال: «**نعم، قومٌ من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: يا رسول الله؛ فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزمُ جماعةَ المسلمين وإمامهم**»، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلَّها. ولو أن تعضَّ على أصل شجرةٍ، حتى يدركك الموتُ وأنتَ على ذلك**».

وجلساء السوء يُخذِّلون أصحابهم في أشد المواطن التي يُحتاج فيها إلى ناصرٍ ومعين:

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وها هو عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين ينسحب ويتخلى عن رسول الله ﷺ ومعه ما يقارب ثلث الجيش:

أخرج البخاري ومسلم[٢] من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه لما خرج النبي ﷺ إلى غزوة أحد، رجع ناسٌ ممن خرج معه. وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقةٌ تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم. فنزلت ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء: ٨٨]، وقال: «**إنها طيبةٌ تنفي الذنوب، كما تنفي النارُ خبثَ الفضة**».

(١) يدخل فيها الأمراء الذين يدعون إلى البدع والضلالات، ويدخل فيها علماء السوء الذين يدعون إلى ذلك أيضًا.

(٢) البخاري (حديث ٤٠٥٠)، ومسلم (٢٧٧٦).

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – في «فتح الباري» في شرحه لهذا الحديث:

قوله: (رجع ناس ممن خرج معه) يعني عبد الله بن أبيّ وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحًا في رواية موسى بن عقبة في المغازي وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الإقامة بالمدينة، فلما أشار غيره بالخروج وأجابهم النبي ﷺ فخرج قال عبد الله بن أبي لأصحابه: أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا؟ فرجع بثلث الناس. قال ابن إسحاق في روايته: فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام وهو والد جابر وكان خزرجيًّا كعبد الله بن أُبي فناشدهم أن يرجعوا فأبوا فقال: أبعدكم الله.

وجلساء السوء يغررون بجلسائهم، ويمنونهم أماني كاذبة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣].

وأهل الغواية والزيغ والضلال يحبون لجلسائهم الغواية والزيغ والضلال كذلك حتى يكونوا أمثالهم:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص: ٦٣]

وقال سبحانه: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء: ٢٧]

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: ١١٨]، أي أحبوا نزول العنت بكم، ورغبوا في حلول المشقة بكم.

وقال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

[النساء: ٨٩]

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ﴾.

[البقرة: ٢١٧]

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: ١٢٠].

فمن ثمَّ فالزاني يحب أن يزني الناس كلهم.

وكذا السارق المحدود (الذي أقيم عليه الحد) يحب أن يسرق الناس كلهم.

وأيضًا فشربة الخمر (في الغالب) يحبون أن يشرب الناس كلهم وذلك حتى لا يمتازوا عليهم

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في كتاب «الاستقامة» بعد أن ذكر أمورًا:

وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين، فإنهم يحتاجون إلى شيئين: إلى دفع الفتنة التي ابتُلي بها نظراؤهم – من فتنة الدين والدنيا – عن نفوسهم مع قيام المقتضى لها، فإن معهم نفوسًا وشياطين، كما مع غيرهم.

فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضى عندهم كما هو الواقع، فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه، ودواعي الخير كذلك، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير.

فكم من الناس لم يرد خيرًا ولا شرًّا حتى رأى غيره – لا سيما إن كان نظيره – يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض.

ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له مثل من تبعه من الأجر والوزر. كما قال النبي ﷺ: «**من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن يُنقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ سنةً سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ**»[(١)].

وذلك لاشتراكهم في الحقيقة، وأن حكم الشيء حكم نظيره، وشبيه الشيء منجذب إليه.

فإذا كان هذان داعيين قويين، فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران؟!

وذلك أن كثيرًا من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه، ويبغضون من لا يوافقهم. وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة: من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم. وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيرًا ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم في أمورهم وشهواتهم إما للمعاونة على ذلك، كما في المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق ونحو ذلك، وإما لتلذذهم بالموافقة، كما في المجتمعين على شرب خمر مثلًا، فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم، إما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير: إما حسدًا له على ذلك، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ويُحمد دونهم، وإما لئلا يكون له

---

(١) أخرج مسلم (حديث ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله قال: جاء ناسٌ من الأعراب إلى رسول الله ﷺ، عليهم الصوف. فرأى سوء حالهم قد أصابتهم حاجةٌ. فحث الناس على الصدقة، فأبطؤوا عنه حتى رؤي ذلك في وجهه.

قال: ثم إن رجلًا من الأنصار جاء بصرة من ورق، ثم جاء آخر، ثم تتابعوا حتى عرف السرور في وجهه. فقال رسول الله ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها. ولا ينقص ذلك من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده كُتب عليه وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيءٌ**».

عليهم حجة، وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه، أو بمن يرفع ذلك إليهم، ولئلا يكونوا تحت منته وحظره، ونحو ذلك من الأسباب.

قال الله تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «ودت الزانية لو زنى النساء كلهن».

والمشاركة قد يختارونها في نفس الفجور، كالاشتراك في شرب الخمر والكذب والاعتقاد الفاسد، وقد يختارونها في النوع الثاني: كالزاني الذي يود أن غيره يزني، أو السارق الذي يود أن غيره يسرق لكن في غير العين التي زنى بها أو سرقها.

وأما الداعي الثاني فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر؛ فإن شاركهم وإلا عادوه وآذوه على وجه قد ينتهي إلى حد الإكراه أو لا ينتهي إلى حد الإكراه.

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه، متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفوا به، وجعلوا ذلك حجة عليه في أمور أخرى، وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه. وهذه حال غالب الظالمين القادرين.

وهذا الموجود في المنكر موجود نظيره في المعروف وأبلغ منه. كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فإن داعي الخير أقوى، فإن الإنسان فيه داعٍ يدعوه إلى الإيمان والعلم، والصدق والعدل وأداء الأمانة،

فإذا وجد من يعمل مثل ذلك صار له داعٍ آخر، لا سيما إذا كان نظيره، لا سيما مع المنافسة، وهذا محمود حسن.

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين، ومن يبغضه إذ لم يفعل ذلك، صار له داعٍ ثالث.

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك، وعادوه وعاقبوه على تركه، صار له داعٍ رابع.

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات، كما يقابل الطبيب المرض بضده، فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه، وذلك بشيئين: بفعل الحسنات، وبترك السيئات، مع وجود ما ينفي الحسنات، ويقتضي السيئات. وهذه أربعة أنواع.

ويؤمر أيضًا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

ومن صاحب أهل الشر والفساد ناله كِفلٌ من عقوبتهم

فها هم قومٌ من أهل الإسلام بمكة خرجوا يُكثِّرون سواد المشركين على المسلمين يوم بدر فكان المسلمون الذي هم مع رسول الله ﷺ يرمي أحدهم بسهمه فيصيب أخاه الذي هو في صفوف أهل الشرك فيحزن المسلمون لذلك ويقولون قَتَلْنَا إخواننا فينزل قرآن يُرفع به الحرج عن المسلمين الذين هم مع رسول الله ﷺ ويتوعد به هؤلاء الذين خرجوا مع أهل الشرك.

أخرج البخاري[1] من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يُكثِّرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ يأتي السهم يُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يُضرب فيُقتل فأنزل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾[2] [النساء: ٩٧].

وفي «الصحيح»[3] من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يغزو جيشُ الكعبةَ فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم**»، قالت: قلتُ يا رسول الله: كيف يُخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: «**يُخسف بأولهم وآخرهم ثمَّ يبعثون على نياتهم**».

وفي «الصحيحين»[4] من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أنزل الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على أعمالهم**»[5].

---

(١) البخاري (حديث ٤٥٩٦).

(٢) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: واستنبط سعيد بن جبير من هذه الآية وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية.

(٣) البخاري (حديث ٢١١٨).

(٤) البخاري (حديث ٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩).

(٥) قال الحافظ في «الفتح» (٤/ ٢٤١): (قال المهلب في هذا الحديث: أن من كثَّر سواد قوم في المعصية مختارًا أن العقوبة تلزمه معهم. قال: واستنبط منه مالك عقوبة من يجالس شربة الخمر وإن لم يشرب، وتعقبه ابن المنير بأن العقوبة التي في الحديث هي الهجمة السماوية. فلا يقاس عليها العقوبات الشرعية، ويؤيده آخر الحديث حيث قال: «**ويبعثون على نياتهم**»، وفي هذا الحديث: أن الأعمال تعتبر بنية العامل، والتحذير من مصاحبة أهل الظلم ومجالستهم وتكثير سوادهم إلا لمن اضطر إلى ذلك، ويتردد النظر في مصاحبة التاجر لأهل الفتنة هل هي إعانة لهم على ظلمهم أو هي ضرورة من البشرية؟ ثم يعتبر عمل كل أحد بنيته، وعلى الثاني يدل ظاهر الحديث.

وقال ابن التين: (يحتمل أن يكون هذا الجيش الذي يخسف بهم هم الذين يهدمون الكعبة فينتقم

وأخرج مسلم[١] من حديث عائشة رضي الله عنها قال: عبث[٢] رسول الله ﷺ في منامه، فقلنا: يا رسول الله، صنعت شيئًا في منامك لم تكن تفعله؟! فقال: «**العجبُ، إنَّ ناسًا من أمتي يؤمُّون بالبيت برجلٍ من قريشٍ قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم**»، فقلنا: يا رسول الله؛ إن الطريق قد يجمع الناس؟ قال: «**نعم، فيهم المستبصر[٣] والمجبور[٤] وابن السبيل[٥]، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتَّى، يبعثهم الله على نياتهم**».

وأخرج البخاري ومسلم[٦] من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: «**لا إله إلا الله. ويلٌ للعرب من شر قد اقترب. فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**»، وعقد سفيان بيده عشرة.

منهم فيخسف بهم، وتعقب بأن في بعض طرقه عند مسلم: «إن ناسًا من أمتي»، والذين يهدمونها من كفار الحبشة، وأيضًا فمقتضى كلامه: أنهم يخسف بهم بعد أن يهدموها ويرجعوا، وظاهر الخبر: أنه يخسف بهم قبل أن يصلوا إليها).

(١) مسلم (حديث ٢٨٨٤).

(٢) عبث: أي اضطرب بجسمه أو حرك أطرافه وهو نائم.

(٣) «المستبصر»: هو المستبين لذلك القاصد للمقاتلة.

(٤) «المجبور»: هو المكره.

(٥) «ابن السبيل»: المراد به هنا: سالك الطريق معهم وليس منهم.

قال النووي - رحمه الله -: (وفي هذا الحديث من الفقه: التباعد من أهل الظلم، والتحذير من = = مجالستهم، ومجالسة البغاة ونحوهم من المبطلين لئلا يناله ما يعاقبون به.

وفيه: أن من كثر سواد قوم جرى عليه حكمهم في ظاهر عقوبات الدنيا).

قال النووي: (وبيداء المدينة): الشرف الذي قُدَّام ذي الحليفة، أي: إلى جهة مكة.

قلت: وقد تقدم أن البيداء هي كل أرض ملساء.

(٦) البخاري (حديث ٧٠٥٩)، ومسلم (حديث ٢٨٨٠)، ونقل النووي عن الجمهور تفسير (الخبث) في الحديث بالفسق والفجور.

قلت: يا رسول الله؛ أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**».

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا أراد الله بقومٍ عذابًا، أصاب العذابُ من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم**»[1].

ثم إنا إذا نظرنا في أحوال أهل الشر عمومًا، ومن ابتلي منهم بسجنٍ مُوحشٍ مُظلم، ومن ارتكب جريمة أو اقترف إثمًا أو عق والدًا أو والدةً نجد من أعظم أسباب ما وقعوا فيه صديقًا شريرًا مُفسدًا، وقرينًا من قرناء الشر والسوء.

ومن جالس أهل الريب والشر والفساد استجلب طعن الناس فيه وأثار الشكوك حول نفسه:

أخرج البخاري ومسلم[2] من حديث عتبان بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من أصحاب النبي ﷺ، ممن شهد بدرًا، من الأنصار - أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إني قد أنكرت بصري. وأنا أصلي لقومي. وإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم. ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي لهم، وددت أنك يا رسول الله تأتي فتصلي في مصلى فأتخذه مصلى. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**سأفعل إن شاء الله**».

قال عتبان: فغدا رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق حين ارتفع النهار. فاستأذن رسول الله ﷺ. فأذنت له. فلم يجلس حتى دخل البيت. ثم قال: «**أين تحب أن أصلِّي من بيتك؟**» قال: فأشرت إلى ناحية من البيت. فقام رسول الله

---

(١) مسلم (حديث ٢٨٧٩).

(٢) البخاري (حديث ١١٨٦)، ومسلم (حديث ٣٣).

ﷺ فكبر. فقمنا وراءه فصلى ركعتين ثم سلم. قال وحبسناه على خزيرٍ[(١)] صنعناه له قال: فثاب رجالٌ من أهل الدار[(٢)] حولنا. حتى اجتمع في البيت رجالٌ ذوو عددٍ. فقال قائلٌ منهم: أين مالك بن الدُّخْشُن؟ فقال بعضهم: ذلك منافقٌ لا يحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقل له ذلك ألا تراه قد قال: لا إله إلا الله يريدُ بذلك وجه الله**»، قال: قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإنما نرى وجهه ونصيحته للمنافقين. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**».

وقد سنَّ لنا أن ندفع الشبه والشكوك عن أنفسنا، ومن جالس أهل الشر والفساد لم يدفع الشبهة عن نفسه:

* أخرج البخاري ومسلم[(٣)] من حديث صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفًا. فأتيته أزوره ليلًا. فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد. فمر رجلان من الأنصار. فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا. فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شرًّا**» أو قال: «**شيئًا**».

* وعند مسلم[(٤)] من حديث أنس؛ أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه فمر به رجلٌ فدعاه. فجاء. فقال: «**يا فلان! هذه زوجتي فلانة**»، فقال: يا رسول الله!

---

(١) الخزير: لحم يقطع قطعًا صغيرة ثم يصب عليه ماء كثير فإذا نضج ذُرَّ عليه دقيق.
(٢) ثاب: أي اجتمع.
(٣) البخاري (حديث ٣٢٨١)، ومسلم (حديث ٢١٧٥).
(٤) مسلم (حديث ٢١٧٤).

من كنت أظن به، فلم أكن أظن بك. فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم**».

ومجالسة الأشرار تحمل على المنافسة في الشر.

وجليس السوء يقابلك بوجه، ومن خلفك بوجه آخر، يثني عليك في وجهك، ويطعن فيك من خلفك:

وفيه قول رسول الله ﷺ: «**تجدون من شرِّ الناس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**» أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

* **وقد قال تعالى:** ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]

* **وقال سبحانه:** ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

وصديق السوء يخلفك في أهلك بشرٍّ وسوء.

ومجالسة الشريرين تحمل على التشبه بهم وتقليدهم في هديهم وعملهم:

ومن ثمَّ تقود هذه المشابهة إلى موافقة أخلاقهم وموافقتهم في معتقدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم»:

إن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال. وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة –

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٩٣)، ومسلم (٢٥٢٦).

مثلًا – يجد من نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيًا لذلك، إلا أن يمنعه مانع.

وقال شيخ الإسلام أيضًا(١):

وذلك أن الله تعالى جبل بني آدم – بل سائر المخلوقات، على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط.

ولما كان بين الإنسان وبين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص، كان التفاعل فيه أشد، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط فلا بد من نوع تفاعل بقدره، ثم بينه وبين النبات مشاركة الجنس البعيد مثلًا، فلا بد من نوع ما من المفاعلة.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمعاشرة والمشاكلة. وكذلك: الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب بعض أخلاقه، ولهذا صار الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمَّالون والبغَّالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلَّابون، وصار الحيوان الإنسي، فيه بعض أخلاق الناس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة.

فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة، توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» ص٤٨٧ فما بعدها.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين. هم أقل كفرًا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى، هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام. والمشاركة في الهدي الظاهر توجب أيضًا مناسبة وائتلافًا.

وإن بَعُد المكان والزمان فهذا أيضًا أمر محسوس؛ فمشابهتهم في أعيادهم - ولو بالقليل - وهو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، وما كان مظنة لفساد خفي غير منضبط علق الحكم به، وأدير التحريم عليه، فنقول: مشابهتهم في الظاهر سبب ومظنة لمشابهتهم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة. بل في نفس الاعتقادات وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله، لو تفطن له، وكل ما كان سببًا إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه، كما دلت عليه الأصول المقررة.

وقال شيخ الإسلام أيضًا:

إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة، وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد، ثم اجتمعا في دار غربة، كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين، أو كانا متهاجرين.

وذاك لأن الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة، بل لو اجتمع رجلان في سفر، أو بلد غريب، وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو

الثياب، أو الشعر، أو المركوب ونحو ذلك - لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما. وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا، ما لا يألفون غيرهم، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة: إما على الملك وإما على الدين.

وتجد الملوك ونحوهم من الرؤساء - وإن تباعدت ديارهم وممالكهم - بينهم مناسبة تورث مشابهة ورعاية من بعضهم لبعض. وهذا كله موجب الطباع ومقتضاه. إلا أن يمنع من ذلك دين أو غرض خاص.

وبمجالسة السيئين والأشرار تستقل أعمالك السيئة وتتجرأ على المعاصي والكبائر:

فإذا تناول شخص سيجارةً فإنه قد يحزن ويتألم لكونه وسط قوم من أهل الصلاح لا يقتربون من تلك السجائر، بل ويتأذون برائحتها، أما إذا جالس قومًا يشربون الخمر فإنه يستقل تناول السجائر بالنسبة لصنيعهم.

* وكذا إذا قبَّل رجلٌ امرأة لا تحل له فإنه يندم ويستغفر، أما إذا جالس قومًا من الزناة واستمع إلى قصصهم وما يفعلون فإنه يستقل ما صنع بالنسبة لصنيعهم.

* ولذلك ففي «الصحيح»[(١)] عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات».

ولذا فإن من سلبيات السفر إلى بلاد الكفار أن الذاهب إليها إذا رجع إلى

---

(١) البخاري (حديث ٦٤٩٤).

بلده ووجد منكرات في بلدته المسلمة فإنه يستقل ما يحدث في بلاده من منكرات بالنسبة إلى ما رآه من منكر في بلاد الكفر ومن ثَمَّ يقل عنده وازع الإنكار ويضعف فيه وازع التغيير والإصلاح.

وجليس السوء يُذكرك بالمعاصي، وبواطن السوء:

ويُعرفك بالأشرار المفسدين ويضيع أوقاتك في الباطل ويشغلك عن ذكر الله وعن الصلاة.

وجليس السوء يحسدك على ما آتاك الله من الفضل ويتمنى زوال نعم الله عنك، بل ويسعى لذلك.

ومن أحب أهل الكفر والفسوق والعصيان حُشر معهم:

فكما قدمنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المرء مع من أحب**»[(١)].

والمجادلة عن جلساء السوء ذنبٌ يستغفر منه:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾﴾ [النساء: ١٠٥-١٠٩].

وقد ورد لهذه الآيات أسباب نزول ضعيفة الأسانيد نذكر منها فقط:

* ما أخرجه الطبري[(٢)] من طريق قتادة بن النعمان قال: كان أهل بيت منا

---

(١) صحيح، وسيأتي تخريجه إن شاء الله.

(٢) الطبري (١٠٤١٦) وفي سنده محمد بن إسحاق مدلسٌ وقد عنعن، وفيه أيضًا عمر بن قتادة قال

يقال لهم بنو أبيرق: بشر، وبَشِير، ومُبَشِّر، وكان بشير رجلًا منافقًا، وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله إلى بعض العرب، ثم يقول: «قال فلان كذا»، و«قال فلان كذا»، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا الخبيث! فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة أضموا وقالوا: ابن الأبيرق قالها؟!

قال: وكانوا أهل بيت فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار، فقدمت ضافطة من الشأم بالدرمك، ابتاع الرجل منها فخصَّ به نفسه، فأما العيال، فإنما طعامهم التمر والشعير. فقدمت ضافطة من الشأم، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك، فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يصلحهما. فعُدِي عليه من تحت الليل، فنقبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح، أتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، تعلم أنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، فذهب بسلاحنا وطعامنا! قال: فتحسَّسنا في الدار، وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نرى فيما نراه إلا على بعض طعامكم.

قال: وقد كان بنو أبيرق قالوا ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل! رجلًا منا له صلاح وإسلام.

فلما سمع بذلك لبيد، اخترط سيفه ثم أتى بني أبيرق فقال: والله ليخالطنكم هذا السيف، أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إليك عنَّا أيها الرجل

الحافظ فيه: مقبول.

فوالله ما أنت بصاحبها! فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له!

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقلت: يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهل جفاءٍ، عَمَدُوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله ﷺ: «**أَنْظُرُ في ذلك**».

فلما سمع بذلك بنو أبيرق، أتوا رجلًا منهم يقال له: «أسير بن عروة»، فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بيِّنةٍ ولا ثَبَتٍ.

قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته، فقال: «**أعمدت إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟!**» قال: فرجعت ولودِدْتُ أنِّي خرجت من بعض مالي ولم أكلِّم رسول الله ﷺ في ذلك. فأتيت عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان.

فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾ يعني: بني أبيرق ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ﴾ أي: مما قلت لقتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أي: بني أبيرق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١١٠﴾ أي: إنهم إن يستغفروا الله يغفر

لهــم ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ ﴾ قولهم للبيد ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ يعني: أسيرًا وأصحابه ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ إلــى قوله: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٠٥-١١٤].

فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلاح فردَّه إلى رفاعة.

قال قتادة: فلما أتيتُ عمي بالسلاح، وكان شيخًا قد عسا في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولًا، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله، قال: فعرفت أن إسلامه كان صحيحًا. فلما نزل القرآن، لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة ابنة سعد بن شُهيد، فأنزل الله فيه: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٥-١١٦].

فلما نزل على سلافة، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعته على رأسها، ثم خرجت فرمت به في الإبطح، ثم قالت: أهديت إليّ شعر حسان! ما كنت تأتيني بخير!

والمُعرض عن الأصدقاء الصالحين تستهويه الشياطين وتحيط به وبمجلسه:

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٣]

أي تدفعهم إلى المعاصي دفعًا وتسوقهم إليها سوقًا.

وعداوة أهل الشر وجلساء السوء لبعضهم ثابتة يوم يقوم الأشهاد:

وقد قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

* ويقول الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

* وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

* وقال تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٤-١٠١].

وجليس السوء يتخلى عن صديقه يوم الحساب:

قال أهل الكفر: ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ومع أن الكافر يرى صديقه يوم القيامة لكن لا يملك له نصرًا، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١٠-١١].

أي مع أن الحميم يرى حميمه يوم القيامة ويبصره ويعرفه لكنه لا يسأله شيئًا إذ هو يعلم مسبقًا ما الجواب.

وأصدقاء السوء يتلاعنون في الآخرة:

قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ

رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وهذه مجالس أيضًا ينبغي أن تُتقى وتُعتزل:

مجالس الباطل والشرك والزور والبهتان:

قال تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾ [المؤمنون: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ٥٥﴾ [القصص: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقد قال تعالى في شأن عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

[الفرقان: ٧٢]

في أحد الوجوه للمفسرين: لا يحضرون مجالس الشرك.

* فتلك المجالس التي يُشرك فيها بالله ﷻ، ويُدعى فيها غيره ويُعبد فيها من سواه، ويُطلب المدد والعون والغوث من غير الله، تلك مجالس يجب اعتزالها والبعد عنها، فلا يحل لأحدٍ أن يجلس فيها إلا كمُذكِّر يذكِّر ببطلانها، ويُذَكِّر بحقوق الله - سبحانه وتعالى - ويُحذر من الشرك به وتجاوز حدوده وانتهاك حرماته.

إن النبي ﷺ أتاه رجلٌ فقال: يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة، فقال النبي ﷺ: «**هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟**» قالوا: لا، قال: «**هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟**»، قالوا: لا، قال رسول الله ﷺ: «**أوف بنذرك،**

فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم»[(١)].

وكذا فلتُتَّق مجالس البدع والخرافات والإحداث في الدين، وكذا مجالس الإثم والفسوق والعصيان:

تلك المجالس التي تُشرب فيها الخمور وتُنتهك فيها الأعراض، ويُستطال فيها على العباد فلا شك أن الجلوس في تلك المجالس لا يأتي بخير، فترى فيها ما يسوؤك وتسمع فيها ما لا يسرُّك.

وكذا فَلتتقِ مجالس المعازف والمزامير التي استحلها أقوام، ومجالس الغيبة والنميمة؛ تلك المجالس التي تؤكل فيها لحوم الميتة وتُلتهم فيها الجيف، وقد علم أهلها قول ربهم سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وكذا مواطن الفتن كالمسارح والملاهي والسينمات، وتلكم التجمعات التي تكتظ بالشر وتمتلئ بالمنكرات والموبقات، وتثمر ثمرًا خبيثًا في القلب والفؤاد، وتلوث الأسماع والأبصار.

وكذا فلتتق مجالس الجدل الذي لا فائدة فيه ولا طائل تحته:

وتلك المجالس التي يضيع أهلها أثمن وأغلى أوقاتهم سفاسف الأمور كمن يشجعون الكرة ويجادلون عن فريقٍ من الفرق ويخرجون من ذلك بصدورٍ موغَرَة، وقلوب قلقة مضطربة وعداوات لا سبب لها ولا حامل عليها إلا الطيش وخفة العقل وانهزام النفس واستزلال الشيطان.

(١) أبو داود (حديث ٣٣١٣) وسنده صحيح وله شواهد. انظر سنن أبي داود (٣٣١٤، ٣٣١٥)، وابن ماجه (٢١٣١).

ولتتقِ مجالس المترفي الفسقة، تلكم المجالس التي تورث الكبر والغرور وتحمل على الفسق والطغيان:

وتجعل الشخص دائم التطلع إلى ما في أيديهم - ومن ثم لا يقدم شكرًا لخالقه وبارئه ورازقه.

وأي شخص يصرفُ عن طاعة الله ﷻ، وكذا أي مكان يصرف عن ذلك ينبغي أن يُهجر، وأن يُتقى ويبتعد عنه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٧].

فذكَّر الله سبحانه وتعالى بالموت حتى يهون فراق موطن المعصية وجليس السوء على كل عبدٍ مسلمٍ مؤمنٍ.

وكذا فلتتقِ المجالس التي يُثار فيها كلامٌ لا فائدة فيها:

فإن النبي ﷺ قد قال: «إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال...»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام كذلك: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(٢).

وقد قال تعالى: ﴿۞ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «من صمت نجا»(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: «وهل يكبُّ الناس على وجوههم في النار إلا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٩٢)، ومسلم (٥٩٣، ١٣٤١).

(٢) البخاري (حديث ٦٤٧٥)، ومسلم (حديث ٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) حسن: أخرجه عبد بن حميد في «المنتخب» بتحقيقي (٣٤٥)، وأحمد (٣/ ١٥٨، ١٧٧).

حصائد ألسنتهم»[١].

❀ ❀ ❀

(١) صحيح لشواهده: أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وانظر شاهده عند الحاكم (٤/ ٢٨٦).

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وقال الرسول ﷺ شاكيًا إلى ربِّه ﷻ صنيع المشركين وهجرانهم القرآن، ووصفهم له بأنه سحرٌ وكهانة وشعر وأساطير الأولين، وكذلك هجرهم لهم بتركهم الإيمان به والإنصات إليه، بل واستمرارهم في التشويش عليه إذ الله قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكذا هجروه بتكذيبه وتركه، قال الرسول شاكيًا كل ذلك يا رب ﴿إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذا على وصف الهجران بالذي ذكرت، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن قول الرسول ﷺ إنما هو في الآخرة، يشهد على وقومه بأنهم هجروا القرآن، وقال آخرون - وهم الأكثر: إن ذلك في الدنيا، ولا يمنع أن يكون في الآخرة كذلك لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، أما قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، فهو تصبير للنبي ﷺ، وتسليةٌ له فإن كنت كذبت يا رسول الله، فإخوانك المرسلون كذِّبوا هم الآخرون فاصبر كما صبروا، فلكل نبي عدوٌ من المجرمين.

أما قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: صبرًا فإن الله خير ناصرٍ وكفى به هاديًا ونصيرًا، فإن هداك فلا مضل لك، والحمد لله فإنه ﷻ قد هداك، وإن نصرك فلا غالب لك والحمد لله فقد نصرك ربك ﷻ. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال الرسول يوم يعض الظالم على يديه: يا رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك اتخذوا هذا القرآن مهجورًا.

واختلف أهل التأويل في معنى اتخاذهم القرآن مهجورًا، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هجرًا، قولهم فيه السيئ من القول، وزعمهم أنه سحر، وأنه شعر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: الخبر عن المشركين أنهم هجروا القرآن وأعرضوا عنه ولم يسمعوا له.

ذكر من قال ذلك:

ابن زيد في قول الله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ لا يريدون أن يسمعوه، وإن دعوا إلى الله قالوا لا. وقرأ ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] قال: ينهون عنه، ويبعدون عنه.

قال أبو جعفر: وهذا القول أولى بتأويل ذلك، وذلك أن الله أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وذلك هجرهم إياه.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوًّا من مشركي قومه، فلم تخصص بذلك من بينهم. يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه: وكفاك يا محمد بربك هاديًا يهديك إلى الحق، ويبصرك الرشد، ونصيرًا: يقول: ناصرًا لك على أعدائك، يقول: فلا يهولنك أعداؤك من المشركين، فإني ناصرك

عليهم، فاصبر لأمري، وامض لتبليغ رسالتي إليهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ يريد محمدًا ﷺ يشكوهم إلى الله تعالى ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: قالوا فيه غير الحق من أنه سحر وشعر عن مجاهد.

والنخعي وقيل: معنى ﴿مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: متروكًا فعزاه الله تبارك وتعالى وسلاه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد عدوًّا من مشركي قومك وهو أبو جهل في قول ابن عباس فكذلك جعلنا لكل نبي عدوًّا من مشركي قومه فاصبر لأمري كما صبروا فإني هاديك وناصرك على كل من ناوأك وقد قيل: إن قول الرسول ﴿يَٰرَبِّ﴾ إنما يقوله يوم القيامة أي هجروا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن رسوله ونبيه محمد -صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين -أنه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآن ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعوه. فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضًا من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره -من شعر أو قول أو

غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره -من هجرانه، فنسأل الله الكريمَ المنانَ القادرَ على ما يشاء، أن يخلّصنا مما يُسْخطه، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطرافَ النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما حصل لك -يا محمد- في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضين؛ لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن؛ لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ
فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ
تَفۡسِيرًا ٣٣ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا
وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ
هَٰرُونَ وَزِيرٗا ٣٥ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ
تَدۡمِيرٗا ٣٦ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ
ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ
وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ٣٨ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا
٣٩ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ
يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ٤٠ وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا
هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا
لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ
سَبِيلًا ٤٢ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣
أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ
سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: ٣٢-٤٤].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ - ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ - ﴿بِمَثَلٍ﴾ - ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ - ﴿يُحْشَرُونَ﴾ - ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ - ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ - ﴿وَزِيرًا﴾ - ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ - ﴿تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ - ﴿أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ - ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ - ﴿لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ - ﴿هُزُوًا﴾ - ﴿لَيُضِلُّنَا﴾ - ﴿صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ - ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ - ﴿هَوَىٰهُ﴾ - ﴿وَكِيلًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾	لنقوي به قلبك - لنقوي به عزيمتك - لنزيدك به طمأنينة
﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾	بيَّناه تبيينًا - فسرناه تفسيرًا - أنزلناه مترسلًا شيئًا بعد شيء
﴿بِمَثَلٍ﴾	بقولٍ معارض لما تقوله بمثل يمثلون به حتى يردوا ما جئتهم
﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾	أحسن تفصيلًا وبيانًا
﴿يُحْشَرُونَ﴾	يجمعون يوم القيامة
﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾	أشد ابتعادًا عن طريق الحق والصواب
﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾	المراد به هنا التوراة
﴿وَزِيرًا﴾	معينًا - ظهيرًا
﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾	قيل: إنهم أهل قرية يقال لها الرس - وقيل: أصحاب بئر، وهي الرس

﴿تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾	دمرنا تدميرًا – أهلكنا إهلاكًا
﴿أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ﴾	مروا على القرية، والمراد قرية قوم لوط التي أهلكها الله بالحجارة وهي (سدوم)
﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾	المطر السيئ وهو الحجارة التي أرسلت عليهم (حجارة من سجيل منضود)
﴿لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا﴾	لا يخافون بعثًا من القبور – ولا يخافون الحساب يوم البعث
﴿هُزُوًا﴾	استهزاءً وسخريةً وازدراءً
﴿لَيُضِلُّنَا﴾	ليصرفنا
﴿صَبَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾	تمسكنا بها وثبتنا عليها
﴿إِلَٰهَهُۥ﴾	معبوده
﴿هَوَىٰهُ﴾	شهوته ومراده وما يهواه
﴿وَكِيلًا﴾	موكلًا به تهديه (بعد أن أضله الله) وتحفظه بعد أن أزاغه الله

❀ ❀ ❀

اعتراض الكفار على نزول القرآن مفرقا والرد عليهم

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال أهل الكفر (من أهل الشرك بمكة وكذا

اليهود وغيرهم) لولا أُنزل على محمد ﷺ القرآن جملة واحدة كما أُنزلت الألواح على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقل لهؤلاء هكذا أنزلناه مفرقًا مُنجمًا بحسب الوقائع (على مدار ثلاث وعشرين سنة) لنطمئن به قلبك، فإذا حدثت نازلة ونزل فيها قرآن يُتلى اطمأن قلبك وقلب من اتبعوك، فتردن أن الله يدافع عنكم وتعلمون ذلك وتعلمون أن الله يبين لكم وينزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة لما في قلوبكم وصدوركم وفسرناه تفسيرًا وبيَّناه تبيينًا وأنزلناه مترسلًا شيئًا بعد شيءٍ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ يقول: هلا نزل على محمد ﷺ القرآن ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء؛ لنثبت به فؤادك نزلناه.

ويعني بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ لنصحح به عزيمة قلبك ويقين نفسك، ونشجعك به.

وقوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ يقول: وشيئًا بعد شيء علمناكه حتى تحفظنه، والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقال آخرون: معنى الترتيل: التفسير والتبيين.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ قال:

فسرناه تفسيرًا، وقرأ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤].

❁ ❁ ❁

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ...﴾، وبين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ...﴾ فمفادها أنه نزل مفرقًا وهو الواقع.

ج: الجمع - والله أعلم - بأن يقال إن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر، تلك الليلة المباركة، ثم نزل شيئًا بعد شيء هذا وجهٌ، والوجه الثاني: أن يُقال إن القرآن نزل من عند الله إلى سماء الدنيا كله جملة واحدة في ليلة القدر، ثم نزل من سماء الدنيا على رسول الله ﷺ على مدار ثلاث وعشرين سنة، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم، وكلامهم فيما لا يعنيهم؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية. فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]؛ ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

قال قتادة: وبيَّناه تبيينًا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: وفسرناه تفسيرًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا

﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولا يأتيك أهل الكفر بمثل من أمثلتهم كي يطعنون به فيك وفي القرآن الذي أنزلته عليك إلا أنزلنا عليك بعد مثالهم هذا قرآنًا يُتلى فيه الحق والوضوح والسياق الأحسن والرد الأمثل على ما جاءوك به، أما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾ فحاصل معناه: أن هؤلاء الذين يعارضون القرآن ويأتون بالأمثال الباطلة هم الضُّلال حقًّا، هؤلاء الذين يعارضون القرآن ويأتون بأمثالٍ باطلةٍ لرده وتكذيبه، يُحشرون يوم القيامة إلى النار على وجوههم، وينزلون أسوأ المنازل يوم القيامة، ألا وهو نار جهنم والعياذ بالله، فقد كانوا في الدنيا أضل الخَلْق عن طريق الحق والصواب. والله أعلم.

وبنحوه قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق، بما نبطل به ما جاءوا به، وأحسن منه تفسيرًا.

وقال: وعني بقوله: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ وأحسن مما جاءوا به من المثل بيانًا وتفصيلًا.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه: هؤلاء المشركون يا محمد، القائلون لك ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ ومن كان على مثل الذي هم عليه من الكفر بالله، الذين يحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم، فيُساقون إلى جهنم شر مستقر في الدنيا

والآخرة من أهل الجنة في الجنة، وأضل منهم في الدنيا طريقًا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بحُجة وشبهة ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: ولا يقولون قولًا يعارضون به الحق، إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصحُ من مقالتهم.

قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ أي: بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: إلا نزل جبريل مِنَ الله بجوابهم.

ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحًا ومساءً، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا، ففي الملإ الأعلى أُنزل جُملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجمًا بحسب الوقائع والحوادث.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس قال: أُنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ثم قال تعالى مخبرًا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم، في أسوإ الحالات وأقبح الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾، وفي الصحيح[1]، عن أنس: أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «**إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يُمشِيَه على وجهه يوم القيامة**».

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملة واحدة، ثم سألوك لم يكن عندك ما تجيب به ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت. قال النحاس: وكان ذلك من علامات النبوة؛ لأنهم لا يسألون عن شيء إلا أجيبوا عنه وهذا لا يكون إلا من نبيٍّ فكان ذلك تثبيتًا لفؤاده وأفئدتهم ويدل على هذا ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم وعلم الله عَزَّ وَجَلَّ أن الصلاح في إنزاله متفرقًا؛ لأنهم ينبهون به مرة بعد مرة ولو نزل جملة واحدة لزال معنى التنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ فكانوا يتعبدون بالشيء إلى وقت بعينه قد علم الله عَزَّ وَجَلَّ فيه الصلاح، ثم ينزل النسخ بعد ذلك فمحال أن ينزل جملة واحدة: افعلوا كذا ولا تفعلوا. قال النحاس: والأولى أن يكون التمام ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ لأنه إذا وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صار المعنى كالتوراة والإنجيل والزبور ولم يتقدم لها ذكر قال الضحاك: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ أي: تفصيلًا والمعنى: أحسن من مثلهم تفصيلًا فحذف لعلم السامع وقيل: كان المشركون يستمدون من أهل الكتاب وكان قد غلب على أهل الكتاب التحريف والتبديل فكان ما يأتي به النبي ﷺ أحسن تفسيرًا مما عندهم لأنهم كانوا يخلطون الحق

(١) البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

بالباطل والحق المحض أحسن من حق مختلط بباطل ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقيل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ كقولهم في صفة عيسى إنه خُلِقَ من غير أب إلا جئناك بالحق أي: بما فيه نقض حُجتهم كآدم إذا خُلِقَ من غير أب وأم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، ﴿إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: أنزلنا عليك قرآنا جامعًا للحق في معانيه والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حقٌّ وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا وأحسن تفسيرًا مبين للمعاني بيانًا كاملًا.

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم، وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخَلْق فكلما حدث موجب أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه ردٌّ على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معانٍ غير ما يفهم منها، فإذًا -على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -على زعمهم- تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفًا.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ولقد آتينا موسى عليه السلام التوراة هداية لبني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الإسراء: ٢]، وأيدنا موسى عليه السلام بأخيه هارون فقد طلب موسى ذلك واستجبنا له، قال موسى عليه السلام: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٠-٣٦].

فأيدنا موسى عليه السلام بأخيه هارون وجعلناه معه معينًا يُعينه الله به على أعباء الرسالة وتكاليفها.

وأمرناهما فقلنا لهما: اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا. اذهبا إلى فرعون وقومه هؤلاء الذين كذبوا بحججنا الدالة على قدرتنا وواحدنيتنا، تلك الحُجج التي منها العصا التي تتحول إلى حية تسعى، وتلك اليد التي تخرج بيضاء للناظرين من غير سوء. فذهب موسى وهارون بآياتنا كما أمرناهما إلى فرعون وملئه، فكذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرًا بإغراقهم في اليم على ما تقدم تفصيله في غير موطن.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يتوعد مشركي قومه على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله ويخوفهم من حلول نقمته بهم، نظير الذي يحل بمن كان قبلهم من الأمم المكذبة رسلها ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا ﴾ يا محمد ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة، كالذي آتيناك من الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ يعني: معينًا وظهيرًا ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ يقول: فقلنا لهما: اذهبا إلى

فرعون وقومه الذين كذبوا بإعلامنا وأدلتنا، فدمرناهم تدميرًا. وفي الكلام متروك استغني بدلالة ما ذكر من ذكره وهو: فذهبا فكذبوهما فدمرناهم حينئذ.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى متوعدًا من كذّب رسولَه محمدًا ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله، فبدأ بذكر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرًا، أي: نبيًّا مُؤَازرًا ومؤيدًا وناصرًا، فكذبهما فرعون وجنوده، فـ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾ [محمد: ١٠].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: واذكر قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كذبوا رسول الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إذ جاءهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بـ(لا إله إلا الله) بالأمر بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته وحده لا شريك له، وهذا الذي جاءت به الرسل كلها، ومن ثَمَّ قيل لما كذبوا الرسل فمن كذب رسولًا فقد كذب الجميع؛ إذ دعوة الرسل واحدة. فالحاصل أن قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقهم الله وجعلهم للناس علامة ودلالة على قدرته وشدة انتقامه من المكذبين.

وكذا دلالة على أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنجي رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ودلَّ على ذلك ما ذكره الله جلَّ ذكره من تركه السفينة التي أنجى عليها نوحًا ومن معه آية للعالمين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ [القمر: ١٥]، أن قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾ فحاصل معناه وأعددنا للمشركين المكذبين

المعاندين للرسل عذابًا مؤلمًا موجعًا - والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقوم نوح لما كذبوا رسلنا، وردوا عليهم ما جاءوهم به من الحق، أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ يقول: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكنا عظة وعِبرة للناس يعتبرون بها ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٣٧﴾ يقول: وأعددنا لهم - من الكافرين بالله- في الآخرة عذابًا أليمًا، سوى الذي حل بهم من عاجل العذاب في الدنيا.

وكذلك فعلَ بقوم نوح حين كذّبوا رسوله نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويحذرهم نقمه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم الله جميعًا، ولم يَبق منهم أحد، ولم يبق على وجه الأرض من بني آدم سوى أصحاب السفينة فقط.

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ﴾ أي: عِبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١١-١٢]. أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَج البحار، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق، وجَعلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ﴾ ذكر الجنس والمراد نوح وحده لأنه لم يكن في ذلك الوقت رسول إليهم إلا نوح وحده فنوح إنما بُعث بلا إله إلا الله وبالإيمان بما ينزل الله فلما كذبوه كان في ذلك تكذيب لكل من بعث بعده بهذه الكلمة وقيل: إن من كذَّب رسولًا فقد كذب جميع الرسل؛ لأنهم لا يفرق بينهم في الإيمان، ولأنه ما من نبي إلا يصدق سائر أنبياء الله فمن كذب منهم نبيًّا فقد كذب كل من صدقه من النبيين ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ أي: بالطوفان على ما تقدم في (هود) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي علامة ظاهرة على قدرتنا ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي للمشركين من قوم نوح ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾ أي: في الآخرة وقيل: أي: هذه سبيلي في كل ظالم.

❁ ❁ ❁

أصحاب الرس

س: من أصحاب الرس هؤلاء؟

ج: لأهل العلم أقوال في (الرس) فمنهم من قال:

إنها قرية من القرى: ثم اختلف هؤلاء:

فقال بعضهم: إنها قرية من قرى ثمود.

وقال آخرون: إنها قرية في اليمامة يُقال لها الفَلْج.

وقال آخرون: إنها أنطاكية (بلدة صاحب رس)، وقيل غير ذلك.

وقيل: إن (الرس) بئر كانت عند قوم كذَّبوا نبيهم وألقوه في البئر.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك

أن الرس في كلام العرب: كل محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك؛ ومنه قول الشاعر:

سبقت إلى فرط باهل   تنابلة يحفرون الرساسا

يريد أنهم يحفرون المعادن، ولا أعلم قومًا كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرًا، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رسوا نبيهم في حفرة.

❁ ❁ ❁

س: هل صح حديث: «إن أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الأسود»؟ ومن العبد الأسود هذا وما شأنه؟

ج: أما الحديث فلا يصح سنده فهو مرسل ضعيف، وقد أخرجه الطبري بسندٍ ضعيفٍ عن محمد بن كعب مرسلًا، وفيه ما حاصله أن العبد الأسود هذا هو عبد آمن وكان يذهب إلى النبي الذي ألقاه قومه في بئر (وهي الرس) فيكشف غطاء البئر ويُطعم النبي.... إلى آخر ما ورد.

والخبر لا يثبت، وفي متنه كثيرٌ من الأمور المستنكرة، ثم إن النبي محمدًا ﷺ هو أول من يدخل الجنة كما قد ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وأهلكنا عادًا وثمودًا وأهلكنا أصحاب الرس وأهلكنا أممًا وقرونًا كثيرة بين هؤلاء المذكورين، وكلًّا من هؤلاء الذين أهلكناهم قد بيَّنا لهم حججنا وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدنيتنا فكذبوا بها فدمرناهم تدميرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ودمرنا أيضًا عادًا وثمود وأصحاب الرس وقرونًا بين ذلك كثيرًا.

يقول: ودمرنا أضعاف هذه الأمم التي سميناها لكم أممًا كثيرةً.

وقوله: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكل هذه الأمم التي أهلكناها التي سميناها لكم أو لم نسمها ضربنا له الأمثال يقول: مثلنا له الأمثال ونبهناها على حُججنا عليها، وأعذرنا إليها بالعِبر والمواعظ، فلم نهلك أمة إلا بعد الإبلاغ إليهم في المعذرة.

وقوله: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وكل هؤلاء الذين ذكرنا لكم أمرهم استأصلناهم، فدمرناهم بالعذاب إبادة، وأهلكناهم جميعًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: وأممًا بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ أي: بينا لهم الحجج، ووضَّحنا لهم الأدلة -كما قال قتادة: أزحنا عنهم الأعذار- ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

[الإسراء: ١٧]

والقرن: هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: ٣١] وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة سنة. وقيل: بثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك. والأظهر: أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثانٍ، كما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» الحديث.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ

يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ولقد مرَّ مشركو قريش أثناء سفرهم على القرية التي أمطرنا عليهم مطرًا سيئًا، من أسوإ الأمطار أمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، وهي قرى قوم لوط، ومنها قرية (سدوم) فكان من اللائق أن يعتبروا بها ويدكروا، ولكن لم يحصل ادكارٌ ولا اعتبار، بل كان هؤلاء المشركون لا يخافون الآخرة ولا يخافون بعثًا من القبور للحساب فقد كانوا ينكرون ذلك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورًا على القرية التي أمطرها الله مطر السوء وهي سدوم - قرية قوم لوط- ومطر السوء: هو الحجارة التي أمطرها الله عليهم فأهلكهم بها.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ يقول جلَّ ثناؤه: أو لم يكن هؤلاء المشركون الذين قد أتوا على القرية التي أُمطرت مطر السوء يرون تلك القرية، وما نزل بها من عذاب الله بتكذيب أهلها رسلهم، فيعتبروا ويتذكروا، فيراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم محمدًا ﷺ ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يقول تعالى ذكره: ما كذبوا محمدًا فيما جاءهم به من عند الله؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلَّ بالقرية التي وُصفت، ولكنهم كذبوه من أجل أنهم قوم لا يخافون نشورًا بعد الممات، يعني: أنهم لا يوقنون بالعقاب والثواب، ولا يؤمنون بقيام الساعة، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ ﴾ يعني مشركي مكة والقرية قرية قوم لوط و(مكر السوء) الحجارة التي أمطروا بها ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: في أسفارهم ليعتبروا قال ابن عباس: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كم قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾[الصافات: ١٣٧]، وقال: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٩] وقد تقدم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ أي لا يصدقون بالبعث ويجوز أن يكون معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ يخافون ويجوز أن يكون على بابه ويكون معناه: بل كانوا يرجون ثواب الآخرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ يعني: قرية قوم لوط، وهي سدوم ومعاملتها التي أهلكها بالقلب، وبالمطر الحجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ١٧٣] وقال ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر:٧٦] وقال ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٧٩]؛ ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله.

وقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ يعني: المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا، أي: معادًا يوم القيامة.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ

كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

أقسم جلَّ وعلا في هذه الآية أن الكفّار الذين كذبوا نبيّنا ﷺ، قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء، وهو أن الله أمطر عليها حجارة من سجّيل، وهي سدوم قرية قوم لوط، وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما أن الله أمطر هذه القرية مطر السوء الذي هو حجارة السجيل، وأن الكفار أتوا عليها، ومروا بها جاء موضحًا في آيات أخرى.

أمّا كون الله أمطر عليها الحجارة المذكورة، فقد ذكره جلَّ وعلا في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وبيَّن في سورة «الذاريات»، أن السجيل المذكور نوع من الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[الذاريات: ٣٢-٣٣].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وإذا رآك أهل الشرك، ولكونك تدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ما يتخذونك إلا هزوًا أي: ما يكون ردُّ فعلهم تجاهك حينما تدعوهم إلى عبادة الله وحده إلا الاستهزاء والسخرية منك قائلين بانتقاصٍ لك وازدراءٍ أهذا هو الذي اصطفاه الله من بيننا وابتعثه رسولاً.

لقد كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا التي نعبدها ونرجوها، تلك الأصنام والأوثان، ولو صبرنا على عبادتها وشدة تمسكنا بها لانصرفنا عنها وابتعدنا

فردَّ الله عليهم قولهم مهددًا لهم وصبَّر نبيه ﷺ على قيلهم قبوله، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أشد انصرافًا عن طريق الحق، والصواب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يقول: ما يتخذونك إلا سخرية يسخرون منك، يقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿رَسُولًا ۝٤١﴾ من بين خلقه.

ويقول تعالى ذكره مخبرًا عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول الله ﷺ، إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يُضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول جلَّ ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب الله قد حلَّ بهم على عبادتهم الآلهة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ يقول: من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أوهم؟

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه، كما قال: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦] يعنونه بالعيب والنقص، وقال هاهنا: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾؟ أي: على سبيل التنقص والازدراء -قبَّحهم الله -كما قال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ [الرعد: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ يعنون: أنه

كاد يُثنيهم عن عبادة أصنامهم، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها. قال الله تعالى متوعدًا لهم ومتهددًا: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

وإذا رأوك يا محمد هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات، المستكبرون في الأرض استهزءوا بك واحتقروك وقالوا -على وجه الاحتقار والاستصغار-: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] أي: غير مناسب ولا لائق أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول -حاشاه- في غاية الخسة والحقارة وأنه لو كانت الرسالة لغيره لكان أنسب.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادًا وهو متجاهل، قصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ وجده رجل العالم وهمامهم ومقدمهم في العقل والعلم واللُّب والرزانة، ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة وكل خُلُقٍ فاضل، وأن المحتقر له والشانئ له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلًا وضلالًا أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به تصلبهم على باطلهم وتغرير ضعفاء العقول ولهذا قالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهًا واحدًا ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلنا فزعموا -قبحهم الله- أن الضلال

هو التوحيد وأن الهدى ما هم عليه من الشرك فلهذا تواصوا بالصبر عليه. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ [ص: ٦].

وهنا قالوا: ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ والصبر يُحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع فإنه صبر على أسباب الغضب وعلى الاستكثار من حطب جهنم. وأما المؤمنون فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾ [العصر: ٣].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أرأيت يا رسول الله هذا المشرك الذي اتخذ ما يهواه وما يشتهيه إلهًا يعبده من دون الله، أفأنت تقدر على ردِّه عن الشرك وتتوكل بحفظه من الشرك وبردِّه إلى الإيمان، كلا فإنك لن تستطيع ذلك ولو سلكت معه أحسن الطرق وأجمل السُّبل ولو دعوته بكل ما أوتيت من قدرةٍ على دعوته.

أفتظن يا رسول الله أن أكثر هؤلاء يسمعون الحق ويفهمونه ويجيبونك ويؤمنون بك، كلا بل إنهم في عدم سماعهم كالبهائم التي لا تُفهم مرادك إذا ناديتها بل الأنعام أفضل منهم وأهدى سبيلًا؛ لأن الأنعام وإن كانت قد جبلت على عدم فهم خطاب بني آدم، لكنها تسمع لراعيها وتنقاد له وتشكر له مودته فيها، بل وإنها تسجد لخالقها وتشكره وتسبح بحمده.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ

وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١].

فحقًّا إن هؤلاء الكفار لأضل من الأنعام وأبعد عن طريق الحق والصواب، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ﴾ شهوته التي يهواها وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه، فلذلك قال جلَّ ثناؤه: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ يقول تعالى ذكره: أفأنت تكون يا محمد على هذا حفيظًا في أفعاله مع عظيم جهله؟ ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يُتلى عليهم، فيعون ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه، بل هم من البهائم أضل سبيلًا لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى لنبيه، منبهًا له أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا

يهديه أحد إلا الله ﷻ.

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾ [فاطر:٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول.

ثم قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ أي: أسوأ حالًا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خُلِقَت له، وهؤلاء خُلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ عجب نبيه ﷺ من إضمارهم على الشرك وإصرارهم عليه مع إقرارهم بأنه خالقهم ورازقهم ثم يعمد إلى حجر يعبده من غير حجة. قال الكلبي غيره: كانت العرب إذا هوي الرجل منهم شيئًا عبده من دون الله فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الأحسن فعلى هذا يعني: أرأيت من اتخذ إلهه بهواه فحذف الجار وقال ابن عباس: الهوى إله يُعبد من دون الله ثم تلا هذه الآية، قال الشاعر:

لعمر أبيها لو تبدت لناسك ... قد اعتزل الدنيا بإحدى المناسك
لصلى لها قبل الصلاة لربه ... ولارتد في الدنيا بأعمال فاتك

وقال القرطبي أيضًا:

وقيل: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: أطاع هواه. وعن الحسن لا يهوى شيئًا إلَّا اتبعه والمعنى واحد ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ أي حفيظًا وكفيلًا حتى ترده إلى الإيمان وتخرجه من هذا الفساد أي: ليست الهداية والضلالة موكولتين إلى مشيئتك وإنما عليك التبليغ وهذا ردٌّ على القدرية ثم قيل: إنها منسوخة بآية القتال وقيل: لم تنسخ لأن الآية تسلية للنبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ولم يقل أنهم لأن منهم من قد علم أنه يؤمن، وذمهم جل وعز بهذا ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيعقلونه أي: هم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع وقيل: المعنى: أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا والمراد أهل مكة وقيل: ﴿أَمْ﴾ بمعنى: بل في مثل هذا الموضوع ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ أي: في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ إذا لا حساب ولا عقاب على الأنعام وقال مقاتل: البهائم تعرف ربها وتهتدي إلى مراعيها وتنقاد لأربابها التي تعقلها وهؤلاء لا ينقادون ولا يعرفون ربهم الذي خلقهم ورزقهم وقيل: لأن البهائم إن لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك أيضًا.

❁ ❁ ❁

بعض الآيات الدالة على قدرة الله ووحدانيته

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا
بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا
﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

[الفرقان: ٤٥-٥٢]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ - سَاكِنًا - دَلِيلًا - قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا - يَسِيرًا - لِبَاسًا - سُبَاتًا - نُشُورًا - طَهُورًا - وَأَنَاسِيَّ - صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ - لِيَذَّكَّرُوا۟ - كُفُورًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾	جعله ممدودًا أي عامًّا مغطيًا الجو كله (وهذا ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس)
﴿سَاكِنًا﴾	دائمًا لا يزول
﴿دَلِيلًا﴾	علامة على وجوده - علامةً عليه وأنه شيء موجود، فلولا طلوع الشمس ما عُرف معنى الظل
﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾	رددناه إلينا أي بعد أن كان موجودًا بدأ يقل شيئًا فشيئًا
﴿يَسِيرًا﴾	قليلًا قليلًا - شيئًا فشيئًا - خفيًّا (في خفاء لا تكادون ترونه وهو يتقلص) - سهلًا
﴿لِبَاسًا﴾	ساترًا يستركم (بظلامه)
﴿سُبَاتًا﴾	راحة لأبدانكم
﴿نُشُورًا﴾	يقظةً وحياةً وانتشارًا للعمل كذلك
﴿طَهُورًا﴾	يُتطهر به - يُطهر الله به الأشياء
﴿وَأَنَاسِيَّ﴾	بشرًا - وقيل أناسي، وقيل: جمع إنسان

﴿صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾	قسمناه بينهم - حوَّلناه من أناسٍ إلى أناسٍ آخرين. وقيل: صرفناه أي: صرفنا آيات القرآن كما قال تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾.
﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾	ليتعظوا ويعتبروا
﴿كُفُورًا﴾	جحودًا لنعم الله

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

ج: هذا - والله أعلم -: لفت للنظر وحث على التفكر في مخلوقات الله ﷻ للاستدلال بها على قدرته ووحدانيته، فيقول الله ﷻ: ألم تر بعينيك - وبقلبك كذلك - إلى هذا الظل الممدود العام الذي يغطي الأجواء من حولك، وهو الظل الذي بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل إنه الظل في الليل كله إلى أن تطلع الشمس، والأول عليه أكثر العلماء هذا، ولو شاء ربك ﷻ لجعل هذا الظلَّ دائمًا مستمرًّا لا يزول ولكن بطلوع الشمس يقبض الظلُّ شيئًا فشيئًا قبضًا قليلًا قليلًا فيقل الظل تدريجيًّا كلما ارتفعت الشمس في السماء إلى وقت الزوال، ولولا أن الشمس طلعت ما عُرف للظل معنى، فطلوعها دليلٌ على وجود الظل، وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ على المعنى الذي قدمته من أن الله ﷻ يقبض الظل إليه شيئًا فشيئًا فيقل تدريجيًّا، وهذا أمر سهلٌ ويسير على الله ﷻ.

هذا، وهناك أقوال أخر لأهل العلم في هذا الصدد، وها هي بعض أقوالهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ مَدَّ﴾ ربك ﴿ٱلظِّلَّ﴾ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يقول: ولو شاء لجعله دائمًا لا يزول، ممدودًا، لا تذهبه الشمس، ولا تنقصه.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ يقول جل ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناس بنسخ الشمس إياه عند طلوعها عليه، أنه خلق من خلق ربكم، يوجده إذا شاء، ويُفنيه إذا أراد؛ والهاء في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ من ذكر الظل. ومعناه: ثم جعلنا الشمس على الظل دليلًا. قيل: معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس التي تنسخه لم يعلم أنه شيء، إذا كانت الأشياء إنما تعرف بأضدادها، نظير الحلو الذي إنما يعرف بالحامض والبارد بالحار، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: ثم قبضنا ذلك الدليل من الشمس على الظل إلينا قبضًا خفيًّا سريعًا بالفيء الذي نأتي به بالعشي.

وقيل: إن الهاء التي في قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ عائدة على الظل، وإن معنى الكلام: ثم قبضنا الظل إلينا بعد غروب الشمس، وذلك أن الشمس إذا غربت غاب الظل الممدود، قالوا: وذلك وقت قبضه.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ فقال بعضهم: معناه: سريعًا.

وقال آخرون بل معناه: قبضًا خفيًّا.

وقال الطبري أيضًا:

وقيل: إنما قيل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ لأن الظل بعد غروب الشمس لا يذهب كله دفعة، ولا يقبل الظلام كله جملة، وإنما يقبض ذلك الظل قبضًا خفيًّا، شيئًا بعد شيء ويعقب كل جزء منه يقبضه جزء من الظلام.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

من هاهنا شرع تعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾.

وأورد عن عدة من أهل العلم أنه ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

ثم قال:

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: دائمًا لا يزول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القصص: ٧١].

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾ أي: لولا أن الشمس تطلع عليه، لما عرف، فإن الضد لا يُعرف إلا بضدِّه.

وقال قتادة، والسّدي: دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتي عليه كله.

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: الظل، وقيل: الشمس. ﴿يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا. قال ابن عباس: سريعًا. وقال مجاهد: خفيًّا. وقال السّدي: قبضًا خفيًّا، حتى لا يبقى في الأرض ظلٌّ إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه.

وقال أيوب بن موسى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾ أي: قليلًا قليلًا.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ يجوز أن تكون هذه الرؤية من رؤية العين ويجوز أن تكون من العلم وقال الحسن وقتادة وغيرهما: مد الظل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وقيل: هو من غيوبة الشمس إلى طلوعها والأول أصح والدليل على ذلك أنه ليس من ساعة أطيب من تلك الساعة فإن فيها يجد المريض راحة والمسافر وكل ذي علة، وفيها ترد نفوس الأموات والأرواح منهم إلى الأجساد[1] وتطيب نفوس الأحياء فيها وهذه الصفة مفقودة بعد المغرب. وقال أبو العالية: نهار الجنة هكذا وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر. أبو عبيدة: الظل بالغداة والفيء بالعشي؛ لأنه يرجع بعد زوال الشمس سُمِّي فيئًا؛ لأنه فاء من المشرق إلى جانب المغرب، قال الشاعر وهو حميد بن ثور يصف سرحة وكنى بها عن امرأة:

فلا الظل من برد الضحا تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق

قال ابن السكيت: الظلُّ ما نسخته الشمس والفيء ما نسخ الشمس وحكى أبو عبيدة عن رؤبة، قال: كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء وظل وما لم تكن عليه الشمس فهو ظل ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا﴾ أي دائمًا مستقرًّا لا تنسخه الشمس. ابن عباس: يريد إلى يوم القيامة وقيل: المعنى لو شاء لمنع الشمس الطلوع ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ٤٥﴾ أي: جعلنا الشمس بنسخها الظل عند مجيئها دالة على أن الظل شيء ومعنى لأن الأشياء تعرف بأضدادها ولولا الشمس ما عرف الظل ولولا النور ما عرفت الظلمة فالدليل فعيل بمعنى الفاعل وقيل: بمعنى المفعول كالقتيل والدهين والخضيب أي: دللنا

---

(١) ولا أعلم دليلًا على هذا القول.

الشمس على الظل حتى ذهبت به أي: أتبعناها إياه فالشمس دليل أي حجة وبرهان وهو الذي يكشف المشكل ويوضحه ولم يؤنث الدليل وهو صفة الشمس لأنه في معنى الاسم كما يقال: الشمس برهان والشمس حقٌّ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ يريد ذلك الظل الممدود ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ٤٦﴾ أي سيرًا قبضه علينا وكل أمر ربنا عليه يسير فالظل مكثه في هذا الجو بمقدار طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فإذا طلعت الشمس صار الظل مقبوضًا وخلفه في هذا الجو شعاع الشمس فأشرق على الأرض وعلى الأشياء إلى وقت غروبها فإذا غربت فليس هناك ظلٌّ إنما ذلك بقية نور النهار وقال قوم: قبضه بغروب الشمس؛ لأنها ما لم تغرب فالظل فيه بقية وإنما يتم زواله بمجيء الليل ودخول الظُّلمة عليه وقيل: إن هذا القبض وقع بالشمس لأنها إذا طلعت أخذ الظل في الذهاب شيئًا فشيئًا. قال أبو مالك و إبراهيم التميمي وقيل: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: قبضنا ضياء الشمس بالفيء ﴿قَبْضًا يَسِيرًا ٤٦﴾ وقيل: ﴿يَسِيرًا ٤٦﴾ أي: سريعًا قاله الضحاك. قتادة خفيًّا أي: إذا غاب الشمس قبض الظل قبضًا خفيًّا كلما قبض جزء منه جعل مكانه جزءًا من الظلمة وليس يزول دفعة واحدة فهذا معنى قول قتادة وهو قول مجاهد.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ٤٧﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: والله ﷻ هو الذي جعل لكم الليل ساترًا يستركم بظلمته وجعل النوم راحة لكم ولأبدانكم وجعل لكم النهار ليقظتكم

وانتشاركم وخروجكم لعملكم كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ [النبأ: ١١].

وكما قال ﷻ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: الذي مدَّ الظل ثم جعل الشمس عليه دليلًا هو الذي جعل لكم أيها الناس الليل لباسًا. وإنما قال جلَّ ثناؤه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ لأنه جعله لخلقه جنة يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يكسونها. وقوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ يقول: وجعل لكم النوم راحة تستريح به أبدانكم، وتهدأ به جوارحكم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وجعل النهار يقظة وحياة من قولهم: نشر الميت، كما قال الأعشى:

حتى يقول الناس مما رأوا يا عجبًا للميت الناشر

ومنه قول الله: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: يلبس الوجود ويُغشيه، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ [الليل: ١].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان، فإن الأعضاء والجوارح تَكِلُّ من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعايش، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات، فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معًا.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧﴾ أي: ينتشر الناسُ فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٣﴾ [القصص: ٧٣].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ يعني: سترًا للخالف يقوم مقام اللباس في ستر البدن. قال الطبري: وصف الليل باللباس تشبيهًا من حيث يستر الأشياء ويغشاها.

وقال:

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال وأصل السُّبات من التمدد يقال: سبتت المرأة شعرها أي: نقضته وأرسلته ورجل مسبوت أي: ممدود الخِلْقة وقيل: للنوم سبات لأنه بالتمدد يكون وفي التمدد معنى الراحة وقيل: السبت القطع فالنوم انقطاع عن الاشتغال ومنه سبت اليهود لانقطاعهم عن الأعمال فيه وقيل: السبت الإقامة في المكان فكأن السُّبات سكون ما وثبوت عليه فالنوم سبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة. وقال الخليل: السبات نوم ثقيل أي: جعلنا نومكم ثقيلًا ليكمل الإجمام والراحة.

وقال: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ۝٤٧﴾ من الانتشار للمعاش أي النهار سبب الإحياء للانتشار شبه اليقظة فيه بتطابق الإحياء مع الإماتة وكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا أصبح قال: «**الحمد لله الذي أحيانا من بعد ما أماتنا وإليه النشور**».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٥٠﴾﴾.

ج: يُذكِّر الله ﷻ بنعمه على خلقه وبفضله عليهم فيقول سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي: مبشرةً بنزول الغيث الذي به يرحم الله ﷻ العباد فيسقون منه وتحيا أبدانهم وتحيا أرضهم وتحيا مواشيهم فالرياح مقدمات لهذا الغيث مبشرات به، وأنزل الله ﷻ من السماء ماءً مطهرًا للأشياء مذهبًا للنجاسات ليُحيي بهذا الماء أرضًا ميتةً ليس فيها نبات ولا ثمر فتنبت وتُثمر بإذن الله، وكذا ليسقي بهذا الماء من خلقه أنعامًا وأناسًا كثيرين، ثم يبين الله ﷻ أنه بقدرته وبحوله وقوته هو الذي يجعل الماء ينزل على هذه الأرض ولا يتنزل على تلك، وذلك ليتعظ الناس وليعتبر الناس وليقبلوا على عبادة ربهم ﷻ وتوحيده، ودعائه وحده لا شريك له، ولكن رفض أكثر الناس هذا، وأبوا إلا أن يستمروا على كفرهم وجحودهم لنعم الله ﷻ وضلالهم وغوايتهم، والعياذ بالله، ومنهم من قال: مُطرنا بنوء كذا ونوء كذا.

وبنحو ذلك قال عدد من أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي أرسل الرياح الملقحة ﴿بُشۡرَۢا﴾: حياة أو من الحيا والغيث الذي هو منزله على عباده ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾﴾ يقول: وأنزلنا من السحاب الذي أنشأناه بالرياح من فوقكم أيها الناس ماء طهورًا. ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ يعني: أرضًا قحطة عذية لا تنبت. وقال: ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ ولم

يقل ميتة؛ لأنه أُريد بذلك لنحيي به موضعًا ومكانًا ميتًا ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ من خلقنا ﴿أَنْعَـٰمًا﴾ من البهائم ﴿وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ يعني الأناسي: جمع إنسان وجمع أناسي، فجعل الياء عوضًا من النون التي في إنسان، وقد يجمع إنسان: إناسين، كما يجمع النشيان نشايين. فإن قيل: أناسي جمع واحده إنسي، فهو مذهب أيضًا محكي، وقد يجمع أناسي مخففة الياء، وكأن من جمع ذلك كذلك أسقط الياء التي بين عين الفعل ولامه، كما يجمع القرقور: قراقير وقراقر. ومما يصحح جمعهم إياه بالتخفيف، قول العرب: أناسية كثيرة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهورًا لنُحيي به الميت من الأرض بين عبادي؛ ليتذكروا نعمي عليهم، ويشكروا أيادي عندهم وإحساني إليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ يقول: إلا جحودًا لنعمي عليهم، وأيادي عليهم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه بين خَلْقه؛ قال: ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ﴾.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس أيضًا عن ابن عباس أيضًا: ما عام بأكثر مطرًا من عام، ولكنه يصرفه في الأرضين، ثم تلا ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

قلت (مصطفى): وورد نحوه عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قال: المطر مرة هاهنا، ومرة هاهنا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا أيضًا من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات، أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما تسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّرا، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمّ الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك. وأما من قال: إنه فعول بمعنى فاعل، أو: إنه مبنيٌّ للمبالغة أو التعدي، فعلى كل منهما إشكالات من حيث اللغة والحكم، ليس هذا موضع بسطها، والله أعلم.

وقوله: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: أرضًا قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، لم ينزل

فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

قال ابن مسعود وابن عباس: ليس عام بأكثر مطرًا من عام، ولكن الله يصرفه كيف يشاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾.

أي: ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات. والعظام الرفات. أو: ليذكر من منع القَطْر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه، فيقلع عما هو فيه.

وقال ابن كثير أيضًا:

وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾: قال عكرمة: يعني: الذين يقولون: مطرنا بنَوء كذا وكذا.

وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم[1]، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يومًا، على إثر سماء أصابتهم من الليل: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي، مؤمن بالكوكب**».

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ يتطهر به كما يقال: وضوء للماء الذي يتوضأ به وكل طهور طاهر وليس كل طاهر طهورًا فالطهور (بفتح الطاء) الاسم وكذلك الوضوء والوقود وبالضم المصدر وهذا هو المعروف في اللغة قاله

(1) مسلم (حديث 71).

ابن الأنباري، فبيَّن أن الماء المنزل من السماء طاهر في نفسه مطهر لغيره فإن الطهور بناء مبالغة في طاهر وهذه المبالغة اقتضت أن يكون طاهرًا مطهرًا وإلى هذا ذهب الجمهور.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ ﴾ أي: بالمطر ﴿ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا ﴾ بالجدوبة والمحل وعدم النبات. قال كعب: المطر روح الأرض يحييها به وقال ﴿مَّيۡتٗا ﴾ ولم يقل ميتة لأن معنى البلدة والبلد واحد وقاله الزجاج وقيل: أراد بالبلد المكان ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾ قراءة العامة بضم النون وقرأ عمر بن الخطاب وعاصم والأعمش فيما روى المفضل عنهما نسقيه (بفتح) النون ﴿مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾ أي: بشرًا كثيرًا وأناسي واحده إنسي.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ يعني القرآن وقد جرى ذكره في أول السورة: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله: ﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ [الفرقان: ٢٩] وقوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠] ﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾ أي: جحودًا له وتكذيبًا به وقيل: ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ﴾ هو المطر، روي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنه ليس عامًّا بأكثر مطرًا من عام ولكن الله يصرفه حيث يشاء فما زيد لبعض نقص من غيرهم فهذا معنى التصريف وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ وابلًا وطشًا وطلًّا ورهامًا – الجوهري: الرهام الأمطار اللينة – ورذاذًا. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين

والغسل وشبهه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: ولو شئنا يا رسول الله لبعثنا في كل قرية رسولًا ينذرهم عذاب الله ﷻ ويخوفهم عقابه ويبشرهم بجنته إن هم أطاعوا، لو شئنا لفعلنا ذلك لتخفيف الأعباء عليك ولجعلنا كل رسولٍ في كل قرية مسئولًا عن تبليغ أهلها وإنذارهم تخفيفًا لأعباء الدعوة عليك، ولكن جعلناك يا رسول الله رسولًا للخَلْق كلهم فضلًا منَّا عليك وإكرامًا منَّا لك، وذلك حتى يعظم لك الأجر بقيامك بالمسئولية العظيمة التي عهدنا بها إليك، وبتأدية الأمانات التي كلفناك بأدائها للخلق فلا تتوانى عن الدعوة إلى الله ولا تنثني عنها ولا تفتر بل استمر في الدعوة إلى الله وقم بأعباء الجهاد كما أُمرت وكما كُلِّفت وجاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا بتذكيرهم به وبتخويفهم من العقاب بالوارد فيه وبامتثال أمر ربك ﷻ الذي أمرك في هذا القرآن.

وقيل: إن قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي: بالإسلام، أما قوله: ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ فجهادًا متواصلًا من غير فتور ولا توانٍ ولا انثناء.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كل مصر ومدينة نذيرًا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فيخف عنك كثير من أعباء ما حملناك منه،

ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة، ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعد الله لك من الكرامة عنده، والمنازل الرفيعة قبله، فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم، فنذيقك ضعف الحياة وضعف الممات، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادًا كبيرًا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض الله، ويدينوا به ويذعنوا للعمل بجميعه طوعًا وكرهًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ أي: رسولًا ينذرهم كما قسمنا المطر ليخف عليك أعباء النبوة ولكنا لم نفعل بل جعلناك نذيرًا للكل لترتفع درجتك فاشكر نعمة الله عليك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فلما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ قال ابن عباس: بالقرآن. ابن زيد: بالإسلام وقيل: بالسيف وهذا فيه بعد؛ لأن السورة مكية نزلت قبل الأمر بالقتال ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ لا يخالطه فتور.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾ يدعوهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكنا خصصناك -يا محمد- بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وفي الصحيحين: «بُعثت

إلى الأحمر والأسود» وفيهما: «**وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»**؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] .

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا
وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ
قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ
ظَهِيرٗا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٥٦﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا
مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ
بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾
تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾ ﴾.

[الفرقان: ٥٣-٦٢]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿مَرَجَ - ٱلْبَحْرَيْنِ - عَذْبٌ فُرَاتٌ - مِلْحٌ أُجَاجٌ - وَحِجْرًا مَّحْجُورًا - خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا - نَسَبًا - وَصِهْرًا - ظَهِيرًا - يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا - وَتَوَكَّلْ - وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ - وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا - فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا - نُفُورًا - بُرُوجًا - سِرَاجًا - مُّنِيرًا - خِلْفَةً - يَذَّكَّرَ - أَرَادَ شُكُورًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَرَجَ﴾	خلط
﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾	البحر المالح والعذب
﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾	عذب حلو
﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾	مالح شديد الملوحة
﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾	مانعًا (ساترًا) ممنوعًا مستورًا
﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾	خلق من المنيِّ إنسانًا
﴿نَسَبًا﴾	قرابةً (وهي القرابات من ناحية الآباء والأمهات)
﴿وَصِهْرًا﴾	أصهارًا (وهي التي من ناحية الزوج والزوجة)
﴿ظَهِيرًا﴾	معاونًا - معينًا (على معصية الله)
﴿يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾	يسلك طريقًا يوصله إلى مرضاة الله
﴿وَتَوَكَّلْ﴾	اعتمد

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾	نزِّهه عن كل ما لا يليق به، وذلك يكون من فضل الله عليك، فتنزيهك له بفضله فليُحمد على هذا صلِّ له– قل سبحان الله وبحمده
﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾	هو وحده الخبير بذنوب عباده ويكفي ذلك
﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾	اسأل عنه خبيرًا به – أسأله فهو الخبير
﴿نُفُورًا﴾	بُعدًا – فِرارًا
﴿بُرُوجًا﴾	قصورًا – كواكب عظيمة – نُجومًا
﴿سِرَٰجًا﴾	شمسًا متوهجة كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]
﴿مُّنِيرًا﴾	مضيئًا
﴿خِلْفَةً﴾	يخلف أحدهما الآخر، يذهب هذا ويجيء ذاك
﴿يَذَّكَّرَ﴾	يتعظ – يعتبر
﴿أَرَادَ شُكُورًا﴾	أراد أن يشكر الله بصلاة أو بذكر أو بصيام أو بغير

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالبحرين؟

ج: المراد بـ(البحرين) العذب والمالح، أي: البحار والأنهار.

❁ ❁ ❁

مزيد من الدلالات على وحدانية الله ﷻ وقدرته

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: والله هو الذي خلط البحرين ببعضهما العذب والمالح، الأنهار والبحار، فتصب الأنهار ماءها في البحار ولا تعتدي البحار بمياهها العظيمة المالحة على الأنهار بل بينهما حاجزٌ جعله الله سبحانه وتعالى بينهما حتى لا تدخل مياه البحار على مياه الأنهار فتفسدها وتفسد على الناس معايشهم.

وكما قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن: ٢٠].

وكما قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

فقوله هنا: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا.

وقوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: سائرًا مانعًا ممنوعًا، أي: ساترًا يمنع أحدهما من البغي على الآخر.

هذا هو القول الذي عليه جماهير العلماء من المفسرين، وإن كانت هناك أقوال أُخر منها أن المراد بالبرزخ الأرض اليابسة، وهذا خطأ لمخالفته قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾ [الرحمن: ١٩]، وبنحو ذلك يضعف القول القائل بأن المراد بحر السماء وبحر الأرض.

وبنحو هذا قال عدد من أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي خلط البحرين، فأمرج أحدهما في الآخر،

وأفاضه فيه. وأصل المرج الخلط، ثم يقال للتخلية مرج؛ لأن الرجل إذا خلَّى الشيء حتى اختلط بغيره، فكأنه قد مرجه، ومنه الخبر عن النبي ﷺ، وقوله لعبد الله بن عمرو: «كيف بك يا عبد الله إذا كنت في حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا وشبَّك بين أصابعه. يعني بقوله: قد مرجت: اختلطت، ومنه قول الله: ﴿فِىٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥] أي مختلط. وإنما قيل للمرج مرج من ذلك؛ لأنه يكون فيه أخلاط من الدواب، ويقال: مرجت دابتك: أي خليتها تذهب حيث شاءت. ومنه قول الراجز:

رعى بها مرج ربيع ممرج

وقوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ الفرات: شديد العذوبة، يقال: هذا ماء فرات: أي شديد العذوبة وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ يقول: وهذا ملح مرٌّ، يعني بالعذب الفرات: مياه الأنهار والأمطار، وبالملح الأجاج: مياه البحار.

وإنما عني بذلك أنه من نعمته على خلقه، وعظيم سلطانه، يخلط ماء البحر العذب بماء البحر الملح الأُجاج، ثم يمنع الملح من تغيير العذب عن عذوبته، وإفساده إياه بقضائه وقدرته؛ لئلا يضر إفساده إياه بركبان الملح منهما، فلا يجدوا ماء يشربونه عند حاجتهم إلى الماء، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ يعني: حاجزًا يمنع كل واحد منهما من إفساد الآخر ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ يقول: وجعل كل واحد منهما حرامًا محرمًا على صاحبه أن يغيره ويفسده.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا

مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ دون القول الذي قاله من قال معناه: إنه جعل بينهما حاجزًا من الأرض أو من اليبس؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر في أول الآية أنه مرج البحرين، والمرج: هو الخلط في كلام العرب على ما بيَّنت قبل، فلو كان البرزخ الذي بين العذب الفرات من البحرين، والملح الأجاج أرضًا أو يبسًا لم يكن هناك مرج للبحرين، وقد أخبر جل ثناؤه أنه مرجهما، وإنما عرفنا قدرته بحجزه هذا الملح الأجاج عن إفساد هذا العذب الفرات، مع اختلاط كل واحد منهما بصاحبه. فأما إذا كان كل واحد منهما في حيز عن حيز صاحبه، فليس هناك مرج، ولا هناك من الأعجوبة ما ينبه عليه أهل الجهل به من الناس، ويذكرون به، وإن كان كل ما ابتدعه ربنا عجيبًا، وفيه أعظم العِبر والمواعظ والحُجج البوالغ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أي: خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزُّلال. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالح مُرّ زعاق لا يُستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق

وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجَزْر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزَرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة، ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى -وله القدرة التامة- العادة بذلك. فكلُّ هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء؛ لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحًا كان هواؤها صحيحًا وميتتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: «**هو الطّهور ماؤه، الحِلُّ ميتته**».

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا، وهو اليَبَس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ أي: مانعًا أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦١].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ عاد الكلام إلى ذكر النعم و﴿مَرَجَ﴾ خلى وخلط وأرسل. قال مجاهد: أرسلهما وأفاض أحدها في الآخر. قال ابن عرفة: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلطهما فهما يلتقيان يقال: مرجته إذا خلطته ومرج

الدين والأمر اختلط واضطرب ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥]، ومنه قوله عليه الصلاة و السلام لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وهكذا**» وشبك بين أصابعه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقوله: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي: أجراهما وقال الأحفش: يقول قوم أمرج البحرين مثل مرج فعل وأفعل بمعنى ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾ أي: حلو شديد العذوبة ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ أي: فيه ملوحة ومرارة ورُوي عن طلحة أنه قرأ: ﴿وَهَٰذَا مَلِحٌ﴾ بفتح الميم وكسر اللام ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا﴾ أي: حاجزًا من قدرته، لا يغلب أحدهما على صاحبه كما قال في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ أي: سترًا مستورًا يمنع أحدهما من الاختلاط بالآخر، فالبرزخ الحاجز والحجر المانع وقال الحسن: يعني بحر فارس وبحر الروم. وقال ابن عباس وابن جبير: يعني بحر السماء وبحر الأرض، قال ابن عباس: يلتقيان في كل عام وبينهما برزخ قضاء من قضائه ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ حرامًا محرمًا أن يعذب هذا الملح بالعذب أو يملح هذا العذب بالملح.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

اعلم أن لفظة: ﴿مَرَجَ﴾، تطلق في اللغة إطلاقين:

الأول: مرج بمعنى: أرسل وخلى، من قولهم: مرج دابّته إذا أرسلها إلى المرج، وهو الموضع الذي ترعى فيه الدواب؛ كما قال حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء

وعلى هذا، فالمعنى: أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر.

والإطلاق الثاني: مرج بمعنى: خلط، ومنه قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾ [ق: ٥]، أي: مختلط، فعلى القول الأول: فالمراد بالبحرين الماء العذب في جميع الدنيا، والماء الملح في جميعها.

وقوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ﴾، يعني: به ماء الآبار، والأنهار والعيون في أقطار الدنيا.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾، أي: البحر الملح، كالبحر المحيط وغيره من البحار التي هي ملح أجاج، وعلى هذا التفسير فلا إشكال.

وأمّا على القول الثاني بأن ﴿مَرَجَ﴾ بمعنى خلط، فالمعنى: أنه يوجد في بعض المواضع اختلاط الماء الملح والماء العذب في مجرى واحد، ولا يختلط أحدهما بالآخر، بل يكون بينهما حاجز من قدرة الله تعالى، وهذا محقّق الوجود في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها المحل الذي يختلط فيه نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجنب مدينة سان لويس، وقد زرت مدينة سان لويس عام ستّ وستّين وثلاثمائة وألف هجرية، واغتسلت مرة في نهر السنغال، ومرة في المحيط، ولم آت محل اختلاطهما، ولكن أخبرني بعض المرافقين الثقاة أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جالس يغرف بإحدى يديه عذبًا وفراتًا، وبالأخرى ملحًا أُجاجًا، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر، فسبحانه جلَّ وعلا ما أعظمه، وما أكمل قدرته.

وهذا الذي ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية، جاء موضحًا في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى في سورة «فاطر»: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ﴾ [فاطر: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا

يَبۡغِيَانِ ۝٢٠﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠]، أي: لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور في سورة «الفرقان» وسورة «الرحمن»، قد بيَّن تعالى في سورة «النمل» أنه حاجز حجز به بينهما، وذلك في قوله جلَّ وعلا: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ [النمل: ٦١]، وهذا الحاجز هو اليبس من الأرض الفاصل بين الماء العذب، والماء الملح على التفسير الأوَّل.

وأمَّا على التفسير الثاني: فهو حاجز من قدرة الله غير مرئي للبشر، وأكّد شدّة حجزه بينهما بقوله هنا: ﴿وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾، والظاهر أن قوله هنا: ﴿وَحِجۡرٗا﴾، أي: منعًا وحرامًا قدريًّا، وأن ﴿مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ توكيد له، أي: منعًا شديدًا للاختلاط بينهما، وقوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ﴾، صفة مشبّهة من قولهم: عذب الماء بالضم فهو عذب. وقوله: ﴿فُرَاتٞ﴾ صفة مشبّهة أيضًا، من فرت الماء بالضم، فهو فرات، إذا كان شديد العذوبة، وقوله: ﴿وَهَٰذَا مِلۡحٌ﴾، صفة مشبهة أيضًا من قولهم: ملح الماء بالضم والفتح، فهو ملح.

قال الجوهري في «صحاحه»: «ولا يقال مالح إلا في لغة ردية». اهـ.

وقد أجاز ذلك بعضهم، واستدلّ له بقول القائل:

ولو تفلت في البحر والبحر مالح ... لأصبح ماء البحر من ريقها عذبًا

وقوله: ﴿أُجَاجٞ﴾، صفة مشبهة أيضًا، من قولهم: أجّ الماء يؤجّ أُجوجًا فهو أجاج، أي: ملح مُرٌّ، فالوصف بكونه أجاجًا يدلّ على زيادة المرارة على كونه ملحًا، والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالماء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾؟

ج: لأهل العلم قولان في هذا:

أشهرهما: أن المراد بالماء هو المني كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾...﴾ [المرسلات: ٢٠-٢١].

والثاني: أن المراد بالماء هو الماء عمومًا كماء الأنهار وماء المطر وماء العيون والآبار ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

المراد بالنسب والصهر

س: ما المراد بالنسب والصهر؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن النسب هم القرابات عمومًا من ناحية الأب والأم والصهر القرابات من ناحية النكاح أي من ناحية الزوجة والزوج.

الثاني: أن النسب الذي لا يحل نكاحه والصهر الذي يحل نكاحه، وأرى هذا القول ضعيفًا.

وهنالك أقوال آخر نوردها قريبًا إن شاء الله.

وانظر المحرمات بالنسب وبالمصاهرة فيما قدمته من سورة النساء، وبالله التوفيق.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: والله هو الذي خلق من ماء الرجل، من المنيّ بشرًا نجعل من هؤلاء البشر أهل نسب يعني قرابات، وكذلك جعل بسبب هذا الماء أصهار، وكان ربك قديرًا على فعل ما يريد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والله الذي خلق من النُّطف بشرًا إنسانًا فجعله نسبًا، وذلك سبعة، وصهرًا، وهو خمسة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ يقول: وربك يا محمد ذو قدرة على خلق ما يشاء من الخلق، وتصريفهم فيما شاء وأراد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسوَّاه وعَدّله، وجعله كامل الخِلْقة، ذكرًا أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات. وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الفراء: النسب الذي لا يحل نكاحه والصهر الذي يحل نكاحه وقاله الزجاج وهو قول علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه فسُمِّيت المناكح صهرًا

لاختلاط الناس بها وقيل: الصهر قرابة النكاح فقرابة الزوجة هم الأختان وقرابة الزوج هم الأحماء والأصهار يقع عامًّا لذلك كله قاله الأصمعي. وقال ابن العربي: الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها - كما قال الأصمعي - والصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني: أختان الرجل: أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته وكل ذات محرم منه وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي وأن يكون من قبلهما جميعًا يقال: صهرت الشيء أي: خلطته فكل واحد منهما قد خلط صاحبه.

وقال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ على خلق ما يريده.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: وبعد أن بيَّن الله ﷻ نعمه على خلقه وعددها ودلَّل على قدرته ووحدانيته فإذا بالكافرين أيضًا يعبدون آلهة من دون الله ﷻ لا تنفعهم ولا تضرهم من الأوثان والأصنام، وكان الكافر معينًا للشيطان على معصية الله، ومظاهرًا للشيطان على معصية الله.

هذا، ومن العلماء من قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ قولًا آخر حاصله أنه كان هينًا على الله ﷻ مهملًا، فكما كان في الدنيا

يتخذ ربه ظهريًّا فإنه يهمل كذلك يوم القيامة، وكما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ [هود: ٩٢].

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهة لا تنفعهم، فتجلب إليهم نفعًا إذا هم عبدوها، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها، ويتركون عبادة من أنعم عليهم هذه النعم التي لا كفاء لأدناها، وهي ما عدد علينا جل جلاله في هذه الآيات من قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرًا ٥٤﴾، ومن قدرته القدرة التي لا يمتنع عليه معها شيء أراده، ولا يتعذر عليه فعل شيء أراد فعله، ومن إذا أراد عقاب بعض من عصاه من عباده أحلَّ به ما أحل بالذين وصف صفتهم من قوم فرعون وعاد وثمود وأصحاب الرس، وقرونًا بين ذلك كثيرًا، فلم يكن لمن غضب عليه منه ناصر، ولا له عنه دافع ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ٥٥﴾ يقول تعالى ذكره: وكان الكافر معينًا للشيطان على ربه، مظاهرا له على معصيته.

وأورد عن مجاهد آثارًا تصح بمجموعها فحواها أن الكافر يظاهر الشيطان (أي: يعاونه) على معصية الله ومخالفة أمره.

وأورد أيضًا بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ٥٥﴾ قال: على ربه عوينًا. والظهير: العوين. وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [القصص: ٨٦] قال: لا تكونن لهم عوينًا. وقرأ أيضًا قول الله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ﴾ قال: ظاهروهم: أعانوهم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد كان بعضهم يوجه معنى قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ أي: وكان الكافر على ربه هينًا، من قول العرب: ظهرت به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه، وكأن الظهير كان عنده فعيل صرف من مفعول إليه من مظهور به، كأنه قيل: وكان الكافر مظهورًا به. والقول الذي قلناه هو وجه الكلام، والمعنى الصحيح؛ لأن الله تعالى ذكره أخبر عن عبادة هؤلاء الكفار من دونه، فأولى الكلام أن يتبع ذلك ذمه إياهم، وذم فعلهم دون الخبر عن هوانهم على ربهم، ولم يجر لاستكبارهم عليه ذكر، فيتبع بالخبر عن هوانهم عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًّا، بلا دليل قادهم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء، والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم، ويعادون الله ورسوله فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ۝٧٥﴾ [يس: ٧٤-٧٥] أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم، ويَذبُّون عن حَوْزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة.

قال مجاهد: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ يقول: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك.

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ قال: مواليًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ لما عدَّد النعم وبيَّن كمال قدرته عجب من المشركين في إشراكهم به من لا يقدر على نفع ولا ضر أي: إن الله هو الذي خلق ما ذكره، ثم هؤلاء لجهلهم يعبدون من دونه أمواتًا جمادات، لا تنفع ولا تضرُّ ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ رُوي عن ابن عباس ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ هنا أبو جهل -لعنه الله- وشرحه أنه يستظهر بعبادة الأوثان على أوليائه وقال عكرمة: الكافر إبليس ظهر على عداوة ربه. وقال مطرف: ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ هنا الشيطان. وقال الحسن: ﴿ظَهِيرٗا ۝٥٥﴾ أي: معينًا للشيطان على المعاصي: وقيل: المعنى وكان الكافر على ربه هينًا ذليلًا، لا قدر له ولا وزن عنده من قول العرب: ظهرت به أي: جعلته خلف ظهرك ولم تلتفت إليه ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ [هود: ٩٢] أي: هينًا ومنه قول الفرزدق:

تميم بن قيس لا تكونن حاجتي ... بظهر فلا يعيا علي جوابها

هذا معنى قول أبو عبيدة وظهير بمعنى مظهور أي: كفر الكافرين هين على الله تعالى والله مستهين به لأن كفره لا يضره وقيل: وكان الكافر على ربه الذي يعبده وهو الصنم قويًّا غالبًا يعمل به ما يشاء؛ لأن الجماد لا قدرة له على دفع ضُرٍّ ونفع.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾.

الظهير في اللغة: المعين، ومنه قول تعالى: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التحريم: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص: ١٧]

ومعنى قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾، على أظهر الأقوال: وكان الكافر معينًا للشيطان، وحزبه من الكفرة على عداوة الله ورسله، فالكافر من حزب الشيطان يقاتل في سبيله أولياء الله، الذين يقاتلون في سبيل الله، فالكافر يُعين الشيطان وحزبه في سعيهم؛ لأن تكون كلمة الله ليست هي العليا، وهذا المعنى دلّت عليه آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ﴾ [النساء: ٧٦] ومعلوم أن الذي يقاتل في سبيل الطاغوت، المقاتلين في سبيل الله، أنه على ربّه ظهير.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم-: وما أرسلناك يا رسول الله وكيلًا على هؤلاء ولا مكلفًا بهدايتهم (هداية التوفيق) ولا مسيطرًا عليهم فذلك ليس لك، إنما الهادي هو الله، وإنما أنت مذكر، ومبشرًا لمن أطاع بالجنة، ومخوفًا من عصى بالنار ومنذرًا ومحذِّرًا فقل لهؤلاء المعاندين المعارضين: ما أسألكم أجرًا على إيمانكم ولا على هدايتكم لكن من شاء أن يتخذ طريقًا يقربه من الله ويوصله إلى مرضاته وجناته فليتبعني فإنني أُبين له طريق الحق والصواب،

ومن شاء أن يتطوع بالصدقة لوجه الله فليتطوع.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد إلى من أرسلناك إليه ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ بالثواب الجزيل، من آمن بك وصدَّقك، وآمن بالذي جئتهم به من عندي، وعملوا به ﴿وَنَذِيرٗا﴾ من كذَّبك وكذَّب ما جئتهم به من عندي، فلم يصدِّقوا به، ولم يعملوا ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ يقول له: قل لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم: ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به من عند ربي أجرًا، فتقولون: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه فيه، ولا نعطيه من أموالنا شيئًا، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ يقول: لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه سبيلًا طريقًا بإنفاقه من ماله في سبيله، وفيما يقربه إليه من الصدقة والنفقة في جهاد عدوّه، وغير ذلك من سُبل الخير.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ يريد بالجنة مبشرًا ونذيرًا من النار وما أرسلناك وكيلًا ولا مسيطرًا. ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ يريد على ما جئتكم به من القرآن والوحي و﴿مِنۡ﴾ للتأكيد ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ فهو استثناء منقطع والمعنى: لكن من شاء ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ بإنفاقه من ماله في سبيل الله فلينفق ويجوز أن يكون متصلًا ويُقدر حذف المضاف التقدير: إلا أجر ﴿مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ باتباع ديني حتى ينال كرامة الدنيا والآخرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى لرسوله – صلوات الله وسلامه عليه –: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي: بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي: طريقًا ومسلكًا ومنهجًا يقتدى فيها بما جئت به.

❁ ❁ ❁

معنى قوله: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ۝٥٩﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: واعتمد في شؤونك كلها وأمورك كلها على الله ﷻ فهو الحي الذي لا يموت، وسائر الخلق يموتون، ونزِّه الله ﷻ عن كل ما لا يليق به من الشريك والمثيل والندِّ والصاحبة والولد والمثيل وغير ذلك، نزِّهه عن كل ما يصفه الواصفون المشركون مما لا يليق به وتسبيحك له (أي تنزيهك له) فضلٌ من الله عليك؛ إذ وفقك لذلك فاحمد الله على أن وفقك لتسبيحك له، وقيل في معنى ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ﴾ أي: صل له مُنزِّهًا إياه عن كل ما يليق، وقيل: وسبح بحمده، قل: سبحان الله وبحمده، أما قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾، أي: أنه ﷻ خبيرٌ بكل ذنوب عباده لا يخفى عليه منه شيء، فهو الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، فلكونه خلقهما وما بينهما فهو يعلم من خلق كما قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ثم إنه سبحانه الرحمن استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض فاسأل عنه إن أردت أن تسأل خبيرًا به، وأَخْبر الناس به هو رسوله ﷺ الذي أرسله للناس كافة، أي: فاسأل عن الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ.

وقيل: اقرأ القرآن فقد أخبر الله عن نفسه في هذا الكتاب العزيز.

فعليه فقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ﴾ أي: اسأل عنه ﴿خَبِيرًا﴾ أي: خبيرًا به، وقيل المعنى: فاسأل عن أي شيء تريده خبيرًا به والخبير بكل شيء هو الله ﷻ، والله أعلم. ثم هذه بعض أقوال أهل العلم في هذا الصدد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وتوكل يا محمد على الذي له الحياة الدائمة التي لا موت معها، فثق به في أمر ربك وفوِّض إليه، واستسلم له، واصبر على ما نابك فيه. قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ يقول: واعبده شكرًا منك له على ما أنعم به عليك. قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يقول: وحسبك بالحي الذي لا يموت خابرًا بذنوب خلقه، فإنه لا يخفى عليه شيء منها، وهو مُحصٍ جميعها عليهم حتى يجازيهم بها يوم القيامة.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ فقال: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وقد ذكر السماوات والأرض، والسماوات جماع، لأنه وجه ذلك إلى الصنفين والشيئين، كما قال القطامي:

أَلَــمْ يَحْزُنْـكَ أنَّ حِبـالَ قَـيْسٍ   وتَغْلِـبَ قَـدْ تَبايَنَتـا انقِطاعـا

يريد: وحبال تغلب فثنى، والحبال جمع؛ لأنه أراد الشيئين والنوعين.

وقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: كان ابتداء ذلك يوم الأحد، والفراغ يوم الجمعة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ يقول: ثم استوى على العرش الرحمن وعلا عليه، وذلك يوم السبت فيما قيل. وقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ يقول: فاسأل يا محمد خبيرًا بالرحمن، خبيرًا بخلقه، فإنه خالق كل شيء، ولا يخفى عليه ما خلق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ أي: في أمورك كلها كُن متوكلا على الله الحي الذي لا يموت أبدًا، الذي هو ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم ربِّ كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ [المائدة : ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾، أي: اقرن بين حمده وتسبيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «**سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك**» أي: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩] .

وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه على سيد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى -فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب ردّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله، وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الإخبار وعدلًا في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال مجاهد في قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ قال: ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك. وكذا

قال ابن جريج.

وقال شمر بن عطية في قوله: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ قال: هذا القرآن خبير به.

❁ ❁ ❁

المشركون واسم الرحمن

س: هل كان المشركون ينكرون اسم الرحمن؟

ج: منهم طوائف كانت تثبته، ومنهم من كان ينكره.

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ ...وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ ﴾ [يس: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ۩ ﴾ [الفرقان: ٦٠].

وقال سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ في صلح الحديبية: لا ندري ما الرحمن وما الرحيم[1].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم-: وإذا قيل لهؤلاء المشركين لا تسجدوا للأصنام ولا للأوثان ولا لأي شيء إلا لله ﷻ وحده لا شريك له هو الرحمن، قالوا مستنكرين: وما الرحمن؟! فإننا لا نعرف من الرحمن، أنسجد لما تأمرنا، وزادهم قوله: ﴿ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ ﴾ ابتعادًا وفرارًا عن الحق والإيمان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم

(١) مسلم (مع النووي ١٢/ ١٣٨)، والبخاري (٢٧٣١)، (٢٧٣٢).

ولا يضرهم: ﴿ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: اجعلوا سجودكم لله خالصًا دون الآلهة والأوثان. قالوا: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾.

واختلفت القرَّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرَّاء المدينة والبصرة: ﴿لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ بمعنى: أنسجد نحن يا محمد لما تأمرنا أنت أن نسجد له. وقرأته عامة قرَّاء الكوفة «**لِمَا يَأْمُرُنا**» بالياء، بمعنى: أنسجد لما يأمر الرحمن، وذكر بعضهم أن مُسيلمة كان يُدعى الرحمن، فلما قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: أنسجد لما يأمرنا رحمن اليمامة؟ يعنون مُسَيلمة بالسجود له.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك، أنهما قراءتان مستفيضتان مشهورتان، قد قرأ بكل واحد منهما علماء من القرَّاء، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ يقول: وزاد هؤلاء المشركين قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدًا مما دعوا إليه من ذلك فرارًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا ينكرون أن يُسَمّى الله باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: هو الله وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ أي: لا نعرفه ولا نُقِرُّ به ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك؟ ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾، أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها، كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي: الله تعالى ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على جهة الإنكار والتعجب أي: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب وزعم القاضي أبو بكر ابن العربي أنهم إنما جهلوا الصفة لا الموصوف واستدل على ذلك بقوله: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ولم يقولوا: ومن الرحمن قال ابن الحصار: وكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يقرأ الآية الأخرى: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الرعد: ٣٠] ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ هذه قراءة المدنيين والبصريين أي: لما تأمرنا أنت يا محمد واختاره أبو عبيد وأبو حاتم وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي: (يأمرنا) بالياء يعنون الرحمن كذا تأوّله أبو عبيد قال: ولو أقروا بأن الرحمن أمرهم ما كانوا كفارًا، فقال النحاس: وليس يجب أن يتأول عن الكوفيين في قراءتهم هذا التأويل البعيد ولكن الأولى أن يكون التأويل لهم ﴿**أنسجد لما يأمرنا**﴾ النبي ﷺ فتصح القراءة على هذا وإن كانت الأولى أبين وأقرب تناولًا ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أي: زادهم قول القائل لهم اسجدوا للرحمن نفورًا عن الدين وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعًا ما زاد أعدائك نفورًا.

❁❁❁

مزيد من الآيات
الدالة على وحدانية الله وقدرته ﷻ

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: تكاثر الخير الوارد من الله ﷻ وتنامى وتزايد، تكاثر خير الله الذي جعل في السماء بروجًا، كواكب عظيمة، قصورًا، نجومًا، وجعل فيها شمسًا عظيمة سراجًا وهاجًا، وكذا جعل فيها قمرًا منيرًا للخلق في ظلماتهم، وهو أيضًا الذي جعل الليل والنهار، يخلف بعضهم بعضًا، يذهب هذا ويجيء ذاك لمن أراد أن يتعظ ويعتبر ويستدل على قدرة الله ﷻ ووحدانيته، وكذا لمن أراد أن يقدم شكرًا لله، فمن فاته قيامه من الليل صلَّاه بالنهار، ومن فاتته أذكاره وأوراده بالنهار فعلها ليلًا، ومن أراد أن يصوم عرف وقت الصيام والإفطار.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: تقدّس الربّ الذي جعل في السماء بروجًا، ويعني بالبروج: القصور، في قول بعضهم.

وقال آخرون: هي النجوم الكبار.

وقال الطبري:

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ اختلف القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء

المدينة والبصرة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ على التوحيد، ووجهوا تأويل ذلك إلى أنه جعل فيها الشمس، وهي السراج التي عنى عندهم بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾.

وقرأته عامة قرَّاء الكوفيين «وَجَعَلَ فِيها سُرُجا» على الجماع، كأنهم وجهوا تأويله: وجعل فيها نجومًا ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ وجعلوا النجوم سرجًا إذ كان يهتدى بها.

والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار، لكل واحدة منهما وجه مفهوم، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقوله: ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ يعني بالمنير: المضيء.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ فقال بعضهم: معناه: أن الله جعل كل واحد منهما خلفًا من الآخر، في أن ما فات أحدهما من عمل يعمل فيه لله، أدرك قضاؤه في الآخر.

وقال آخرون: بل معناه أنه جعل كل واحد منهما مخالفًا صاحبه، فجعل هذا أسود وهذا أبيض.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أن كل واحد منهما يخلف صاحبه، إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ قال: لو لم يجعلهما خلفة لم يدر كيف يعمل، لو كان الدهر ليلا كله كيف يدري أحد كيف يصوم، أو كان الدهر نهارًا كله كيف يدري أحد كيف

يصلي. قال: والخلفة: مختلفان، يذهب هذا ويأتي هذا، جعلهما الله خلفة للعباد، وقرأ: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

قال الطبري:

والخلفة: مصدر، فلذلك وحدت، وهي خبر عن الليل والنهار؛ والعرب تقول: خلف هذا من كذا خلفة، وذلك إذا جاء شيء مكان شيء ذهب قبله، كما قال الشاعر:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إذَا أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةٌ حَتَّى إذَا ارْتَبَعَتْ سَكَنَتْ مِنْ جِلَّقٍ بِيَعَا

وكما قال زهير:

بِهَا العِيْنُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وأطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ

يعني بقوله: يمشين خلفة: تذهب منها طائفة، وتخلف مكانها طائفة أخرى. وقد يحتمل أن زُهَيرًا أراد بقوله: خلفة: مختلفات الألوان، وأنها ضروب في ألوانها وهيئاتها. ويحتمل أن يكون أراد أنها تذهب في مشيها كذا، وتجيء كذا.

وقوله: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يقول تعالى ذكره: جعل الليل والنهار، وخلوف كل واحد منهما الآخر حجة وآية لمن أراد أن يذكَّر أمر الله، فينيب إلى الحق ﴿أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ أو أراد شكر نعمة الله التي أنعمها عليه في اختلاف الليل والنهار.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى، ممجدًا نفسه، ومعظمًا على جميل ما خلق في السماء من

البروج – وهي الكواكب العظام – في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، وابي صالح، والحسن، وقتادة.

وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يُروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مِهْران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضًا، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]؛ ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ أي: مضيئًا مشرقًا بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، وقال مخبرًا عن نوح عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦].

ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتًا

لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل. وقد جاء في الحديث الصحيح(١): «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**».

❁ ❁ ❁

(١) مسلم (٢٧٥٩).

صفات عباد الرحمن وأعمالهم

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَى:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ
قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا
سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ
بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾
يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ
وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا
يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا
مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿هَوْنًا - سَلَٰمًا - يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ - غَرَامًا - سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا - لَمْ يُسْرِفُوا - وَلَمْ يَقْتُرُوا - قَوَامًا - لَا يَدْعُونَ - أَثَامًا - مُهَانًا - يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا - لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ - بِٱللَّغْوِ - مَرُّوا كِرَامًا - لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا - إِمَامًا - ٱلْغُرْفَةَ - وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا - حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا - مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ - دُعَآؤُكُمْ - لِزَامًا﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿هَوْنًا﴾	بسكينة ووقار وطاعة وتواضع – بلا جهل على أحدٍ بتوسط واعتدال
﴿سَلَٰمًا﴾	قولًا مُسددًا موفقًا – قولًا سالمًا من الأذى
﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾	يقضون أغلب الليل في صلاة لربهم ودعاء لربهم
﴿غَرَامًا﴾	دائمًا – مُلازمًا لا يزول
﴿سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾	ساءت مقرًّا ومحلًّا للإقامة
﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾	لم يتجاوز حد الاعتدال في النفقة ولم ينفقوا في غير وجه الحق والصواب
﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾	لم يبخلوا ولم يضيقوا على أنفسهم وأهاليهم – لم يمنعوا الحقوق عن أصحابها
﴿قَوَامًا﴾	عدلًا ومعروفًا وقيامًا بالشيء على وجهه الصحيح
﴿لَا يَدْعُونَ﴾	لا يعبدون

﴿أَثَامًا﴾	عقابًا – نكالًا ، وقيل : وادٍ في جهنم ، وقيل : مضاعفة العذاب والخلود في النار مهانًا
﴿مُهَانًا﴾	ذليلًا صاغرًا مُهملًا معذبًا
﴿يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾	يرجع إلى الله رجوعًا حقيقيًّا فيقبل الله توبته
﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾	لا يحضرون مجالس الباطل (مجالس الشرك والفحش واللهو وغير ذلك) لا يُدلون بشهادات كاذبة عند القضاء والحكام
﴿بِٱللَّغْوِ﴾	ما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، السباب والشتم والجهالات
﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾	مروا دون تعرضٍ لسفيه ودون ردٍّ عليه واكتراثٍ به، كما تقول: مر مرور الكرام
﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾	لم يقابلوها بأذان صماء ولا أعين عمياء ما تستقر به الأعين
﴿إِمَامًا﴾	أئمة
﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾	الغرفة واحدة الغرف، وهي مكانة سامية وعلية في الجنة لأهل التقى وللمقربين
﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾	يُحيون فيها بالتحية والسلام يقابلون فيها بالتحية والسلام
﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا﴾	نعمت المستقر الحسن

﴿ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ ﴾	لا يبالي بكم ربي
﴿ دُعَآؤُكُمۡ ﴾	إيمانكم
﴿ لِزَامَۢا ﴾	ملازمًا لكم

أمثلة لإضافة التشريف

س: ما فائدة الوصف بقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ مع أن البشر كلهم عبيد لله؟

ج: هذه إضافة تشريف لهذا الصنف من البشر شُرِّفوا بنسبتهم في عبوديتهم إلى الله ﷻ.

كما في قوله تعالى: ﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ ﴾ [الشمس: ١٣] وكما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن: ١٨]، وكما في قولهم في الحرم (بيت الله) وغير ذلك، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴿٦٣﴾ ﴾.

ج: المعنى –والله تعالى أعلم-: وهؤلاء عباد الرحمن الذين شرِّفوا بنسبتهم إلى الرحمن ﷻ في عبوديتهم له ﷻ فهم يعبدونه وحده لا شريك له، ها هي بعض صفاتهم وها هي بعض أعمالهم لعلَّ متشبهًا أن يتشبه بهم ولعل مريدًا للهداية أن يسلك طريقهم فهم الذين يمشون على الأرض هونًا بسكينةٍ ووقار وتواضع وطاعة لله، وكذا يمشون مشيًا وسطًا معتدلًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]، وكما في قول لقمان لولده:

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾ [لقمان: ١٩].

وإذا جهل عليهم جاهل لم يقابلوه بالجهالة التي صدرت منه بل قابلوه بما يليق بالعقلاء والحلماء والفضلاء وأهل الإيمان أجابوه بما يقتضيه المقام من الحلم والعفو والإعراض عن أهل الجهل، وقابلوه السيئة بالحسنة إذا كان المقام يقتضي ذلك، وقابلوه بالسداد عمومًا حسب ما تُرشد إليه عمومًا الشريعة، فقد يحتاج الجاهل إلى كلمة طيبة فيقدمونها له، وقد يحتاج إلى إعراض عنه فيعرضوا عنه، وقد يحتاج في بعض الأمور إلى شدة لردعه فيسلكون هذا السبيل لصد عدوان العدو الصائل.

وبنحو ذلك قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ بالحلم والسكينة والوقار غير مستكبرين، ولا متجبرين، ولا ساعين فيها بالفساد ومعاصي الله.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يمشون عليها بالطاعة والتواضع.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يمشون عليها بالحلم لا يجهلون على من جهل عليهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ يقول: وإذا خاطبهم الجاهلون بالله بما يكرهونه من القول، أجابوهم بالمعروف من القول، والسداد من الخطاب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هـذه صـفات عبـاد الله المـؤمنين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧]. فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من البضائع تصنعًا ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب[(١)]، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شابًّا يمشي رُويدًا، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا السكينة والوقار، كما قال رسول الله ﷺ: «**إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**»[(٢)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ أي: إذا سفه عليهم الجهال بالسَّيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) وكأن هذا – إن ثبت – محمول على أن تلك هي مشيته المتوسطة.

(٢) البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣).

أهل الإيمان يعملون الطاعات ويخشون العذاب

س: أهل الإيمان يعملون الطاعات ويسألون الله القبول ويحذرون غضب الله وعقابه دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى في شأن عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ ...﴾ فمع مبيتهم لله ﷻ متقلبين بين القيام والسجود لله فإنهم يحذرون عذاب الله ﷻ ولا يغترون بعملهم الذي يعملون. وكذا في قوله تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وها هو الخليل إبراهيم عليه السلام وولده صادق الوعد إسماعيل عليه السلام يرفعان القواعد من البيت ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٦٦﴾﴾.

ج: هذا - والله تعالى أعلم -: مزيدُ بيان لصفات عباد الرحمن وأعمالهم فمن شأنهم أنهم في ليلهم يتقلبون بين القيام له ﷻ وبين السجود له جل ذكره كما قال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨] وكما قال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦].

ثم إن هؤلاء الفضلاء، عباد الرحمن، لا يغترون بعملهم بل يسألون ربهم

أن يصرف عنهم عذاب جهنم فإن عذابها كان مُلازمًا لا يزول والعياذ بالله، فقد علموا ذلك وأيقنوا، ومن ثم حذروا منه أشد الحذر، إنها أي جهنم ساءت المقر الذي يستقر فيه الشخص، وساءت المقام الذي يقيم فيه الشخص.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين يبيتون لربهم يصلون لله، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام. وقوله: ﴿وَقِيَٰمًا﴾ جمع: قائم، كما الصيام جمع: صائم ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يقول تعالى ذكره: والذين يدعون الله أن يصرف عنهم عقابه وعذابه حذرًا منه ووجلًا. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول: إن عذاب جهنم كان غرامًا ملحًا دائمًا لازمًا غير مفارق من عذِّب به من الكفار، ومهلكًا له. ومنه قولهم: رجل مُغْرم، من الغُرْم والدَّين. ومنه قيل للغريم غَريم لطلبه حقه، وإلحاحه على صاحبه فيه. ومنه قيل للرجل المولع للنساء: إنه لمغرَم بالنساء، وفلان مغرَم بفلان: إذا لم يصبر عنه؛ ومنه قول الأعشى:

إنْ يُعَاقِبْ يَكُنْ غَرَاما وَإنْ يُعْـ ... ـطِ جَزِيلا فَإنَّهُ لا يُبالي

يقول: إن يعاقب يكن عقابه عقابًا لازمًا، لا يفارق صاحبه مهلكًا له، وقول بشر بن أبي خازم:

يَوْمَ النِّسارِ وَيَوْمَ الجِفا ... رِ كَانَ عِقَابًا وَكَانَ غَرَاما

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ يقول: إن جهنم ساءت مستقرًّا

ومقامًا، يعني بالمستقر: القرار، وبالمقام: الإقامة؛ كأن معنى الكلام: ساءت جهنم منزلًا ومقامًا. وإذا ضمت الميم من المقام فهو من الإقامة، وإذا فتحت فهو من قمت، ويقال: المقام إذا فتحت الميم أيضًا هو المجلس، ومن المُقام بضمّ الميم بمعنى الإقامة، قول سلامة بن جندل:

يَوْمَانِ: يَوْمُ مُقَاماتٍ وأَنْدِيَةٍ ... وَيَوْمُ سَيْرٍ إلى الأعْداءِ تَأْوِيبَ

ومن المُقام الذي بمعنى المجلس، قول عباس بن مرداس:

فأَيِّي ما وأَيُّكَ كانَ شَرًّا ... فقِيدَ إلى المَقَامَةِ لا يَرَاها

يعني: المجلس.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ أي: في عبادته وطاعته، كما قال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] وقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ الآية [الزمر: ٩] ولهذا قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أي: ملازمًا دائمًا.

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي: بئس المنزل منظرًا، وبئس المقيل مقامًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أي: بئس المستقر وبئس المقام أي: إنهم يقولون ذلك عن علم وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطلبون فيكون ذلك أقرب إلى النجح.

❁ ❁ ❁

س: متى يُعد الشخص مسرفًا ومتى يُعدُّ مُقترًا؟

ج: الإنفاق أمر نسبي، فأحيانًا ينفق الشخص نفقة كثيرةً، ولا يكون مُسرفًا فيها، وذلك لأن دخله مرتفع ورزق الله عليه واسع أو لأن المقام اقتضى ذلك لوجود أضياف ونحو ذلك من المناسبات.

وأحيانًا يكون مُبذرًا إذا أنفق نفقة ولو كانت أقل، وذلك لكون دخله قليل أو لكونها أنفقت في غير محلها.

وكذا يُعدُّ مقترًا إذا بخل عن حق عليه (سواء حق الله ﷻ أو حق نفسه أو حق أهله وعياله أو حق أضيافه ...)، ولا يكون مُقترًا من منع المال ولو كان قليلًا إذا كان سينفق في معصية الله ﷻ فالإنفاق أمر نسبي، ومن ثمَّ يترتب على ذلك وصف الشخص بالإسراف أو التقتير والله أعلم.

فالإنفاق أمر نسبي، فقد ينفق الشخص في اليوم ألفًا من الجنيهات والريالات ولا يعد مسرفًا إذا كان دخله على سبيل المثال في اليوم عشرة آلاف، وقد ينفق مائة ويعد مسرفًا، وذلك إذا كان دخله في اليوم خمسون مثلًا.

وهكذا قد ينفق على أضياف دعت الحاجة إلى إكرامهم، ينفق كثيرًا ولا يعد مسرفًا لكون المقام اقتضى ذلك، فالحاصل أن الأمر نسبي، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾.

ج: هذا بيان لطريقة عباد الرحمن في الإنفاق لعلَّ ملتمسًا الهداية أن يلتمس طريقتهم في الإنفاق فيسير عليها.

فمن شأنهم أنهم إذا أنفقوا لم يتجاوزا الحد في الإنفاق ولم يوصفوا بأنهم من أهل التبذير الذين هم إخوان للشيطان فمن ثَمَّ لم ينفقوا في باطل ولم يتجاوزوا الحدَّ في المباحات، ولم يشتروا ما لا فائدة فيه ولا حاجة إليه، وكذا لم يبخلوا عن أداء الحقوق لأصحابها ، لم يضيقوا على أنفسهم ولا على أهاليهم وأبناءهم، ولم يبخلوا على أضيافهم، وكذا فإنهم يؤدون الحقوق لأصحابها فالفقير له عندهم حق والمسكين والجار، فضلًا عن الحق الذي ألزمهم الله به، فلم يوصفوا بأنهم بخلاء، وكما سبق لم يوصفوا أنهم من أهل الإسراف والتبذير.

* بل امتثلوا ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩].

* وامتثلوا ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ٣١].

* وامتثلوا ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

أما قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ فمعناه: أن أمرهم بين الإسراف والتقتير كان عدلًا فيقومون بالمطلوب ولا يتجاوزون الحدود ولا يقصرون عن الواجبات والمستحبات، وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يسرفوا في إنفاقها.

ثم اختلف أهل التأويل في النفقة التي عناها الله في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار. فقال بعضهم: الإسراف ما كان من نفقة في معصية الله وإن قلت: قال: وإياها عنى الله، وسماها إسرافًا. قالوا: والإقتار: المنع من حق

الله.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ قال: لم يسرفوا فينفقوا في معاصي الله كلَّ ما أنفق في معصية الله وإن قلّ فهو إسراف، ولم يقتروا فيمسكوا عن طاعة الله. قال: وما أُمْسِكَ عن طاعة الله وإن كثر فهو إقتار.

وقال آخرون: السرف: المجاوزة في النفقة الحد، والإقتار: التقصير عن الذي لا بدَّ منه.

وقال آخرون: الإسراف هو أن تأكل مال غيرك بغير حق.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع: ما جاوز الحدَّ الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر الله به، والقوام: بين ذلك.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك، لأن المسرف والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصا فيهما ما كانا مذمومين، ولا كان المسرف ولا المقتر مذمومًا، لأن ما أذن الله في فعله فغير مستحق فاعله الذم.

فإن قال قائل: فهل لذلك من حدٍّ معروف تبينه لنا؟ قيل: نعم ذلك مفهوم في كلِّ شيء من المطاعم والمشارب والملابس والصدقة وأعمال البرِّ وغير ذلك، نكره تطويل الكتاب بذكر كل نوع من ذلك مفصلًا غير أن جملة ذلك هو ما بيَّنا وذلك نحو: أكل آكل من الطعام فوق الشبع ما يضعف بدنه، وينهك قواه ويشغله عن طاعة ربه، وأداء فرائضه؛ فذلك من السرف، وأن يترك الأكل وله إليه سبيل حتى يضعف ذلك جسمه وينهك قواه ويضعفه عن أداء فرائض

ربه؛ فذلك من الإقتار وبين ذلك القوام على هذا النحو، كل ما جانس ما ذكرنا، فأما اتخاذ الثوب للجمال يلبسه عند اجتماعه مع الناس، وحضوره المحافل والجمع والأعياد دون ثوب مهنته، أو أكله من الطعام ما قوَّاه على عبادة ربه، مما ارتفع عما قد يسد الجوع، مما هو دونه من الأغذية، غير أنه لا يعين البدن على القيام لله بالواجب معونته، فذلك خارج عن معنى الإسراف، بل ذلك من القوام، لأن النبي ﷺ قد أمر ببعض ذلك، وحضّ على بعضه، كقوله: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اتَّخَذَ ثَوْبَيْنِ: ثَوْبًا لِمِهْنَتِهِ، وَثَوْبًا لِجُمْعَتِهِ وَعِيدِهِ**» وكقوله: «**إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَهَا عَلَيْهِ**» وما أشبه ذلك من الأخبار التي قد بيَّناها في مواضعها.

وأما قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ فإنه النفقة بالعدل والمعروف على ما قد بيَّنا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم، بل عَدْلًا خيارًا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وأورد القرطبي قولًا حسنًا في هذا الصدد فقال: قال ابن عطية: وهذا ونحوه غير مرتبط بالآية والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمرٌ حظرت الشريعة قليله وكثيره وكذلك التعدي على مال الغير وهؤلاء الموصوفون مُنزَّهون عن ذلك وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات فأدب

الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقًّا آخر أو عيالًا ونحو هذا وألا يضيق أيضًا ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح والحسن في ذلك هو القوام أي: العدل والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب أو ضد هذه الخصال وخير الأمور أوساطها ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أن يتصدق بجميع ماله لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين ومنع غيره من ذلك ونعم ما قال إبراهيم النخعي: هو الذي لا يجيع ولا يعرى ولا ينفق نفقة يقول الناس قد أسرف.

❁ ❁ ❁

س: هل صح لهذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ...﴾ سبب نزول؟

ج: نعم صح لها سبب نزول وذلك مما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الله (وهو ابن مسعود) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ أَوْ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**» قَالَ: وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾[1].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ (أضواء البيان):

واعلم أن أظهر الأقوال في هذه الآية الكريمة، أن الله مدح عباده الصالحين بتوسُّطهم في إنفاقهم ، فلا يجاوزون الحدَّ بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون،

---

(١) البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم .

وقال بعض أهل العلم: الإسراف في الآية : الإنفاق في الحرام والباطل، والإقتار منع الحق الواجب، وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهر في الآية هو القول الأول.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين، هما: اكتساب المال، وصرفه في مصارفه، فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين، لا بدّ له من أمرين ضروريين له:

الأوّل منهما: معرفة حكم الله فيه؛ لأن الله جلَّ وعلا لم يُبح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق، وحرَّم بعضها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ولم يبح الله جلَّ وعلا صرف المال في كل شيء، بل أباح بعض الصرف وحرَّم بعضه؛ كما قال تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] الآية، وقال تعالى في الصرف الحرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]، فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه في مصارفه أمر ضروري لا بدّ منه؛ لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال المكتسب من وجه حرام ، لا خير فيه ألبتّة ، وقد يُصرف المال في وجه حرام ، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه .

الأمر الثاني : هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان

مثلًا أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعًا، ولكنه لا يعلم أوجه التصرُّف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال، من ذلك الوجه الشرعيّ، وكم من متصرّف يريد الربح، فيعود عليه تصرُّفه بالخسران، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح. وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشيء الفلاني مباح، وفيه مصلحة، ولكنه لا يهتدي إلى معرفة الصرف المذكور، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة، فإن جواز الصرف فيها معلوم، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة، لا يعلمه كل الناس.

وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة:

الأول: معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال، واجتناب الاكتساب به، إن كان محرَّمًا شرعًا.

الثاني: حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض، وما لا يبيحه.

الثالث: معرفة حكم الله في الأوجه التي يُصرف فيها المال، واجتناب المحرم منها.

الرابع: حسن النظر في أوجه الصرف، واجتناب ما لا يفيد منها، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلًا بمصلحته، وكان مرضيًا لله جلَّ وعلا، ومن أخلَّ بواحد من هذه الأُسس الأربعة كان بخلاف ذلك؛ لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها الله جلَّ وعلا فلا خير في ماله، ولا بركة؛ كما قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال

تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] الآية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات المباركات: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم–: ومن صفات عباد الرحمن، وهي أخص صفاتهم أنهم لا يعبدون إلهًا مع الله ﷻ بل يعبدون الله وحده لا شريك له، ويكفرون بعبادة ما سواه، وكذا فإنهم لا يقتلون النفس التي حرَّم الله ﷻ قتلها إلا بالحق، والحق هو ما ذكره الله في كتابه وذكره النبي ﷺ في سُنته، والذي منه قول النبي ﷺ: «**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المفَارِقُ لِلجَمَاعَةِ**».

وكذا فهناك حد الحرابة المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا ...﴾ [المائدة: ٣٣] إلى غير ذلك مما وردت به النصوص كقتال الفئة الباغية ...

وكذا من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون، ومن يفعل شيئًا مما ذُكر فإنه يلق عقابًا ونكالًا، صورته أنه يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه بلا نهاية ذليلًا صاغرًا مهانًا.

لكن من تاب قبل موته مما ذُكر، وأتبع الإيمان بالعمل الصالح فأولئك

يبدل الله سيئاتهم حسنات – على ما قدمنا ذكره من كيفية تبديل السيئات بحسنات – وكان الله غفورًا لهم ما أسلفوه من الذنوب، رحيمًا بهم ثم يتأكد القول بأن باب التوبة مفتوح على العموم للمذنبين فيقول تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾، وحاصل معناه أن من رجع إلى الله ﷻ قبل الله رجوعه، وبتوبته يتوب الله عليه، وهذا الأخير في حق غير المذكورين أولًا فالمذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ قبول توبتهم في قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ أما غيرهم من المذنبين فيبين أن باب التوبة مفتوح لهم أيضًا بقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾.

وبنحو ذلك قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين لا يعبدون مع الله إلهًا آخر، فيشركون في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ إما بكفر بالله بعد إسلامها، أو زنًا بعد إحصانها، أو قتل نفس، فتُقتل بها ﴿وَلَا يَزْنُونَ ﴾ فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ﴾ يقول: ومن يأت هذه الأفعال، فدعا مع الله إلهًا آخر، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وزنى ﴿يَلْقَ أَثَامًا ﴾ يقول: يلق من عقاب الله عقوبة ونكالًا كما وصفه ربنا جل ثناؤه، وهو أنه ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾، ومن الأثام قول بَلْعَاءَ بن قيس الكناني:

جَـزَى اللهُ ابْـنَ عُـرْوَةَ حيْـثُ أَمْسَـى ... عُقُوقًـا والعُقُـوقُ لَـهُ أثـامُ

يعني بالأثام: العقاب.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد ذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ من أجل قوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، ممن كان منه في شركه هذه الذنوب، فخافوا أن لا ينفعهم مع ما سلف منهم من ذلك إسلام، فاستفتَوْا رسول الله ﷺ في ذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، يُعلِّمهم أن الله قابل توبة من تاب منهم.

وأورد الطبري الروايات بذلك ثم قال:

وقال آخرون: هذه الآية منسوخة بالتي في النساء.

قلت (مصطفى): يعني قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

قلت (مصطفى): لكن النسخ لا يصار إليه إلا عند عدم إمكان الجمع، وكذا عند التعارض، ولا تعارض هاهنا ثم إن الجمع ممكن، بأن يُقال إن آية النساء ليس فيها تعرض لذكر التوبة، فمن تاب تاب الله عليه حتى ولو كان كافرًا، لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ولقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* ثم إن القتل نفسه يُكفَّر إذا شاء الله، فإن الله قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

* وحديث قاتل المائة نفسًا شاهد بذلك أيضًا.

* وكذلك يمكن أن ينزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ..﴾،

على المستحلِّ، الذي يستحل قتل المؤمن لكونه مؤمنًا، والله أعلم.

* هذا وارجع إلى ما قاله الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير الآيات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ ويبقى فيه إلى ما لا نهاية في هوان. وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يقول تعالى ذكره: ومن يفعل هذه الأفعال التي ذكرها جل ثناؤه يلق أثاما ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ يقول: إلا من راجع طاعة الله تبارك وتعالى بتركه ذلك، وإنابته إلى ما يرضاه الله ﴿وَءَامَنَ﴾ يقول: وصدَّق بما جاء به محمد نبي الله ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ يقول: وعمل بما أمره الله من الأعمال، وانتهى عما نهاه الله عنه.

قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾. اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: فأولئك يبدل الله بقبائح أعمالهم في الشرك، محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدله بالشرك إيمانًا، وبقيل أهل الشرك بالله قيل أهل الإيمان به، وبالزنا عفة وإحصانًا.

قال الطبري:

وقال آخرون: بل معنى ذلك، فأولئك يبدل الله سيئاتهم في الدنيا حسنات لهم يوم القيامة.

قال أبو جعفر: وأولى التأويلين بالصواب في ذلك، تأويل من تأوّله: فأولئك يبدل الله سيئاتهم: أعمالهم في الشرك حسنات في الإسلام، بنقلهم عما يسخطه الله من الأعمال إلى ما يرضى.

وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لأن الأعمال السيئة قد كانت مضت على ما كانت عليه من القُبح، وغير جائز تحويل عين قد مضت بصفة إلى

خلاف ما كانت عليه إلا بتغييرها عما كانت عليه من صفتها في حال أخرى، فيجب إن فعل ذلك كذلك أن يصير شرك الكافر الذي كان شركًا في الكفر بعينه إيمانًا يوم القيامة بالإسلام ومعاصيه كلها بأعيانها طاعة، وذلك ما لا يقوله ذو حِجا.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يقول تعالى ذكره: وكان الله ذا عفو عن ذنوب من تاب من عباده، وراجع طاعته، وذا رحمة به أن يُعاقبه على ذنوبه بعد توبته منها. قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ يقول: ومن تاب من المشركين، فآمن بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يقول: وعمل بما أمره الله فأطاعه، فإن الله فاعل به من إبداله سيئ أعماله في الشرك بحسنها في الإسلام، مثل الذي فعل من ذلك بمن تاب وآمن وعمل صالحًا قبل نزول هذه الآية من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأورد أبو جعفر الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ قال: هذا للمشركين الذين قالوا لما أنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ... إلى قوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لأصحاب رسول الله ﷺ، ما كان هؤلاء إلا معنا، قال: ومن تاب وعمل صالحًا فإن لهم مثل ما لهؤلاء ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ لم تُحظر التوبة عليكم.

أما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد أورد عند تفسير هذه الآية الكريمة ما أخرجه الإمام أحمد[1] عن شَقيق، عن عبد الله -هو ابن مسعود- قال: سُئل رسول الله ﷺ أي: الذنب أكبر؟ قال: «**أن تَجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قال: ثم

---

(١) أحمد (١/ ٣٨٠).

أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعم معك**». قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

وأشار إلى ما أخرجه البخاري ومسلم[(١)] من طريق منصور وسليمان (الأعمش) عن أبي وائل عن أبي ميسرة عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**».

وأورد روايات أخر ثم قال:

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. رُوي عن عبد الله بن عمرو أنه قال: ﴿أَثَامًا﴾ وادٍ في جهنم.

وقال عكرمة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ أودية في جهنم يُعذَّب فيها الزناة. وكذا رُوي عن سعيد بن جبير، ومجاهد.

وقال قتادة: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ نكالًا كنا نحدث أنه وادٍ في جهنم.

وقال السدي: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾: جزاء.

وهذا أشبه بظاهر الآية؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلًا منه، وهو قوله: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يكرر عليه ويغلظ، ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ أي: حقيرًا ذليلًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: جزاؤه على ما فعل من

---

(١) البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ في الدنيا إلى الله من جميع ذلك، فإن الله يتوب عليه.

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة، فتحمل على من لم يتب؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة، ثم قد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقد ثبتت السنة الصحيحة، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل، كما ذكر مقررًا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب، وقَبِلَ منه، وغير ذلك من الأحاديث.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن أورد جملة من الآثار:

ثم قال تعالى مخبراً عن عموم رحمته لعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان، جليل أو حقير، كبير أو صغير فقال: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: فإن الله يقبل توبته، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: لمن تاب إليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ إخراج لعباده المؤمنين من

صفات الكفرة في عبادتهم الأوثان وقتلهم النفس بوأد البنات وغير ذلك من الظلم والاغتيال والغارات ومن الزنى الذي كان عندهم مباحًا.

وقال: قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان أو زنى بعد إحصان على ما تقدم بيانه في الأنعام ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ فيستحلون الفروج بغير نكاح ولا ملك يمين ودلت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير الحق ثم الزنى ولهذا ثبت في حد الزنى القتل لمن كان محصنًا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن.

وقال: و﴿يُضَٰعَفۡ﴾ بالجزم بدل من «يلق» الذي هو جزاء الشرط.

قال سيبويه: مضاعفة العذاب لقى الآثام. قال الشاعر:

متى تأتنا تلمم بنا في ديارنا ... تجد حطبًا جزلا ونارًا تأججا

وقال آخر:

إن علي الله أن تبايعا ... تؤخذ كرهًا أو تجيء طائعا

وأما الرفع ففيه قولان: أحدهما أن تقطعه مما قبله والآخر أن يكون محمولا على المعنى كأن قائلًا قال: ما لُقي الآثام فقيل له: يضاعف له العذاب و(مهانا) معناه ذليلًا خاسئًا مبعدًا مطرودًا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: الشرك بالله أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق أو الزنا فسوف ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ فالوعيد بالخلود لمن فعلها كلها ثابت لا شك فيه وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد

من هذه الثلاثة لكونها؛ إما شرك وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب فإنه لا يتناوله الخلود لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية أن جميع المؤمنين سيُخرجون من النار ولا يُخلَّد فيها مؤمن ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونصَّ تعالى على هذه الثلاثة لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

❁ ❁ ❁

المراد بتبديل السيئات إلى حسنات

س: ما المراد بتبديل السيئات حسنات في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾؟

ج: لأهل العلم أقوال في ذلك حاصلها ما يلي:

الأول: أنهم كانوا في جاهليتهم يعملون أعمالًا سيئة، فتكتب عليهم سيئات، فبعد أن آمنوا، عملوا أعمالًا صالحة فبدلًا من السيئات التي كانت تكتب عليهم أصبحت تُكتب لهم حسنات على أعمالهم الصالحة.

الثاني: أنهم لما عملوا السيئات استعظموا ذلك فكلما ذكروا السيئة التي عملوها أحدثوا استغفارًا وعملًا صالحًا، فكانت السيئة التي عملوها سببًا في أعمالٍ صالحة كثيرة عملوها، وعلى سبيل التقريب، قد يذنب الشخص ذنبًا كفارته صلاة ركعتين مثلًا فيصلي ركعتين، يُكفِّر الله بهما الذنب الذي ارتكب، ولكن العبد كلما ذكر الذنب استغفر وصلى وصام وتصدق وعمل صالحًا فكل ما يصنعه بعد أن غُفر ذنبه بصلاة ركعتين، فكل ما يصنع يُحصِّل مزيدًا

من الثواب والأجر، والله أعلم.

وأورد القرطبي وجهًا حاصله حمل الآية على ظاهرها فقال: فلا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾: في معنى قوله: ﴿ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ ﴾ قولان:

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ ﴾ قال: هم المؤمنون، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات، فرغب الله بهم عن ذلك فحوَّلهم إلى الحسنات، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات.

وقال سعيد بن جبير: أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالًا مع المسلمين للمشركين، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات.

وقال الحسن البصري: أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح، وأبدلهم بالشرك إخلاصًا، وأبدلهم بالفجور إحصانًا وبالكفر إسلامًا.

وهذا قول أبي العالية، وقتادة، وجماعة آخرين.

والقول الثاني: أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار. فيوم القيامة وإن وجده مكتوبًا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته، كما ثبتت السنة بذلك، وصحت به الآثار

المروية عن السلف -رحمهم الله تعالى-وهذا سياق الحديث-قال الإمام أحمد:

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث: أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف آخر أهل النار خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة: يُؤتى برجل فيقول: نَحّوا كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها، قال: فيُقال له: عملت يوم كذا وكذا كذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا؟ فيقول: نعم -لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا- فيُقال: فإن لك بكل سيئة حسنة. فيقول: يا رب، عملت أشياء لا أراها هاهنا**»[1]. قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا:

قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ لا يقال: من قام فإنه يقوم فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا أي فإني قدمتهم وفضلتهم على من قابل النبي ﷺ واستحل المحارم. وقال القفال: يحتمل أن يكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله وفليست تلك التوبة نافعة بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا أي تاب حق التوبة وهي النصوح ولذا أكد بالمصدر فـ ﴿ مَتَابًا ﴾ مصدر معناه التأكيد كقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] أي: فإنه يتوب إلى الله حقًّا فيقبل الله توبته حقا.

---

(١) مسلم (١٩٠)، وأحمد (٥/ ١٧٠).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: فليعلم أن توبته في غاية الكمال؛ لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه فليخلص فيها وليخلصها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا الحثُّ على تكميل التوبة وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها ليقدم على من تاب إليه فيوفيه أجره بحسب كمالها.

❁ ❁ ❁

س: هل صح لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ سبب نزول؟

ج: نعم صح لها سبب نزول، وذلك فيما أخرجه البخاري من طريق سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ أَبْزَى: «سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ - حَتَّى بَلَغَ - ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: فَقَدْ عَدَلْنَا بِاللهِ، وَقَدْ قَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِشَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ:- ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾»[1].

❁ ❁ ❁

س: مَنْ مِنَ العلماء الذين ذهبوا إلى أن الآية الكريمة: ﴿...وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ...﴾ منسوخة؟

---

(١) البخاري (٤٧٦٥)، ومسلم (١٨/ ١٥٩).

ج: ذهب إلى ذلك ابن عباس في بعض المرويات عنه، وذهب إلى أن ناسخها هو قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ...﴾ الآية.

أخرج البخاري[(١)] في صحيحه من طريق: الْقَاسِمُ بْنُ أَبِي بَزَّةَ أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ ابْنَ جُبَيْرٍ: هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فَقَالَ سَعِيدٌ: قَرَأْتُهَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا قَرَأْتَهَا عَلَيَّ فَقَالَ: هَذِهِ مَكِّيَّةٌ نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ.

ومن طريق سعيد[(٢)] بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْكُوفَةِ فِي قَتْلِ الْمُؤْمِنِ فَدَخَلْتُ فِيهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ: نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ وَلَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ.

وفي رواية أخرى[(٣)] عنه قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ٩٣]، قَالَ: لَا تَوْبَةَ لَهُ. وَعَنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قَالَ: كَانَتْ هَذِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وفي رواية أخرى عند البخاري[(٤)]: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: «أَمَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبْزَى أَنْ أَسْأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ وَعَنْ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (فتح الباري) في شرح ما تقدم:

(١) البخاري (٤٧٦٢).
(٢) البخاري (٤٧٦٣).
(٣) البخاري (٤٧٦٤).
(٤) البخاري (٤٧٦٦).

قَوْله: عَنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ فَسَأَلْته فَقَالَ : لَمْ يَنْسَخهَا شَيْء، وَعَنْ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي أَهْل الشِّرْك) هَكَذَا أَوْرَدَهُ مُخْتَصَرًا ، وَسِيَاق مُسْلِم مِنْ هَذَا الْوَجْه أَتَمّ ، وَأَتَمّ مِنْهُمَا مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَبْعَث مِنْ رِوَايَة جَرِير بِلَفْظِ: «هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مَا أَمْرَهُمَا ؟ الَّتِي فِي سُورَة الْفُرْقَان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ وَالَّتِي فِي سُورَة النِّسَاء ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا ﴾ قَالَ : سَأَلْت ابْن عَبَّاس فَقَالَ : لَمَّا أُنْزِلَتِ الَّتِي فِي سُورَة الْفُرْقَان قَالَ مُشْرِكُو مَكَّة: قَدْ قَتَلْنَا النَّفْس وَدَعَوْنَا مَعَ الله إِلَهًا آخَر وَأَتَيْنَا الْفَوَاحِش، قَالَ: فَنَزَلَتْ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ الْآيَة ، قَالَ : فَهَذِهِ لِأُولَئِكَ ، قَالَ : وَأَمَّا الَّتِي فِي سُورَة النِّسَاء فَهُوَ الَّذِي قَدْ عَرَفَ الْإِسْلَام ثُمَّ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّم لَا تَوْبَة لَهُ ، قَالَ . فَذَكَرْت ذَلِكَ لِمُجَاهِدٍ فَقَالَ : إِلَّا مَنْ نَدِمَ» وَحَاصِل مَا فِي هَذِهِ الرِّوَايَات أَنَّ ابْن عَبَّاس كَانَ تَارَة يَجْعَل الْآيَتَيْنِ فِي مَحَل وَاحِد فَلِذَلِكَ يَجْزِم بِنَسْخِ إِحْدَاهمَا ، وَتَارَةً يَجْعَل مَحَلَّهُمَا مُخْتَلِفًا . وَيُمْكِن الْجَمْع بَيْنَ كَلَامَيْهِ بِأَنَّ عُمُوم الَّتِي فِي الْفُرْقَان خَصَّ مِنْهَا مُبَاشَرَة الْمُؤْمِن الْقَتْل مُتَعَمِّدًا ، وَكَثِير مِنَ السَّلَف يُطْلِقُونَ النَّسْخ عَلَى التَّخْصِيص ، وَهَذَا أَوْلَى مِنْ حَمْل كَلَامه عَلَى التَّنَاقُض ، وَأَوْلَى مِنْ دَعْوَى أَنَّهُ قَالَ بِالنَّسْخِ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ . وَقَوْل ابْن عَبَّاس بِأَنَّ الْمُؤْمِن إِذَا قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا لَا تَوْبَة لَهُ مَشْهُور عَنْهُ ، وَقَدْ جَاءَ عَنْهُ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ أَصْرَح مِمَّا تَقَدَّمَ : فَرَوَى أَحْمَد وَالطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق يَحْيَى الْجَابِر وَالنَّسَائِيّ وَابْن مَاجَهْ مِنْ طَرِيق عَمَّار الذَّهَبِيّ كِلَاهُمَا عَنْ سَالِم بْن أَبِي الْجَعْد قَالَ : «كُنْت عِنْدَ ابْن عَبَّاس بَعْدَمَا كُفَّ بَصَره ، فَأَتَاهُ رَجُل فَقَالَ : مَا تَرَى فِي رَجُل قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ؟ قَالَ : جَزَاؤُهُ جَهَنَّم خَالِدًا فِيهَا ، وَسَاقَ الْآيَة

إِلَى ﴿عَظِيمًا﴾ قَالَ : لَقَدْ نَزَلَتْ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ ، وَمَا نَسَخَهَا شَيْء حَتَّى قُبِضَ رَسُول الله ﷺ ، وَمَا نَزَلَ وَحْي بَعْدَ رَسُول الله ﷺ . قَالَ : أَفَرَأَيْت إِنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ : وَأَنَّى لَهُ التَّوْبَة وَالْهُدَى» لَفْظ يَحْيَى الْجَابِر ، وَالْآخَر نَحْوه . وَجَاءَ عَلَى وَفْق مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْن عَبَّاس فِي ذَلِكَ أَحَادِيث كَثِيرَة: مِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَالنَّسَائِيُّ مِنْ طَرِيق أَبِي إِدْرِيس الْخَوْلَانِيّ عَنْ مُعَاوِيَة سَمِعْت رَسُول الله ﷺ يَقُول : «**كُل ذَنْب عَسَى الله أَنْ يَغْفِرَهُ؛ إِلَّا الرَّجُل يَمُوت كَافِرًا ، وَالرَّجُل يَقْتُل مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا**» وَقَدْ حَمَلَ جُمْهُور السَّلَف وَجَمِيع أَهْل السُّنَّة مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى التَّغْلِيظ ، وَصَحَّحُوا تَوْبَة الْقَاتِل كَغَيْرِهِ ، وَقَالُوا : مَعْنَى قَوْله : ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ أَيْ: إِنْ شَاءَ الله أَنْ يُجَازِيَهُ تَمَسُّكًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَة النِّسَاء أَيْضًا : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ وَمِنْ الْحُجَّة فِي ذَلِكَ حَدِيث الْإِسْرَائِيلِي الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ثُمَّ أَتَى تَمَام الْمِائَة فَقَالَ لَهُ: لَا تَوْبَة ، فَقَتَلَهُ فَأَكْمَلَ بِهِ مِائَةً . ثُمَّ جَاءَ آخَر فَقَالَ : «**وَمَنْ يَحُول بَيْنَك وَبَيْنَ التَّوْبَة**» الْحَدِيث ، وَهُوَ مَشْهُور ، وَسَيَأْتِي فِي الرِّقَاق وَاضِحًا . وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ لِمَنْ قَبْلَ مِنْ غَيْر هَذِهِ الْأُمَّة فَمِثْله لَهُمْ أَوْلَى لِمَا خَفَّفَ الله عَنْهُمْ مِنَ الْأَثْقَال الَّتِي كَانَتْ عَلَى مَنْ قَبْلَهُمْ[(١)].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾ .

---

(١) الفتح (٨/ ٣٥٤).

ج: أما قوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ ففيها وجهان:

أحدهما: لا يشهدون: لا يحضرون.

الثاني: لا يشهدون: لا يدلون بالشهادة أي أمام القضاء.

فعلى المعنى الأول.

لا يشهدون الزور: أي: لا يحضرون مجالس أهل الشرك بالله ولا مجالس اللغو والباطل والغناء الباطل ولا مجالس الكذب، فلا يشركون ولا يكذبون ولا يلغون.

الثاني: لا يدلون بالشهادات الكاذبة أمام القضاء والمُحكِّمين بين الناس.

والزور يُطلق على الميل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الكهف: ١٧] فالميل عن الحق إلى الباطل يطلق عليه زور.

أما اللغو: فالمراد به ما لا فائدة فيه من الكلام، وكذا كل ما هو مُضرٌ من الكلام فيدخل فيه الكلام البذيء الذي كان أهل الشرك يقولونه لأهل الإيمان. ويدخل فيه ذكر النكاح بلفظه الصريح في غير موطن.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: إذا مروا بأهل الشرك الذين يشتمونهم ويسبونهم لم يقابلوا السفاهات بمثلها بل أعرضوا عنه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] وكذا إذا ذُكر أمامهم الرفث فلا يقعون فيه ولا يتكلمون به، أي: لا يتكلمون في أمور النكاح بما لا فائدة فيه. وكذا إذا مروا بما لا فائدة فيه من الحديث تركوه.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

اختلف أهل التأويل في معنى الزور الذي وصف الله هؤلاء القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك بالله.

وقال آخرون: بل عني به الغناء.

وقال آخرون: هو قول الكذب.

قال أبو جعفر: وأصل الزور تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه، أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك، لأنه محسَّن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حقٌّ، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء؛ لأنه أيضًا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضًا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظن صاحبه أنه حقٌّ، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور.

فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل لا شركًا، ولا غناء، ولا كذبًا ولا غيره، وكل ما لزمه اسم الزور؛ لأن الله عمّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخصَّ من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنى اللغو الذي ذُكر في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ما كان المشركون يقولونه للمؤمنين، ويكلمونهم به من الأذى. ومرورهم به كرامًا إعراضهم عنهم وصفحهم.

وقال آخرون: بل معناه: وإذا مروا بذكر النكاح، كفُّوا عنه.

وقال آخرون: إذا مروا بما كان المشركون فيه من الباطل مروا منكرين له.

وقال آخرون: عُني باللغو هاهنا: المعاصي كلها.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، أن يقال: إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كرامًا، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح، فسب الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو. وذكر النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظَّموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه إذ كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو، أن يقال: عُني به بعض ذلك دون بعض؛ إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل. فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وإذا مرُّوا بالباطل فسمعوه أو رأوه، مرُّوا كرامًا، مرورهم كرامًا في بعض ذلك بأن لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أوذوا بإسماع القبيح من القول، وفي بعضه بأن يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأن يروا من المنكر ما يغير بالقول فيغيروه بالقول. وفي بعضه بأن يضاربوا عليه بالسيوف، وذلك بأن يروا قومًا يقطعون الطريق على قوم، فيستصرخهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكل ذلك مرورهم كرامًا.

وأورد ابن كثير أقوالًا في تفسير الزور نحوًا مما ذُكر وأدخل فيها الفسق وأعياد المشركين ومجالس السوء والخنا، وقال:

وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: شهادة الزور، وهي الكذب متعمدًا على غيره، كما ثبت في الصحيحين[١] عن أبي بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: «**الشرك بالله، وعقوق الوالدين**». وكان متكئًا فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**». فمازال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت.

والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أي: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مرُّوا، ولم يتدنسوا فيه بشيء؛ ولهذا قال: ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ .

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله والجدال الباطل والغيبة والنميمة والسب والقذف والاستهزاء والغناء المحرم وشرب الخمر وفرش الحرير، والصور ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية ككلام

(١) البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي: نزَّهوا أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه ورأوا أن الخوض فيه وإن كان لا إثم فيه فإنه سفهٌ ونقص للإنسانية والمروءة فربأوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد يكرمون أنفسهم عنه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

ج: هذا - والله أعلم - بيانٌ لحال أهل الإيمان إذا ذكَّرهم مُذكِّر بآيات الله ﷻ فإنهم ينتفعون بالذكرى، يصغون للآيات ويتفهمونها ويعملون بمقتضاها، لا يقابلونها مقابلة الأعمى ولا يستمعونها استماع الأصم بل يلقون القلوب حتى يستمعون الآيات، ويتدبرونها ويتبعون ذلك بالعمل. وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج الله، لم يكونوا صمًّا لا يسمعون، وعميًّا لا يبصرونها ولكنهم يِقَاظُ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن الله ما يذكِّرهم به، ويفهمون عنه ما يُنبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانًا سمعته، وقلوبًا وعته.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أَوَ يَخر

الكافرون صمًّا وعميانًا إذا ذكروا بآيات الله، فَيُنْفَى عن هؤلاء ما هو صفة للكفار؟ قيل: نعم، الكافر إذا تُليت عليه آيات الله خر عليها أصم وأعمى، وخره عليها كذلك: إقامته على الكفر، وذلك نظير قول العرب: سببت فلانا، فقام يبكي، بمعنى فظل يبكي، ولا قيام هنالك، ولعله أن يكون بكى قاعدا، وكما يقال: نهيت فلانًا عن كذا، فقعد يشتمني، ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظل يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكن ذلك قد جرى على ألسن العرب، حتى قد فهموا معناه. وذكر الفرَّاء أنه سمع العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هذه من صفات المؤمنين ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يُقْصر عما كان عليه، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي ذكر بآيات ربه، فاستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى.

قال مجاهد: قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ لم يسمعوا: ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئًا.

وقال الحسن البصري: كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى.

وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ يقول: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم -والله -قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي: إذا قرئ عليهم القرآن ذكروا آخرتهم ومعادهم ولم يتغافلوا حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع وقال: ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ ﴾ وليس ثَمَّ خرور كما يقال: قعد يبكي وإن كان غير قاعد قاله الطبري واختاره. قال ابن عطية: وهو أن يخروا صمًّا وعميانًا هي صفة الكفار وهي عبارة عن إعراضهم وقرن ذلك بقولك: قعد فلان يشتمني وقام فلان يبكي وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة. قال ابن عطية: فكأن المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر فإذا أعرض وضل كان ذلك خرورًا وهو السقوط على غير نظام وترتيب وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجدًا لكن أصله على غير ترتيب وقيل: أي: إذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم فخروا سجدًا وبكيًّا ولم يخروا عليها صمًّا وعميانًا. وقال الفراء: أي: لم يقعدوا على حالهم الأول كأن لم يسمعوا.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها.

﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها والصمم عن سماعها وصرف النظر والقلوب عنها كما يفعله من لم يؤمن بها ولم

يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٥] يقابلونها بالقبول والافتقار إليها والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم آذانًا سامعة وقلوبًا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم وتُحدث لهم نشاطًا ويفرحون بها سرورًا واغتباطًا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم -: أن أهل الإيمان، عباد الرحمن يدعون ربهم ويسألونه قائلين: يا ربنا هب لنا ما تقر به الأعين من أزواجنا وذرياتنا يعنون بذلك ما تستقر به الأعين فلا تنظر إلى أبناء الآخرين، ولا إلى أزواج الآخرين، ومن ذلك أن تكون الزوجة مطيعة لله ﷻ، وكذا يرى الأبناء والبنات مطيعين لله ﷻ، لا يجرون إليه الجرائر ولا يأتون يومًا بعد يوم المصائب، ومن دعاء أهل الإيمان أيضًا دعاؤهم بأن يكونوا أئمة في الخير يُقتدى بهم المتقون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: والذين يرغبون إلى الله في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرّ به أعيننا من أن تريناهم يعملون بطاعتك.

وأورد آثارًا بهذا المعنى مفادها أن تهتدي أزواجه وذريته للإسلام

ويعملون بطاعة الله ولا يجرون إليه الجرائر.

ثم قال:

وقيل: هب لنا قرة أعين، وقد ذكر الأزواج والذريات وهم جمع، وقوله: ﴿قُـرَّةَ أَعْيُنٖ﴾ واحدة لأن قوله: قرة أعين مصدر من قول القائل: قرّت عينك قرة، والمصدر لا تكاد العرب تجمعه.

وقوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمة يُقْتَدِي بنا من بعدنا.

وقال آخرون: بل معناه: واجعلنا للمتقين إمامًا: نأتم بهم، ويأتم بنا من بعدنا.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: واجعلنا للمتقين الذين يتقون معاصيك، ويخافون عقابك إمامًا، يأتمون بنا في الخيرات؛ لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمة ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إمامًا، وقال: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ولم يقل أئمة. وقد قالوا: واجعلنا وهم جماعة؛ لأن الإمام مصدر من قول القائل: أمّ فلان فلانًا إمامًا، كما يقال: قام فلان قيامًا وصام يوم كذا صيامًا. ومَنْ جمع الإمام أئمة، جعل الإمام اسمًا، كما يقال: أصحاب محمد إمام، وأئمة للناس. فمن وحّد قال: يأتم بهم الناس. وهذا القول الذي قلناه في ذلك قول بعض نحويّي أهل الكوفة. وقال بعض أهل البصرة من أهل العربية: الإمام في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ جماعة، كما تقول: كلهم عُدُول. قال: ويكون على الحكاية كما يقول القائل: إذا قيل له: من أميركم، هؤلاء أميرنا، واستشهد لذلك بقول الشاعر:

يـــا عـــاذِلاتي لا تُـــرِدْنَ مَلامَتِـــي   إنَّ الـــعوَاذِلَ لَسْـــنَ لـــي بأمِيـــرِ

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولـــه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعنـي: الذين يسألون الله أن يُخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له.

قال ابن عباس: يعنون من يعمل بالطاعة، فتقرُّ به أعينهم في الدنيا والآخرة.

وأورد آثارًا أُخر منها ما أخرجه أحمد وغيره من طريق صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ! لوددنا أنَّا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت. فاستغضب، فجعلت أعجبُ ما قال إلا خيرًا! ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى مَحْضَرًا غيَّبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبيًّا من الأنبياء في فترة من جاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان. فجاء بفُرقان فَرَّقَ به بين الحق والباطل، وفَرَّقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده، أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان، يعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار، وإنها التي قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ .

وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجوه[(١)].

وقوله: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، والربيع بن أنس: أئمة يقتدى بنا في الخير.

وقال غيرهم: هداة مهتدين، دعاة إلى الخير، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديًا إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثوابًا، وأحسن مآبًا؛ ولهذا ورد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده، أو صدقة جارية»**[(٢)].

وقال القرطبي رحمه الله:

وذلك أن الإنسان إذا بُورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة معاونون له على وظائف الدين والدنيا لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده فتسكن عينه عن الملاحظة ولا تمتد عينه إلى ما ترى، فذلك حين قرة العين وسكون النفس ووحد ﴿ قُرَّةَ ﴾ لأنه مصدر تقول: قرت عينك قرة وقرة العين يحتمل أن تكون من القرار ويحتمل أن تكون من القر وهو الأشهر، والقرُّ البرد؛ لأن العرب تتأذى بالحر وتستريح إلى البرد وأيضًا فإن دمع السرور بارد ودمع الحزن سخن فمن هذا يقال: أقر الله عينك وأسخن الله عين العدوِّ وقال الشاعر:

فكم سخنت بالأمس عين قريرة ... وقرت عيون دمعها اليوم ساكب

(١) أحمد (٢/ ٦)، والطبري (٢٦٥٦٠) وغيرهما.

(٢) مسلم (١٦٣١).

قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ أي: قدوة يقتدى بنا في الخير وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقيا قدوة وهذا هو قصد الداعي وفي الموطأ: (إنكم أيها الرهط أئمة يُقتدى بكم) فكان ابن عمر يقول في دعائه: اللهم اجعلنا من أئمة المتقين وقال: ﴿إِمَامًا ﴾ ولم يقل أئمة على الجمع؛ لأن الإمام مصدر يقال: أمَّ القوم فلان إمامًا مثل الصيام والقيام وقال بعضهم: أراد أئمة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أولئك الذين تقدمت أوصافهم وأعمالهم ومعتقداتهم، وهم عباد الرحمن يجازيهم الله ﷻ يوم القيامة أحسن الجزاء، يُجازيهم الغرفة وهي غرفة عَليَّة في الجنة، ومنزلة سامية فيها كما في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمَا ... ».

يجازيهم الله بهذه الغرف بسبب صبرهم على الطاعات وعلى أقدار الله ﷻ وعلى التمسك بشرائعه، وكذا بصبرهم عن المحرمات وعدم فعلها وتدخل عليهم الملائكة بالتحيات والتبريكات كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وكذا تحية من الله وسلامًا من الله، سلام قولًا من ربٍّ رحيم، فضلًا عن سلام بعضهم على بعض، هذا وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٦] أي: ماكثين فيها، لا يتحولون ولا يرغبون في التحول فقد حَسُنَتْ قرارًا وإقامة فنعم

المستقر ونعم محل الإقامة.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفت صفتهم من عبادي، وذلك من ابتداء قوله: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ ... إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا ﴾... الآية ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ يقول: يُثابون على أفعالهم هذه التي فعلوها في الدنيا ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ وهي منزلة من منازل الجنة رفيعة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ يقول: بصبرهم على هذه الأفعال، ومقاساة شدتها. وقوله: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ اختلفت القرَّاء في قراءته، فقرأته عامة قرَّاء أهل المدينة والبصرة ﴿وَيُلَقَّوۡنَ﴾ مضمومة الياء، مشدَّدة القاف، بمعنى: وتتلقاهم الملائكة فيها بالتحية. وقرأ ذلك عامة قرَّاء الكوفة: «وَيَلْقَوْنَ» بفتح الياء، وتخفيف القاف.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان في قَرَأة الأمصار بمعنى واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجب القراءتين إليّ أن أقرأ بها «وَيَلْقَوْنَ فِيهَا» بفتح الياء، وتخفيف القاف؛ لأن العرب إذا قالت ذلك بالتشديد، قالت: فلان يُتَلَقَّى بالسلام وبالخير ونحن نتلقاهم بالسلام، قرنته بالياء وقلما تقول: فلان يُلقَّى السلام، فكان وجه الكلام لو كان بالتشديد، أن يقال: ويُتَلَقَّوْنَ فيها بالتحية والسلام.

وإنما اخترنا القراءة بذلك، كما تجيز أخذت بالخطام، وأخذت الخطام.

وقد بيَّنا معنى التحية والسلام فيما مضى قبل، فأغني عن إعادته في هذا

الموضع.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره: أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، خالدين في الغرفة، يعني: أنهم ماكثون فيها، لابثون إلى غير أمد، حَسُنَت تلك الغرفة قرارًا لهم ومقامًا. يقول: وإقامة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿ يُجۡزَوۡنَ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ ٱلۡغُرۡفَةَ ﴾ وهي الجنة.

قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسُّدِّيُّ: سُمِّيت بذلك لارتفاعها.

﴿ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: على القيام بذلك ﴿ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا ﴾ أي: في الجنة ﴿ تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ أي: يُبْتَدءُون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار.

وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ﴾ أي: مقيمين لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولًا كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [هود: ١٠٨].

وقوله: ﴿ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ أي: حَسُنَت منظرًا وطابت مَقيلًا ومنزلًا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين المعاندين لا يبالي بكم ربي ﷻ إذا لم تعبدوه، لا يُبالي بكم لولا إيمان الذين يؤمنون منكم، فهم سبب في إمهال الله لكم، أما أنتم يا مَنْ بقيتم على الكفر وقد كذبتم فسوف يكون العذاب حالًّا بكم ملازمًا لكم، لزامًا سيكون العذاب، وقيل: إن اللزام هو العذاب نفسه، العذاب الملازم، هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن اللزام قد مضى يوم بدر، ففي الصحيح[1] عن ابن مسعود قال: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ الدُّخَانُ وَالْقَمَرُ وَالرُّومُ وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

وذهب آخرون من العلماء إلى أن اللزام سيكون يوم القيامة، ولا تعارض فالعذاب ملازم لهم منذ أن قُتلوا إلى يوم القيامة إلى ما لا نهاية له.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾ يقول جلّ ثناؤه لنبيه: قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلت إليهم: أي شيء يَعُدكم، وأي شيء يصنع بكم ربي؟ يقال منه: عبأت به أعبأ عبئًا، وعبأت الطيب أعبؤه: إذا هيأته، كما قال الشاعر:

كَأَنَّ بِنَحْرِهِ وبِمَنْكِبَيْهِ عَبِيرًا بَاتَ يَعْبَؤُهُ عَرُوسُ

يقول: يهيئه ويعمله يعبؤه عبًّا وعبوءًا، ومنه قولهم: عَبَّأت الجيش بالتشديد والتخفيف فأنا أعبئه: أُهَيِّئُهُ والعبءُ: الثقل.

وقال:

وقوله: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ يقول: لولا عبادة من يعبده منكم، وطاعة من يطيعه منكم.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يقول تعالى ذكره لمشركي قريش قوم رسول الله ﷺ:

---

(١) البخاري (حديث ٤٧٦٧).

فقد كذبتم أيها القوم رسولكم الذي أُرسل إليكم وخالفتم أمر ربكم الذي أمر بالتمسك به لو تمسكتم به، كان يعبأ بكم ربي، فسوف يكون تكذيبكم رسول ربكم، وخلافكم أمر بارئكم، عذابًا لكم ملازمًا، قتلًا بالسيوف وهلاكًا لكم مفنيًا يلحق بعضكم بعضًا، كما قال أبو ذُؤَيب الهُذَليّ:

فَفاجَــــأَهُ بِعادِيَــــةٍ لِــــزَامٍ كمَــا يَتَفَجَّــرُ الحَــوْضُ اللَّقِيــفُ

يعني باللزام: الكبير الذي يتبع بعضه بعضًا، وباللقيف: المتساقط الحجارة المتهدِّم، ففعل الله ذلك بهم، وصدقهم وعده، وقتلهم يوم بدر بأيدي أوليائه، وألحق بعضهم ببعض، فكان ذلك العذاب اللزام.

وقال آخرون: معنى اللزام: القتال.

وقال آخرون: اللزام: الموت.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال بعض أهل العلم بكلام العرب: معنى ذلك: فسوف يكون جزاء يلزم كل عامل ما عمل من خير أو شرّ. وقد بيَّنا الصواب من القول في ذلك. وللنصب في اللزامِ وجه آخر غير الذي قلناه، وهو أن يكون في قوله (يَكُون) مجهول، ثم يُنصب اللزام على الخبر كما قيل:

إِذَا كــان طَعْنًــا بَيْــنَهُمْ وَقِتــالا

وقد كان بعض من لا علم له بأقوال أهل العلم يقول في تأويل ذلك: قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم ما تَدْعون من دونه من الآلهة والأنداد، وهذا قول لا معنى للتشاغل به لخروجه عن أقوال أهل العلم من أهل التأويل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾ أي: لا يُبالي بكم ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخَلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلًا.

وقال مجاهد، وعمرو بن شعيب: ﴿ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم؛ إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبَّب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين.

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أي: أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مقتضيًا لهلاككم وعذابكم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسَّره بذلك عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما. والله أعلم.

تفسير سورة الشعراء

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿طسٓمٓ (١) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
(٣) إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤)
وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ (٥) فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ
أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٦) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ
(٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
(٩)﴾ [الشعراء: ١-٩].

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿بَٰخِعٞ - ءَايَةً - أَعۡنَٰقُهُمۡ - خَٰضِعِينَ - ذِكۡرٖ - مُحۡدَثٍ - مُعۡرِضِينَ - أَنۢبَٰٓؤُاْ - زَوۡجٖ - كَرِيمٍ - لَأٓيَةٗ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿بَٰخِعٞ﴾	مهلكٌ – قاتلٌ
﴿ءَايَةً﴾	معجزة – أو عظيم يخشون معه الهلاك
﴿أَعۡنَٰقُهُمۡ﴾	رقابهم – أعناق الرجال، وقيل: كبراء القوم وساداتهم
﴿خَٰضِعِينَ﴾	ذليلين – صغيرين
﴿ذِكۡرٖ﴾	تذكيرٌ (بكتاب الله وآياته)
﴿مُحۡدَثٍ﴾	حديث نزوله
﴿مُعۡرِضِينَ﴾	منصرفين – مدبرين
﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾	أخبار – حقائق
﴿زَوۡجٖ﴾	صنف (من أصناف النباتات)
﴿كَرِيمٍ﴾	حسن
﴿لَأٓيَةٗ﴾	لمعجزة - لدلالة

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: ط، وس، وم، تلك الأحرف التي لا يعلم

معناها هنا إلا الله، تلك الأحرف التي تقرؤونها وتكتبونها، هي التي منها آيات هذا القرآن الموضح المظهر للحقائق والأحكام والتشريعات، ومع كونكم تعرفونها لكن لا تستطيعوا أن تؤلفوا منها آية ولا سورة.

أما قوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ ألا يكونوا مؤمنين، فهذا، وإن كانت صورته صورة الخبر لكن معناه النهي، وحاصل المعنى: لا تقتل نفسك ولا تهلكها بسبب كفرهم وعدم إيمانهم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام على قول ابن عباس والجميع: إن هذه الآيات التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذه السورة لآيات الكتاب الذي أنزلته إليه من قبلها الذي بيَّن لمن تدبره بفهم، وفكَّر فيه بعقل، أنه من عند الله جلّ جلاله، لم يتخرَّصه محمد ﷺ ، ولم يتقوّله من عنده، بل أوحاه إليه ربه.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به والبخْع: هو القتل والإهلاك في كلام العرب؛ ومنه قول ذي الرُّمة:

ألا أيُّهَذا الباخعُ الوَجْدُ نَفْسَهُ ... لشَيْءٍ نَحَتْهُ عَنْ يَدَيْهِ المَقادِرُ

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البين الواضح، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

وقوله: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ ﴾ أي: مهلك ﴿ نَّفۡسَكَ ﴾ أي: مما تحرص عليهم

وتحزن عليهم ﴿ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسلية من الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف:٦].

❁ ❁ ❁

لا تذهب النفس حسرات على أهل الكفر

س: اذكر بعض الآيات في معنى قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

ج: في معناها ما يلي:

قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨] والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

ج: المعنى- والله أعلم -: إن نشأ أجبرناهم على الإيمان ولم نترك لهم أي اختيار بل لأنزلنا عليهم معجزة من السماء محذرةً لهم إما أن يذعنوا ويؤمنوا وإلا أهلكناهم، وإما أن يخضعوا وتخضع رقابهم ويستسلموا وإلا أهلكناهم، وكما قال تعالى في شأن بني إسرائيل: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ... ﴾ [الأعراف: ١٧١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرًا، ولكنَّا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، فنَفَذ قَدَرُه، ومضت حكمته، وقامت حُجته البالغة على خَلْقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالأعناق هنا كبراء القوم وسادات القوم، فيكون المعنى: ولو نشاء لأنزلنا آية تقهر هؤلاء الكبراء وتجبرهم على الإيمان إلا أن هذا القول بعيدٌ هاهنا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك أن تكون الأعناق هي أعناق الرجال، وأن يكون معنى الكلام: فظلت أعناقهم ذليلة، للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء، وأن يكون قوله «خاضعين» مذكرًا؛ لأنه خبر عن الهاء والميم في الأعناق، فيكون ذلك نظير قول جرير:

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ

وذلك أن قوله: مرَّ، لو أسقط من الكلام، لأدى ما بقي من الكلام عنه ولم يفسد سقوطه معنى الكلام عما كان به قبل سقوطه، وكذلك لو أسقطت الأعناق من قوله: فظلت أعناقهم، لأدى ما بقي من الكلام عنها، وذلك أن

الرجال إذا ذُلوا، فقد ذلت رقابهم، وإذا ذلت رقابهم فقد ذلوا.

فإن قيل في الكلام: فظلوا لها خاضعين، كان الكلام غير فاسد، لسقوط الأعناق، ولا متغير معناه عما كان عليه قبل سقوطها، فصرف الخبر بالخضوع إلى أصحاب الأعناق، وإن كان قد ابتدأ بذكر الأعناق لما قد جرى به استعمال العرب في كلامهم، إذا كان الاسم المبتدأ به، وما أُضيف إليه يؤدي الخبر كل واحد منهما عن الآخر.

❁ ❁ ❁

معنى قوله تعالى (مُحدثٍ)

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وما يأتي هؤلاء المشركين من تذكيرٍ من ربهم ﷻ بآياته التي ينزلها على نبيه ﷺ حديثُ نزولها إلا ازدادوا إعراضًا ونفورًا وانصرافًا عن الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك ويجحدون ما أتيتهم به يا محمد من عند ربك من تذكير وتنبيه على مواضع حُجج الله عليهم على صدقك، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يحدثه الله إليك ويوحيه إليك، لتذكرهم به، إلا أعرضوا عن استماعه، وتركوا إعمال الفكر فيه وتدبيره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ

حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال: ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس:٣٠]، وقال: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: فقد كذب أهل الشرك هؤلاء بالقرآن المنزل عليك يا رسول الله، وكذبوا نبوتك وكذبوا بوحدانية الله ﷻ وكذبوا بالبعث بعد الموت فسوف يأتيهم وقت تتبين لهم فيه حقائق الأمور التي كذبوا بها واستهزءوا بها. وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فقد كذب يا محمد هؤلاء المشركون بالذكر الذي أتاهم من عند الله، وأعرضوا عنه ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يقول: فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون منه، وذلك وعيد من الله لهم أنه محل بهم عقابه على تماديهم في كفرهم، وتمرُّدهم على ربهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ﴾ أي: أعرضوا ومن أعرض عن شيء ولم يقبله فهو تكذيب له ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وعيد لهم أي: فسوف يأتيهم عاقبة ما

كذبوا والذي استهزؤوا به .

❃ ❃ ❃

لفت النظر إلى الأدلة الكونية

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أو لم ير هؤلاء المعرضون عن القرآن المكذبون بالبعث بعد الموت، المنكرون وحدانية الله ﷻ ونبوتك، أولم ير هؤلاء قدرة الله ﷻ تلك التي أراهم بعض مظاهرها من إحياء الأرض الميتة بما ينزله من السماء من ماء فيُحييها به وينبت فيها من كل صنفٍ بهيج حسن إن في إحيائه بعد موتها لدلالة على البعث بعد الموت، فالذي أحياها يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، ولكن من الذي يستفيد من هذا ومن ذا الذي يعقل؟ إنهم أهل إيمان، ولكن أكثر الناس ما هم بمؤمنين ولا بمستفيدين، وإن ربك لهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغلب ولا يُردُّ قوله ولا يُردُّ أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أولم ير هؤلاء المشركون المكذِّبون بالبعث والنشر إلى الأرض، كم أنبتنا فيها بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يعني بالكريم: الحسن، كما يقال للنخلة الطيبة الحمل: كريمة، وكما يقال للشاة أو الناقة إذا غزرتا، فكثرت ألبانهما: ناقة كريمة، وشاة كريمة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: إن في إنباتنا في الأرض من كلِّ زوج كريم لآية. يقول:

لدلالة لهؤلاء المشركين المكذِّبين بالبعث، على حقيقته، وأن القدرة التي بها أنبت الله في الأرض ذلك النبات بعد جدوبها، لن يُعجزه أن يُنْشر بها الأموات بعد مماتهم، أحياء من قبورهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يقول: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين بالبعث، الجاحدين نبوتك يا محمد، بمصدقيك على ما تأتيهم به من عند الله من الذكر.

يقول جلَّ ثناؤه: وقد سبق في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بك أكثرهم للسابق من علمي فيهم. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يقول: وإن ربك يا محمد لهو العزيز في نقمته، لا يمتنع عليه أحد أراد الانتقام منه. يقول تعالى ذكره: وإني إن أحللت بهؤلاء المكذبين بك يا محمد، المعرضين عما يأتيهم من ذكر من عندي، عقوبتي بتكذيبهم إياك، فلن يمنعهم مني مانع؛ لأني أنا العزيز الرحيم، يعني أنه ذو الرحمة بمن تاب من خلقه من كفره ومعصيته، أن يُعاقبه على ما سلف من جرمه بعد توبته.

قال أبو جعفر: وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك في هذا الموضع؛ لأن قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ عقيب وعيد الله قومًا من أهل الشرك والتكذيب بالبعث، لم يكونوا أُهلكوا، فيوجه إلى أنه خبر من الله عن فعله بهم وإهلاكه. ولعل ابن جُرَيج بقوله هذا أراد ما كان من ذلك عقيب خبر الله عن إهلاكه من أهلك من الأمم، وذلك إن شاء الله إذا كان عقيب خبرهم كذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نبَّه على عظمته وقدرته وأنهم لو رأوا بقلوبهم ونظروا ببصائرهم لعلموا أنه الذي يستحق أن

يعبد؛ إذ هو القادر على كل شيء والزوج هو اللون قاله الفراء ﴿كَرِيمٍ﴾ حسن شريف وأصل الكرم في اللغة الشرف والفضل فنخلة كريمة أي فاضلة كثيرة الثمر ورجل كريم شريف فاضل صفوح ونبتت الأرض وأنبتت بمعنى وقد تقدم في سورة (البقرة) والله سبحانه هو المخرج والمنبت له ورُوي عن الشعبي أنه قال: الناس من نبات الأرض، فمن صار منهم إلى الجنة فهو كريم ومن صار إلى النار فهو لئيم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: فيما ذكر من الإنبات في الأرض لدلالته على أن الله قادر لا يعجزه شيء ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مصدقين لما سبق من علمي فيهم و﴿كَانَ﴾ هنا صلة في قول سيبويه تقديره: وما أكثرهم مؤمنين. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يريد المنيع المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم نبَّه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: الذي عَزَّ كلَّ شيء وقهره وغلبه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(٢٥٥) أحمر أسود

شيء من قصة موسى عليه السلام

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾
وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ
﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا
خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا
بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ
هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

[الشعراء: ١٠-٣٧].

(٢٥٧) أحمر أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱئْتِ - يَتَّقُونَ - فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ - وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ - بِـَٔايَٰتِنَآ - وَلِيدًا - ٱلْكَٰفِرِينَ - ٱلضَّآلِّينَ - حُكْمًا - تَمُنُّهَا عَلَيَّ - عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ - مُّوقِنِينَ - بِشَيْءٍ مُّبِينٍ - وَنَزَعَ يَدَهُۥ - فَمَاذَا تَأْمُرُونَ -أَرْجِهْ -حَٰشِرِينَ-عَلِيمٍ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱئْتِ﴾	اذهب إلى
﴿يَتَّقُونَ﴾	يجعلون وقاية بينهم وبين عذاب الله (بترك الشرك وبترك الكبائر والإجرام)
﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾	فاجعله رسولًا وأرسل إليه وحيًا
﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾	لهم عليَّ قودٌ، ذنبٌ ارتكبته في حقهم بقتل نفس منهم
﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	بحججنا، وأدلتنا
﴿وَلِيدًا﴾	في صغرك
﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	الجاحدين
﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾	الجاهلين
﴿حُكْمًا﴾	نبوةً
﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾	تتفضل عليَّ به وتعيِّرني بها
﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	جعلتهم عبيدًا عندك

﴿مُّوقِنِينَ﴾	مُصدقين
﴿بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾	بحجة تظهر صدقي وتدل عليه
﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾	أخرج يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه
﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾	فماذا تشيرون عليَّ
﴿أَرۡجِهۡ﴾	أخِّره – أمهله
﴿حَٰشِرِينَ﴾	جامعين يجمعون الناس لك لملاقاة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ
﴿عَلِيمٖ﴾	عالم بالسحر

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١﴾.

ج: المعنى: وإذ كلَّم الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وناداه ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] أن اذهب يا موسى إلى آل فرعون، إلى هؤلاء الظالمين الذين قال كبيرهم: إني ربكم الأعلى فصدقوه، الذين قال لهم كبيرهم: ما علمت لكم من إله غيري فاستمعوا له وأطاعوا وأقروا له وأذعنوا، اذهب إلى هؤلاء الذين طغوا وبغوا وقتلوا العباد وشردوهم وذبحوا الأبناء واستحيوا النساء، اذهب إلى هؤلاء قوم فرعون فذكرهم بوحدانية الله وحذرهم من سوء عاقبة أعمالهم وشركهم وكفرهم لعلهم يحذرون عذاب الله فيتقونه ويتقوا أسبابه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى بن عمران ﴿أَنِ ٱئۡتِ

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الكافرين قوم فرعون، ونصب القوم الثاني ترجمة عن القوم الأوَّل، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يقول: ألا يتقون عقاب الله على كفرهم به. ومعنى الكلام: قوم فرعون فقل لهم: ألا يتقون. وترك إظهار فقل لهم لدلالة الكلام عليه. وإنما قيل: ألا يتقون بالياء، ولم يقل ألا تتقون بالتاء؛ لأن التنزيل كان قبل الخطاب، ولو جاءت القراءة فيها بالتاء كان صوابًا، كما قيل: (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ) و﴿سَتُغْلَبُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

ج: هذه أمورٌ ذكرها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كلَّفه الله عَزَّ وَجَلَّ بالذهاب إلى فرعون ونصحه وتذكيره وتحذيره من العاقبة السيئة إذا هو مات على كفره وطغيانه، وليست هذه الأمور التي ذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبًا لمعافاته من الرسالة والتكليف ولكن ذكرها عَلَيْهِ السَّلَامُ طلبًا من الله عَزَّ وَجَلَّ وسؤالًا كي يتفضل عليه ربُّه عَزَّ وَجَلَّ ويكرمه بأن يجعل أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيًّا كي يُعينه على ما كلَّف به.

* أما عن معنى الآيات – والله أعلم – قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال الله له: ﴿ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، قال ربِّ: إني أخاف أن يكذبوني فيما أدعوهم إليه، يصفونني بالكذب فإذا وصفوني بذلك ضاق صدري، ولم يستطع لساني أن يتكلم مدافعًا عني، وذلك للعقدة التي كانت في لسانه؛ إذ قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فأرسل يا رب إلى هارون اجعله يا رب نبيًّا، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٠-٣٥].

وكما قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤].

أما قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: ولقد قتلت منهم نفسًا فأخاف أن يقتلوني بها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ موسى لربه ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ من قوم فرعون الذين أمرتني أن آتيهم ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بقيلي لهم: إنك أرسلتني إليهم. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ من تكذيبهم إياي إن كذبوني. ورفع قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ عطفا به على أخاف، وبالرفع فيه قرأته عامة قرَّاء الأمصار، ومعناه: وإني يضيق صدري. وقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ يقول: ولا ينطق بالعبارة عما ترسلني به إليهم، للعلة التي كانت بلسانه. وقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ كلام معطوف به على يضيق. وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ يعني هارون أخاه، ولم يقل: فأرسل إليّ هارون ليؤازرني وليعينني؛ إذ كان مفهومًا معنى الكلام، وذلك كقول القائل: لو نزلت بنا نازلة لفزعنا إليك، بمعنى: لفزعنا إليك لتُعيننا. وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ يقول: ولقوم فرعون عليَّ دعوى ذنب أذنبت إليهم، وذلك قتله النفس التي قتلها منهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٢٥-٣٦].

وقولـه: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ أي: بسبب ما كان قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ في المحاجة على ما أحب وكان في لسانه عقدة على ما تقدم في (طه) ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴾ أرسل إليه جبريل بالوحي واجعله رسولًا معي ليؤازرني ويظاهرني ويعاونني ولم يذكر هنا ليُعينني لأن المعنى كان معلومًا وقد صرح به في سورة (طه): ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا ﴾ [طه : ٢٩] وفي القصص : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ [القصص : ٣٤] وكأن موسى أذن له في هذا السؤال ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يُعينه ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ويخاف من نفسه تقصيرًا أن يأخذ من يستعين به عليه ولا يلحقه في ذلك لوم ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ الذنب هنا قتل القبطي.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم–: أن الله ﷻ قال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لن يقتلك فرعون ولن ينالك بسوء فاذهب أنت وأخوك هارون بأدلتنا وحججنا فإننا مستمعون لكما ولما يُقال لكما. كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

هذا، وأنبه هنا على الخطإ الجسيم الذي وقع من الإمام القرطبي عفا الله عنه وتجاوز إذ نفى عن الله ﷻ صفة الاستماع فقال:

﴿مُّسْتَمِعُونَ ﴾ أي سامعون ما يقولون وما يجاوبون وإنما أراد بذلك تقوية قلبيهما وأنه يُعينهما ويحفظهما والاستماع إنما يكون بالإصغاء ولا يوصف

الباري سبحانه بذلك وقد وصف سبحانه نفسه بأنه السميع البصير وقال في (طه): ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦].

قلت (مصطفى): هكذا قال: ونفى الاستماع، وقد أثبته الله ﷻ لنفسه فينتبه لمثل هذه الأقوال الشاذة المخالفة لنهج أهل السنة والجماعة، بل المخالفة لسياق الكتاب العزيز، وليُحذر من مثلها.

ثم هذه بعض أقوال العلماء في الآية الكريمة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَلَّا﴾: أي: لن يقتلك قوم فرعون. ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ يقول: فاذهب أنت وأخوك بآياتنا، يعني بأعلامنا وحُججنا التي أعطيناك عليهم. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ من قوم فرعون ما يقولون لكم، ويجيبونكم به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك كما قال: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا ﴾ أي: برهانًا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [القصص:٣٥].

﴿ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي.

قلت (مصطفى): أما لماذا قال: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ ولم يقل معكما فقد أجاب عنه **القرطبي بقوله:**

وقال: ﴿ مَعَكُم ﴾ فأجراهما مجرى الجمع؛ لأن الاثنين جماعة ويجوز أن يكون لهما ولمن أرسلا إليه ويجوز أن يكون لجميع بني إسرائيل.

❁ ❁ ❁

س: ما المراد بالآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾؟

ج: من ذلك العصا واليد، والله أعلم.

س: قول فرعون -عليه لعنة الله- لموسى عليه السلام ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ما المراد بالفعلة وما المراد بقوله: ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؟

ج: أما الفعلة فهي قتل القبطي؛ إذ الله قال: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

أما قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ففيه وجهان:

أحدهما: أنك كفرت بنعمنا عليك وإحساننا إليك وتربيتنا لك، كفرت بكل هذا، وقتلت واحدًا منا فالكفر هاهنا كفر النعم.

الثاني: أن المراد وأنت من الكافرين بالله فقد كنت معنا على ديننا قبل أن ترجع إلينا بقولك الذي جئتنا به الآية.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنت من الكافرين بالله على ديننا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن السُّدي: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ يعني: على ديننا هذا الذي تعيب.

قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأنت من الكافرين نعمتنا عليك.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ

﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ قال: ربيناك فينا وليدا، فهذا الذي كافأتنا أن قتلت منا نفسا، وكفرت نعمتنا!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا القول الذي قاله ابن زيد أشبه بتأويل الآية؛ لأن فرعون لم يكن مقرًّا لله بالربوبية وإنما كان يزعم أنه هو الربُّ، فغير جائز أن يقول لموسى إن كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السدي: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنت من الكافرين يومئذٍ يا موسى، على قولك اليوم، فيكون ذلك وجهًا يتوجه. فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منَّا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه.

وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك، وتربيتي إياك.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى في كلام فرعون لموسى: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾.

أبهم جلَّ وعلا هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾، وقد أوضحها في آيات أُخر، وبيَّن أن الفعلة المذكورة هي قتله نفسًا منهم؛ كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾ [القصص: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ [القصص: ٣٣]، وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث بموسى مرّتين: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: ١٩].

وأظهر الأقوال عندي في معنى قوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾، أن المراد به كفر النعمة، يعني: أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيرًا، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفسًا منّا، وباقي الأقوال تركناه؛ لأن هذا أظهرها عندنا.

وقال بعض أهل العلم: ردّ موسى على فرعون امتنانه عليه بالتربية، بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: ٢٢]، يعني: تعبيدك لقومي، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إليّ؛ لأني رجل واحد منهم، والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾.

ج: قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾.

أي: قال موسى مجيبًا لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾، أي: إذ فعلتها ﴿وَأَنَا۠﴾ في ذلك الحين ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾، أي: قبل أن يوحي الله إليّ، ويبعثني رسولًا، وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - في معنى الآية.

وقول من قال من أهل العلم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾، أي: من الجاهلين، راجع إلى ما ذكرنا؛ لأنه بالنسبة إلى ما علمه الله من الوحي يعتبر قبله جاهلًا، أي: غير عالم بما أوحى الله إليه.

وقد بيَّنا مرارًا في هذا الكتاب المبارك أن لفظ الضلال يطلق في القرآن، وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الإطلاق الأوّل: يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء، فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء: ضلّ عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين.

ومن هذا المعنى قوله هنا: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾، أي: من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأني في ذلك الوقت لم يوحَ إليّ، ومنه على التحقيق: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى: ٧]، أي: ذاهبًا عمّا علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٥٢]، فقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عنه علم شيء كائنًا ما كان، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾، أي: تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: ٨]، وقوله: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥]، على التحقيق في ذلك كلّه. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظنّ سلمى أنني أبغي بها ... بدلًا أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة، وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحقّ إلى الباطل، وعن طريق الجنّة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال، تقول

العرب: ضلّ الشيء إذا غاب واضمحلّ، ومنه قولهم: ضلّ السمن في الطعام، إذا غاب فيه واضمحلّ، ولأجل هذا سمّت العرب الدفن في القبر إضلالًا؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحلّ.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [السجدة: ١٠]، يعنون: إذا دفنوا وأكلتهم الأرض، فضلوا فيها، أي: غابوا فيها واضمحلّوا.

ومن إطلاقهم الإضلال على الدفن، قول نابغة ذبيان يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني:

فإن تحيى لا أملك حياتي وإن تمت ... فما في حياة بعد موتك طائل

فآب مضلّوه بعين جلية ... وغودر بالجولان حزم ونائل

وقول المخبل السعدي يرثي قيس بن عاصم:

أضلّت بنو قيس بن سعد عميدها ... وفارسها في الدهر قيس بن عاصم

فقول الذبياني: فآب مضلّوه، يعني: فرجع دافنوه، وقول السعدي: أضلّت، أي: دفنت، ومن إطلاق الضلال أيضًا على الغَيبة والاضمحلال قول الأخطل:

كنت القذى في موج أكدر مزيد ... قذف الأتي به فضلّ ضلالا

وقول الآخر:

ألم تسأل فتخبرك الديار ... عن الحي المضلل أين ساروا

وزعم بعض أهل العلم أن للضلال إطلاقًا رابعًا، قال: ويطلق أيضًا على المحبّة، قال: ومنه قوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥﴾ [يوسف: ٩٥]، قال: أي في حبّك القديم ليوسف، قال: ومنه قول الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفرقا والعارضين ولم أكن متحققا
عجبًا لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وزعم أيضًا أن منه قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: ٧]، قال: أي محبًّا للهداية فهداك، ولا يخفى سقوط هذا القول، والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: الخوف الجبلِّي قد يتسرب إلى أهل الفضل والصلاح. دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول موسى عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: ٦٧].

وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١].

وقوله تعالى في شأن أهل الإيمان: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقول يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ..﴾ [يوسف: ١٣]؛ والله أعلم.

قال القرطبي رحمه الله:

وخاف موسى أن يقتلوه له ودلَّ على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله وأن لا فاعل إلا هو؛ إذ يسلط من شاء على من شاء.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾.

ج: في هذا وجهان لأهل العلم:

أحدهما: أن هذا استنكار.

والمعنى: أو هذه نعمة تمتنُّ بها عليَّ وقد استعبدت أهلي وذبحتهم.

الثاني: أن هذا من الإقرار بالنعم، وكأنه قال له قد ذكرت أنك ربيتني في بيتك وأحسنت إلي وقد لبثت فيكم سنين ولك أيضًا أن تمتن عليَّ بنعمة أُخرى وهي أنك جعلت بني إسرائيل عبيدًا لك ولم تجعلني عبدًا لك، أي عبدت بني إسرائيل وتركتني، والله أعلم.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾.

أي: تدلي علي بهذه المنة؛ لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور، يتبين أن الحقيقة، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل، وعذبتهم وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تمنُّ بها وتدلي بها؟

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٢١ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أن الله ﷻ قال لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ،

بعد أن منَّ عليهما بالرسالة والنبوة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ فاذهبا إلى فرعون فقولا (له) إنا ذو رسالة إليك من رب العالمين، كلٌّ منا رسولٌ أرسل إليك من الله ﷻ نطلب منك أن ترسل معنا قبيلتنا الذين هم بنو إسرائيل، فقد كانوا مُستبعدين مُستذلين عند فرعون فأراد موسى وهارون عليهما السلام الخروج بقومهما من مصر وأرادا من فرعون أن يطلقهم ويُخلِّ سبيلهم حتى يخرج بهم إلى أرض أُخرى قيل هي فلسطين فعندئذٍ أجاب فرعون بازدراء واحتقار واستصغار وامتهان ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ ألم تتربى في بيتنا في صغرك وتأكل من طعامنا وتشرب شرابنا ومكثت معنا سنوات من عمرك على طريقتنا، وبعد ذلك قتلت منّا نفسًا وكفرت بنعمنا عليك وإحساننا إليك، فعندها قال موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: قتلت النفس التي قتلتها قبل أن يُوحى إليَّ قبل أن أكون رسولًا، وقيل: وأنا من المخطئين بفعلتي هذه الجاهلين. وقيل: لم يكن يعلم أن الوكزة تقضي إلى القتل.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ وخرجت هاربًا من بلادكم لما خشيت أن تقتلوني فلما خرجت ومكثت زمانًا بعيدًا عنكم وهب لي ربي حُكمًا، قيل: نبوةً، وقيل: التوراة التي آتاه الله إياها.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: منَّ الله علي بالرسالة فاختارني رسولًا.

ثم قال موسى عليه السلام: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: أي نعمةٍ هذه التي تمنُّ عليَّ بها؟ مقابل إساءتك المتواصلة البالغة إلى قومي بني إسرائيل، أي: إن كنت أحسنت إليَّ بإطعامي وشرابي فقد قتلت قومي واستعبدتهم واستذللتهم وسُمْتهم سوء العذاب.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ ﴾... الآية، يقول: فأت أنت يا موسى وأخوك هارون فرعون. ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ إليك بـ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ وقال رسول رب العالمين، وهو يخاطب اثنين بقوله: ﴿فَقُولَآ﴾ لأنه أراد به المصدر من أرسلت، يقال: أرسلت رسالة ورسولا كما قال الشاعر:

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ... بسوء ولا أرسلتهم برسول

يعني برسالة، وقال الآخر:

ألا من مبلغ عني خفافا ... رسولا بيت أهلك منتهاها

يعني بقوله: رسولًا رسالة، فأنث لذلك الهاء.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾.

وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ظهر عليه منه، وهو: فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة ربهما إليه، فقال فرعون: ألم نربك فينا يا موسى وليدًا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وذلك مكثه عنده قبل قتل القتيل الذي قتله من القبط. ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ﴾ يعني: قتله النفس التي قتل من القبط.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١﴾.

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت، أي قتلت تلك النفس التي قتلت إذن وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحيٌ بتحريم قتله عليَّ. والعرب تضع من الضلال

موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضلَّ الطريق، بمعنى واحد.

وأورد بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن زيد في قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ قبل أن يأتيني من الله شيء كان قتلي إياه ضلالة خطأ. قال: والضلالة ههنا الخطأ، لم يقل ضلاله فيما بينه وبين الله.

وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾... الآية، يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل موسى لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ معشر الملإ من قوم فرعون ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني بقتلي القتيل منكم. ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ يقول: فوهب لي ربي نبوة وهي الحكم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ يقول: وألحقني بعداد من أرسله إلى خَلْقه، مبلغًا عنه رسالته إليهم بإرساله إياي إليك يا فرعون.

وقال الطبري أيضًا:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل نبيه موسى ﷺ لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقول: وتربيتك إياي، وتركك استعبادي، كما استعبدت بني إسرائيل نعمة منك تمنُّها عليَّ بحقٍّ. وفي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو: وتلك نعمة تمنُّها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركتني، فلم تستعبدني، فترك ذكر «وتركتني» لدلالة قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ عليه، والعرب تفعل ذلك اختصارًا للكلام، ونظير ذلك في الكلام أن يستحق رجلان من ذي سلطان عقوبة، فيعاقب أحدهما، ويعفو عن الآخر، فيقول المعفو عنه هذه نعمة علي من الأمير أن عاقب فلانًا، وتركني، ثم حذف «وتركني» لدلالة الكلام عليه، ولأن في قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ

إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ وجهين: أحدهما النصب، لتعلق ﴿تَمُنُّهَا﴾ بها، وإذا كانت نصبًا كان معنى الكلام: وتلك نعمة تمنُّها عليَّ لتعبدك بني إسرائيل. والآخر: الرفع على أنها ردٌّ على النعمة. وإذا كانت رفعًا كان معنى الكلام: وتلك نعمة تمنُّها علي تعبيدك بني إسرائيل. ويعني بقوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾: أن اتخذتهم عبيدًا لك. يقال منه: عبدت العبيد وأعبدتهم، قال الشاعر:

علام يعبدني قومي وقد كثرت فيها أباعر ما شاءوا وعبدان

وقال آخرون: هذا استفهام كان من موسى لفرعون، كأنه قال: أتمنُّ علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيدًا؟!

وأورد الطبري وجهًا آخر فقال: وقال بعض نحويي الكوفة في ذلك ما قلنا. وقال: معنى الكلام: وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين لنعمتي: أي لنعمة تربيتي لك، فأجابه فقال: نعم هي نعمة علي أن عبدت الناس ولم تستعبدني.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧] أي: كل منا رسول الله إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ أي: أما أنت الذي ربيناه فينا، وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذيناه، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك

الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلًا وجحدت نعمتنا عليك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٩﴾ أي: الجاحدين. قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أي: في تلك الحال، ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ أي: قبل أن يوحى إليّ وينعم الله عليَّ بالرسالة والنبوة.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ أي: الجاهلين.

قال ابن جُرَيْج: وهي كذلك في قراءة عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعته سَلمت، وإن خالفته عَطبت.

ثم قال موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ أي: وما أحسنت إلي وربَّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرتَه شيئًا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ اختلف الناس في معنى هذا الكلام فقال السدي والطبري والفراء: هذا الكلام من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على جهة الإقرار بالنعمة كأنه يقول: نعم؟ وتربيتك نعمة علي من حيث عبدت غيري وتركتني ولكن لا يدفع ذلك رسالتي وقيل: هو من موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على جهة الإنكار أي: أتمنُّ علي بأن ربيتني وليدًا وأنت قد استعبدت بني إسرائيل

وقتلتهم؟ أي: ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص؟ قال معناه قتادة وغيره. وقيل: فيه تقدير استفهام أي: أوتلك نعمة؟ قاله الأخفش والفراء أيضًا وأنكره النحاس وغيره. قال النحاس: وهذا لا يجوز؛ لأن ألف الاستفهام تحدث معنى وحذفها محال إلا أن يكون في الكلام (أم) كما قال الشاعر:

تــــروح مــــن الحــــي أم تبتكــــر

ولا أعلم بين النحويين اختلافًا في هذا إلا شيئًا قاله الفراء قال: يجوز حذف ألف الاستفهام في أفعال الشك وحكى ترى زيدًا منطلقًا؟ بمعنى: أترى وكان علي بن سليمان يقول في هذا: إنما أخذه من ألفاظ العامة. قال الثعلبي: قال الفراء: ومن قال إنها إنكار قال معناه: أو تلك نعمة؟ على طريق الاستفهام كقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٨] ﴿فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] قال الشاعر:

رفــوني وقــالوا يــا خويلــد لا تــرع ... فقلــت وأنكــرت الوجــوه هــم هــم

وأنشد الغزنوي شاهدًا على ترك الألف قولهم:

لــم أنــس يــوم الرحيــل وقفتهــا ... وجفنهــا مــن دموعهــا شــرق

وقولهــا والركــاب واقفــة ... تركتنــي هكــذا وتنطلــق

قلت: ففي هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس قال الضحاك: إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام والمعنى: لو لم تقتل بني إسرائيل لرباني أبواي فأي نعمة لك علي! فأنت تمنُّ علي بما لا يجب أن تمن به وقيل: معناه كيف تمنُّ بالتربية وقد أهنت قومي؟ ومن أهين قومه ذل و﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في موضع رُفع على البدل من

﴿نِعۡمَةٞ﴾ ويجوز أن تكون في موضع نصب بمعنى: لأن عبدت بني إسرائيل أي اتخذتم عبيدًا يقال: عبدته وأعبدته بمعنى قاله الفراء وأنشد:

علام يعبدني قومي وقد كَثُرَت   فيهم أباعر ما شاؤوا وعبدان

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن فرعون قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ وأي شيء رب العالمين الذي تدعوني إليه؟ فأجابه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم مصدقين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ يقول: وأي شيء رب العالمين؟ ﴿قَالَ﴾ موسى هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ومالكهن ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ﴾ يقول: ومالك ما بين السموات والأرض من شيء. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ يقول: إن كنتم موقنين أن ما تعاينونه كما تعاينونه، فكذلك فأيقنوا أن ربنا هو رب السموات والأرض وما بينهما.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن فرعون قال لقومه لما سأل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن

رب العالمين فأجابه موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤﴾ قال حينئذٍ لقومه: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥﴾ إلى ما يقوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن له ربًّا غيري وهو ربُّ السموات والأرض، فحينئذٍ توجَّه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخطاب للقوم قائلًا لهم: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦﴾ أي: أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو ربي وربكم ورب آبائكم الذين ماتوا وذهبوا، فعندها قال فرعون ساخرًا: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ أي: مغلوب على عقله لا يدري ما يقول، فعندها قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ متوجهًا للقوم: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢٨﴾ أي: إن كانت لكم عقول تفهمون بها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥﴾ قال فرعون لمن حوله من قومه: ألا تستمعون لما يقول موسى، فأخبر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القوم بالجواب عن مسألة فرعون إياه وقيله له ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٣﴾ ليفهم بذلك قوم فرعون مقالته لفرعون، وجوابه إياه عما سأله؛ إذ قال لهم فرعون: ﴿أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥﴾ إلى قول موسى، فقال لهم الذي دعوته إليه وإلى عبادته ﴿رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦﴾ فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله؛ لأنه يقول قولًا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونسب موسى عدو الله إلى الجنة؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا ربَّ غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجًّا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته؛ إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربًّا لهم في ذلك

الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أربابًا ملوك أخر، كانوا قبل فرعون، قد مضوا فلم يكن عندهم أن موسى أخبرهم بشيء له معنى يفهمونه ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعون: إنه مجنون؛ لأن كلامه كان عندهم كلامًا لا يعقلون معناه، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ فمعناه: الذي أدعوكم وفرعون إلى عبادته رب المشرق والمغرب وما بينهما يعني ملك مشرق الشمس ومغربها، وما بينهما من شيء لا إلى عبادة ملوك مصر الذين كانوا ملوكها قبل فرعون لآبائكم فمضوا، ولا إلى عبادة فرعون الذي هو ملكها. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يقول: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح؛ إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر.

وقال القرطبي رحمه الله:

فعلم موسى جهله (أي جهل فرعون) فأضرب عن سؤله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها فقال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذا كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لابد لهم من مُغيِّر وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا وأنهم لا بد لهم من مكون فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ليس يجيبني عما أسأل فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أن ليس ملكه

كملكك لأنك إنما تملك بلدًا واحدًا لا يجوز أمرك في غيره ويموت من لا تحب أن يموت والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾ وقيل: علم موسى عليه السلام أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع -تعالى- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٦﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه ربُّ العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًّا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان

ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة. فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلًا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه، أن لكم إلهًا غيري؟ فقال لهم موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: خالقكم وخالق آبائكم الأوائل، الذي كانوا قبل فرعون وزمانه.

﴿قَالَ﴾ أي: فرعون لقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ليس له عقل في دعواه أن ثمّ ربًّا غيري.

﴿قَالَ﴾ أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخّرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربُّكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالى عن ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال ما أخبر الله تعالى عنه.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن فرعون عليه لعنة الله لما غُلب ولما انقطع عن الحجج وظهر بطلان رأيه توعد موسى عليه السلام بالسجن، فقال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى﴾ لئن اتخذت معبودًا سواي تعبده لأدخلنك السجن مع المسجونين، فقال له موسى عليه السلام: أولو جئتك بحجة ودلالة على صدقي فيما قلته لك، حجة تبين لمن تأملها أني رسول من عند الله، قال فرعون آنذاك: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ في دعواك أنك رسول من عند الله.

فعندئذٍ ألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا بها تتحول إلى ثعبان مبين، ثعبان عظيم يُبين لمن نظر إليه أنه آية من عند الله عز وجل ليس سحرًا ولا شعوذة ولا كهانة، وأضاف موسى إلى ذلك أيضًا أنه أدخل يده في جيبه، يعني في فتحة الصدر، ثم أخرجها فإذا بها تخرج بيضاء ناصعة البياض من غير مرضٍ ولا برص، بيضاء لمن يراها وينظر إليها، فعندها قال فرعون لقومه لوجهاء قومه: إن هذا يعني موسى عليه السلام لساحر عليم بالسحر يريد أن يطردكم من بلادكم بهذا السحر الذي أتى به فما الذي تشيرون به عليَّ في شأن موسى هذا؟ فقالوا: أمهله وأمهل أخاه زمنًا حتى نأتي بسحرة مصر يواجهونه ويبطلون سحره.

فأمهله وأرسل في المدائن مَنْ يجمع لك أمهر السحرة وأعلمهم بالسحر.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون لما عرفه ربه، وأنه ربُّ المشرق والمغرب، ودعاه إلى عبادته وإخلاص الألوهة له، وأجابه فرعون بقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾: أتجعلني من المسجونين ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه؟ وإنما قال ذلك له؛ لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك، قال له فرعون: فأت بالشيء المبين حقيقة ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذٍ إن اتخذت إلهًا غيري إن كنت من الصادقين: يقول: إن كنت محقًّا فيما تقول، وصادقًا فيما تصف وتخبر، ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ يقول جل ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحولت ثعبانًا، وهي الحية الذكر كما قد بينت فيما مضى قبل من صفته وقوله: ﴿مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ يقول: يبين لفرعون والملإ من قومه أنه ثعبان.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع ﴿لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ لمن ينظر إليها ويراها.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال فرعون لما أراه موسى من عظيم قدرة الله وسلطانه حجة عليه لموسى بحقيقة ما دعاه إليه، وصدق ما أتاه به من عند ربه ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ يعني لأشراف قومه الذين كانوا حوله. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ يقول: إن موسى سحر عصاه حتى أراكموها ثعبانًا ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، يقول: ذو علم

بالسحر وبصر به. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ يقول: يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرضكم إلى الشأم بقهره إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملإ حوله من القبط، والمعني به بني إسرائيل؛ لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، واتخذوهم خدمًا لأنفسهم ومهانًا، فلذلك قال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ وهو يريد: أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشأم.

وإنما قلت معنى ذلك كذلك؛ لأن الله إنما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بإرسال بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ يقول: فأي شيء تأمرون في أمر موسى وما به تشيرون من الرأي فيه؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فأجاب فرعون الملأ حوله بأن قالوا له: أخِّر موسى وأخاه وأنظره، وابعث في بلادك وأمصار مصر حاشرين يحشرون إليك كل سحار عليم بالسحر.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾. فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾؟ أي: برهان قاطع واضح.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل

مزعج.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي: تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون - لشقائه - إلى التكذيب والعناد، فقال للملإ حوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فاضل بارع في السحر. فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به. فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟ أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

[أي: أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحَّار عليم] يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد. فأجابهم إلى ذلك. وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما انقطع فرعون - لعنه الله - في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فتوعد موسى بالسجن ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك لأن فيه الاعتراف بأن ثمَّ إلهًا غيره وفي توعده بالسجن ضعف وكان فيما يروى أنه يفزع منه فزعًا شديدًا حتى كان اللعين لا يمسك بوله. وروي أن سجنه كان أشد من القتل وكان إذا سجن أحدًا لم يخرجه من سجنه حتى يموت فكان مخوفا ثم لما كان عند موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أمر الله تعالى ما لا يرعه توعد فرعون

﴿ قَالَ ﴾ له على جهة اللُّطف به والطمع في إيمانه ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾ فيتضح لك به صدقي فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة فـ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١﴾ ولم يحتج الشرط إلى جواب عند سيبويه لأن ما تقدم يكفي منه.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ (٣٩)
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ
لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ (٤٣) فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ
إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٤٤) فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ (٤٥)
فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ (٤٦) قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)
قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ
تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ (٤٩) قَالُواْ لَا
ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٥١)﴾ [الشعراء: ٣٨-٥١].

س: وضح معنى ما يلي:
﴿لِمِيقَٰتِ - مَّعۡلُومٍ - لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ - لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ - بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ - تَلۡقَفُ - مَا يَأۡفِكُونَ - مِّنۡ خِلَٰفٖ - لَا ضَيۡرَۖ - مُنقَلِبُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لِمِيقَٰتِ﴾	لوقت
﴿مَّعۡلُومٍ﴾	مُحددٌ - معروف
﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ﴾	كي نتبع
﴿لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾	لمن المقربين عندي ومن أهل مجالستي ومشورتي
﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾	بقوة فرعون - بشدته ومنعته
﴿تَلۡقَفُ﴾	تخطف - تبتلع - تلتهم
﴿مَا يَأۡفِكُونَ﴾	ما يكذبون - ما يصرفون به الناس عن الحق إلى الباطل
﴿مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾	يعني اليد اليمنى مع الرجل اليسري
﴿لَا ضَيۡرَۖ﴾	لا ضرر
﴿مُنقَلِبُونَ﴾	راجعون - مبعوثون يوم القيامة

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أن فرعون أرسل رسله لمدائن ملكه يجمع

السحرة منها فاجتمعوا إليه والتقوا بنبي الله موسى عليه السلام واتفقوا معه على موعدٍ للقاء، وهو كما قال موسى عليه السلام إذ طلبوا منه ذلك بقولهم: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه: ٥٨]، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

فجمع السحرة لهذا اليوم الذي حُدد، وأمر الناس أيضًا أن يجتمعوا في هذا اليوم كي يتبعوا السحرة ويؤمنوا بهم ويصدقوهم في حال غلبتهم لموسى عليه السلام أي إن كانوا هم الغالبين موسى عليه السلام.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعون بحشر السحرة ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: لوقت واعد فرعون لموسى الاجتماع معه فيه من يوم معلوم، وذلك يوم الزينة ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة، لموسى أو للسحرة؟ فلعلنا نتبع السحرة، ومعنى لعل هنا كي، يقول: كي نتبع السحرة، إن كانوا هم الغالبين موسى، وإنما قلت ذلك معناها: لأن قوم فرعون كانوا على دين فرعون، فغير معقول أن يقول من كان على دين: أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي أتبع دينه، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرة بديني، فأقيم عليه. وكذلك قال قوم فرعون. فإياها عنوا بقيلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وقيل: إن اجتماعهم للميقات الذي اتعد للاجتماع فيه فرعون وموسى كان بالإسكندرية.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾، ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.

❁ ❁ ❁

س: أهل الكفر والعياذ بالله يمكرون بأنفسهم وما يشعرون. وضح ذلك من قصة فرعون مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ج: تلك واضحة في مواطن منها: أن فرعون اجتهد في جمع السحرة من كل مكان واجتهد في جمع الناس كذلك، فهو يجتهد كي يظهر خطأ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بزعمه، ولكن كل السحرة الذين جمعهم كانوا جنده واكتشفوا بطلان ما هم عليه فكأنه جمعهم ليريهم أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رسولٌ من عند الله وأن ما جاء به هو الحق.

فهو يريد أمرًا والله يريد أمرًا آخر، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس

لا يعلمون.

وكذا ينضم ذلك - كما سيأتي - من جمعه للناس وللجنود لملاحقة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولقتله هو ومن آمن معه فجمعهم فأغرقه الله ومن معه جميعًا، فكأنه جمعهم للغرق بل جمعهم لذلك وهم لا يشعرون، فحقًّا إن الله عَزَّ وَجَلَّ من وراء الكافرين محيط، وكما قال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: حاصل معناه - والله أعلم - أن السحرة قالوا لفرعون لما جمعهم: هل ستجعل لنا أجرًا إن نحن غلبنا موسى وأبطلنا ما جاء به، قال: نعم ولكم أكثر من ذلك فسأجعلكم من المقربين عندي، من أهل مجالستي ومن أهل مشورتي تُقبل شفاعتكم عندي ويسمع قولكم، فاجتمعوا عنده، والتقوا بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فعرضوا على موسى عرضًا وخيَّروه تخييرًا، فقالوا له: إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، فقال لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ألقوا أنتم أولًا وهاتوا ما عندكم، فألقوا حبالهم وعصيهم، وأقسموا بعزة فرعون، بقوته وعظمته وغلبته ومنعته أنهم سيغلبون. ولكن هيهات هيهات فقد تبدلت الأمور وتغيَّرت الأحوال فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس بساحرٍ كهؤلاء ولم يأت بسحرٍ، بل هو رسول من عند الله حقًّا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ فرعون لوعد موسى وموعد فرعون ﴿قَالُوٓاْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ سحرنا قبلك ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١﴾ موسى ﴿قَالَ﴾ فرعون لهم: ﴿نَعَمۡ﴾ لكم الأجر على ذلك ﴿وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ منا. فقالوا عند ذلك لموسى: إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين، وترك ذكر قيلهم ذلك لدلالة خبر الله عنهم أنهم قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون، على أن ذلك معناه فـ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣﴾ من حبالكم وعصيكم. ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ﴾ من أيديهم ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ﴾ يقول: أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه، ومنعة مملكته ﴿إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ موسى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقًا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤١ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٢﴾ أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، وقد اختصر هذا هاهنا فقال لهم موسى: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٤٣ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ

أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ [طه:٦٦، ٦٩].

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَۚ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن موسى عليه السلام، وبعد أن ألقى السحرةُ حبالهم وعصيهم فظهرت للناس في صورة حيات وثعابين ونحو ذلك مما يأتي به السحرة، وكما قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فحينئذٍ أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا وبتوفيق من الله وبقدرة الله تتحول إلى حية عظيمة ضخمة حية على الحقيقة، تبتلع كل ما جاء به هؤلاء السحرة من سحر ليصرفوا الناس به عن الحق، إنها ابتلعت والتهمت كل ما ألقاه السحرة فعندها وحينئذٍ، وقد علم السحرة أن هذا الذي جاء به موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، بل هي آيةٌ من عند الله، عندها ألقي السحرة ساجدين خروا لله سجدًا متواضعين خاشعين لله ذليلين مُقرين بقدرة الله، مصدقين موسى عليه السلام معلنيين عن إيمانهم قائلين آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، قالوا ذلك دون استئذان من فرعون، ودون رجوع إلى أحد، بل كلهم وبمجموعهم وفي وقت واحد عند رؤية المعجزة الكبرى والآية العظيمة آمنوا كلهم أجمعون.

فعندها توعدهم فرعون وتهددهم قائلًا: آمنتم له قبل أن آذن لكم؟!!

ويظن عدو الله أنه مسيطرٌ على القلوب وأن الإيمان يحتاج إلى استئذان.

ثم بدأ عدو الله يطعن في صدقهم ويتوعدهم فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي: لرئيسكم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون ما سيحل بكم من العقوبة والنكال.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ ﴾ حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم. ﴿ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ يقول: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة. ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يقول: فلما تبين السحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض من غير أصل، خروا لوجوههم سجدًا لله، مذعنين له بالطاعة، مقرين لموسى بالذي أتاهم به من عند الله أنه هو الحق، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطل، قائلين: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون وملئه. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ يقول جل ثناؤه: قال فرعون للذين كانوا سحرته فآمنوا: آمنتم لموسى بأن ما جاء به حق قبل أن آذن لكم في الإيمان به. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ يقول: إن موسى لرئيسكم في السحر، وهو الذي علمكموه، ولذلك آمنتم به. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم، وخطأ ما صنعتم من الإيمان به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: تختطفه وتجمعه من كل

بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا.

قال تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢]، وكان هذا أمرًا عظيمًا جدًّا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحًا جريئًا -عليه لعنة الله-، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وقال ابن كثير أيضًا:

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قول فرعون: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ج: هذا قولٌ قاله فرعون للسحرة لما آمنوا، قاله لهم متوعدًا مُتهددًا لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي: لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، ثم بعد ذلك اليد اليسرى مع الرجل اليمني، وليس هذا فحسب بل ولأصلبنكم في جذوع النخل، لأصلبنكم كلكم، ما أنا بتارك منكم أحدًا، قالوا حينئذٍ ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لا ضرر، لن يلحقنا كبير ضرر فالدنيا كلها زائلة وكلها فانية وإننا إلى الله راجعون يوم القيامة فسيجازينا على ما تحملناه في سبيله.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم ﴾ مخالفًا في قطع ذلك منكم بين قطع الأيدي والأرجل، وذلك أن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى، ونحو ذلك من قطع اليد من جانب، ثم الرجل من الجانب الآخر، وذلك هو القطع من خلاف ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فوكد ذلك بأجمعين إعلامًا منه أنه غير مستبقٍ منهم أحدًا. ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ يقول تعالى ذكره: قالت السحرة: لا ضير علينا؛ وهو مصدر من قول القائل: قد ضار فلان فلانًا فهو يضير ضيرًا، ومعناه: لا ضرر.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ قال: يقول: لا يضرنا الذي تقول، وإن صنعته بنا وصلبتنا. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يقول: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم توعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملًا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قول السحرة لما آمنوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾.

ج: معناه – والله أعلم –: أن السحرة وبعد أن منَّ الله عليهم بالإيمان وتوعدهم فرعون بالذي توعدهم به لم يُبالوا ولم يتأثروا بل قالوا وبإيمان صادق، قالوا ما حاصله: إنا نرجو أن يغفر لنا ربنا ما قدمناه من الخطايا والذنوب والكبائر والآثام، نطمع في ذلك ونتوسل إلى الله ﷻ بكوننا أول من آمن عند رؤية هذه الآية العظمى والمعجزة الكبرى.

فقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ متضمنٌ توسلًا إلى الله ﷻ بسبقهم إلى الإيمان ومبادرتهم إليه.

أما كونهم أول المؤمنين، فكما قدمت، فأحد وجوهه أنهم أول المؤمنين عند رؤية الآية العظيمة.

وقيل: أول المؤمنين من قومهم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل السحرة: إنا نطمع: إنا نرجو أن يصفح لنا

ربنا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ قال: السحر والكفر الذي كانوا فيه.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ يقول: لأن كنا أول من آمن بموسى وصدقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادعائه الربوبية في دهرنا هذا وزماننا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ قال: كانوا كذلك يومئذٍ أول من آمن بآياته حين رأوها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

(﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى
ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا
لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ
قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾
فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾) [الشعراء: ٥٢-٦٨].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿أَسْرِ بِعِبَادِيٓ - مُّتَّبَعُونَ - ٱلْمَدَآئِنِ - حَٰشِرِينَ - لَشِرْذِمَةٌ - لَغَآئِظُونَ - حَٰذِرُونَ - وَمَقَامٍ كَرِيمٍ - فَأَتْبَعُوهُم - مُّشْرِقِينَ - تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ - لَمُدْرَكُونَ - سَيَهْدِينِ - كُلُّ فِرْقٍ - كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ - وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾	اخرج ليلاً بعبادي (الذين هم آنذاك بنو إسرائيل وعموم من آمن بموسى عليه السلام)
﴿مُّتَّبَعُونَ﴾	سيتبعكم فرعون لإدراككم والقبض عليكم
﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾	مُدن مصر التي يحكمها فرعون
﴿حَٰشِرِينَ﴾	جامعين يجمعون له الناس
﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾	فئة قليلة مُحتقرة
﴿لَغَآئِظُونَ﴾	لمضايقون – يسببون لنا غيظًا
﴿حَٰذِرُونَ﴾	مستعدون متأهبون قد أخذنا عددنا وأسلحتنا، وقرئ (**حذرون**) أي: على حذر من هؤلاء وغوائلهم
﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾	منازل حسان – منابر
﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾	فساروا خلفهم للحاق بهم وللإتيان بهم
﴿مُّشْرِقِينَ﴾	عند شروق الشمس
﴿تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾	نظر كل فريق إلى الآخر ورآه

﴿لَمُدۡرَكُونَ﴾	لملحقون – لملحوق بنا
﴿سَيَهۡدِينِ﴾	سيوفقني إلى الطريق الذي فيه نجاتي وسلامتي
﴿كُلُّ فِرۡقٖ﴾	كل جانب – كل طائفة من البحر – كل ناحية
﴿كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾	كالجبل العظيم
﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾	قربنا هنالك القوم الآخرين وهم آل فرعون (استدراجًا لهم لإغراقهم)

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وأوحينا إلى موسى أن اخرج ببني إسرائيل ليلًا فإن فرعون ومن معه سيتبعوكم لمنعكم من الخروج وإبقائكم في الإذلال والامتهان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ ﴾ يقول: وأوحينا إلى موسى إذ تمادى فرعون في غيه وأبى إلا الثبات على طغيانه بعد ما أريناه آياتنا، أن أسر بعبادي؛ يقول: أن سر ببني إسرائيل ليلًا من أرض مصر. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢﴾ إن فرعون وجنده متبعوك وقومك من بني إسرائيل، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرضهم، أرض مصر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما طال مُقام موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على

فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يُؤْمَر، ففعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أمره به ربه عَزَّوَجَلَّ. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حليًّا كثيرًا، وكان خروجه بهم - فيما ذكر غير واحد من المفسرين - وقت طلوع القمر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن فرعون -عليه لعنة الله- لما أصبح ووجد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خرج ببني إسرائيل ومن آمن معه من مصر أرسل رسله إلى مدائن مُلكه يجمعون الجند ويجمعون من استطاعوا لملاحقة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه، قائلًا لهم: إن هؤلاء - يعني موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن به وقومه بني إسرائيل- ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لفئة قليلة حقيرة، وإنهم دائمًا يغيظوننا، كل يوم يأتوننا بشيءٍ يضايقنا ويغيظنا، وذكر العلماء من أسباب هذه الإغاظة ما يلي:

* إيمانهم بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتكذيبهم لفرعون وخروجهم على قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾...﴾ [النازعات: ٢٤].

ومنها أن بني إسرائيل استعاروا حُليًّا من قوم فرعون وخرجوا بها من مصر

ومنها - وهو غريب إلا أن عددًا من التابعين قال به- ألا وهو أن الملائكة قتلوا الأبكار من آل فرعون تلك الليلة، وكما أسلفت فهو قول غريب وبعيد ولا أعلم دليلًا عليه.

أما قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ فللعلماء فيه **وجهان، أولهما:** وإنا لجميع

مستعدون قد حملنا سلاحنا وعددنا وأخذنا أهبتنا، وإنا لجميعٌ مقرون.

والثاني: وإنا لجميع حذرون أي: على حذر من هؤلاء فكل يوم تأتينا منهم أمور تجعلنا نحذرهم ونخشاهم ولذا فإني أريد أن أستأصلهم وأقطع دابرهم وآمن شرهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأرسل فرعون في المدائن يحشر له جنده وقومه ويقول لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني بهؤلاء: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ يعني بالشرذمة: الطائفة والعصبة الباقية من عصب جبيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ يقول: وإن هؤلاء الشرذمة لنا لغائظون، فذكر أن غيظهم إياهم كان قتل الملائكة من قتلت من أبكارهم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد يحتمل أن يكون معناه: وإنهم لنا لغائظون بذهابهم منهم بالعواري التي كانوا استعاروها منهم من الحلي، ويحتمل أن يكون ذلك بفراقهم إياهم، وخروجهم من أرضهم بكره لهم لذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ بمعنى: أنهم معدون مؤدون ذوو أداة وقوة وسلاح. وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة: ﴿**وإنا لجميع حذرون**﴾ بغير ألف. وكان الفراء يقول: كأن الحاذر الذي يحذرك الآن، وكأن الحذر

المخلوق حذرًا لا تلقاه إلا حذرًا؛ ومن الحذر قول ابن أحمر:

هـل أنسـأن يومًـا إلـى غيـره إنـي حـوالي وإنـي حـذر

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ، فمصيب الصواب فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعًا في بلاده حاشرين، أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ -يعني: بني إسرائيل- ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ أي: لطائفة قليلة.

﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه المعترفين برسالة رسله وأنبيائه وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى ومعنى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم فخرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل سحرًا فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت فلما أصبح فرعون علم بسرى موسى ببني

إسرائيل خرج في أثرهم وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفًا والله أعلم بصحته[1] وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك، قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل والشرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشراذم قال الجوهري: الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع، وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جاء الشتاء وثيابي أخلاق ... شراذم يضحك منها النواق

النواق من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها قاله في الصحاح واللام في قوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ لام توكيد وكثيرا ما تدخل في خبر إن إلا أن الكوفيين لا يجيزون إن زيدا لسوف يقوم والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف قاله النحاس. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم وماتت أبكارهم تلك الليلة وقد مضى هذا في (الأعراف) و(طه) مستوفى، يقال: غاظني كذا وأغاظني والغيظ: الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن ﴿**وإنا لجميع حذرون**﴾ أي مجتمع مستعد أخذنا حذرنا وأسلحتنا وقرئ ﴿حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: فرقون أي: فرقون خائفون، قال الجوهري: وقرئ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ و(**حَذِرون**)،

---

(١) ولا أعلم دليلًا على صحته.

و(**حَذُرون**) بضم الذال، حكاه الأخفش، ومعنى حاذرون متأهبون، ومعنى و(حذرون) خائفون.

(٣٠٧) أحمر أسود

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – فأخرجنا آل فرعون من الحدائق والبساتين وعيون الماء التي كانوا يستمتعون بها ومن المنازل الحسان التي كانوا يسكنونها والمنابر التي كانوا يرتقون عليها ويصعدون عليها، وكذا من كنوز الذهب والفضة التي كانوا يكتنزونها، وهكذا فكما أخرجناهم، أورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل، ثم بشيء من التفصيل فيخرج آل فرعون لملاحقة موسى وبني إسرائيل في الصباح عند شروق الشمس، وقد قيل[1] إنهم تأخروا عن ملاحقتهم لكون القمر انخسف في تلك الليلة وأظلم الجو، وقيل: إنه تأخر عن ملاحقتهم حتى جمع الجموع. فالله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء، وكنوز ذهب وفضة، ومقام كريم. قيل: إن ذلك المقام الكريم: المنابر. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفت لكم في هذه الآية والتي قبلها. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يقول: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل. وقوله: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل مشرقين حين

(١) وليس على ذلك دليل ثابت فيما علمت.

أشرقت الشمس، وقيل: حين أصبحوا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا.

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص:٥، ٦].

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأمَّا ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم. والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.

❁❁❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – واستمرت المطاردة والملاحقة من فرعون وجنوده بما معهم من أنواع السلاح والعتاد، وكان جيشًا عظيمًا هائلًا فاستمرت المطاردة والملاحقة إلى أن اقترب موسى عليه السلام من البحر، واقترب فرعون بجموعه وجنوده من موسى عليه السلام، ورأى كل فريق الآخر فعندها قال أصحاب موسى لموسى عليه السلام: قد أدركنا القوم، قد أدركونا لا محالة، وليس أمامنا إلا البحر، فالبحر أمامنا والعدو يلاحقنا، ها هو قد أدركنا، وها نحن سنقتل لا محالة، فقال موسى عليه السلام نافيًا هذا الظن: كلا، لن نُدرك فإن ربي معي سيوفقني لسلوك طريق السلامة والنجاة، فعندها أوحى الله عز وجل إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضرب بعصاه البحر فانفلق البحر فلقتين، كل فلقة منه كالجبل العظيم، وسبحان الله أصبح البحر كأنه جبلين عظيمين (من الماء) بينهما ممرٌّ يابس، سبحان الله، ماء مرتفع جدًّا عن كل جانب وبينهما أرض يابسة، فسلك موسى عليه السلام ومن معه هذا الطريق اليبس والأمواج كالجبال تحيط به ولا تسقط عليه، وسبحان الله إنها معجزةٌ عظيمة، ويُقال لِمَ لم يتفطن فرعون لهذا، ولم يتعظ؟! وجواب ذلك أن الله أعمى بصيرته عن هذه المعجزة، وقرّبه الله وقرَّب من معه إلى هذا الطريق اليبس

واقتحموا اليبس، وساروا فيه فعندها، وقد سلَّم الله ﷻ موسى ومن معه أطبق الجبلان (جبلان من ماء) على فرعون وجنده وهم يسيرون على اليبس الذي سار عليه موسى عليه السلام، فسبحان من قربهم إلى حتفهم وسبحان من جرأهم على اقتحام اليبس بعد موسى ومن معه!! فحقًّا إن الأمور تجري بمقادير، إن الله سلَّم موسى عليه السلام، وتجاوزوا البحر، أما فرعون فانطبق عليه البحر وعلى من معه فأغرقه الله ومن معه جميعًا.

عندها صاح فرعون، وقبيل نهايته: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن لم يكن إيمانه بنافع له، قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١].

فحقًّا إن في إهلاك فرعون ومن معه بهذه الطريقة وعلى هذا النحو لآية، ومعجزة ودلالة على قدرة الله ﷻ ووحدانيته لآية ودليلًا على أن الله ﷻ يُنجي أولياءه وينتقم من أعدائه، ولكن من يتعظ، ومن يعتبر؟!! إن الأكثرين لا يتعظون - لا يعتبرون - لا يؤمنون، وإن ربك لهو الغالب على أمره القوي الذي لا يُردُّ له أمرٌ، ولا يحول بينه وبين ما يريد حائلٌ، الرحيم بعباده المؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤمًا بموسى.

وأورد بإسناد صحيح عن سليمان بن طرفان قال: قلت لعبد الرحمن: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ قال: تشاءموا بموسى، وقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وعن السدي: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد رمقهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يا موسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩] اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون؛ البحر بين أيدينا، وفرعون من خلفنا.

وقال الطبري:

وقوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ قال موسى لقومه: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تدركوا إن معي ربي سيهدين، يقول: سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه.

وقال الطبري أيضًا:

وقوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ يقول تعالى ذكره: فكان كل طائفة من البحر لما ضربه موسى كالجبل العظيم. وذكر أنه انفلق اثنتي عشرة فلقة على عدد الأسباط، لكل سبط منهم فرق.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤﴾: وقربنا هنالك آل فرعون من البحر، وقدمناهم إليه، ومنه قوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾ [الشعراء: ٩٠] بمعنى: قربت وأدنيت؛ ومنه قول العجاج:

طي الليالي زلفا فزلفا　　سماوة الهلال حتى احقوقفا

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥﴾ يقول تعالى ذكره: وأنجينا موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر ومن مع موسى من بني إسرائيل أجمعين. وقوله: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦﴾ يقول: ثم أغرقنا فرعون وقومه من القبط في البحر بعد أن أنجينا موسى منه ومن معه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سنتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة أن ادكروا واعتبروا أن يفعلوا مثل فعلهم من تكذيبك مع البرهان والآيات التي قد أتيتهم، فيحل بهم من العقوبة نظير ما حل بهم، ولك آية في فعلي بموسى، وتنجيتي إياه بعد طول علاجه فرعون وقومه منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دورهم وأرضهم وأموالهم، على أني سالك فيك سبيله، إن أنت صبرت صبره، وقمت من تبليغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه قيامه، ومظهرك على مكذبيك، ومعليك عليهم. ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧﴾ يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله من أعدائه، ﴿ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ بمن أنجى من رسله، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عذب به الكفرة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ

أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.

وكان هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ تقدم تفسيره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: تقابلا الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه وهو تفاعل من الرؤية ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: قرب منا العدو ولا طاقة لنا به.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّآ﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي: بالنصر على العدو ﴿سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة فلما عظم البلاء على بني إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك أنه ﷻ أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه وقد مضى في (البقرة) قصة هذا البحر ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل ووقف الماء بينها كالطود العظيم أي: الجبل العظيم والطود: الجبل ومنه قول امرئ القيس:

فبينا المرء في الأحياء طود ... رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر:

حلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطواد

جمع: طود أي: جبل فصار لموسى وأصحابه طريقًا في البحر يبسًا فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في (يونس) انصب عليهم وغرق فرعون فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه.

وقال:

(٣١٥) أحمر أسود

قوله تعالى: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: قربناهم إلى البحر يعني فرعون وقومه قاله ابن عباس وغيره قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت ... فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

❁ ❁ ❁

شيءٌ من قصة إبراهيم عليه السلام

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ
أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ
أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ
تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ
أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي
بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ
جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾
يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾

[الشعراء: ٦٩-٨٩]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿وَٱتۡلُ - نَبَأَ - إِذۡ قَالَ - أَصۡنَامًا - عَـٰكِفِينَ - تَدۡعُونَ - ٱلۡأَقۡدَمُونَ - أَطۡمَعُ - خَطِيٓـَٔتِي - يَوۡمَ ٱلدِّينِ - حُكۡمًا - لِسَانَ صِدۡقٖ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَٱتۡلُ﴾	واقصص
﴿نَبَأَ﴾	خبر
﴿إِذۡ قَالَ﴾	حين قال
﴿أَصۡنَامًا﴾	تماثيل
﴿عَـٰكِفِينَ﴾	مقيمين - ملازمين عبادتها
﴿تَدۡعُونَ﴾	تطلبون - تسألون - تعبدون
﴿ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾	السابقون - المتقدمون
﴿أَطۡمَعُ﴾	أرجو
﴿خَطِيٓـَٔتِي﴾	خطاياي عمومًا، وقيل إنها قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾، وقوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾، وقوله عن سارة هذه أختي.
﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾	يوم القيامة - يوم الثواب والعقاب
﴿حُكۡمًا﴾	نبوةً - علمًا - فهمًا وفقهًا
﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾	ثناءً حسنًا وذِكرًا جميلًا من الناس

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - واقصص يا رسول الله على قومك وعلى عموم من أرسلت إليهم، اقصص على مشركي قومك وعموم المشركين كذلك خبر إبراهيم عليه السلام، خبر أبي الأنبياء ﷺ حين قال لأبيه وقومه، وقد رآهم يعبدون أصنامًا مع الله سبحانه وتعالى ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطانًا فقال لهم: أي شيء تعبدون؟ قالوا: نعبد أصنامًا فنقيم حولها ونلزم عبادتها ونعكف على عبادتها، فقال: هل يسمعونكم عند دعائكم وسؤالكم إياهم وطلبكم منهم وهل يجيبونكم؟ وأيضًا فهل إذا عبدتموهم نفعوكم بشيء؟ وإن تركتم عبادتها أضرتكم بشيء؟ هل تُثيبكم هذه الآلهة أو تعاقبكم؟ هل تكشف عنكم ضرًّا أو تجلب لكم نفعًا؟ قالوا: لا تجلب لنا ضرًّا ولا تجلب لنا نفعًا؟ هذا مفهوم من جوابهم: بل وجدنا آباءنا كذلك يعبدونها ويعكفون حولها وملازمون لعبادتها، ومعنى العكوف: طول المكث، والمراد: الاستمرار في العبادة وحتى ولو ابتعدوا عنها، فعندها قال الخليل إبراهيم عليه السلام: أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها مع الله، والتي كان آباؤكم وأجدادكم من قبل يعبدونها، فأنا بريء منها لا أقرُّ لها بعبادة ولا أقرُّ لها بجلب نفع أو دفع ضرٍّ، بل أعلن عن عداوتي لها وبراءتي من عبادتها لكنني لا أتبرأ من عبادة الله، فإني سألزم عبادة الله وحده لا شريك له هو رب العالمين المعبود بحق سأعبده وحده لا شريك له.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: واقصص على قومك من المشركين يا محمد خبر إبراهيم حين قال لأبيه وقومه: أي شيء تعبدون؟ ﴿قَالُوا۟ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ يقول: فنظل لها خدمًا مقيمين على عبادتها وخدمتها.

وقال:

في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لهم: هل تسمع دعاءكم هؤلاء الآلهة إذ تدعونهم؟

وقال: وقوله: ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ يقول: أو تنفعكم هذه الأصنام، فيرزقونكم شيئا على عبادتكموها، أو يضرونكم فيعاقبونكم على ترككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم؟ ﴿قَالُوا۟ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾. وفي الكلام متروك استغني بدلالة ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم إبراهيم عن مسألته إياهم: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ فكان جوابهم إياه: لا؛ ما يسمعوننا إذا دعوناهم، ولا ينفعونا ولا يضرون، يدل على أنهم بذلك أجابوه. قولهم: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وذلك رجوع عن مجحود، كقول القائل: ما كان كذا بل كذا وكذا، ومعنى قولهم: ﴿بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وجدنا من قبلنا ولا يضرون، يدل على أنهم بذلك أجابوه، قولهم من آبائنا يعبدونها ويعكفون عليها لخدمتها

وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداء بهم، واتباعًا لمنهاجهم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لقومه: أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون، يعني بالأقدمين: الأقدمين من الذين كان إبراهيم يخاطبهم، وهم الأولون قبلهم ممن كان على مثل ما كان عليه الذين كلمهم إبراهيم من عبادة الأصنام ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧٧﴾﴾. يقول قائل: وكيف يوصف الخشب والحديد والنحاس بعداوة ابن آدم؟ فإن معنى ذلك: فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢].

وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴿٧٧﴾﴾ نصبًا على الاستثناء، والعدو بمعنى: الجمع، ووحد لأنه أخرج مخرج المصدر، مثل القعود والجلوس.

ومعنى الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني منه بريء لا أعبده، إلا رب العالمين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمدًا ﷺ أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشَأ وشَب، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عَزَّوَجَلَّ فقال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ

﴿٧٠﴾؟

أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئًا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون. فعند ذلك قال لهم إبراهيم: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: إن كانت هذه الأصنام شيئًا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إلي بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها. وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس:٧١]، وقال هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام:٨١]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ ﴾ نبه المشركين على فرط جهلهم إذا رغبوا عن اعتقاد إبراهيم ودينه وهو أبوهم. والنبأ الخبر أي: اقصص عليهم يا محمد خبره وحديثه وعيبه على قومه ما يعبدون وإنما قال ذلك ملزمًا لهم الحجة.

وقال:

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ أي: أي شيء تعبدون؟ ﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا ﴾ وكانت أصنامهم من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب. ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ ﴾ أي: فنقيم على عبادتها وليس المرد وقتًا معينًا بل هو إخبار عما هم فيه وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وكانوا في الليل يعبدون الكواكب فيقال: ظل يفعل كذا إذا فعله نهارًا وبات يفعل كذا إذا فعله ليلًا ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ ﴾ قال الأخفش: فيه حذف والمعنى: هل يسمعون منكم؟ أو هل يسمعون دعاءكم؟

وقال في قوله تعالى:

﴿ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ۝٧٣ ﴾ أي: هل تنفعكم هذه الأصنام وترزقكم أو تملك لكم خيرًا أو ضرًّا إن عصيتم؟! وهذا استفهام لتقرير الحجة فإذا لم ينفعوكم ولم يضروا فما معنى عبادتكم لها؟ ﴿ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٧٤ ﴾ فنزعوا إلى التقليد من غير حجة ولا دليل وقد مضى القول فيه ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم. ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝٧٥ ﴾ من هذه الأصنام ﴿ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝٧٦ ﴾ الأولون ﴿ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ ﴾ واحد يؤدي عن جماعة وكذلك يقال للمرأة هي عدو الله وعدوة الله؟ حكاهما الفراء قال علي بن سليمان: من قال عدوة الله وأثبت الهاء قال: هي بمعنى معادية ومن قال عدو للمؤنث والجمع جعله

بمعنى النسب ووصف الجماد بالعداوة بمعنى أنهم عدو لي إن عبدتهم يوم القيامة كما قال: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: ٨٢]، وقال الفراء هو من المقلوب مجازة فإني عدو لهم لأن من عاديته عاداك ثم قال: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧﴾ قال الكلبي: أي إلا من عبد رب العالمين إلا عابد رب العالمين فحذف المضاف قال أبو إسحاق الزجاج: قال النحويون هو استثناء ليس من الأول وأجاز أبو إسحاق أن يكون من الأول على أنهم كانوا يعبدون الله ﷻ ويعبدون معه الأصنام فأعلمهم أنه تبرأ مما يعبدون إلا الله وتأوله الفراء على الأصنام وحدها والمعنى عنده: فإنهم لو عبدتهم عدو لي يوم القيامة على ما ذكرنا وقال الجرجاني: تقديره: أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلى رب العالمين فإنهم عدو لي وإلا بمعنى دون وسوى كقوله: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الدخان: ٥٦] أي دون الموتة الأولى.

❁ ❁ ❁

أدب في النقل عن الله ﷻ

س: في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ أدب في النقل عن الله ﷻ. وضح ذلك.

ج: حاصل هذا - والله أعلم - أنه معلوم أن الأمراض قدَّرها الله سبحانه وتعالى، وقد يُقدرها ابتلاء لرفعة الدرجات وقد يُقدرها لشيءٍ صدر من العبد، وهو سبحانه الذي يشفي تفضلًا منه.

فالحاصل أن المرض والشفاء كل ذلك بتقدير الله ﷻ ولكن تأدبًا في اللفظ

نسب الخليل المرض إلى نفسه إذ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ونسب الشفاء إلى الله إذ قال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ مع أن الجميع مقدرٌ.

وهذا من حسن الكلام وأدب النقل عن الله ﷻ ونحوه قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠].

وكذا قول الخضر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] فنسب العيب إلى نفسه، ولكن قال في شأن الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف:٨١]، وقال في شأن الأيتام: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

كل ذلك مع أن الأمور كلها مقدرة وبأمر الله، فقد قال الخضر بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]؛ والله أعلم.

❀ ❀ ❀

المراد بخطيئة إبراهيم عليه السلام

س: ما المراد بخطيئته ﷺ التي قال عنها: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾؟

ج: قال عددٌ من أهل العلم إنها المذكورة في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩] لما دعوه إلى عبادة الأصنام، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقوله عن سارة: هذه أختي.

وفي الحديث[(١)] عن رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام، قط إلا ثلاث كذبات ثنتين في ذات الله. قوله: إني سقيم. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وواحدةٌ**

---

(١) مسلم (٢٣٧١)، والبخاري (٣٣٥٨).

في شأن سارة. فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة. وكانت أحسن الناس. فقال لها: إن هذا الجبار، إن يعلم أنك امرأتي، يغلبني عليك. فإن سألك فأخبريه أنك أختي. فإنك أختي في الإسلام. فإني لا أعلم في الأرض مسلمًا غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار أتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك. فأرسل إليها فأتي بها. فقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الصلاة. فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها. فقبضت يده قبضة شديدة. فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك. ففعلت. فعاد. فقبضت أشد من القبضة الأولى. فقال لها مثل ذلك. ففعلت. فعاد. فقبضت أشد من القبضتين الأوليين. فقال: ادعي الله أن يطلق يدي. قدر الله أن لا أضرك. ففعلت. وأطلقت يده. ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان. ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي، وأعطها هاجر. قال: فأقبلت تمشي. فلما رآها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ انصرف. فقال لها: مهيم؟ قالت: خيرًا. كف الله يد الفاجر. وأخدم خادمًا». قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء.

* وقال آخرون: إنها عموم الخطايا التي صدرت من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

❁ ❁ ❁

س: وضح إجمالًا معنى قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾.

ج: هذا يقوله إبراهيم خليل الرحمن عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو متصل بما قبله، فالمعنى قبله أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلن عن عداوته للأوثان والأصنام ورفضه التام لعبادتها وأعلن

عن تمسكه بعبادة رب العالمين ثم وضح شيئًا من فضل الله ﷻ عليه وكذا شيئًا من قدرته سبحانه فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ أي: أنني أعبد الذي خلقني فهو الذي يوفقني ويرشدني، والذي هو – وليس أحد سواه – ﴿يُطۡعِمُنِي﴾ يغذيني بالطعام[1] وييسره لي ويرزقني إياه ويجعلني له مستسيغًا ويسقني الشراب بتيسيره ذلك لي، وإذا قُدِّر علي مرض، ووقعت في مرض بسبب ذنوبي أو ابتلاء ابتليت به، فالذي يكشف عني هو الله، هو الذي يشفيني منه ويعافيني، وهو الذي يميتني في الوقت الذي يريده ثم يحني يوم القيامة للجزاء، والذي أرجو منه أن يغفر خطاياي التي أخطأتها في دنياي يوم القيامة يوم الجزاء يوم الثواب والعقاب، فهذا هو المستحق للعبادة، إنه ربي الذي لا أعبد إلهًا سواه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾.

يقول: فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ للصواب من القول والعمل، ويسددني للرشاد. ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ يقول: والذي يغذوني بالطعام والشراب، ويرزقني الأرزاق ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ يقول: وإذا سقم جسمي واعتل، فهو يبرئه ويعافيه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾.

---

(١) وفي الحديث القدسي: «**كلكم جائع إلا من أطعمته**»، وفي الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾.

يقول: والذي يميتني إذا شاء ثـم يحييني إذا أراد بعـد مماتي. ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ فربي هذا الذي بيده نفعي وضـري، ولـه القـدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي، ولا ينفـع ولا يضـر. وإنمـا كـان هـذا الكـلام مـن إبـراهيم احتجاجًـا علـى قومـه، في أنـه لا تصـلح الألوهـة، ولا ينبغـي أن تكـون العبـودة إلا لمـن يفعـل هـذه الأفعـال، لا لمـن لا يطيق نفعًا ولا ضرًّا.

وقيـل: إن إبـراهيم صـلوات الله عليـه، عنـي بقولـه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾: والـذي أرجـو أن يغفـر لـي قـولي: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٩]، وقولي: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وقولي لسـارة: إنهـا أختي.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعـل هـذه الأشياء، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على قدر، وهـو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسَّـر مـن الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنـزل المـاء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقًا للعباد، وأنزل المـاء عـذبًا زلالًا لـ ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان:٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أسند المـرض إلـى نفسه، وإن كـان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسـه أدبًـا، كمـا قـال تعـالى آمـرًا

للمصلي أن يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة:٦، ٧] فأسند الإنعام إلى الله، سبحانه وتعالى، والغضب حُذف فاعله أدبًا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠﴾ [الجن:١٠]؛ ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدِّر من الأسباب الموصلة إليه.

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾ أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ أي: هو الذي لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ أي: يرشدني إلى الدين. ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩﴾ أي: يرزقني ودخول ﴿هُوَ﴾ تنبيه على أن غيره لا يطعم ولا يسقي كما تقول: زيد هو الذي فعل كذا أي لم يفعله غيره. ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ قال: ﴿مَرِضۡتُ﴾ رعاية للأدب وإلا فالمرض والشفاء من الله عَزَّ وَجَلَّ جميعًا ونظيره قول فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الكهف:٦٣].

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١﴾ يريد البعث وكانوا ينسبون الموت إلى الأسباب فبين أن الله هو الذي يميت ويحيي وكله بغير ياء ﴿يَهۡدِينِ ٧٨﴾ ﴿يَشۡفِينِ ٨٠﴾ لأن الحذف في رؤوس الآي حسن لتتفق كلها وقرأ ابن أبي إسحاق على جلالته ومحله من العربية هذه كلها بالياء لأن الياء اسم وإنما دخلت النون

لعلة فإن قيل: فهذه صفة لجميع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلًا على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجًا على وجوب الطاعة لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها وهذا إلزام صحيح.

قلت (مصطفى): وقد أعرضت عن ذكر أمور أشار إليها القرطبي ناقلًا لها عن غيره ولا أرتضيها ولا أحب أن أسلك مسكلهم هذا مع كتاب الله ﷻ.

هذا، ثم قال القرطبي:

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ ﴿أَطۡمَعُ﴾ أي: أرجو وقيل: هو بمعنى اليقين في حقه وبمعنى الرجاء في حق المؤمنين سواه وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق: ﴿**خطاياي**﴾ وقال: ليست خطيئة واحدة قال النحاس: خطيئة بمعنى خطايا معروف في كلام العرب.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ يوم الجزاء حيث يجازى العباد بأعمالهم وهذا من إبراهيم إظهار للعبودية وإن كان يعلم أنه مغفور له وفي صحيح مسلم عن عائشة قلت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعة؟ قال: «**لا ينفعه إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**».

❁ ❁ ❁

الثناء على الله وتمجيده وتعظيمه بين يدي الدعاء

س: يستحب للداعي أن يُقدِّم دعاءه بثناءٍ على الله ﷻ. وضح ذلك من

الآيات التي بين أيدينا ومن غيرها.

ج: إيضاحه أن إبراهيم عليه السلام أثنى على ربِّه عز وجل ومجده بقوله: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ (٧٨)...﴾ ثم دعا بعد ذلك بقوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣)﴾، فجاء دعاؤه بعد ثنائه على الله وتمجيده له.

ولهذا شواهد كثيرة، وقد تقدم مثل هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣) وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (٨٤) وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (٨٥) وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (٨٦) وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ (٨٧) يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ (٨٩)﴾.

ج: هذا دعاءُ إبراهيم عليه السلام بعد ثنائه على الله عز وجل وإعلانه عن وجهته وهويته وتوحيده لربه عز وجل وخالقه، وتبرئه من عبادة غير الله عز وجل فدعا ربَّه بهذه الدعوات المباركات: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (٨٣)﴾ يا رب تفضل علي بعلمٍ يقربني منك، بفقهٍ أتعبد به وبنبوةٍ تمنُّ بها عليَّ وألحقني بمن أنعمت من الأنبياء والرسل وأهل الإيمان والفضل والصلاح، ألحقني بهم يا رب وأدخلني مدخلهم وأنزلني منازلهم، واجعل لي يا رب ثناءً حسناً على ألسنة الذين يأتون من بعدي، ومُنَّ عليَّ آخرتي بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم، الذين يرثونها بدلًا عن أهل الكفر الذين تركوها بسيئ أعمالهم وحرموها بشركهم وضلالهم. واغفر يا رب لأبي فقد كان من الذين أخطأوا الطريق طريق التوحيد وسلك طريق أهل الشرك والزيغ والضلال، فاغفر له يا رب. وكان هذا من إبراهيم عليه السلام قبل أن يعلم أن أباه عدوٌّ لله ثم إنه عليه السلام

تراجع بعد هذا الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤].

ثم سأل إبراهيم عليه السلام ربَّه قائلًا: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ لا تفضحني على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ولا تعذبني، فالعذاب خزيٌ عظيم، لا تخزني يوم القيامة يوم لا ينفع صاحب المال مالُه ولا صاحب الولد ولدُه لكن السالم الآمن من العذاب من أتى الله يوم القيامة بقلب سليم من الشرك بالله.

وكذا سليم القلب من الأغلال والأحقاد لأهل الإيمان، فصاحبه يرتفع درجات.

وهذه أقول بعض أهل العلم في الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن مسألة خليله إبراهيم إياه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ يقول: رب هب لي نبوة. ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ يقول: واجعلني رسولًا إلى خلقك، حتى تلحقني بذلك بعداد من أرسلته من رسلك إلى خلقك، وائتمنته على وحيك، واصطفيته لنفسك. وقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ يقول: واجعل لي في الناس ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا، باقيًا فيمن يجيء من القرون بعدي.

وأورد الطبري بسندٍ - فيه مقال، لكن معناه جيد- عن عكرمة قوله:

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧]. قال: إن الله فضله بالخُلة حين اتخذه خليلًا فسأل الله فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ

صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ حتى لا تكذبني الأمم، فأعطاه الله ذلك، فإن اليهود آمنت بموسى، وكفرت بعيسى، وإن النصارى آمنت بعيسى، وكفرت بمحمد ﷺ، وكلهم يتولى إبراهيم؛ قالت اليهود: هو خليل الله وهو منا، فقطع الله ولايتهم منه بعد ما أقروا له بالنبوة وآمنوا به، فقال: ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧] ثم ألحق ولايته بكم فقال: ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٨] فهذا أجره الذي عجل له، وهي الحسنة، إذ يقول: ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ [النحل: ١٢٢] وهو اللسان الصدق الذي سأل ربه.

وبإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ قال: اللسان الصدق: الذكر الصدق، والثناء الصالح، والذكر الصالح في الآخرين من الناس، من الأمم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾.

يعني إبراهيم صلوات الله عليه بقوله: ﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أورثني يا رب من منازل من هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة، وأسكني ذلك. ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ﴾ يقول: واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ يقول: إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى، فكفر بك.

وقوله: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يقول: ولا تذلني بعقابك إياي يوم تبعث عبادك من قبورهم لموقف القيامة. ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ يقول: لا تخزني يوم لا ينفع من كفر بك وعصاك في الدنيا مال كان له في الدنيا، ولا بنوه الذين

كانوا له فيها، فيدفع ذلك عنه عقاب الله إذا عاقبه، ولا ينجيه منه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ يقول: ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع إلا القلب السليم.

والذي عني به من سلامة القلب في هذا الموضع: هو سلامة القلب من الشك في توحيد الله، والبعث بعد الممات.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن عون قال: قلت لمحمد: ما القلب السليم؟ قال: أن يعلم أن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور.

وأورد عدة آثار مفادها أن القلب السليم هو السليم من الشرك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ كقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [إبراهيم:٤١]، وهذا مما رجَعَ عنه إبراهيم، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤]. وقد قطع تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة:٤].

وقوله: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

وأورد ابن كثير ما أخرجه البخاري[١] من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول

---

(١) البخاري (٤٧٦٨).

الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ**».

وفي رواية: «**يلقى إبراهيم أباه فيقول: يا رب إنك وعدتني أنك لا تخزيني يوم يبعثون. فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين**». هكذا رواه عند هذه الآية.

وفي أحاديث الأنبياء بهذا الإسناد بعينه منفردًا به، ولفظه: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يُقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**».

قال ابن كثير: والذيخ: هو الذكر من الضباع، كأنه حول آزر إلى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فيلقى في النار كذلك.

قال ابن كثير: وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ أي: لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا: ﴿وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾ ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعًا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ أي: سالم من الدنس والشرك.

وأورد أقوالًا في القلب السليم، منها الشرك كما قدمنا، ويلتحق به النفاق وألحق البعض به البدعة.

❁ ❁ ❁

ندم أهل الكفر يوم القيامة

قَالَ اللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ
﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾
فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

[الشعراء: ٩٠-١٠٤]

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ وَأُزْلِفَتِ – وَبُرِّزَتِ – لِلْغَاوِينَ – فَكُبْكِبُوا – يَخْتَصِمُونَ – تَٱللَّهِ – حَمِيمٍ – كَرَّةً ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾	قُرِّبت – أُدْنيت
﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾	أُظهرات وكُشف عنها
﴿لِلْغَاوِينَ﴾	للغواة الذين أغووا بني آدم سواء كانوا من الجن أو من الإنس
﴿ فَكُبْكِبُوا ﴾	ألقوا على بعضهم البعض – رُمي بعضهم على بعض في النار على وجوههم – دُهوروا
﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾	يخاصم بعضهم بعضًا ويجادل بعضهم بعضًا ويتلاعنون
﴿ تَٱللَّهِ ﴾	والله
﴿حَمِيمٍ﴾	قريب – شديد الصداقة – كان في الدنيا يحمي من أجل أخيه ويغضب له
﴿ كَرَّةً ﴾	رجعة إلى الدنيا

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى الآيات السابقات من قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وقُرِّبت الجنة يوم القيامة لأهلها الذين

اتقوا الله ﷻ في دنياهم، وذلك بطاعتهم له فيما أمرهم به واجتنابهم ما نهاهم الله عنه، وبخشيتهم له في السر والعلن وأظهرت النار (الجحيم) لأهلها قبل أن يدخلوها وكشف لهم عنها، كشف عن النار لهؤلاء الغواة الذين أضلوا العباد وتسببوا في كفرهم وقيل لهؤلاء الذين هم أهل النار: أين آلهتكم التي كنتم تعبدونها من دون الله في دنياكم؟ أين هذه الأصنام والأوثان وعموم الآلهة التي عبدتموها مع الله؟!! أين هي الآن هل تستطيع هذه الآلهة أن تنصركم الآن؟! بل هل تستطيع هذه الآلهة أن تنتصر لأهلها فضلًا عن نصرتها لغيرها؟!! كلا بل قد تبرأ كل معبود ممن عبدوه، وتخلى كلٌّ عن الآخر، فهنالك كبكبوا فيها، أي طرحوا على وجوههم في النار بعضهم فوق بعض هم ومن أغووهم وتسببوا لهم في الضلال ومعهم جنود إبليس كلهم، هؤلاء الجنود الذين كانوا في الدنيا يصدون الناس عن الإيمان وعن الخير، فاجتمع هنالك في النار بعضهم فوق بعضٍ بإهمال وازدراء واحتقار وإهانة، اجتمعوا أهل الكفر مع آلهتهم التي عبدوها من دون الله فقالوا آنذاك -وقد دبت بينهم الخصومات-: ﴿تَٱللَّهِ﴾ أي: والله لقد كنا في الدنيا في بُعدٍ عن الحق مظهر لمن تأمله أننا في ضلال، لقد كنا في ضلالٍ واضح عندما كنا نعبد آلهة مع الله ونسويكم يا من عبدناهم في الدنيا ويا من اتخذناهم آلهة، نسويكم بالله ﷻ، فنعبدكم كما نعبده ونطيعكم فيما دعوتمونا إليه من الضلال كما يطيع أهل الطاعة ربهم فيما يدعوهم إليه من الخير والحق والإيمان ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ﴾ وما صرفنا عن الحق إلى الباطل إلا أهل الإجرام، فها نحن قد اجتمعنا في النار ولم نجد شفعاء يشفعوا لنا لا آلهة ولا بشر ولا ملائكة ولا أي شافع يشفع، فقد قال تعالى: ﴿مَا

﴿لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾ [غافر: ١٨].

كذا، وليس لنا هاهنا اليوم صديق ينفعنا، ذلكم الصديق القريب، قريب الصداقة وقريب النسب الذي كان في الدنيا ينتصر لنا ويغضب لغضبنا فما رأيناه اليوم، لقد تخلى هو الآخر عنا فلو أن لنا رجعة إلى الحياة الدنيا حتى نؤمن ونصدق ونتبع رسل الله الكرام. ولكن هيهات هيهات، إن في ذلك المتقدم ذكره لدلالات على وحدانية الله ﷻ وقدرته، ولكن الأكثرون عن تلك الدلالات معرضون لا يؤمنون ولا يصدقون، ولا يتعظون ولا يعتبرون، وإن ربك هو العزيز الغالب الذي لا يمنع من شيء يريده، ﴿ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ بعباده إذ أرسل إليهم رسلًا تبين لهم طريق الحق وطريق الصواب، رحيم بالعباد؛ إذ دلهم على وحدانيته وأرشدهم لها، رحيم بأهل الإيمان إذ يدخلهم فسيح الجنان، والله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٩٠﴾ وأدنيت الجنة وقربت للمتقين، الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ٩١﴾ يقول: وأظهرت النار للذين غووا فضلوا عن سواء السبيل. ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ﴾ اليوم من الله، فينقذونكم من عذابه ﴿أَوۡ يَنتَصِرُونَ ٩٣﴾ لأنفسهم، فينجونها مما يراد بها؟

وقوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ٩٤﴾ يقول: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم. وأصل كبكبوا: كببوا، ولكن الكاف كُررت كما قيل: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ﴾ [الحاقة: ٦] يعني به صر،

ونهنهني ينهنهني، يعني به: نهني.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ قال: طرحوا فيها.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فتأويل الكلام: فكُبكب هؤلاء الأنداد التي كانت تعبد من دون الله في الجحيم والغاوون.

وذُكر عن قتادة أنه كان يقول: الغاوون في هذا الموضع: الشياطين.

فتأويل الكلام على هذا القول الذي ذكرنا عن قتادة. فكبكب فيها الكفار الذين كانوا يعبدون من دون الله الأصنام والشياطين.

وقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ۝٩٥﴾ يقول: وكُبكب فيها مع الأنداد والغاوين جنود إبليس أجمعون. وجنوده: كل من كان من أتباعه، من ذريته كان أو من ذرية آدم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾.

يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء الغاوون والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله وجنود إبليس، وهم في الجحيم يختصمون: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧﴾ يقول: تالله لقد كنا في ذهاب عن الحق، إن كنا لفي ضلال مبين، يبين ذهابنا ذلك عنه عن نفسه، لمن تأمله وتدبره، أنه ضلال وباطل. وقوله: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ يقول الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إن كنا لفي ذهاب عن الحق حين نعدلكم برب العالمين فنعبدكم من دونه.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٩٩ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا

صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هؤلاء الغاوين في الجحيم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يعني بالمجرمين: إبليس، وابن آدم الذي سنَّ القتل.

وقال:

وقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يقول: فليس لنا شافع فيشفع لنا عند الله من الأباعد، فيعفو عنا، وينجينا من عقابه. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ من الأقارب.

واختلف أهل التأويل في الذين عنوا بالشافعين، وبالصديق الحميم، فقال بعضهم: عني بالشافعين: الملائكة، وبالصديق الحميم: النسيب.

وقال آخرون: كل هؤلاء من بني آدم.

وقوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ يقول: فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا فنؤمن بالله فنكون بإيماننا به من المؤمنين.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: إن فيما احتج به إبراهيم على قومه من الحجج التي ذكرنا له لدلالة بينة واضحة لمن اعتبر، على أن سنة الله في خلقه الذين يستنون بسُنة قوم إبراهيم من عبادة الأصنام والآلهة، ويقتدون بهم في ذلك ما سن فيهم في الدار الآخرة، من كبكبتهم وما عبدوا من دونه مع جنود إبليس في الجحيم، وما كان أكثرهم في سابق علمه مؤمنين. وإن ربك يا محمد لهو الشديد الانتقام ممن عُبِدَ دونه، ثم لم يتب من كفره حتى هلك، الرحيم بمن تاب منهم أن يعاقبه على ما كان سلف منه قبل توبته من إثم وجرم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قربت الجنة وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها، وعملوا لها في الدنيا.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: أظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عُنقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر، وقيل لأهلها تقريعًا وتوبيخًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جَهَنم أنتم لها واردون.

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ قال مجاهد: يعني: فَدُهْوِرُوا فيها.

وقال غيره: كبوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر. والمراد: أنه ألقي بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك.

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: ألقوا فيها عن آخرهم.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: يقول الضعفاء للذين استكبروا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [غافر:٤٧]. ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ أي: نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع ربِ العالمين.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]. وكذا قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: قريب.

قال قتادة: يعلمون -والله -أن الصديق إذا كان صالحًا نفع، وأن الحميم إذا كان صالحًا شفع.

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردُّون إلى الدار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم -فيما يزعمون -وهو - سبحانه وتعالى- يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة «ص»، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص:٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي: قربت وأدنيت ليدخلوها وقال الزجاج: قرب دخولهم إياها. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أظهرت ﴿ٱلْجَحِيمُ﴾ يعني جهنم ﴿لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: الكافرين الذين ضلوا عن الهدى أي: تظهر جهنم لأهلها قبل أن يدخلوها حتى يستشعروا الروع والحزن كما يستشعر أهل الجنة الفرح لعلمهم أنهم يدخلون الجنة. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ من عذاب الله ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ لأنفسهم وهذا كله توبيخ. ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا﴾ أي: قلبوا على رؤوسهم وقيل: دهوروا وألقي بعضهم على بعض.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ الآلهة. ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ من كان من ذريته وقيل: كل من دعاه

إلى عبادة الأصنام فاتبعه. وقال قتادة والكلبي ومقاتل: ﴿وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ هم الشياطين وقيل: إنما تلقى الأصنام في النار وهي حديد ونحاس ليعذب بها غيرهم . ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦﴾ يعني : الإنس والشياطين والغاوين والمعبودين اختصموا حينئذٍ. ﴿تَٱللَّهِ﴾ حلفوا بالله ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٩٧﴾ أي: في خسار وتبار وحيرة عن الحق بينة؛ إذ اتخذنا مع الله آلهة فعبدناها كما يعبد وهذا معنى قوله: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٨﴾ أي: في العبادة وأنتم لا تستطيعون الآن نصرنا ولا نصر أنفسكم. ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ يعني الشياطين الذين زينوا لنا عبادة الأصنام وقيل: أسلافنا الذين قلدناهم قال أبو العالية وعكرمة: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٩٩﴾ إبليس وابن آدم القاتل هما أول من سن الكفر والقتل وأنواع المعاصي. ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ١٠٠﴾ أي: شفعاء يشفعون لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ١٠١﴾ أي: صديق مشفق.

وقال:

ويجوز أن يريد بالصديق الجمع والحميم القريب أو الخاص ومنه حامة الرجل أي: أقرباؤه وأصل هذا من الحميم وهو الماء الحار ومنه الحمام والحمى فحامة الرجل: الذين يحرقهم ما أحرقه يقال: وهم حزانته أي: يحزنهم ما يحزنه ويقال: حم الشيء وأحم إذا قرب ومنه الحُمى؛ لأنها تقرب من الأجل. وقال علي بن عيسى: إنما سمي القريب حميمًا لأنه يحمى لغضب صاحبه فجعله مأخوذًا من الحمية وقال قتادة: يذهب الله ﷻ يوم القيامة مودة الصديق ورقة الحميم.

❁ ❁ ❁

(٣٤٥) أحمر أسود

شيءٌ من قصة نوح عليه السلام

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ
الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ
تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي
وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ
الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿تَتَّقُونَ - أَمِينٌ - أَنُؤْمِنُ لَكَ - ٱلْأَرْذَلُونَ - إِنْ حِسَابُهُمْ - ٱلْمَرْجُومِينَ - فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا - ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ - ٱلْبَاقِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿تَتَّقُونَ﴾	ألا تجعلون بينكم وبين عذاب الله وقاية، وذلك بتوحيدكم لله وعبادتكم إياه وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهاكم عنه وتصديق ما أخبركم به
﴿أَمِينٌ﴾	ذو أمانةٍ؛ أبلغ الذي كلفت به دون زيادة أو نقص
﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾	أنصدقك ونتبعك
﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾	الضعفاء - الفقراء - الوضعاء الذين ليس معهم مال وليسوا من ذوي الجاه والمنصب
﴿إِنْ حِسَابُهُمْ﴾	ما حسابهم
﴿ٱلْمَرْجُومِينَ﴾	المقتولين رجمًا بالحجارة وقيل: المشتومين المقذوفين بسيئ الألفاظ
﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾	فاقضي بيني وبينهم قضاء
﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾	السفينة العظيمة الهائلة الممتلئة
﴿ٱلْبَاقِينَ﴾	الباقين في العذاب مع الغرقى والهلكى

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: كذبت قوم نوح نبيهم نوحًا ﷺ فيما دعاهم إليه من تقوى الله ﷻ وطاعته وعبادته وحده لا شريك له.

أما قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ وقد أرسل إليهم نوح فقط، فحاصل توجيهه أن من كذب رسولًا فقد كذب الرسل كلهم، ذلك لأن دعوة المرسلين - عليهم صلوات الله وسلامه - دعوة واحدة فالمكذب لواحدٍ مكذبٌ للجميع.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ فحاصل القول فيه أنهم كذبوه لما قال لهم ذلك، لما قال لهم: ألا تجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بتوحيدكم واتباعكم أمر ربكم وترككم ما نهاكم عنه، فإني لكم رسول أمين على الوحي أبلغكم إياه كما أمرني ربي بلا زيادة ولا نقصان، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية، وأطيعون فيما آمركم به وما أسألكم على تبليغي الوحي إليكم أجرًا، وكذا ما أسألكم على إيمانكم إن آمنتم أجرًا إن أجري إلا على رب العالمين، فاتقوا الله فقد علمتم صدقي وأطيعون فيما أنقله لكم عن الله ﷻ.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ رسل الله الذين أرسلهم إليهم لما ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ الله فتحذروا عقابه على كفركم به، وتكذيبكم رسله.

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ﴾ من الله ﴿أَمِينٞ ١٠٧﴾ على وحيه إلي، برسالته إياي إليكم.

ويقول تعالى ذكره: فاتقوا عقاب الله أيها القوم على كفركم به، وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم باتقائه. ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ يقول: وما أطلب منكم على نصيحتي لكم وأمري إياكم باتقاء عقاب الله بطاعته فيما أمركم ونهاكم، من ثواب ولا جزاء ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩﴾ دونكم ودون جميع خلق الله، فاتقوا عقاب الله على كفركم به، وخافوا حلول سخطه بكم على تكذيبكم رسله، وأطيعون، يقول: وأطيعوني في نصيحتي لكم، وأمري إياكم بإخلاص العبادة لخالقكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وَبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦﴾ أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟

﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧﴾ أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٠٨ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ﴾ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وائتمنني عليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ والقوم مذكر لأن المعنى كذبت جماعة قوم نوح وقال: ﴿الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل وقيل: كذبوا نوحًا في النبوة وفيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده وقيل: ذكر الجنس والمراد نوح عليه السلام وقد مضى هذا في (الفرقان) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ أي: ابن أبيهم وهي أخوة نسب لا أخوة دين وقيل: هي أخوة المجانسة قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤]. وقيل: هو من قول العرب يا أخا بني تميم يريدون يا واحدًا منهم الزمخشري ومنه بيت الحماسة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

﴿أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ أي: ألا تتقون الله في عبادة الأصنام. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ أي: صادق فيما أبلغكم عن الله تعالى وقيل: (أمين) فيما بينكم فإنهم كانوا عرفوا أمانته وصدقه من قبل كمحمد ﷺ في قريش. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: فاستتروا بطاعة الله تعالى من عقابه ﴿وَأَطِيعُونِ (١٠٨)﴾ فيما آمركم به من الإيمان. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي لا طمع لي في مالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما جزائي ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠)﴾ كرر تأكيدًا.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - قال قوم نوح لنوح عليه السلام لما دعاهم إلى توحيد الله عز وجل وتقواه وطاعته أجابوه بقولهم: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون أي: أنهم

قالوا: كيف نتبعك وإنما أتباعك هم الفقراء الضعفاء والوضعاء فينا، ليس معك كبير أحدٍ من ذوي المناصب والوجاهات والأموال، أفنجالسك فنعدُّ من هؤلاء؟!

فقال حينئذٍ: وما علمي بما كانوا يعملون، ما أمرت أن أفتش عن قلوبهم ولا أن أكون رقيبًا عليهم إنما أقبل منهم ما ظهر من إيمانٍ، أما حسابهم فهو على الله ﷻ هو الذي يعلم سرهم وعلانيتهم، أما إذا طالبتموني بطردهم فما أنا بطاردهم، وما أنا بمبتعد عنهم فما أنا إلا نذير للخلق، أحذر من عصى وأشرك وأنذره وأبين له عاقبة أمره إن هو مات على الشرك، وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

تعالى ذكره: قال قوم نوح له مجيبيه عن قيله لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ قالوا: أنؤمن لك يا نوح، ونقر بتصديقك فيما تدعونا إليه، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات؟! ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون؟! إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، ولم أكلف علم باطنهم، وإنما كلفت الظاهر، فمن أظهر حسنًا ظننت به حسنًا، ومن أظهر سيئًا ظننت به سيئًا. يقول: إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني إلا على ربي لو تشعرون، فإنه يعلم سرَّ أمرهم وعلانيته.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل نوح لقومه: وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعني على التصديق بما جئت به من عند الله. ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ يقول: ما أنا إلا نذير لكم من عند ربكم أنذركم بأسه، وسطوته على كفركم به. مبين: يقول: نذير قد أبان لكم إنذاره، ولم يكتمكم نصيحته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقولون: أنؤمن لك ونتبعك، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا؟! ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأكل سرائرهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّيۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾﴾ أي: إنما بعثت نذيرًا، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلًا أو حقيرًا.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تيسير الكريم الرحمن):

﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس، وأراذلهم، وسقطهم؟ بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته -: بيّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل، من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح، لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ فبنوا على هذا

الأصل، الذي كل أحد يعرف فساده، رد دعوته - عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين، بصدقه وصحة ما جاء به.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أن قوم نوح عليه السلام ازداد تكذيبهم له وعنادهم له فقالوا: لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين، قيل: من المرجومين بالحجارة المقتولين، وقيل: المرجومين بالسباب والقذف والشتم، فعندها اعتصم بالله وازداد اعتصامه فقال: رب إن قومي كذبون فاقض بيني وبينهم يا رب قضاءً تنتصر فيه من الظالم وتأخذ للمظلوم حقه ونجني يا رب ومن آمنوا معي واحفظنا من شرور هؤلاء فأنجاه الله عز وجل وأنجى من معه وهم المؤمنون به في السفينة العظيمة التي أمر نوحٌ عليه السلام بصناعتها، تلك السفينة العظيمة التي أمر نوح عليه السلام أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول منهم وهم زوجته وولده، فالفلك المشحون هو المملوء الموقر، فحمل عليه السلام فيه وأنجاه الله ومن معه ثم أغرق الباقين في الكفر والضلال، إن في ذلك لدلالة على قدرة الله عز وجل ووحدانيته، ودلالة على أن الله عز وجل يُنجي أهل الإيمان، وإن ربك لهو العزيز الذي لا يغلب ولا يردُّ له، أمر الرحيم الذي يرحم عباده برهم وفاجرهم أما رحمته في الآخرة فهي خاصة بأهل الإيمان،

والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ يقول: قال لنوح قومه: لئن لم تنته يا نوح عما تقول، وتدعو إليه، وتعيب به آلهتنا، لتكونن من المشتومين، يقول: لنشتمنك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾﴾ فيما أتيتهم به من الحق من عندك، وردوا علي نصيحتي لهم. ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ يقول: فاحكم بيني وبينهم حكمًا من عندك تهلك به المبطل، وتنتقم به ممن كفر بك وجحد توحيدك، وكذب رسولك.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ قال يقول: اقض بيني وبينهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَنَجِّنِى﴾ يقول: ونجني من ذلك العذاب الذي تأتي به حكمًا بيني وبينهم. ﴿وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: والذين معي من أهل الإيمان بك والتصديق لي.

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ يقول: فأنجينا نوحًا ومن معه من المؤمنين -حين فتحنا بينهم وبين قومهم، وأنزلنا بأسنا بالقوم الكافرين- في الفلك المشحون: يعني في السفينة الموقرة المملوءة.

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ من قومه الذين كذبوه، وردوا عليه النصيحة.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلنا يا محمد بنوح ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسطوتنا، بقومه الذين كذبوه، لآية لك ولقومك المصدقيك منهم والمكذبيك، في أن سنتنا تنجية رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين بهم من قومهم، وإهلاك المكذبين بالله، وكذلك سنتي فيك وفي قومك. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾ يقول: ولم يكن أكثر قومك بالذين يصدقونك مما سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به، وخالف أمره ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنَّك. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

وقـال هاهنـا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

والمشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين، أي: نجيناه ومن معه كلهم، وأغرقنا مَنْ كذبه وخالف أمره كلهم، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي: عن سبِّ آلهتنا وعيب ديننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ أي: بالحجارة قاله قتادة وقال ابن عباس ومقاتل: من المقتولين. قال الثمالي: كل مرجومين في القرآن فهو القتل إلا في مريم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ [مريم: ٤٦] أي: لأسبنك وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ من المشتومين قاله السدي ومنه قول أبي دؤاد. ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ قال ذلك لما يئس من إيمانهم والفتح: الحكم وقد تقدم. ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ يريد السفينة وقد مضى ذكرها والمشحون: المملوء والشحن: ملء السفينة بالناس والدواب وغيرهم ولم يؤنث الفلك هاهنا لأن الفلك هاهنا واحد لا جمع. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: بعد إنجائنا نوحًا ومن آمن. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

❁ ❁ ❁

ذكر نبي الله هود عليه السلام

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧ أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ
١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ
وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ
أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ
بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٤٠].

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿رِيعٍ –ءَايَةً –تَعۡبَثُونَ –مَصَانِعَ –تَخۡلُدُونَ –بَطَشۡتُم –بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ –بِأَنۡعَٰمٖ –أَوَعَظۡتَ –خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿رِيعٍ﴾	الريع المكان المُشرف المرتفع وقيل: المرادّ به الطريق، وقيل: الطريق بين الجبلين
﴿ءَايَةً﴾	بنيانًا عظيمًا كدليل تستدلون به على قوتكم
﴿تَعۡبَثُونَ﴾	تلعبون – تصنعون ما لا فائدة فيه
﴿مَصَانِعَ﴾	قصور مشيدة – أبراج – حصون – وقيل: مآخذ المياه
﴿تَخۡلُدُونَ﴾	تعيشون لا تموتون – تخلّدون في الدنيا
﴿بَطَشۡتُم﴾	ضربتم – آذيتم
﴿بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ﴾	ضربتم بقوة بالسيف، قتلتم بلا هوادة ولا رحمة من غير سبب أو لأتفه سبب
﴿بِأَنۡعَٰمٖ﴾	بإبل، وقيل: بالأنعام الثمانية والجمل والناقة والثور والبقرة والكبش والنعجة، والجدي والعنز
﴿أَوَعَظۡتَ﴾	أذكّرت وحذّرت
﴿خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾	دين الأولين وعادتهم وشأنهم، وقيل: المراد: أساطير الأولين

❁ ❁ ❁

س: كيف قيل: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣﴾ وإنما أُرسل إليهم نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقط؟

ج: الحاصل - والله أعلم - أن عادًا لما كذبوا رسولهم هود فقد كذبوا المرسلين جميعًا ذلك لأن الذي أرسل به هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الدعوة إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ وعبادته وطاعته وتقواه هو الذي أرسلت به الرسل كلها فمكذبٌ لواحد منهم إنما هو مكذبٌ لجميعهم. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: كيف الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾ ومعلوم أن قوم هود الذين هم (عاد) كفار؟

ج: لأهل العلم في ذلك أجوبة ذكرت ضمنًا في قصة نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ المتقدمة، وحاصلها:

أنه قيل إنها أخوةٌ في النسب.

وقيل: إنها بمعنى واحدٍ منهم كما يقال: يا أخا العرب، يا أخا تميم، ونحو ذلك، فالله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٢٦ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن قبيلة عاد، تلك القبيلة التي أتاها الله قوةً عظيمة كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ

﴿مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦-٨]، هذه القبيلة العاتية الظالمة كذبت رسول الله إليها، وهو نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم إلى توحيد ربه وتقواه وطاعته قائلًا لهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾ ألا تجعلون بينكم وبين عذاب الله وقاية بطاعتكم له إني لكم رسول أمين على الوحي الذي أوحاه الله إليَّ، أبلغكم إياه دون زيادة أو نقصان، فاتقوا الله فيما أمرتكم به فقد علمتم صدقي، وأطيعوني ولا تعصوني وما أسألكم على إيمانكم ولا على دعوتكم إلى الإيمان أجرًا، إنما أطلب الأجر من الله عَزَّ وَجَلَّ وحده لا شريك له، هو رب السموات والأرض وما بينهما وربُّ كل شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ رسل الله إليهم. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عقاب الله على كفركم به. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من ربي يأمركم بطاعته، ويحذركم على كفركم بأسه، ﴿أَمِينٌ ۝١٢٥﴾ على وحيه ورسالته. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بطاعته والانتهاء إلى ما يأمركم وينهاكم ﴿وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦﴾ فيما آمركم به من اتقاء الله وتحذيركم سطوته. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أطلب منكم على أمري إياكم باتقاء الله جزاء ولا ثوابًا. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢٧﴾ يقول: ما جزائي وثوابي على نصيحتي إياكم إلا على رب العالمين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريبًا من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في «سورة الأعراف»:

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعـراف:٦٩]
وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله إليهم رجلًا منهم رسولًا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٣١ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ١٣٣ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ١٣٤ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣٥﴾.

ج: هذا خطاب نبي الله هود عليه السلام مع قومه، قال لهم: أتبنون بكل مكانٍ مرتفع، وبكل مكانٍ مرتفع، وبكل طريق بنيانًا عظيمًا هائلًا تستدلون به على قوتكم وجبروتكم عبثًا بلا فائدة، تبنونه فقط لإظهار قوتكم ولا حاجة لكم فيه، إنما تضيعون أوقاتكم وتهلكون أبدانكم، وتبددون أموالكم فيما لا فائدة لكم فيه، وكذا تبنون المصانع التي هي القصور الشاهقة والبروج المشيدة والتي هي مآخذ المياه، تفعلون ذلك كي تخلدوا في الدنيا لا تموتون، أو تصنعون ذلك كأنكم ستعيشون أبد الدهر لا تموتون، وإذا أنزلتم عقوبة بشخصٍ بطشتم به بلا رحمة ولا هوادة بسببٍ أو لغير بسبب، بل بطشتم بالعباد ظلمًا وقهرًا بكل قوتكم وبكل أنواع البطش، وأعظمه القتل بالسيف

فاتقوا الله بامتثال ما أمركم وانتهوا عما نهاكم واجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية وأطيعوني فقد علمتم صدقي، ثم عاود التذكير بتقوى الله وبيان نعمه عليهم إذ قال: واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون من صنوف النعم والقوة في البدن وغير ذلك، فقد أمدكم بأنعام، وهي الأنعام الثمانية (الإبل والبقر والغنم والماعز) من كلٍ زوجين، وقد تطلق الأنعام على الإبل خاصة.

وكذا فإنه سبحانه وتعالى أمدكم ببنين فرزقكم الذرية وأمدكم بحدائق وبساتين وعيونٍ للمياه تشربون منها وتسقون، إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيم وهو يوم القيامة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيل هود لقومه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ والريع: كل مكان مشرف من الأرض مرتفع، أو طريق أو واد.

وقال: وقوله: ﴿تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ قال: تلعبون.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى المصانع، فقال بعضهم: هي قصور مشيدة.

وقال آخرون: هي أبرجة الحمام.

وقال آخرون: بل هي مآخذ الماء.

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونًا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع

العذر بأي ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه، ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ يقول: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ يقول: وإذا سطوتم سطوتم قتلًا بالسيوف، وضربًا بالسياط.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في تأويل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هود لقومه من عاد: اتقوا عقاب الله أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين، والبساتين والأنهار. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ من الله ﴿عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة. تبنون هناك بناء محكمًا باهرًا هائلًا؛ ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً﴾ أي: معلمًا بناءً مشهورًا، تعبثون، وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

(٣٦٣) أحمر أسود

ثم قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾. قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام.

وقال قتادة: هي مآخذ الماء. قال قتادة: وقرأ بعض القراء: **(وتتخذون مصانع كأنكم خالدون)**.

وفي القراءة المشهورة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩﴾ أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وليس ذلك بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وقال:

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾ أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم.

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ أثرًا عزاه لابن أبي حاتم فقال: وقال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا أبي، حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا الوليد، حدثنا ابن عجلان، حدثني عَوْن بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى ما أحدث المسلمون في الغُوطة من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق! فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون! ألا تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، إنه كانت قبلكم قرون، يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن

عادًا ملكت ما بين عدن وعمان خيلًا وركابًا، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كي تخلدوا وقيل: لعل استفهام بمعنى التوبيخ أي: فهل (تخلدون) كقولك: لعلك تشتمني أي: هل تشتمني وروي معناه عن ابن زيد وقال الفراء: كيما تخلدون لا تتفكرون في الموت وقال ابن عباس وقتادة: كأنكم خالدون باقون فيها.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ البطش: السطوة والأخذ بالعنف وقد بطش به يبطش ويبطش بطشًا وباطشه مباطشة وقال ابن عباس ومجاهد: البطش: العسف قتلًا بالسيف وضربًا بالسوط ومعنى ذلك: فعلتم ذلك ظلمًا وقال مجاهد أيضًا: هو ضرب بالسياط ورواه مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر فيما ذكر ابن العربي وقيل: هو القتل بالسيف في غير حق حكاه يحيى بن سلام وقال الكلبي والحسن: هو القتل على الغضب من غير تثبت وكله يرجع إلى قول ابن عباس وقيل: إنه المؤاخذة على العمد والخطإ من غير عفو ولا إبقاء. قال ابن العربي: ويؤيد ما قال مالك قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩] وذلك أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يسل عليه سيفًا ولا طعنه برمح وإنما وكزه وكانت منيته في وكزته والبطش يكون باليد وأقله الوكز والدفع ويليه السوط والعصا ويليه الحديد والكل مذموم إلا بحق والآية نزلت خبرًا عمن تقدم من الأمم ووعظًا من الله عَزَّ وَجَلَّ لنا في مجانبة ذلك

الفعل الذي ذمهم به وأنكره عليهم.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿...خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قراءتان وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: القراءتان هي ﴿خُلُقُ﴾ بضم الخاء واللام والثانية: ﴿خَلْق﴾.

أما معنى خُلُق الأولين فمعناها لأهل العلم فيه أقوال:

أحدها: دين الأولين وعادتهم وأخلاقهم، أي: أن هذا الذي نحن عليه دين آبائنا وأخلاق آبائنا ولن نتركه.

والثاني: خلق الأولين، ومعناه: اختلاق الأولين وكذب الأولين وأساطير الأولين أي: هذا الذي تدعونا إليه إنما هو أساطير الأولين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك؛ فقرأته عامة قرّاء المدينة سوى أبي جعفر، وعامة قرّاء الكوفة المتأخرين منهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ من قبلنا: وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو ابن العلاء: «إِنْ هَذَا إلا خَلْقُ الأوّلينَ» بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأوّلين وأحاديثهم؟

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القرَّاء في قراءته، فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأوّلين وعادتهم وأخلاقهم.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن مسعود: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ يقول: إن هذا إلا اختلاق الأوّلين.

وبإسناد صحيح عنه: أنه كان يقرأ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خَلۡقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ ويقول: شيء اختلقوه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ قال: إن هذا إلا أمر الأوّلين وأساطير الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى القراءتين في ذلك بالصواب: قراءة من قرأ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ بضم الخاء واللام، بمعنى: إن هذا إلا عادة الأوّلين ودينهم، كما قال ابن عباس؛ لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاء منهم سنة من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خلق الأوّلين، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين. ويزيد ذلك بيانًا وتصحيحًا لما اخترنا من القراءة والتأويل، قولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لأنهم لو كانوا لا يقرُّون بأن لهم ربًّا يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئتنا به يا هود إلا خلق الأوّلين، وما لنا من معذب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون: إنها تقربنا إلى الله زلفى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله معذبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسلهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: دينهم؛ عن ابن عباس وغيره وقال الفراء: عادة الأولين وقرأ ابن كثير و أبو عمرو و الكسائي: ﴿خَلْقُ الأولين﴾ الباقون ﴿خُلُقُ﴾ قال الهروي: وقوله ﷻ: ﴿إن هذا إلا خَلْقُ الأولين﴾ أي: اختلاقهم وكذبهم ومن قرأ: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فمعناه عادتهم والعرب تقول: حدثنا فلان بأحاديث الخلق أي بالخلافات والأحاديث المفتعلة وقال ابن الأعرابي: الخلق: الدين والخلق: الطبع. والخلق: الروءة. قال النحاس: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عند الفراء يعني عادة الأولين وحكى لنا محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد قال: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مذهبهم وما جرى عليه أمرهم. قال أبو جعفر: والقولان متقاربان ومنه الحديث عن النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**» أي: أحسنهم مذهبًا وعادة وما يجري عليه الأمر في طاعة الله ﷻ ولا يجوز أن يكون من كان حسن الخلق فاجرًا فاضلًا ولا أن يكون أكمل إيمانًا من السيئ الخلق الذي ليس بفاجر. قال أبو جعفر: حكي لنا عن محمد بن زيد أن معنى ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تكذيبهم وتخرصهم غير أنه كان يميل إلى القراءة الأولى لأن فيها مدح آبائهم وأكثر ما جاء القرآن في صفتهم مدحهم لآبائهم وقولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣] وعن أبي قلابة: أنه قرأ: ﴿خُلْق﴾ بضم الخاء وإسكان اللام تخفيف ﴿خُلُقُ﴾ ورواها ابن جبير عن أصحاب نافع عن نافع وقد قيل: إن معنى ﴿خَلْقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: دين الأولين ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] أي: دين الله و ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عادة الأولين: حياة ثم موت ولا بعث وقيل: ما هذا الذي أنكرت علينا من البنيان

والبطش إلا عادة من قبلنا فنحن نقتدي بهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

ج: هذا جواب قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام بعد أن وعظهم وذكرهم وحذرهم، وأمرهم بطاعة الله عز وجل، قالوا له: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أحذرتنا وذكرتنا أم لم تكن من المذكِّرين الواعظين، كل ذلك يستوي عندنا فلن نؤمن لك ولن نصدقك فما هذا الذي نحن عليه إلا دين الأولين وعادة آبائنا الأقدمين، وقد ماتوا عليه وما أصابهم شيء فلن نعذب، فإنهم لم يعذبوا، وهكذا تمادى بهم تكذيبهم فأهلكناهم إن في ذلك لدلالة على وحدانيتنا وقدرتنا وما كان أكثر هؤلاء بعد وعظهم بمؤمنين، بل استمروا على كفرهم ولم يُجد فيهم وعظ الواعظين، وإن ربك لهو العزيز في انتقامه فإذا أراد أن ينتقم فلا رادَّ لعذابه، وهو كذلك الرحيم بعباده فلم يعاجلهم بالعقوبة بل أنذرهم وحذرهم، ثم هو رحيم بأهل الإيمان في الدنيا والآخرة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، وَرَغَّبَهُم ورهبهم، وبيَّن لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٥٣] وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾. [يونس: ٩٦، ٩٧]

وقولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خَلۡقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: قرأ بعضهم: (إن هذا إلا خَلْق) بفتح الخاء وتسكين اللام.

قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان:٥]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

وقرأ آخرون: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ -بضم الخاء واللام -يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد. ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يقول: دين الأولين. وقاله عكرمة، وعطاء الخراساني، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير

موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًّا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر:٦، ٧] وهم عاد الأولى، كما قال: ﴿وَأَنَّهُۥ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم:٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: الذين كانوا يسكنون العمد. ومن زعم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر:٨]، أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:١٥].

وقد قدَّمنا أن الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، بإذن الله لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ الآية [الأحقاف:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٦، ٧]، أي: كاملة ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، أي: بقوا أبدانًا بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئًا، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾

[نوح:٤]؛ ولهذا قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

في تأويل قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يقول تعالى ذكره: فكذَّبت عاد رسول ربهم هودًا، والهاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ من ذكر هود. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يقول: فأهلكنا عادًا بتكذيبهم رسولنا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، المكذِّبيك فيما أتيتهم به من عند ربك.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم الله.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين به.

❁ ❁ ❁

شيء من قصة صالح عليه السلام

قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ
﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي
الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ
مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ
شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشعراء:
١٤١-١٥٩].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿طَلْعُهَا - هَضِيمٌ - وَتَنْحِتُونَ - فَرِهِينَ - ٱلْمُسْرِفِينَ - ٱلْمُسَحَّرِينَ - بِـَٔايَةٍ - شِرْبٌ - وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ - فَعَقَرُوهَا - فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿طَلْعُهَا﴾	ثمرها، (الملتفة على بعضها والتي تحيط بها أكنتها)[1]
﴿هَضِيمٌ﴾	ناضج وطيب مستطاب يُهضم سريعًا إذا أكل
﴿وَتَنْحِتُونَ﴾	تحفرون – تنقشون
﴿فَرِهِينَ﴾	مهرةً حاذقين – متجبرين – بطرين – أشرين – متطاولين متعجبين مستكبرين
﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	المتجاوزين للحد في الطغيان
﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾	المصابين بالسحر
﴿بِـَٔايَةٍ﴾	بدليل على صدقك ونبوتك بمعجزةٍ تشهد أنك رسول من عند الله
﴿شِرْبٌ﴾	حظٌّ من الشرب – قدرٌ من الوقت تشرب فيه
﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾	لا تقربوها بأذى
﴿فَعَقَرُوهَا﴾	فقتلوها – رموها بالسهام وضربوها بالسيوف
﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾	فحل بهم العقاب

(١) قال القرطبي: والطلعة هي التي تطلع من النخل كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – كذبت قبيلة ثمود جميع المرسلين، وذلك بتكذيبها بنبيها صالحًا عليه السلام فالذي يكذب رسولًا فقد كذب جميع الرسل، كما تقدم إذ دعوة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه واحدة. كذبوا رسولهم إذ قال لهم: ألا تتقون ربكم بامتثالكم أمره واجتنابكم نهيه، وعبادته وحده لا شريك له فإني لكم رسول من عند الله أمين على وحيه، فاتقوا الله وأطيعون فقد علمتم صدقي في دعوتكم إليه، وما أسألكم على دعوتي لكم ولا على إيمانكم من أجر إن أجري إلا على رب العالمين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: كذَّبت ثمود رسل الله، إذ دعاهم صالح أخوهم إلى الله، فقال لهم: ألا تتقون عقاب الله يا قوم على معصيتكم إياه، وخلافكم أمره، بطاعتكم أمر المفسدين في أرض الله. ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبته على خلافكم أمره ﴿أَمِينٌ﴾ على رسالته التي أرسلها معي إليكم. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أيها القوم، واحذروا عقابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في تحذيري إياكم، وأمر ربكم باتباع طاعته. ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أسألكم على نصحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب. ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: إن جزائي وثوابي إلا على ربِّ جميع ما في السموات، وما في الأرض، وما

بينهما من خلق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهذا إخبار من الله ﷻ عن عبده ورسوله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحجْر، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة. وقد قدمنا في «سورة الأعراف» الأحاديث المروية في مرور رسول الله ﷺ بهم حين أراد غَزْوَ الشام، فوصل إلى تَبُوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك. وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه. فأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرًا منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ﷻ ثم ذكرهم آلاء الله عليهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ استمر في وعظ قومه وتذكيرهم وتحذيرهم قائلًا لهم: أتظنون أنكم ستتركون في دياركم آمنين مطمئنين وأنتم مقيمين على كفركم بالله وشرككم به وظلمكم للعباد وطغيانكم وبغيكم، أتظنون أنكم ستتركون هكذا في بلادكم وأنتم على هذه الحال آمنين مطمئنين تعيشون في حدائق وبساتين، وعيون ماء تجري رزقًا من الله لكم، وزروع ونخل ثمرها نضيج تأكلون رطبًا مريئًا يسهل عليكم هضمه، وأما عن مساكنكم فها أنتم تطاولتم بغيًا، ولم تنشؤوا مساكن على قدر

حاجاتكم بل تطاولتم وبغيتم ونحتم من الجبال بيوتًا، وقد عُلمتم كيف النحت ولكن لم تشكروا الله عليه، بل تطاولتم وبغيتم واستكبرتم على خالقكم، لقد كنتم حذقةً ومهرةً في النحت ولكن صوحب ذلك بالكبر والتعالي، فلا تظنوا أن هذه المساكن التي نحتموها في الجبال ستخلدكم أو أنكم ستخلدون في دنياكم فاتقوا الله وأطيعون فقد علمتم صدقي ونصحي لكم، ولا تطيعوا أمر هؤلاء الذين تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان وأسرفوا على أنفسهم، أكثروا عليها من المعاصي والكبائر والشرك بالله.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل صالح لقومه من ثمود: أيترككم يا قوم ربكم في هذه الدنيا آمنين، لا تخافون شيئًا؟ ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ يقول: في بساتين وعيون ماء. ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يعني بالطلع: الكُفُرَّى.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿هَضِيمٌ﴾ فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.

وقال آخرون: بل هو المتهشم المتفتت.

وقال آخرون: هو الرطب اللين.

وقال آخرون: هو الراكب بعضه بعضًا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمسِّ الأيدي، وإما

بركوب بعضه بعضًا، وأصله مفعول صرف إلى فعيل.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وتتخذون من الجبال بيوتًا. واختلفت القرَّاء في قراءة قوله: ﴿فَرِهِينَ﴾ فقرأته عامة قرَّاء أهل الكوفة: ﴿فَرِهِينَ﴾ بمعنى: حاذقين بنحتها. وقرأته عامة قرّاء أهل المدينة والبصرة: (فَرِهِينَ) بغير ألف، بمعنى: أشرين بطرين.

وأورد رَحِمَهُ اللَّهُ أقوالًا في معنى فارهين، منها حاذقين، ومنها متجبرين ومنها كيسين ومنها أشرين، ومنها أقوياء، ثم قال:

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ يقول تعالى ذكره: فاتقوا عقاب الله أيها القوم على معصيتكم ربكم، وخلافكم أمره، وأطيعون في نصيحتي لكم، وإنذاري إياكم عقاب الله ترشدوا.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل صالح لقومه من ثمود: لا تطيعوا أيها القوم أمر المسرفين على أنفسهم في تماديهم في معصية الله، واجترائهم على سخطه، وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وصفهم الله جلَّ ثناؤه بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] يقول: الذين يسعون في أرض الله بمعاصيه، ولا يصلحون، يقول: ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعة الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول لهم واعظًا لهم ومحذرًا إياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكرًا بأنعم الله

عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة، وجعلهم في أمن من المحذورات. وأنبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات؛ ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبَلَغ، فهو هضيم.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شرهين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على عَمَل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلًا.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.

❁ ❁ ❁

س: من هم المسرفون الذين عناهم صالحٌ عليه السلام بقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾؟

ج: قال بعض أهل العلم إنهم التسعة الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وقال آخرون: هم عموم المسرفين الذي تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان والكفر والعصيان. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن قوم صالحٍ عليه السلام وهم قبيلة ثمود لما دعاهم إلى عبادة الله عز وجل وحده لا شريك له وأمرهم بطاعته وتقواه ردوا عليه بقولهم إنما أنت من المُسحرين، أي من الذين أصابهم السحر فغيَّر عقولهم، فلذلك قلت ما قلت، وادعيت ما ادعيت من أنك رسول الله، وقيل: إن قولهم من المسحرين أي: المخلوقين أمثالنا لك (سحرٌ) وهو الرئة فأنت تمرض كما نمرض تصاب كما نصاب، وليست لك علينا مزية حتى نتبعك. فما أنت برسولٍ من عند الله إنما أنت بشرٌ مثلنا، وإن كنت تدعي الرسالة فهات الدليل على ذلك، ائتنا بآية – بعلامة – بدليل على صدقك أنك رسول من عند الله، فقال لهم: هذه ناقة الله، ناقة تخرج لكم كما طلبتم، ناقة عظيمة هائلة لبنها يكفي القبيلة بكاملها لها أن تشرب من البئر يومًا واليوم الثاني تشربوا أنتم من البئر، فلها أن تشرب في يوم ولكم أن تشربوا يومًا من البئر، كل له يوم مخصوص مُحدد فلا تقربوا هذه الناقة، التي هي من عند الله دليل على نبوتي ورسالتي، لا تقربوها بسوء ولا تلحقوا بها أذى فيصيبكم عذابٌ عظيم في دنياكم هذه فضلًا عن الآخرة وعذابها، فهكذا نصحهم صالحٌ عليه السلام، ولكن هل أجدى نصحه معهم؟! وهل أثرت نصحيته فيهم؟! كلا بل تمادوا في الشر

والفساد والتعالي والإجرام فعقروا الناقة، قتلوها بسهامهم وسيوفهم فقد خرج لها أشد رجلٍ إجرامًا وأكثر رجل عزةً ومنعةً في قومه، وهو أشقى رجل في قبيلة ثمود، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ وكما قال: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾.

فالحاصل: أنهم عقروا الناقة ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ على عقرها لما رأوا من طلائع العذاب ومقدماته ولم ينفعهم الندم آنذاك، بل حلَّ بهم من أمر الله ما حلَّ ونزل بهم من عذاب الله ما نزل فأخذهم الله ﷻ ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة هائلة عظيمة فدوتهم وأبادتهم وأماتتهم. إن في ذلك لدليل على قدرة الله على الانتقام من أعدائه، ودليل على إنجاء الله لعباده المؤمنين، ولكن، ومع هذا التذكير فلم تكن الذكرى تنفع الأكثرين بل أعرض الأكثرون مع رؤيتهم الآيات والمعجزات وإن ربك يا محمد لهو العزيز الذي لا يُغلب والذي لا يرد له أمر الرحيم بعباده المؤمنين، وكذا رحيم بالخلق في دنياهم ينذرهم ويحذرهم ويطعمهم ويسقيهم ويعافيهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: إنما أنت من المسحورين.

وقال آخرون: معناه: من المخلوقين.

وقال:

والصواب من القول في ذلك عندي: القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أن

معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربًّا ولا ملكًا فنطيعك، ونعلم أنك صادق فيما تقول. والمسحر: المفعل من السحرة، وهو الذي له سحرة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل ثمود لنبيها صالح: ﴿ مَآ أَنتَ ﴾ ياصالح ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ من بني آدم، تأكل ما نأكل، وتشرب ما نشرب، ولست بربٍّ ولا ملك، فعلام نتبعك؟ فإن كنت صادقًا في قيلك، وأن الله أرسلك إلينا ﴿ فَأْتِ بِـَٔايَةٍ ﴾ يعني: بدلالة وحجة على أنك محق فيما تقول، إن كنت ممن صدقنا في دعواه أن الله أرسله إلينا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال صالح لثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه، فأتاهم بناقة أخرجها من صخرة أو هضبة: هذه ناقة يا قوم، لها شرب ولكم مثله شرب يوم آخر معلوم، ما لكم من الشرب، ليس لكم في يوم وردها أن تشربوا من شربها شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئًا. ويعني بالشرب: الحظ والنصيب من الماء، يقول: لها حظّ من الماء، ولكم مثله، والشُّرْب والشَّرْب والشِّرْب مصادر كلها بالضم والفتح والكسر.

وقد حُكي عن العرب سماعًا: آخرها أقلها شُربًا وشِربًا.

وقوله: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ يقول: لا تمسوها بما يؤذيها من عقر وقتل ونحو

ذلك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

يقول تعالى ذكره: فخالفت ثمود أمر نبيها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لا تمسوها بسوء، فأصبحوا نادمين على عقرها، فلم ينفعهم ندمهم، وأخذهم عذاب الله الذي كان صالح توعدهم به فأهلكهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول: إن في إهلاك ثمود بما فعلت من عقرها ناقة الله وخلافها أمر نبي الله صالح لعبرة لمن اعتبر به يا محمد من قومك. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: ولن يؤمن أكثرهم في سابق علم الله. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به من خلقه.

وأورد ابن كثير قولين في تفسير المسحرين. أحدهما: المسحورين، والثاني (المخلوقين).

قال:

واستشهد بعضهم على هذا القول بما قال الشاعر:

فإن تسألينا: فيم نحن؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

يعني الذين لهم سُحور، والسَّحر: هو الرئة، والأظهر في هذا قول مجاهد وقتادة: أنهم يقولون: إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قالوا: ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ

ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦].

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم -أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة عندهم -ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا. فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنَنَ به، وليتبعنه، فأنعموا بذلك. فقام نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ فصلى، ثم دعا الله، عَزَّ وَجَلَّ، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصفة التي وصفوها. فآمن بعضهم وكفر أكثرهم، ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ يعني: ترد ماءكم يومًا، ويومًا تردونه أنتم، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى. وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًا، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالؤوا على قتلها وعقرها.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالًا شديدًا، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولك: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ قال ابن عباس: قالوا: إن كنت صادقًا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء فتضع ونحن ننظر وترد هذا الماء فتشرب

وتغدو علينا بمثله لبنًا فدعا الله وفعل الله ذلك فـ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ أي: حظ من الماء أي: لكم شرب يوم ولها شرب يوم. فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار. وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئًا ولا لها أن تشرب في يومهم من مائهم شيئًا قال الفراء: الشرب الحظ من الماء.

وقال أيضًا:

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ أي: على عقرها لما أيقنوا بالعذاب وذلك أنه أنظرهم ثلاثًا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم وندموا ولم ينفعهم الندم عند معاينة العذاب وقيل: لم ينفعهم الندم لأنهم لم يتوبوا بل طلبوا صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ ليقتلوه لما أيقنوا بالعذاب وقيل: كانت ندامتهم على ترك الولد إذ لم يقتلوه معها وهو بعيد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ إلى آخره تقدم.

❁ ❁ ❁

شيء من قصة نبي الله لوط عليه السلام

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ
مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا
يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا
ٱلْـَٔاخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٧٥)﴾.

[الشعراء: ١٦٠-١٧٥]

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ - ٱلْعَٰلَمِينَ - وَتَذَرُونَ - عَادُونَ - ٱلْمُخْرَجِينَ - ٱلْقَالِينَ - عَجُوزًا - ٱلْغَٰبِرِينَ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا - فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾	أتجامعون الرجال في أدبارهم
﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾	البشر
﴿وَتَذَرُونَ﴾	تتركون
﴿عَادُونَ﴾	معتدون – متجاوزون للحد
﴿ٱلْمُخْرَجِينَ﴾	المطرودين من البلاد
﴿ٱلْقَالِينَ﴾	المبغضين المُنكرين الكارهين الرافضين
﴿عَجُوزًا﴾	امرأة كبيرة السن
﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾	الباقين في العذاب
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾	المراد هنا أرسلنا عليهم حجارة
﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾	بئس المطر، ذلك المطر الذي أمطره الله على الذين أنذرتهم رسلهم فكذبوا رسلهم

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – كذبت قوم لوط جميع المرسلين بتكذيبهم نبي الله لوطًا عليه السلام، فمن كذَّب رسولًا فقد كذب جميع المرسلين، وذلك لأن دعوة المرسلين واحدة، كذبوا لوطًا إذ أمرهم بتقوى الله عز وجل، ولقد قال لهم مُذكِّرًا إني لكم رسولٌ من عند الله أمينٌ على الوحي أبلغكم ما أرسلت به إليكم دون زيادة أو نقصان، وقد علمتم صدقي فاتقوا الله وأطيعون فيما أدعوكم إليه وما أسألكم على دعوتي لكم أجرًا فما أجري إلا على رب العالمين هو الذي أطلب منه الأجر وأبتغي منه الثواب.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ من أرسله الله إليهم من الرسل حين ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله أيها القوم. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من ربكم ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، وتبليغ رسالته. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أنفسكم، أن يحل بكم عقابه على تكذيبكم رسوله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي جزاءً ولا ثوابًا. يقول: ما جزائي على دعايتكم إلى الله، وعلى نصحي لكم وتبليغ رسالات الله إليكم، إلا على ربِّ العالمين.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام وهو: لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في

حياة إبراهيم، وكانوا يسكنون «سدوم» وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور، متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك، فدعاهم إلى الله ﷻ أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكْران دون الإناث/ .

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ج: هذا قول نبي الله لوط عليه السلام لقومه مستنكرًا عليهم صنيعهم القبيح، وهو إتيان الرجال في أدبارهم وترك الزوجات اللواتي أحلهن الله ﷻ، فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ أتجامعون الرجال في أدبارهم، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: من البشر، ﴿وَتَذَرُونَ﴾ تتركون ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ نساءكم الحلال اللواتي أحلهن الله لكم بل أنتم قوم متجاوزون للحد معتدين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يعني بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أتنكحون الذكران من بني آدم في أدبارهم. وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يقول: وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهنّ، فأحله لكم. وذُكر أن ذلك في قراءة عبد الله: (وَتَذَرُونَ ما أَصْلَحَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ).

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ يقول: بل أنتم قوم تتجاوزون ما أباح لكم

ربكم، وأحله لكم من الفروج إلى ما حرم عليكم منها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كانوا ينكحونهم في أدبارهم وكانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم (في الأعراف) ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ يعني: فروج النساء فإن الله خلقها للنكاح. قال إبراهيم بن مهاجر: قال لي مجاهد: كيف يقرأ عبد الله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ﴾ قلت: **(وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم)** قال: الفرج؛ كما قال: ﴿فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. قوله تعالى: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ أي: متجاوزون لحدود الله.

❀ ❀ ❀

س: أهل الكفر دومًا يهددون رسلهم بالإخراج من البلاد، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقول قوم لوط للوطٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وقولهم: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

وقول قوم شعيب لشعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقول ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ: «ليتني فيها جزعًا، إذ يخرجك قومك

قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت أحدٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي».

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله اعلم – أن قوم لوطٍ عليه السلام أجابوه لِما دعاهم إلى الله ونهاهم عن فعل الفاحشة القبيحة التي اختصوا بها، وأعلن لهم عن بغضه لها ولسائر أعمالهم القبيحة، ولشركهم بالله، أجابوه بقولهم: لئن لم تنته يا لوط عن دعوتك لنا إلى توحيد ربك، وعن نهيك لنا عن أفعالنا التي نفعلها لنطردنك من بلادنا أنت والذين اتبعوك على ما أنت عليه، فعندها أجابهم لوط عليه السلام معلنًا عن وجهته وعن دينه، إني لعملكم من القالين، من المبغضين الكارهين التاركين، ثم دعا ربه عز وجل بقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ رب احفظني وسلمني من شرهم وكيدهم ومكرهم، أنا وأهلي، وكذا رب فاعصمني من هذا الزلل الذي وقعوا فيه والقبح الذي يرتكبوه.

وكذا رب نجني من العذاب الذي سيحل بهم نتيجة عملهم السيئ.

فأجاب الله دعاءه فنجاه وأهله أجمعين إلا زوجته تلك العجوز الخائنة التي كانت تدل قومه على أضيافه، ثم ولما أنجاه الله وسلمه دمر الله قومه، ومعهم زوجته الخائنة له في الدين، وكانت صورة هذا الدمار أن رُفعت قريتهم إلى السماء ثم قلبت رأسًا على عقب كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤]، ثم أتبعوا بحجارة من طين متحجر كلٌّ له حجرٌ يصيبه كما قال

تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وفي الأخرى: ﴿سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾، فهكذا كان العقاب فبئس المطر الذي أمطره الله ﷻ على هؤلاء القوم الذين أتتهم رسلهم تنذرهم فكذبوا رسلهم وتمادوا في غيهم وطغيانهم، إن في ذلك الذي أحللناه بهم من الدمار والذي أنزلناه بهم من العذاب، وكذا في إنجائنا عبادنا المؤمنين لدلالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ولكن ما كان أكثر هؤلاء القوم بمؤمنين مع مجيء النذر إليهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الذي لا يغلب بل أمره نافذٌ في خلقه وقضاءه فيهم لا يُرد ومع ذلك فهو رحيم بعباده إذ أرسل إليهم رسلًا تذكرهم وتحذرهم، وأيضًا رحيم بهم يرزقهم ويعافيهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال قوم لوط: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن نهينا عن إتيان الذكران ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ من بين أظهرنا وبلدنا. ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ يقول لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين، يعني من المبغضين، المنكرين فعله.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: فاستغاث لوط حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إن هو لم ينته عن نهيهم عن ركوب الفاحشة، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيان الذكران. ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ من عقوبتنا التي عاقبنا بها قوم لوط ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ يعني في الباقين، لطول مرور

السنين عليها، فصارت هرمة، فإنها أهلكت من بين أهل لوط، لأنها كانت تدل قومها على الأضياف. وقد قيل: إنما قيل من الغابرين لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة، وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بشواهده المغنية عن إعادتها.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم أهلكنا الآخرين من قوم لوط بالتدمير. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ﴾ وذلك إرسال الله عليهم حجارة من سجيل من السماء. ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يقول: فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذَّبوه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، يتعظون بها في تكذيبهم إياك، وردهم عليك ما جئتهم به من عند ربك من الحقِّ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن آمن به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم –ما كان جواب قومه له إلا قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ يعنونَ: عما جئتنا به، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢]، فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما

هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالهم، تبرأ منهم فقال: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: الُمبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ أنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي: كلهم.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾، وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع مَنْ بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في «سورة الأعراف» و«هود»، وكذا في «الحِجْر» حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عمَّ جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ﴾ عن قولك هذا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي: من بلدنا وقريتنا ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم﴾ يعني: اللواط ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المبغضين والقلي: البغض قليته أقليه قلى وقلاء قال:

فليست بمقلي الخلال ولا قالي

وقال آخر:

عليك السلام لا مللت قريبة ... وما لك عندي إن نأيت قلاء

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عذاب عملهم دعا الله لما أيس من إيمانهم ألا يصيبه من عذابهم.

قال تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ ولم يكن إلا ابنتاه على ما تقدم في (هود).

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ روى سعيد عن قتادة قال: غبرت في عذاب الله ﷻ أي: بقيت وأبو عبيدة يذهب إلى أن المعنى: من الباقين في الهرم أي: بقيت حتى هرمت قال النحاس: يقال للذاهب غابر والباقي غابر كما قال:

لا تكســـع الشـــول بأغبارهـــا   إنـــك لا تـــدري مـــن النـــاتج

وكما قال:

فمـــا ونـــى محمـــد مـــذ أن غفـــر   لـــه الإلـــه مـــا مضـــى ومـــا غبـــر

أي ما بقي والأغبار: بقيات الألبان.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب قال مقاتل: خسف الله بقوم لوط وأرسل الحجارة على ما كان خارجا من القرية ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ يعني الحجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وقيل: إن جبريل خسف بقريتهم وجعل عاليها سافلها ثم أتبعها الله بالحجارة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لم يكن فيها مؤمن إلا بيت لوط وابنتاه.

❁ ❁ ❁

شيء من قصة نبي الله شعيب عليه السلام

قَالَ اللهُ تَعَالَى:

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ
رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ
بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾
فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا
تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ
﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

[الشعراء: ١٧٦-١٩١]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لْـَٔيْكَةِ - أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ - ٱلْمُخْسِرِينَ - بِٱلْقِسْطَاسِ - ٱلْمُسْتَقِيمِ - وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ - وَلَا تَعْثَوْا۟ - وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ - ٱلْمُسَحَّرِينَ - كِسَفًا - يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لْـَٔيْكَةِ﴾	الشجر المُلتف الكثير
﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾	أتموا الكيل – أعطوا الناس إذا بعتم لهم الكيل مستوفى كاملًا
﴿ٱلْمُخْسِرِينَ﴾	المُنقصين – المبخسين – الذين لا يعطون الناس حقهم مستوفى
﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾	الميزان
﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾	العدل
﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾	لا تنقصوا الناس حقوقهم عند البيع ولا تحرموهم أموالهم كذلك
﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾	لا تسرعوا في الأرض بالفساد
﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾	الخلق الذين من قبلكم
﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾	المسحورين، وقيل: المخلوقين من أمثالنا الذين لهم (سحر) وهو الرئة والذين يأكلون ويشربون مثلنا
﴿كِسَفًا﴾	قطعًا

﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾	يوم أن أظلهم العذاب في صورة سحابة أظلتهم فاجتمعوا تحتها فتأججت عليهم نارًا

❁ ❁ ❁

س: هل القوم الذين أرسل إليهم شعيب شيء واحد أم هي شيئان؟

ج: ذهب فريق كبير من أهل العلم إلى أن الذين أرسل إليهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ شيء واحد وهم أهل مدين، وهم أيضًا أنفسهم أصحاب الأيكة.

وذهب آخرون من العلماء: إلى أنه أرسل إلى قبيلتين، وهي أصحاب الأيكة، وأهل مدين، والأول أظهر. وسيأتي ما يؤيد ذلك إن شاء الله من كلام أهل العلم.

❁ ❁ ❁

س: لماذا لم يقل هاهنا (أخوهم شعيب)؟

ج: قال بعض أهل العلم: إن سبب ذلك أنهم نُسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي الشجر الكثير الملتف فلم يكن أخًا لهم في عبادتهم تلك والله أعلم.

هذا، وأما الذين قالوا إن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل إلى فريقين، وهما أهل مدين وأصحاب الأيكة فذهبوا إلى أن شعيبًا كان أخًا لأهل مدين، ولم يكن أخًا لأصحاب الأيكة، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾ ولم يقل أخوهم شعيب لأنه لم يكن أخًا لأصحاب الأيكة في النسب فلما ذكر مدين قال: ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾ لأنه كان منهم وقد مضى في (الأعراف) القول في نسبه قال ابن زيد: أرسل الله شعيبًا رسولًا إلى

قومه أهل مدين وإلى أهل البادية وهم أصحاب الأيكة وقاله قتادة.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠﴾.

ج: المعنى –والله أعلم– أن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم نبي الله شعيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم قوم مدين، كانوا أصحاب أشجار كثيرة ملتفة وهي الغيضة، وقيل: كانوا يعبدونها ومع شركهم بالله وعبادتهم غير الله عَزَّوَجَلَّ كانوا يظلمون الناس أيضًا، وكانوا يبخسونهم حقوقهم فإذا باعوا للناس شيئًا أنقصوا من كيله ووزنه، وإذ اشتروا من الناس شيئًا أخذوا حقهم كاملًا مستوفًى، فحذرهم نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذا، ومن ذاك، حذرهم من الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومن ظلم العباد وأكل أموال الناس بالباطل فقال لهم: ألا تتقون الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وحده لا شريك له وترك ما تعبدون، ألا تتقون الله عَزَّوَجَلَّ بامتثالكم أمره، واجتنابكم ما نهاكم عنه إني لكم رسول من عند الله ﴿أَمِينٞ﴾ على وحيه، فكذبوا بتكذيبهم بنبيهم عَلَيْهِ السَّلَامُ جميع المرسلين، فمن كذب رسولًا فقد كذب الجميع؛ لأن دعوة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه واحدة.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾. والأيكة: الشجر الملتف، وهي واحدة الأيك، وكل شجر ملتف فهو عند العرب أيكة؛ ومنه قول نابغة بني ذبيان:

تَجْلُــو بِقَــادِمَتَيْ حَمَامَــةِ أيْكَــةٍ بَــرَدًا أُسِــفّ لِثاتُــهُ بالإثْمِــدِ

وأصحاب الأيكة: هم أهل مدين فيما ذُكر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: قال لهم شعيب: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم ربكم؟. ﴿إِنِّي﴾ من الله ﴿لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على وحيه. ﴿فَٱتَّقُواْ﴾ عقاب ﴿ٱللَّهَ﴾ على خلافكم أمره ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ترشدوا. ويقول: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ على نصحي لكم من جزاء وثواب، ما جزائي وثوابي على ذلك ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة- هم أهل مدين على الصحيح. وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة. وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: «إذ قال لهم أخوهم شعيب»، وإنما قال: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ﴾، فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبًا. ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

وقد روى إسحاق بن بشر الكاهلي -وهو ضعيف- حدثني ابن السدي، عن أبيه -وزكريا بن عمر، عن خَصِيف، عن عِكْرِمة قال: ما بعث الله نبيًا مرتين إلا شعيبًا، مرة إلى مدين فأخذهم الله بالصيحة، ومرة إلى أصحاب الأيكة فأخذهم الله بعذاب يوم الظُّلَّةِ.

وروى أبو القاسم البغوي، عن هُدْبَة، عن هَمَّام، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ [ق:١٢] قوم شعيب، وقوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ [ق:١٤] قوم شعيب.

قال إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْبِر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد. والله أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة «شعيب»، من طريق محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن أبيه، عن معاوية بن هشام، عن هشام بن سعد، عن سعيد بن أبي هلال، عن ربيعة بن سيف، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن قوم مدين وأصحاب الأيكة أمتان، بعث الله إليهما شعيبًا النبي،** عليه السلام».

وهذا غريب، وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا. والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة.

❀ ❀ ❀

الأمر بإيفاء الكيل والميزان

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿۞أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

ج: هذا قول نبي الله شعيب عليه السلام لقومه يأمرهم بإيفاء الكيل، وإعطاء الناس حقهم كاملًا مستوفًى غير منقوص ولا مبخوس وينهاهم عن إنقاص الحقوق، فيقول: ولا تكونوا من المخسرين للناس أشياءهم وإذا وزنتم فَزِنُوا

بالميزان العادل المضبوط ولا تنقصوا الناس حقوقهم ولا تكثروا من الفساد في الأرض، ولا تسرعوا في الأرض بالفساد، واتقوا الذي خلقكم وخلق الخلق الذين من قبلكم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ يقول: أوفوا الناس حقوقهم من الكيل. ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ يقول: ولا تكونوا ممن نقصهم حقوقهم.

ويعني بقوله: ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ﴾ وزنوا بالميزان ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ الذي لا بخس فيه على من وزنتم له. ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ يقول: ولا تكثروا في الأرض الفساد.

ويقول تعالى ذكره: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أيها القوم عقاب ربكم ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ وَخلَقَ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ يعني بالجبلة: الخلق الأولين. وفي الجبلة للعرب لغتان: كسر الجيم والباء وتشديد اللام، وضم الجيم والباء وتشديد اللام؛ فإذا نزعت الهاء من آخرها كان الضم في الجيم والباء أكثر كما قال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢] وربما سكنوا الباء من الجِبْل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: ﴿۞أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصًا، وتأخذوه -إذا كان لكم- تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: والقسطاس هو: الميزان، وقيل: القَبَّانُ. قال بعضهم: هو معرب من الرومية.

وقال مجاهد: القسطاس المستقيم: العدل -بالرومية. وقال قتادة: القسطاس: العدل.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: تَنْقُصوهم أموالهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات:١٢٦]. قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: خلق الأولين. وقرأ ابن زيد: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس:٦٢].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾.

ج: هذا جواب قوم شعيب لما دعاهم عليه السلام إلى الله، قالوا له: إنما أنت من المسحورين الذين أثَّر السحر على عقولهم فلم تعد تضبط ما تقول وأصبحت تُخرف، وقال بعض العلماء: إن المعنى، إنما أنت من المخلوقين من أمثالنا،

بشر كما أننا بشر ليس لك فضل علينا، واعتقادنا فيك أنك كاذب، هذا يقيننا، ثم استعجلوا نزول العذاب بقولهم: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ أي: قطعًا من السماء إن كنت من الصادقين في دعواك أنك رسول، فهكذا استعجلوا العذاب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ يقول: قالوا: إنما أنت يا شعيب معلل تعلل بالطعام والشراب، كما نعلل بهما، ولست ملكًا. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾ تأكل وتشرب ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾. يقول: وما نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إليه، إلا ممن يكذب فيما يقول، فإن كنت صادقًا فيما تقول بأنك رسول الله كما تزعم ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يعني: قطعًا من السماء، وهي جمع كِسفة، جمع كذلك كما تجمع تمرة: تمرًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ الذين يأكلون الطعام والشراب على ما تقدم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ أي: ما نظنك إلا من الكاذبين في أنك رسول الله تعالى ﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي: جانبًا من السماء وقطعة منه فننظر إليه كما قال: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴾ [الطور: ٤٤] وقيل: أرادوا أنزل علينا العذاب وهو مبالغة في التكذيب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها-تشابهت قلوبهم -حيث قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴾ يعنون: من المسحورين، كما تقدم.

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ قال الضحاك: جانبًا من السماء. وقال قتادة: قطعًا من السماء. وقال السدي: عذابًا من السماء. وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ ﴾، إلى أن قالوا: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢]. وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال:٣٢] وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

ج: هذا - والله أعلم- قول شعيب عليه السلام لقومه لما كذبوه، قال لهم: ربي أعلم بما تعملون، هو أعلم بأعمالكم، أعلم بشرككم، وتطفيفكم المكيال والميزان، والله أعلم بقولي لكم وجوابكم عليَّ، فكذَّبوه في كل ذلك فسلَّط الله عليهم حرًّا شديدًا اضطرهم الحر للخروج من بيوتهم، فلما خرجوا منها التماسًا لظلٍّ يستظلون به، إذا بهم يرون سحابة عظيمة سوداء قد أظلت ما

تحتها، فاجتمعوا كلهم تحت تلك السحابة العظيمة السوداء للاستظلال بها، فلما اجتمعوا كلهم تحتها تأججت عليهم نارًا، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، إن في انتقامنا من أعدائنا وإنجائنا لرسلنا لدلالة على قدرتنا ووحدانيتنا، ولكن لم يكن أكثر الناس بمؤمنين، وإن ربك لهو الغالب القوي الذي لا يمنع من شيء أراده، وفي ذات الوقت رحيم بالعباد.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال شعيب لقومه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ يقول: بأعمالهم هو بها محيط، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم بها جزاءكم. ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يقول: فكذّبه قومه. ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ يعني بالظلة: سحابة ظللتهم، فلما تتاموا تحتها التهبت عليهم نارًا، وأحرقتهم، وبذلك جاءت الآثار.

وأورد بإسناد صحيح عن زيد بن معاوية، في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾ قال: أصابهم حرٌّ أقلقهم في بيوتهم، فنشأت لهم سحابة كهيئة الظلة، فابتدروها، فلما تتاموا تحتها أخذتهم الرجفة.

وبإسناد صحيح عن جرير بن حازم أنه سمع قتادة يقول:

بعث شُعيب إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة. وكانت الأيكة من شجر ملتف؛ فلما أراد الله أن يعذبهم، بعث الله عليهم حرًّا شديدًا، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة؛ فلما دنت منهم خرجوا إليها رجاء بردها، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم نارًا. قال: فذلك قوله: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(٤٠٧) أحمر أسود

حدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثني سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد، قال: ثنا حاتم بن أبي صغيرة، قال: ثني يزيد الباهلي، قال: سألت عبد الله ابن عباس، عن هذه الآية: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ فقال عبد الله بن عباس: بعث الله عليهم ومدة وحرًّا شديدًا، فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم، فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة، فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة، فنادى بعضهم بعضًا، حتى إذا اجتمعوا تحتها، أرسلها الله عليهم نارًا. قال عبد الله بن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾.

وأورد الطبري كذلك بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ قال: بعث الله إليهم ظلة من سحاب، وبعث إلى الشمس فأحرقت ما على وجه الأرض، فخرجوا كلهم إلى تلك الظلة، حتى إذا اجتمعوا كلهم، كشف الله عنهم الظلة، وأحمى عليهم الشمس، فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى ذكره: إن عذاب يوم الظلة كان عذاب يوم لقوم شُعيب عظيم.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾.

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ فِي﴾ تعذيبنا قوم شعيب عذاب يوم الظلة، بتكذيبهم

نبيهم شعيبًا، ﴿لَآيَةً﴾ لقومك يا محمد، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أن سنتنا فيهم بتكذيبهم إياك، سنتنا في أصحاب الأيكة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في سابق علمنا فيهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نقمته ممن انتقم منه من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من خلقه، وأناب إلى طاعته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وكذلك وقع بهم كما سألوا، جزاءً وفاقًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله، سبحانه وتعالى، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جدًّا مدة سبعة أيام لا يكُنُّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبًا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف:٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود:٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧]. قالوا ذلك على سبيل التهكم

والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾: أي: العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.

❀ ❀ ❀

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً
أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم
مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ
٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤ أَفَرَءَيۡتَ إِن
مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يُمَتَّعُونَ ٢٠٧ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ٢٠٩﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢٠٩].

س: وضح معنى ما يلي:
﴿ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ - زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ - ءَايَةً - ٱلْأَعْجَمِينَ - سَلَكْنَٰهُ - بَغْتَةً - مُنظَرُونَ - مَتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ - يُمَتَّعُونَ - مُنذِرُونَ - ذِكْرَىٰ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾	المراد به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الأمين على الوحي
﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾	كتب الأولين، (الكتب التي أنزلها الله ﷻ على الأمم من قبلنا)
﴿ءَايَةً﴾	علامةً ودليلًا (على صدقك وعلى أن القرآن من عند الله)
﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾	الذين لا يتكلمون اللغة العربية، وقيل: الذين لا ينطقون، وقيل: البهائم
﴿سَلَكْنَٰهُ﴾	أدخلناه
﴿بَغْتَةً﴾	فجأة
﴿مُنظَرُونَ﴾	مؤجلون –مُمهلون– مؤخرون
﴿مَتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ﴾	جعلناهم يعيشون في المتاع سنين طويلة لهم في الدنيا ما يطلبون وما يتمتعون به
﴿يُمَتَّعُونَ﴾	يستمتعون به
﴿مُنذِرُونَ﴾	رسلٌ محذرون مخوفون

﴿ ذِكۡرَىٰ ﴾	موعظة - تذكيرًا

س: في قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ ﴾ قراءتان وضحهما.

ج: القراءة الأولى هي (نَزَلَ) بالتخفيف والفتح والثانية هي (نَزَّل) بفتح النون وتشديد الزاي.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف القرَّاء في قراءة قوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ فقرأته عامة قرّاء الحجاز والبصرة ﴿ نَزَلَ بِهِ ﴾ مخففة ﴿ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ رفعًا بمعنى: أن الروح الأمين هو الذي نزل بالقرآن على محمد، وهو جبريل. وقرأ ذلك عامة قرَّاء أهل الكوفة. (نزَّل) مشددة الزاي ﴿ ٱلرُّوحَ ٱلۡأَمِينَ ﴾ نصبًا، بمعنى: أن رب العالمين نزل بالقرآن الروح الأمين، وهو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان فى قرَّاء الأمصار، متقاربتا المعنى، فأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وذلك أن الروح الأمين إذا نزل على محمد بالقرآن، لم ينزل به إلا بأمر الله إياه بالنزول، ولن يجهل أن ذلك كذلك ذو إيمان بالله، وأن الله إذا أنزله به نزل.

نزل بلسان عربي حتى يُفهم عنك المراد كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، وكما قال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾.

فلهذا نزل القرآن بلسان عربي مبين. وهنا يجدر إيراد أثر ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا

الذي أخرجه البخاري[١] في صحيحه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنْ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفتَيْهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا. وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا - فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ - فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - وإن هذا القرآن المنزل عليك تنزيلٌ أنزله رب العالمين، أنزله عليك بواسطة جبريل عليه السلام، وهو الروح، روح القدس وهو الأمين على الوحي لا يزيد فيه ولا ينقص ولا يتخلف عن إيصاله، نزل به على قلبك لتكون من المنذرين العباد المُحذرين لهم من الشرك الذي هم فيه، وذلك الشرك الذي يُفض بهم إلى النار إن هم ماتوا عليه، كذا لتحذرهم من معصية الله تبارك وتعالى وتحذرهم من غضبه وعقابه وناره التي أعدها الله للعصاة والمجرمين والمشركين، نزل هذا القرآن بلسان عربيٍّ مظهرٌ موضحٌ

---

(١) البخاري (٥).

للأمور.

هذا، وقد قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإنّ هذا القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والهاء في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ كناية الذكر الذي في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الشعراء: ٥].

وقال:

وبنحو الذي قلنا في أن المعني بالروح الأمين في هذا الموضع جبريل قال أهل التأويل.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يقول: نزل به الروح الأمين فتلاه عليك يا محمد، حتى وعيته بقلبك. وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقول: لتكون من رسل الله الذين كانوا ينذرون من أرسلوا إليه من قومهم، فتنذر بهذا التنزيل قومك المكذِّبين بآيات الله. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ يقول: لتنذر قومك بلسان عربي مبين، يبين لمن سمعه أنه عربي، وبلسان العرب نزل، والباء من قوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾ من صلة قوله: ﴿نَزَلَ﴾، وإنما ذكر تعالى ذكره أنه نزل هذا القرآن بلسان عربي مبين في هذا الموضع، إعلامًا منه مشركي قريش أنه أنزله كذلك، لئلا يقولوا: إنه نزل بغير لساننا، فنحن إنما نعرض عنه ولا نسمعه، لأنا لا نفهمه، وإنما هذا تقريع لهم، وذلك أنه تعالى ذكره قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾. ثم قال: لم يعرضوا عنه لأنهم لا يفهمون معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين بلسانهم العربي، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيبًا به واستكبارًا ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. كما أتى هذه الأمم التي قصصنا نبأها في هذه السورة حين

كذَّبت رسلها أنباء ما كانوا به يكذِّبون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ﴾، ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾: وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج. وهذا ما لا نزاع فيه.

قال الزهري: وهذه كقوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:٩٧].

وقال مجاهد: من كلمه الروح الأمين لا تأكله الأرض.

﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بَيِّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلًا إلى المحجة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإن القرآن لتنزيل رب العالمين نزل به جبريل إليك كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧] أي: يتلوه عليك فيعيه قلبك وقيل: ليثبت قلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أي: لئلا يقولوا: لسنا نفهم مما تقول.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

ج: المعنى -والله تعالى أعلم- وإن هذا القرآن لمذكور في الكتب التي أنزلها الله ﷻ على الأنبياء السابقين الذين أرسلوا للأمم السابقة، فالكتب التي أنزلها الله (كالتوراة والزبور والإنجيل) وقبلها صحف إبراهيم وغير ذلك من الكتب مذكورٌ فيها هذا القرآن الكريم وفيها ثناءٌ عليه وثناءٌ على من أُنزل عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ معناه: أولم يكن لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن، أولم يكن لهم في شهادة علماء بني إسرائيل -كعبد الله بن سلام وغيره من علماء بني إسرائيل- لهذا القرآن بأنه من عند الله، أولم يكن في ذلك دليلٌ وحجة وعلامة على أنه من عند الله وأنك صادق فيما تقول؟!!

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن هذا القرآن لفي زبر الأوَّلين: يعني في كتب الأوَّلين، وخرج مخرج العموم ومعناه الخصوص، وإنما هو: وإن هذا القرآن لفي بعض زبر الأوّلين؛ يعني: أن ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على

بعض رسله. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقول تعالى ذكره: أولم يكن لهؤلاء المعرضين عما يأتيك يا محمد من ذكر ربك، دلالةٌ على أنك رسول رب العالمين، أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني إسرائيل. وقيل: عني بعلماء بني إسرائيل في هذا الموضع: عبد الله بن سلام ومن أشبهه ممن كان قد آمن برسول الله ﷺ من بني إسرائيل في عصره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى: وإنَّ ذِكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، والزبر هاهنا هي: الكتب وهي جمع زَبُور، وكذلك الزبور، وهو كتاب داود. وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر:٥٢] أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف:١٥٧].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - ولو نزلنا هذا القرآن على رجل أعجمي لا ينطق العربية فقرأه عليهم، بلغة العجم ما فهموه ولا عقلوه ولا آمنوا به ولا صدقوه.

وكذا لو قرأه الأعجمي عليهم بلغتهم وهو عجمي، أي: أن عجمي ومع ذلك مكَّنه الله من قراءة هذا القرآن عليهم بلغتهم الفصحى، فكانت معجزة، عجمي يتكلم بأفصح اللغات وهو لم يتعلمها أيضًا ما آمنوا بهذا القرآن ولا صدقوه.

وكذلك لو أنزلناه على بهيمةٍ عجماء[1] لا تتكلم فنطقت به ما آمن هؤلاء الكفار مع وجود هذه المعجزة، فلو تكلمت البهيمة وقرأت القرآن وأخبرتهم أن القرآن من عند الله ما آمنوا أيضًا، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١١١].

فهكذا من خُتم على قلبه لن يؤمن ولو جاءته كل آية كما قال جل ذكره: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وكما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، فهكذا أدخلنا الكفر في قلوب أهل الإجرام وهكذا أدخلنا التكذيب بالقرآن في

---

(١) ومنه قول النبي ﷺ: «**العجماء جبار**» أي: أن العجماء إذا قتلت شخصًا أو جرحته فلا دية على أصحابها.

قلوبهم، فهذا قوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ حتى يروا العذاب المؤلم الموجع الذي سيحل بهم حقيقة، إلا أن هذا العذاب سيأتيهم بغتة، وستأتيهم الساعة بما تحمله من أهوالها بغتة وهم لا يشعرون، فعندها يقولوا : هل نحن مؤجلون مؤخرون كي نتوب ونرجع، كما في الآية الأخرى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] والآية وفيها قولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولو نزلنا هذا القرآن على بعض البهائم التي لا تنطق، وإنما قيل على بعض الأعجمين، ولم يقل على بعض الأعجميين، لأن العرب تقول إذا نعتت الرجل بالعجمة وأنه لا يفصح بالعربية: هذا رجل أعجم، وللمرأة: هذه امرأة عَجْماء، وللجماعة: هؤلاء قوم عُجْم وأعجمون، وإذا أريد هذا المعنى وصف به العربيّ والأعجمي، لأنه إنما يعني أنه غير فصيح اللسان، وقد يكون كذلك، وهو من العرب ومن هذا المعنى قول الشاعر:

مِنْ وَائِلٍ لا حَيَّ يَعْدِلُهُمْ ... مِنْ سُوقَةٍ عَرَبٌ ولا عُجْمُ

فأما إذا أريد به نسبة الرجل إلى أصله من العجم، لا وصفه بأنه غير فصيح اللسان، فإنه يقال: هذا رجل عجمي، وهذان رجلان عجميان، وهؤلاء قوم عَجَم، كما يقال: عربيّ، وعربيان، وقوم عرب. وإذا قيل: هذا رجل أعجميّ،

فإنما نسب إلى نفسه كما يقال للأحمر: هذا أحمري ضخم، وكما قال العجاج:

والدَّهْرُ بالإنسانِ دَوَّارِيُّ

ومعناه: دوّار، فنسبه إلى فعل نفسه.

وأورد بإسناد صحيح عن محمد بن أبي موسى، قال: كنت واقفًا إلى جنب عبد الله بن مطيع بعرفة، فتلا هذه الآية: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ قال: لو نزل على بعيري هذا فتكلم به ما آمنوا به ﴿لَقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ حتى يفقهه عربيٌّ وعجميٌّ، لو فعلنا ذلك.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ يقول: فقرأ هذا القرآن على كفار قومك يا محمد الذين حتمت عليهم أن لا يؤمنوا ذلك الأعجم ما كانوا به مؤمنين. يقول: لم يكونوا ليؤمنوا به، لما قد جرى لهم في سابق علمي من الشقاء، وهذا تسلية من الله نبيه محمدًا ﷺ عن قومه، لئلا يشتد وجدُه بإدبارهم عنه، وإعراضهم عن الاستماع لهذا القرآن، لأنه كان ﷺ شديدًا حرصه على قبولهم منه، والدخول فيما دعاهم إليه، حتى عاتبه ربه على شدَّة حرصه على ذلك منهم، فقال له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ثم قال مؤيسه من إيمانهم وأنهم هالكون ببعض مثلاته، كما هلك بعض الأمم الذين قص عليهم قصصهم في هذه السورة: ولو نزلناه على بعض الأعجمين يا محمد لا عليك، فإنك رجل منهم، ويقولون لك: ما أنت إلا بشر مثلنا، وهلا نزل به ملك، فقرأ ذلك الأعجم عليهم هذا القرآن، ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق، وأنه تنزيل من عندي، ما كانوا به مصدقين، فخفض من حرصك على إيمانهم به، ثم وكد

تعالى ذكره الخبر عما قد حتم على هؤلاء المشركين، الذين آيس نبيه محمدًا ﷺ من إيمانهم من الشقاء والبلاء، فقال: كما حتمنا على هؤلاء أنهم لا يؤمنون بهذا القرآن: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم﴾ ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ﴾ التكذيب والكفر ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. ويعني بقوله: سلكنا: أدخلنا، والهاء في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾ كناية من ذكر قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾، كأنه قال: كذلك أدخلنا في قلوب المجرمين ترك الإيمان بهذا القرآن.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ يقول: فعلنا ذلك؛ بهم لئلا يصدَّقوا بهذا القرآن، حتى يروا العذاب الأليم في عاجل الدنيا، كما رأت ذلك الأمم الذين قص الله قصصهم في هذه السورة.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في تأويل قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: فيأتي هؤلاء المكذِّبين بهذا القرآن، العذاب الأليم بغتة، يعني: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم بغتة. ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ حين يأتيهم بغتة ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ أي: هل نحن مؤخَّر عنا العذاب، ومُنْسأ في آجالنا لنتوب، وننيب إلى الله من شركنا وكفرنا بالله، فنراجع الإيمان به، وننيب إلى طاعته؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، مِمَّنْ لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا

الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١١١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

ويقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والعناد والجحود، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالحق ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: عذاب الله بغتة، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾؟ أي: يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا بطاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤]، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندمًا شديدًا هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٨، ٨٩]، فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا

أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] الآية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أفيستعجل هؤلاء المكذبون نزول عذابنا عليهم فيقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ويقولون: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] ويقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ويقول: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إلى غير ذلك من صور الاستعجال.

أفيستعجل هؤلاء نزول العذاب عليهم ويغترون بما هم فيه من النعيم في هذه الدنيا الفانية الزائلة، ألا فاعلم وأخبرهم أننا لو متعناهم عشرات السنين أو مئات السنين أو آلاف السنين، بكل صور المتاع فأعطوا من الدنيا كل ما أحبوا وكلَّ ما رغبوا، وكل ما تمنوا فتزوج أحدهم بمن شاء، وأكل أحدهم وشرب مما يشاء ولبس ما شاء، وسكن فيما يشاء وركب ما شاء وتقلد من المناصب ما شاء، وبعد ذلك جآءه الموت والحساب فما أغنى عنه كلَّ ما تمتع به دنياه، ما أغنى عنه ماله ولا جاهه ولا منصبه ولا ولده ولا مسكنه، فسيأتي يوم يقول فيه قائل: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩]

ويفتدى آخر بكل ما كان يملك في الدنيا فلا تقبل منه فدية ولا تنفعه شفاعة ولا يغني عنه ما كان فيه من النعيم.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ النَّارِ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً. ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا. وَاللهِ يَا رَبِّ! وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا. وَاللهِ! يَا رَبِّ! مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ. وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(١).

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قَالَ: «جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ. قَالَ: فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا. قَالَ: فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَقَالَ: إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ. وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي. قَالَ: فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلْ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ، فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ. فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ قَالَ: فَالْآنَ مِنْ قَرِيبٍ. رَبِّ! أَمِتْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ. رَمْيَةً بِحَجَرٍ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ! لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ، عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ»(٢).

وفي رواية أخرى في الصحيحين(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ. فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَقَالَ: أَرْسَلْتَنِي إِلَى

---

(١) مسلم (٢٨٠٧).
(٢) مسلم (٢٣٧٢) وهو عند البخاري كذلك بنحوه (١٣٣٩).
(٣) مسلم (٢٣٧٢)، وانظر أيضًا البخاري (١٣٣٩).

عَبْدٍ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ. قَالَ: فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِ. فَقُلْ لَهُ: يَضَعُ يَدَهُ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ. فَلَهُ، بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ سَنَةٌ. قَالَ: أَيْ رَبِّ! ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ الْمَوْتُ. قَالَ: فَالْآنَ. فَسَأَلَ اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنْ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ، لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ**».

أما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فحاصل معناه: أننا أعذرنا إلى الخلق بإرسال الرسل إليهم ولم نبخسهم حقوقهم في ذلك بل أرسلنا رسلنا بالبينات والحجج فأنذروهم وحذروهم وبلغوهم ونصحوهم، موعظة منا وتذكيرًا لهم، وما كنا لنظلمهم بإهلاكهم بلا نذير بل أنذرناهم وحذرناهم، ولكنهم كذبوا الرسل وعاندوهم، بل وحاربوهم وآذوهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أفبعذابنا هؤلاء المشركون يستعجلون بقولهم: لن نؤمن لك حتى ﴿تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾.

يقول تعالى ذكره: ثم جاءهم العذاب الذي كانوا يوعدون على كفرهم بآياتنا، وتكذيبهم رسولنا. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ يقول: أي شيء أغنى عنهم التأخير الذي أخرنا في آجالهم، والمتاع الذي متعناهم به من الحياة، إذ لم يتوبوا من شركهم، هل زادهم تمتيعنا إياهم ذلك إلا خبالًا؟، وهل نفعهم شيئًا؟، بل

ضرهم بازديادهم من الآثام، واكتسابهم من الإجرام ما لو لم يمتعوا لم يكتسبوه.

ويقول تعالى ذكره: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ من هذه القرى التي وصفت في هذه السور ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يقول: إلا بعد إرسالنا إليهم رسلًا ينذرونهم بأسنا على كفرهم وسخطنا عليهم. ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ يقول: إلا لها منذرون ينذرونهم، تذكرةً لهم وتنبيهًا لهم على ما فيه النجاة لهم من عذابنا. ففي الذكرى وجهان من الإعراب: أحدهما: النصب على المصدر من الإنذار على ما بيَّنْتُ، والآخر: الرفع على الابتداء كأنه قيل: ذكرى.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يقول: وما كنا ظالميهم في تعذيبناهم وإهلاكهم، لأنا إنما أهلكناهم، إذ عتوا علينا، وكفروا نعمتنا، وعبدوا غيرنا بعد الإعذار عليهم والإنذار، ومتابعة الحجج عليهم بأن ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التمادي في الغيِّ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الآية.[العنكبوت: ٥٣].

ثم قال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ٢٠٧﴾ أي: ولو أخرناهم وأنظرناهم، وأملينا لهم برهة من الزمان وحينًا من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي: شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم؟ ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات:٤٦]، وقال

تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:١١]؛ ولهذا قال: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

وفي الحديث الصحيح[1]: «يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا [والله يا رب]. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب» أي: ما كأن شيئًا كان؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمثل بهذا البيت:

كأنَّك لَمْ تُوتر من الدَّهْر لَيْلَةً ... إذا أنْتَ أدْرَكْتَ الذي كنتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه: أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

(١) مسلم (٢٨٠٧).

❀ ❀ ❀

(٤٢٩) أحمر أسود

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ
السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣)
وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ
(٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
(٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢)
يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ
تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا
وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢٢٧].

س: وضِّح معنى ما يلي:

﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ - لَمَعۡزُولُونَ - فَلَا تَدۡعُ - وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ - وَتَوَكَّلۡ - وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ - تَنَزَّلُ - أَفَّاكٍ - أَثِيمٍ - يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ - ٱلۡغَاوُۥنَ - فِي كُلِّ وَادٖ - يَهِيمُونَ - مُنقَلَبٖ - يَنقَلِبُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿عَنِ ٱلسَّمۡعِ﴾	عن الاستماع للملائكة الذين يتحدثون في السماء بالأمر الذي قضاه الله
﴿لَمَعۡزُولُونَ﴾	لممنوعون كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ﴾ [الصافات: ٨]، وقال: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩].
﴿فَلَا تَدۡعُ﴾	فلا تعبد
﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ﴾	ألن الخطاب وليّن الجانب وكن رفيقًا
﴿وَتَوَكَّلۡ﴾	اعتمد
﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾	سجودك مع الساجدين، وأعمالك مع المصلين
﴿تَنَزَّلُ﴾	تَتَنَزَّل
﴿أَفَّاكٍ﴾	كذاب (يصرف الناس عن الحق بكذبه وافترائه)
﴿أَثِيمٖ﴾	مرتكب للآثام

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾	يلقون ما يستمعونه من السماء وما يخطفونه (من الملائكة الذين يتحدثون في السماء بالأمر الذي قضاه الله)
﴿ٱلْغَاوُۥنَ ﴾	الضلال من الإنس والجن والشياطين
﴿فِى كُلِّ وَادٍ﴾	في كل طريق، وفي كل فنٍّ، وفي كل موضوع
﴿يَهِيمُونَ ﴾	يخوضون – يتكلمون
﴿مُنقَلَبٍ ﴾	مرجع – مصير
﴿يَنقَلِبُونَ ﴾	يرجعون إليه – يصيرون إليه

❁❁❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم – وما تنزلت الشياطين بهذا القرآن، وما ينبغي لهم أن يتنزلوا به فليسوا بأهل لأن يتنزلوا بالقرآن، وليس من سجاياهم ولا من طبائعهم أن يتنزلوا بالقرآن فالقرآن هدى ونور، وهم (أي: الشياطين) يريدون إضلال العباد وإغوائهم فأنى لهم أن يتنزلوا بهذا القرآن، وأنى لهم أن يكرموا بحمله، ثم إن القرآن يؤذيهم ويخنسون ويهربون عند تلاوته.

ثم إنهم إن فكروا أن يأخذوه من الملائكة التي تتحدث في العنان، أي: في السماء ما استطاعوا ذلك؛ لأن الشهب أُعدت لهم ترجمهم وتحرقهم فهم معزولون عن السمع (عن استماع الملائكة) كما قال تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات: ٨، ٩].

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ يقول تعالى ذكره: وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين على محمد، ولكنه ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ يقول: وما ينبغي للشياطين أن ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك. ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يقول: وما يستطيعون أن يتنزلوا به، لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به من السماء. ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ يقول: إن الشياطين عن سمع القران من المكان الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به؟!

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾. ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه لا ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١].

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛

لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا في مُدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾، كما قال تعالى مخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨-١٠].

❀ ❀ ❀

س: من لم يعمل صالحًا وتمادى في الغيِّ ومات على الكفر لن تغني عنه قراباته ولن يشفع فيه أحدٌ دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

* وقوله تعالى في شأن الخليل إبراهيم عليه السلام إذ قال لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]، وبعدها قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

* وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وكذا ابن نوح -على نوح السلام- إذا قال نوح: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن

مَعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٦].

* وقوله تعالى في شأن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

ونبينا محمد ﷺ لم يغن عن عمه أبي لهب شيئًا بل نزلت فيه سورة المسد ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ...﴾.

وعمه أبو طالب في ضحضاح من نار يغلي منهما دماغه كما جاء في الحديث ولولا رسول الله (أي: لولا دفاعه عن رسول الله) لكان في الدرك الأسفل من النار.

* وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقوله ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وستأتي أدلة أُخر قريبًا عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وفي الباب أدلة أكثر بكثير مما ذُكر.

❁ ❁ ❁

س: ماذا صنع النبي ﷺ حينما أُنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾؟

ج: ورد في ذلك ما يلي:

ما أخرجه البخاري[١] ومسلم من حديث أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللهِ شَيْئًا».

وفي رواية[٢]:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: لَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ. فَقَالَ: «يَا بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي مُرَّةَ بنِ كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ النَّارِ، يَا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ مِنْ النَّارِ، فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا».

وعند البخاري[٣] من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ

(١) البخاري (٢٧٥٣)، و(٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).
(٢) مسلم (٢٠٤).
(٣) البخاري (٤٧٧٠).

أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ. فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾».

وعند مسلم[1] من حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ**».

وعنده[2] أيضًا من حديث قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ قَالَ: انْطَلَقَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ إِلَى رَضْمَةٍ مِنْ جَبَلٍ. فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجَرًا. ثُمَّ نَادَى: «**يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافَاهْ! إِنِّي نَذِيرٌ. إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ فَانْطَلَقَ يَرْبَأُ أَهْلَهُ. فَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ فَجَعَلَ يَهْتِفُ: يَا صَبَاحَاهْ**».

❁ ❁ ❁

س: هل ورد أن النبي ﷺ تلا: (ورهطك منهم المخلصين) عقب قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾؟

ج: ورد هذا في صحيح مسلم[3] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

---

(١) مسلم (حديث ٢٠٥).
(٢) مسلم (حديث ٢٠٧).
(٣) مسلم (حديث ٢٠٨).

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ. خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا. فَهَتَفَ: «**يَا صَبَاحَاهْ!**» فَقَالُوا: مَنْ هَذَا الَّذِي يَهْتِفُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «**يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي فُلَانٍ! يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ!**» فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قَالُوا: مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا. قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**».

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قولـه تعـالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ خص عشيرته الأقربين بالإنذار لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك وعشيرته الأقربون قريش وقيل: بنو عبد مناف ووقع في صحيح مسلم ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (ورهطك منهم المخلصين) وظاهر هذا أنه كان قرآنًا يتلى وأنه نسخ إذ لم يثبت نقله في المصحف ولا تواتر ويلزم على ثبوته إشكال وهو أنه كان يلزم عليه ألا ينذر إلا من آمن من عشيرته فإن المؤمنين هم الذين يوصفون بالإخلاص في دين الإسلام وفي حب النبي ﷺ لا المشركون لأنهم ليسوا على شيء من ذلك والنبي ﷺ دعا عشيرته كلهم مؤمنهم وكافرهم وأنذر جميعهم ومن معهم ومن يأتي بعدهم ﷺ فلم يثبت ذلك نقلا ولا معنى.

❀ ❀ ❀

التحذير من الشرك والأمر بإنذار العشيرة الأقربين

س: وضـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي

﴿ ... بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠﴾.

ج: هذا – والله أعلم، حاصله أن الله ﷻ حذر نبيه ﷺ من عبادة غير الله وتوعده بالعذاب إن فعل ذلك، وأمره أيضًا أن ينذر عشيرته الأقربين، وكذا أن يبلغ أهل الإيمان ويخفض جناحه لهم، فإن خالفوا في ذلك فليعلن عن براءته من أعمالهم وليتوكل على الله الذي لا يُغلب ولا يُمنع من شيء يريده فإنه به رحيم ثم طمأنه بأنه يسمعه ويراه في كل أحواله وفي سجوده مع الساجدين وأخبره بأنه هو السميع العليم، هذا إجمالًا.

* وبشيء من التفصيل، ينهى الله سبحانه وتعالى عبده ونبيه ورسوله محمدًا ﷺ عن عبادة أحدٍ مع الله ﷻ، ويحذره من ذلك فإن فعل ذلك فإنه من المعذبين، وإذا كان الخطاب في صورته لرسول الله ﷺ فسائر أمته وسائر الخلق داخلون في الخطاب بلا شك ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

ثم يأمر الله ﷻ نبيه أن ينذر عشيرته الأقربين وأولهم أولاده وبنو جده عبد المطلب فقد بدأ بهم النبي ﷺ لما أنزلت عليه الآية الكريمة على ما أوضحته سابقًا.

أمره الله ﷻ أن ينذرهم ويخوِّفهم من عصيان أمر الله ﷻ وأن ينذرهم ويخوفهم عاقبة شركهم، وهي نارٌ تلظى والعياذ بالله.

وأمره الله ﷻ أن يُلين جانبه وكلامه مع أهل الإيمان، يخفض لهم الجناح ويلين لهم الخطاب، فإن أعرض هؤلاء (عشيرته الأقربون وغيرهم) عن

الإيمان وأبوا إلا الكفر فليعلن عن براءته من أفعالهم قائلًا: إني بريء مما تعملون.

وكذا فليتوكل على الله وليعتمد عليه وحده لا شريك له فهو ناصره ومتولي أمره وموفقه وحافظه فهو الذي يراه عند قيامه في الصلاة وعند كل قيام يقومه وكذا كل مجلس يجلسه، ويرى تقلبه في الساجدين أي: ويرى سجوده مع الساجدين وصلاته مع المصلين ويبين له أنه السميع لكل الأقوال والحركات والسكنات السميع لكل شيء العليم بكل شيء، ومنه سماعه لأقوالك لقومك وما أجابوك به، سميع لدعاتك ومجيبك إن شاء في الوقت الذي يشاء، سميع لمناجاتك وتلاوتك، العليم بكل شؤونك وشؤون غيرك وما يعتريك وما يعتري غيرك، عليم بما يضايقك وعليم بالفرج ووقت الفرج.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ يا محمد ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تعبد معه معبودًا غيره ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا. وقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: وأنذر عشيرتك من قومك الأقربين إليك قرابة، وحذّرهم من عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم.

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ يقول: وألن جانبك وكلامك ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦ وَتَوَكَّلْ عَلَى

﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ
٢٢٠﴾

يقول تعالى ذكره: فإن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان، والإشراك بالرحمن، فقل لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من عبادة الأصنام ومعصية بارئ الأنام. ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ﴾ في نقمته من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بمن أناب إليه وتاب من معاصيه.

﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ يقول: الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ويرى تقلبك في صلاتك حين تقوم، ثم تركع، وحين تسجد.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تقلبك في المصلين، وإبصارك منهم من هو خلفك، كما تبصر من هو بين يديك منهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتقلبك مع الساجدين: أي تصرفك معهم في الجلوس والقيام والقعود.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تصرّفك في الناس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله، والساجدون في قول قائل هذا القول: الأنبياء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قول من قال تأويله: ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد، لأن ذلك هو الظاهر من معناه. فأما قول من وجهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قول بعيد من المفهوم بظاهر التلاوة، وإن كان له وجه، لأنه وإن كان لا شيء إلا وظله يسجد

لله، فإنه ليس المفهوم من قول القائل: فلان مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناس أو فيهم، بل المفهوم بذلك أنه مع قوم سجود، السجود المعروف، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأغلب أولى من توجيهه إلى الأنكر.

وكذلك أيضا في قول من قال: معناه: تتقلب في أبصار الساجدين، وإن كان له وجه، فليس ذلك الظاهر من معانيه.

فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك، ويرى تقلبك في المؤتمين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره: إن ربك هو السميع تلاوتك يا محمد، وذكرك في صلاتك مما تتلو وتذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلب فيها معك مؤتمًّا بك، يقول: فرتل فيها القرآن، وأقم حدودها، فإنك بمرأى من ربك ومسمع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومخبرًا أنّ مَنْ أشرك به عذبه.

ثم قال تعالى آمرًا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنين إليه، وأنه لا يُخَلِّص أحدًا منهم إلا إيمانهُ بربه عَزَّ وَجَلَّ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين. ومن عصاه من خلق الله كائنًا مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾. وهذه النِّذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس:٦]، وقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧]،

وقال: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ [الأنعام:٥١]، وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم: ٩٧]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ [الأنعام:١٩]، كما قال: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ ﴾ [هود: ١٧].

وفي صحيح مسلم: «**والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**».

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة.

وأورد جملة أحاديث في هذا الصدد. سنذكر بعضها إن شاء الله، وقال:

وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: هو معتنٍ بك، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور:٤٨].

قال ابن عباس: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني: إلى الصلاة.

وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده.

وقال الحسن: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: إذا صليت وحدك.

وقال الضحاك: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: من فراشك أو مجلسك.

وقال قتادة: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ﴾: قائما وجالسا وعلى حالاتك.

وقوله: ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: قال قتادة: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع. وهذا قول عكرمة، وعطاء الخراساني، والحسن البصري.

وقال مجاهد: كان رسول الله ﷺ يرى مَنْ خلفه كما يرى مَنْ أمامه؛ ويشهد

لهذا ما صح في الحديث: «سَوّوا صفوفكم؛ فإني أراكم من وراء ظهري»(١).

وروى البزار وابن أبي حاتم، من طريقين، عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: يعني تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي، حتى أخرجه نبيًّا.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية. [يونس:٦١].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ، ذلك كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلًّا على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ [و] إن رأى منهم معصية، أو سوء أدب، هجرهم، ومقتهم، وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة، من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمَّل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل يعد هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان

---

(١) البخاري (١٧٢٣).

وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظهم عليه وانصحهم، وابذل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه، وهذا لدفع احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - هل أخبركم أيها الناس على من تنزل الشياطين، إنها لا تتنزل على الرسل والأنبياء، وذلك لكونهم يتلون القرآن وهي تفر من القرآن، إنما تتنزل (من الهواء لكونها تطير في الهواء) على كل كذاب يصرف الناس عن دينهم ﴿أَثِيمٍ﴾ مرتكب للآثام.

أما قوله تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾، فالمراد أن الشياطين تلقي ما سمعته من حديث اختطفته من الملائكة الذين يتحدثون في الملأ الأعلى، تلقيه على السحرة أو الكهنة فتكذب السحرة والكهنة ويزيدون مع الكلمة الواحدة مائة كذبة (على ما سيأتي بيانه في تفسير سورة سبأ عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾: المراد به الشياطين تلقي ما سمعته على الكهنة.

فقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾: المراد به أكثر السحرة والكهنة كاذبون، وهذا قول أكثر المفسرين.

وهناك وجه آخر يبدو لي من السياق، والله أعلم حاصله أن قوله: يلقون السمع عائدٌ على السحرة والكهنة (الأفاكون الأثمة) فالمعنى يُصغون بأسماعهم إلى إملاءات الشياطين، ويقبلون ما تلقيه عليهم الشياطين، ثم أيضًا فأكثرهم (أكثر السحرة والكهنة) كاذبون.

ونحوه في تفسير ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] لكن الأخير مؤمن ويلقي السمع للقرآن والمواعظ، والله أعلم.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ من الناس؟ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ يعني كذّاب بهات ﴿أَثِيمٍ ﴾ يعني: آثم.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثني محمد بن عمارة الأسدي، قال: ثنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن سعيد بن وهب، قال: كنت عند عبد الله ابن الزبير، فقيل له: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق، ثم تلا ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

وقوله: ﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ يقول تعالى ذكره: يلقي الشياطين السمع، وهو ما يسمعون مما استرقوا سمعه من حين حدث من السماء، إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ من أوليائهم من بني آدم.

وقوله: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ يقول: وأكثر من تنزل عليه الشياطين كاذبون فيما يقولون ويخبرون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخاطبًا لِمَنْ زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئيّ من الجن، فنزه الله، سبحانه، جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو [الحق] من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قَبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال الله: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي: أخبركم. ﴿ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم، أي الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة.

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث، كما رواه البخاري، من حديث الزهري: أخبرني يحيى بن عُروَةَ بن الزبير، أنه سمع عُرْوَةَ بن الزبير يقول: قالت عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان، فقال: «إنهم ليسوا بشيء». قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا؟ فقال النبي ﷺ: **«تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فَيُقَرقِرها في أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة»**[(١)].

---

(١) صحيح البخاري حديث (٧٥٦١).

وقال البخاري أيضًا[(١)]: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنها سلسلة على صَفْوان، حتى إذا فُزِع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا بعضهم فوق بعض». ووصف سفيان بيده فَحَرفها، وبَدّدَ بين أصابعه «فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر - أو الكاهن - فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء». انفرد به البخاري.

❁ ❁ ❁

(١) صحيح البخاري حديث (٤٨٠٠).

بحث يسير في الشّعر

س: ما المراد بـ(الغاوون)؟

ج: لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: الغواة، أهل الغواية، والضلال من الناس، ومردة الشياطين وعصاة الجن.

الثاني: أنهم رواة الشعر، الذين يتبعون الشعراء وينقلون شعرهم.

الثالث: أنهم الشياطين.

الرابع: أنهم ضلال الإنس والجن.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال فيه ما قال الله جلّ ثناؤه: إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجنّ، وذلك أن الله عم بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فلم يخصص بذلك بعض الغواة دون بعض، فذلك على جميع أصناف الغواة التي دخلت في عموم الآية.

❁ ❁ ❁

س: هل كل الشعراء يتبعهم الغاوون؟

ج: لا، بل هناك الذين استثناهم الله ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ والله أعلم.

ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ شعراء نافحوا عن الإسلام ودافعوا عن رسول الله ﷺ وردوا أذى المشركين، كحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم كذلك.

أخرج الطبري بسندٍ صحيح عن عبد الرحمن بن زيد: قال رجل لأبي: يا أبا

أسامة، أرأيت قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فقال له أبي: إنما هذا لشعراء المشركين، وليس شعراء المؤمنين، ألا ترى أنه يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾... إلخ. فقال: فَرَّجت عني يا أبا أسامة؛ فرّج الله عنك.

❁ ❁ ❁

س: هل كل الشعر مذموم؟

ج: لا، بل حسنه كحسن الكلام وطيبه كطيب الكلام، وسيئه كسيء الكلام. فمنه إذن الطيب المستحب، ومنه المحرم والمكروه وكذلك منه المباح.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ جمع شاعر مثل جاهل وجهلاء قال ابن عباس: هم الكفار ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾ ضلال الجن والإنس وقيل ﴿ٱلْغَاوُۥنَ﴾ الزائلون عن الحق ودل بهذا أن الشعراء أيضا غاوون لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك وقد قدمنا في سورة (النور) أن من الشعر ما لا يجوز إنشاده ويكره ويحرم وروى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: «ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم قال: (هيه) فأنشدته بيتا فقال: (هيه) ثم أنشدته بيتًا فقال: (هيه) حتى أنشدته مائة بيت هكذا صواب هذا السند وصحيح روايته وقد وقع لبعض رواة كتاب مسلم: عن عمرو بن الشريد عن الشريد أبيه وهو وهم لأن الشريد هو الذي أردفه رسول الله ﷺ واسم أبي الشريد سويد وفي هذا دليلٌ على حفظ

الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعًا وطبعًا وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية لأنه كان حكيمًا ألا ترى قوله عليه السلام: «**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» فأما ما تضمن ذكر الله وحمده والثناء عليه فذلك مندوب إليه كقول القائل:

الحمد لله العلي المنان ... صار الثريد في رؤوس العيدان

أو ذكر رسول الله ﷺ أو مدحه كقول العباس:

من قلها طبت في الظلال وفي مسـ ... ـتودع حيث يخصف الورق

ثم هبطت البلاد لا بشر أنـ ... ـت ولا مضغة ولا علق

بل نطفة تركب السفين وقد ألـ ... ـجم نسرًا وأهله الغرق

تنقل من صالب إلى رحم ... إذا مضى عالم بدا طبق

فقال له النبي ﷺ: «**لا يفضض الله فاك**» أو الذب عنه كقول حسان:

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

وهي أبيات ذكرها مسلم في صحيحه وهي في السير أتم أو الصلاة عليه كما روى زيد بن أسلم خرج عمر ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت وإذا عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمد صلاة الأبرار ... صلى عليه الطيبون الأخيار

قد كنت قواما بكا بالأسحار ... يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل يجمعني وحبيبي الدار

يعني النبي ﷺ فجلس عمر يبكي وكذلك ذكر أصحابه ومدحهم رضي الله عنهم

ولقد أحسن محمد بن سابق حيث قال:

إني رضيت عليا للهدى علما كما رضيت عتيقا صاحب الغار
وقد رضيت أبا حفص وشيعته وما رضيت بقتل الشيخ في الدار
كل الصحابة عندي قدوة علم فهل علي بهذا القول من عار
إن كنت تعلم أني لا أحبهم إلا من أجلك فاعتقني من النار

وقال آخر فأحسن:

حب النبي رسول الله مفترض وحب أصحابة نور ببرهان
من كان يعلم أن الله خالقه لا يرمين أبا بكر ببهتان
ولا أبا حفص الفاروق صاحبه ولا الخليفة عثمان بن عفان
أما علي فمشهور فضائله والبيت لا يستوي إلا بأركان

قال ابن العربي: أما الاستعارات في التشبيهات فمأذون فيها وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد فبذلك يضرب الملك الموكل بالرؤيا المثل وقد أنشد كعب بن زهير النبي ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

فجاء في هذه القصيدة من الاستعارات والتشبيهات بكل بديع والنبي ﷺ يسمع ولا ينكر في تشبيه ريقها بالراح وأنشد أبو بكر رضي الله عنه:

فقدنا الوحي إذ وليت عنا وودعنا من الله الكلام

سوى ما قد تركت لنا رهينا … توارثه القراطيس الكرام

فقد أورثتنا ميراث صدق … عليك به التحية والسلام

فإذا كان رسول الله ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثل به أو سمعه فرضيه ما كان حكمة أو مباحا ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله وروى أبو هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «**أصدق كلمة – أو أشعر كلمة – قالتها العرب قول لبيد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل»

أخرجه مسلم وزاد: «**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» وروي عن ابن سيرين أنه أنشد شعرا فقال له بعض جلسائه: مثلك ينشد الشعر يا أبا بكر فقال: ويلك يا لكع! وهل الشعر إلا كلام لا يخالف سائر الكلام إلا في القوافي، فحسنه حسن وقبيحه قبيح! قال: وقد كانوا يتذاكرون الشعر قال: وسمعت ابن عمر ينشد:

يحب الخمر من مال الندامى … ويكره أن يفارقه الفلوس

وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة العشرة ثم المشيخة السبعة شاعرًا مجيدًا مقدمًا فيه وللزبير بن بكار القاضي في أشعاره كتاب وكانت له زوجة حسنة تسمى عثمة فعتب عليها في بعض الأمر فطلقها وله فيها أشعار كثيرة منها قوله:

(٤٥٣) أحمر أسود

تغلغــل حــب عثمــة في فــؤادي ... فباديــه مــع الخــافي يســير

تغلغــل حيــث لــم يبلــغ شــراب ... ولا حـــزن ولـــم يبلـــغ ســـرور

أكـــاد إذا ذكـــرت العهـــد منهـــا ... أطيـــر لـــو أن إنســـانا يطيـــر

وقال ابن شهاب: قلت له تقول الشعر في نسكك وفضلك! فقال: إن المصدور إذا نفث برأ.

الثانية: وأما الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم فهو المتكلم بالباطل حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة وأشحهم على حاتم وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقي وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء رغبة في تسلية النفس وتحسين القول كما روي عن الفرزدق أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله:

فبـــتن بجـــانبي مصـــرعات ... وبـــت أفـــض أغـــلاق الختـــام

فقال: وقد وجب عليك الحد فقال: يا أمير المؤمنين قد درأ الله عني الحد بقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ وروي أن النعمان بن عدي بن نضلة كان عاملا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

مـــن مبلـــغ الحســـناء أن حليلهـــا ... بميســـان يســـقى في زجـــاج وحنـــتم

إذا شـــئت غنتنـــي دهـــاقين قريـــة ... ورقاصـــة تجـــذو علـــى كـــل منســـم

فـــإن كنـــت نـــدماني فبـــالأكبر اســـقني ... ولا تســـقني بالأصـــغر المتـــثلم

لعـــل أميـــر المـــؤمنين يســـوءه ... تنادمنـــا بالجوســـق المتهـــدم

فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بالقدوم عليه وقال: إي والله إني ليسوءني ذلك

فقال يا أمير المؤمنين ما فعلت شيئا مما قلت وإنما كانت فضلة من القول وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴾ فقال له عمر: أما عذرك فقد درأ عنك الحد ولكن لا تعمل لي عملًا أبدًا وقد قلت ما قلت.

وقال القرطبي أيضًا:

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا**» وفي الصحيح أيضا: عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذا عرض شاعر ينشد فقال رسول الله ﷺ: «**خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتلئ جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا**» قال علماؤنا: وإنما فعل النبي ﷺ هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقا للتكسب فيفرط في المدح إذا أعطي وفي الهجو والذم إذا منع فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه ولا يحل الإصغاء إليه بل يجب الإنكار عليه فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعًا تعين عليه أن يداريه بما استطاع ويدافعه بما أمكن ولا يحل له أن يعطى شيئا ابتداء لأن ذلك عون على المعصية فإن لم يجد من ذلك بدا أعطاه بنية وقاية العرض فما وقى به المرء عرضه كتب له به صدقة قلت قوله: «**لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه**» القيح: المدة يخالطها دم يقال منه: قاح الجرح يقيح وتقيح وقيح و(يريه) قال الأصمعي: هو من الوري على مثال الرمي وهو أن يدوى جوفه يقال منه: رجل موري مشدد غير مهموز وفي

الصحاح: وروى القيح جوفه يريه وريا إذا أكله وأنشد اليزيدي:

قالـــت لـــه وريـــا إذا تنحنحـــا

وهذا الحديث أحسن ما قيل في تأويله: إنه الذي قد غلب عليه الشعر وامتلأ صدره منه دون علم سواه ولا شيء من الذكر ممن يخوض به في الباطل ويسلك به مسالك لا تحمد له كالمكثر من اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول ومن كان الغالب عليه الشعر لزمته هذه الأوصاف المذمومة الدنية لحكم العادة الأدبية وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاري في صحيحه لما بوب على هذا الحديث «باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر» وقد قيل في تأويله: إن المراد بذلك الشعر الذي هجي به النبي ﷺ أو غيره وهذا ليس بشيء لأن القليل من هجو النبي ﷺ وكثيره سواء في أنه كفر ومذموم وكذلك هجو غير النبي ﷺ من المسلمين محرم قليله وكثيره وحينئذ لا يكون لتخصيص الذم بالكثير معنى.

الرابعة: قال الشافعي: الشعر نوع من الكلام حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام يعني أن الشعر ليس يكره لذاته وإنما يكره لمضمناته وقد كان عند العرب عظيم الموقع قال الأول منهم:

وجـــرح اللســـان كجـــرح اليـــد

وقال النبي ﷺ في الشعر الذي يرد به حسان على المشركين: [إنه لأسرع فيهم من رشق النبل] أخرجه مسلم وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلــوا بنــي الكفــار عــن ســبيله	اليــوم نضــربكم علــى تنزيلــه
ضــربا يزيــل الهــام عــن مقيلــه	ويــذهل الخليــل عــن خليلــه

فقال عمر: يا ابن رواحة! في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «**خل عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح النبل**».

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: ألم تعلم، وألم تر أن الشعراء في كل بابٍ يخوضون، وفي كل موضوع يتحدثون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ألم تر يا محمد أنهم – يعني الشعراء – في كلّ واد يذهبون، كالهائم على وجهه على غير قصد، بل جائرا على الحقّ، وطريق الرشاد، وقصد السبيل.

وإنما هذا مثل ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق، فيمدحون بالباطل قوما ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يقول: في كل لغو يخوضون ولا يتبعون سنن الحق لأن من اتبع الحق وعلم أنه يكتب عليه ما يقوله تثبت ولم يكن هائما يذهب على وجه لا يبالى ما قال نزلت في عبد الله بن الزبعرى ومسافع بن عبد مناف وأمية بن أبي الصلت: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول: أكثرهم يكذبون أي يدلون بكلامهم على الكرم والخير ولايفعلونه وقيل: إنها نزلت في أبي عزة الجمحي حيث قال:

ألا أبلغا عني النبي محمدا بأنك حق والمليك حميد

ولكن إذا ذكرت بدرا وأهله تأوه مني أعظم وجلود

❁ ❁ ❁

س: وضح المراد بذكر الله ﷻ في قوله: ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

ج: لأهل العلم في ذلك وجوه:

أحدها: ذكروا الله كثيرًا في أشعارهم.

الثاني: كان من شأنهم ذِكر الله كثيرًا في أقوالهم وعلى ألسنتهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم استثنى شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طرقهم من القول الحق فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾.

ج: المعنى – والله أعلم- وانتصروا من أهل الكفر والعصيان والعدوان لما ظلمهم هؤلاء، فهجوهم كما هجوهم، وكذا انتصروا من الذين اعتدوا على الإسلام.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهذا استثناء من قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. وذكر أن هذا الاستثناء نزل في شعراء رسول الله ﷺ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ثم هو لكلّ من كان بالصفة التي وصفه الله بها.

وقوله: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ اختلف أهل التأويل في حال الذكر الذي وصف الله به هؤلاء المستثنين من الشعراء، فقال بعضهم: هي حال منطقهم ومحاورتهم الناس، قالوا: معنى الكلام: وذكروا الله كثيرا في كلامهم.

وقال آخرون: بل ذلك في شعرهم.

قال الطبري:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله وصف هؤلاء الذين استثناهم من شعراء المؤمنين بذكر الله كثيرا، ولم يخص ذكرهم الله على حال دون حال في كتابه، ولا على لسان رسوله، فصفتهم أنهم يذكرون الله كثيرا في كلّ أحوالهم.

وقوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ يقول: وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلما بشعرهم وهجائهم إياهم، وإجابتهم عما هجوهم به.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾؟

ج: المعنى –والله أعلم-: وسيعلم أهل الكفر والتكذيب والذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله واعتدائهم على الإسلام وأهله المنقلب السيء، والمرجع السيء الذي سيرجعون إليه إما في الدنيا عاجلًا غير آجل وفي الآخرة حتمًا سيعلمون ما لهم من مصير سيء يصيرون إليه. والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومعنى: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها فصار كل مرجع

منقلبا وليس كل منقلب مرجعا والله أعلم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يقول تعالى ذكره: وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ يقول: أي مرجع يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرون إلى نار لا يُطفأ سعيرها، ولا يَسْكُن لهبها.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة النمل

قَالَ اللَّهِ تَعَالَى:

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ
ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ
قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍۖ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا
فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا
وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾
[النمل: ١-١٤].

(٤٦١) أحمر أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿طسٓ - مُّبِينٍ - يُوقِنُونَ - زَيَّنَّا - يَعۡمَهُونَ - لَتُلَقَّى - لَّدُنۡ - ءَانَسۡتُ - بِشِهَابٖ قَبَسٖ - تَصۡطَلُونَ - بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ - وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ - جَآنّٞ - وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا - وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ - لَدَيَّ - بَدَّلَ حُسۡنَۢا - مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ - تِسۡعِ ءَايَٰتٍ - مُبۡصِرَةٗ - سِحۡرٞ - وَجَحَدُواْ بِهَا - وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ - ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿طسٓ﴾	أحرف مقطعة، بُدئت بها بعض السور لا يعمل معناها إلا الله
﴿مُّبِينٍ﴾	مظهر موضع للأشياء – ظاهر بيِّن
﴿يُوقِنُونَ﴾	يصدقون
﴿زَيَّنَّا﴾	حسَّنا
﴿يَعۡمَهُونَ﴾	يترددون – يتحيرون في الضلالة
﴿لَتُلَقَّى﴾	لتأخذ - لتتلقى
﴿لَّدُنۡ﴾	عند
﴿ءَانَسۡتُ﴾	أبصرت – أحسست
﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾	بشعلة مقتبسة
﴿تَصۡطَلُونَ﴾	تستدفئون (من البرد)
﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾	تقدس وتعاظم وكثر الخير الوارد منه

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾	تنزه الله (عن كل ما لا يليق به)
﴿جَآنّٞ﴾	حية عظيمة، نوع من الحيات سريعة الحركة
﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾	انصرف هاربًا مسرعًا
﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾	لم يلتفت – لم يرجع
﴿لَدَيَّ﴾	عندي
﴿بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾	عمل أعمالًا صالحة يبتغى بها وجه الله بعد أن عمل سوءًا
﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾	من غير برص ولا مرض
﴿تِسۡعِ ءَايَٰتٍ ﴾	تسع حجج واضحات – تسع معجزات
﴿مُبۡصِرَةٗ﴾	مضيئة – نيّرة – واضحة يسترشد بها من أراد الاهتداء
﴿سِحۡرٞ﴾	سحر مظهرٌ لمن رآه أن فاعله ساحر
﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾	أنكروها – كذبوا بها، مع علمهم أنها من عند الله
﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾	كان عندهم يقين أنها من عند الله
﴿ظُلۡمٗا﴾	بخسًا لأنفسهم حقها من الأمان كلما كذبوا استجلبوا لأنفسهم نارًا
﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾	تعاليًا عن الحق ورفضًا له

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

ج: أما عن قوله تعالى: ﴿طسٓ﴾ فأحرف مقطعة، لا يعلم معناها إلا الله.

وقوله: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ هذه المتلوة عليك والمنزلة عليك آيات القرآن وكتاب مظهر موضح لكل الحقائق، مظهر لكونك رسول من عند الله ﷻ، كتاب من عند الله حقًّا، ليس كما يقول أهل الظلم وأهل الكفر من أنك افتريته وتقوَّلته واختلقته، قد أنزلناه عليك ﴿هُدًى﴾ دلالة وإرشادًا وتوفيقًا وتبشيرًا للطائعين المصدقين بالله ووحدانيته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

مبشرًا لهم بفسيح الجنان وجميل الثواب، تُبشر هؤلاء العاملين، الذين اتبعوا الإيمان بالعمل الصالح هم يُداومون على الصلاة ويحافظون عليها في أوقاتها بأركانها وواجباتها وحدودها وفرائضها، وكذا فإنهم يؤدون ما أوجب الله عليهم أداءه من الزكوات وهم بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب مُصدقين تمام التصديق.

وبنحو ذلك قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن هذه الآيات التي أنزلتها إليك يا محمد لآيات القرآن، وآيات كتاب مبين: يقول: يبين لمن تدبَّره، وفكَّر فيه بفهم أنه من عند الله، أنزله إليك، لم تتخرّصه أنت ولم تتقوّله، ولا أحد سواك من خلق الله؛ لأنه لا يقدر أحد من الخَلْق أن يأتي بمثله، ولو تظاهر عليه الجنّ والإنس. وخفض قوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ عطفًا به على القرآن. وقوله: ﴿هُدًى﴾ من صفة القرآن.

يقول: هذه آيات القرآن بيان من الله بيَّن به طريق الحق وسبيل السلام.

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول: وبشارة لمن آمن به، وصدّق بما أنزل فيه بالفوز العظيم في المعاد.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يقول: هو هُدًى وبشرى لمن آمن بها، وأقام الصلاة المفروضة بحدودها. وقوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يقول: ويؤدّون الزكاة المفروضة. وقيل: معناه: ويُطهرون أجسادهم من دنس المعاصي.

وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يقول: وهم مع إقامتهم الصلاة، وإيتائهم الزكاة الواجبة، بالمعاد إلى الله بعد الممات يوقنون، فيذلون في طاعة الله، رجاء جزيل ثوابه، وخوف عظيم عقابه، وليسوا كالذين يكذّبون بالبعث، ولا يبالون، أحسنوا أم أساءوا، وأطاعوا أم عصوا؛ لأنهم إن أحسنوا لم يرجوا ثوابًا، وإن أساءوا لم يخافوا عقابًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ أي: هذه آيات ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح.

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لِمَنْ آمن به واتبعه وصدقه، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: هي أعلى الآيات وأقوى البينات وأوضح الدلالات وأبينها على أجل المطالب وأفضل المقاصد، وخير الأعمال وأزكى الأخلاق.

آيات تدل على الأخبار الصادقة والأوامر الحسنة والنهي عن كل عمل وخيم وخُلُق ذميم.

آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة مبلغ الشمس للأبصار.

آيات دلت على الإيمان ودعت للوصول إلى الإيمان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة، طبقًا ما كان ويكون.

آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة.

آيات عرفتنا برسله وأوليائه ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين ولم يهتد بها جميع المعاندين صونًا لها عن من لا خير فيه ولا صلاح ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من خصَّهم الله بالإيمان واستنارت بذلك قلوبهم وصفت سرائرهم.

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: إن الذين يكذبون بالبعث وينكرونه وينكرون

الثواب والعقاب والجنة والنار حسَّنا لهم في أعينهم أعمالهم، فعملوا أعمالًا سيئة ورأوها حسنة فاستمروا فيها وتمادوا فيها، يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

فهؤلاء الذين استمروا في الضلالة مع ظنهم أنها حسنة لهم يوم القيامة العذاب الذي يُسيئهم وهم أكثر الناس خسرانًا لأنفسهم ولأعمالهم فقد ضاعت عليهم أعمالهم التي عملوها، بل وانقلبت عليهم شرًّا وعذابًا، والعياذ بالله.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن الذين لا يصدّقون بالدار الآخرة، وقيام الساعة، وبالمعاد إلى الله بعد الممات والثواب والعقاب. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾.

يقول: حببنا إليهم قبيح أعمالهم، وسهّلنا ذلك عليهم. ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: فهم في ضلال أعمالهم القبيحة التي زيّناها لهم يتردّدون حيارى يحسبون أنهم يحسنون.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم سوء العذاب في الدنيا، وهم الذين قتلوا ببدر من مشركي قريش.

يقول: وهم يوم القيامة هم الأوضعون تجارة والأوكسوها باشترائهم الضلالة بالهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: يكذبون بها، ويستبعدون وقوعها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غَيهم فهم يَتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[الأنعام: ١١٠]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ أي: ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يصدقون بالبعث ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ قيل: أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة وقيل: زيَّنا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها. وقال الزجاج: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه، قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون في أعمالهم الخبيثة وفي ضلالتهم عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيرون، قال الراجز:

ومهمــــه أطرافـــه في مهمـــه ... أعمــى الهــدى بالحــائرين العُمَّــه

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وهو جهنم قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ في الآخرة تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: وإنك يا رسول الله لتأخذ هذا القرآن وتتلقاه من عند الله عَزَّوَجَلَّ الحكيم في شرعه وقضائه وقدره، وفي كل الأمور العليم بكل الأحوال، لا تخفى عليه خافية.

هذا، ومن العلماء من قال إنه قوله: ﴿عَلِيمٍ﴾ متعلق بما بعده، أي: وإنك لتلقى القرآن من عند حكيم عليم بقول موسى لأهله: إني آنست نارًا.

وهذه بعض أقوال العلماء في ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإنك يا محمد لتحفظ القرآن وتعلمه ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ يقول: من عند حكيم بتدبير خلقه، عليم بأنباء خلقه ومصالحهم، والكائن من أمورهم، والماضي من أخبارهم، والحادث منها.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد - قال قتادة: ﴿لَتُلَقَّى﴾ أي: لتأخذ. ﴿ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: من عند حكيم عليم، أي: حكيم في أوامره ونواهيه، عليم بالأمور جليلها وحقيرها، فخبره هو الصدق المحض، وحكمه هو العدل التامُّ، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

❁ ❁ ❁

س: ذكر العلماء قراءتين في قوله: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ وضحهما مع بيان معنيهما.

ج: أما القراءتان؛ فالأولى: بشهاب قبس ومعناها بشعلةٍ اقتبسها.

والثانية: بشهابٍ قبسٍ والمعنى بشهاب مقتبس.

❁ ❁ ❁

س: ما العامل في قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ؟

ج: لأهل العلم هنا قولان:

أحدهما: أن العامل فيه ما تقدم قبله، وهو قوله: ﴿عَلِيمٍ﴾ فالمعنى عليم بقول موسى لأهله.

الثاني: أن العامل فيه واذكر، والمعنى واذكر يا رسول الله قول موسى لقومه. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

شيءٌ من ذكر موسى عليه السلام

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: واذكر قول موسى عليه السلام لأهله حين رجوعه من بلاد مدين متجهًا إلى مصر، وهو في سيناء عند جبل الطور إذ قال لأهله والأجواء مظلمة والليالي باردة، وقد أبصر نارًا فقال: إني أبصرت نارًا فامكثوا حتى آتيكم منها بخبر لعلنا نستدل به على طريقنا طريق الرجوع أو آتي بخبر عن أهل مصر الذين سنذهب إليهم وعن فرعون وماذا صنع، أو آتيكم بشعلةً من هذه النار اقتبسها منها لعلكم تستدفئون بها من هذا البرد، فلما جاءها ناداه ربُّه عز وجل وكلمه أن بورك مَنْ في النار، أي تقدَّس من في النار وتعاظم وتكاثر الخير الوارد من قبله، والمراد بالنار – عند كثير من العلماء- النور الذي هو الحجاب، ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بالنار النار حقيقة إذ الله قال أن بورك من في النار.

وأما قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وبارك الله فيمن حولها شرفهم الله بهذا الشرف، كما قال في آية أخرى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣] والمراد بالذين حولها الملائكة عليهم سلام الله وكذا موسى عليه السلام،

---

(١) انظر مسلم (حديث ١٧٩).

وأيضًا الوادي المكان فهو وادٍ مقدس كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

أما قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وتنزَّه عن كل نقصٍ وعيب وتنزَّه عن الشريك والمثيل والنِّد والصاحبة والولد وتنزَّه عن كل ما لا يليق به، فهو ربُّ العالمين رب السموات والأرض وما بينهما.

وبنحو ما ذُكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ وإذ من صلة عليم. ومعنى الكلام: عليم حين قال موسى ﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ وهو في مسيره من مدين إلى مصر، وقد آذاهم برد ليلهم لما أصلد زنده. ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ أي: أبصرت نارًا أو أحسستها، فامكثوا مكانكم ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني من النار، والهاء والألف من ذكر النار ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾.

اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قرّاء المدينة والبصرة: «**بِشِهَابِ قَبَسٍ**» بإضافة الشهاب إلى القبس، وترك التنوين، بمعنى: أو آتيكم بشعلة نار أقتبسها منها. وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الكوفة: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بتنوين الشهاب وترك إضافته إلى القبس، يعني: أو آتيكم بشهاب مقتبس.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان في قَرَأة الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يقول: كي تصطلوا بها من البرد. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ يقول: فلما جاء موسى النار التي آنسها ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

وأورد الطبري بسندٍ فيه مقال عن ابن عباس، قال: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يقول: قدّس.

واختلف أهل التأويل في المعنّي بقوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ فقال بعضهم: عني جلّ جلاله بذلك نفسه، وهو الذي كان في النار، وكانت النار نوره تعالى ذكره في قول جماعة من أهل التأويل.

وأورد أثرًا ضعيف الإسناد عن ابن عباس: في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني نفسه؛ قال: كان نور ربّ العالمين في الشجرة.

قال الطبري: وقال آخرون: بل معنى ذلك: بوركت النار.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل التأويل في معنى النار في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: النور، كما ذكرت عمن ذكرت ذلك عنه.

وقال آخرون: معناه النار لا النور.

وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يقول: ومن حول النار. وقيل: عني بمن حولها: الملائكة.

وقال آخرون: هو موسى والملائكة.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: وتنزيهًا لله رب العالمين، مما يصفه به الظالمون.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى لرسوله ﷺ مذكرًا له ما كان من أمر موسى، كيف اصطفاه الله وكلمه، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة، والأدلة القاهرة، وابتعثه

إلى فرعون وملئه، فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي: اذكر حين سار موسى بأهله، فأضل الطريق، وذلك في ليل وظلام، فآنس من جانب الطور نارًا، أي: رأى نارًا تأجج وتضطرم، فقال ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تتدفؤون به. وكان كما قال، فإنه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نورًا عظيمًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: فلما أتاها رأى منظرًا هائلًا عظيمًا؛ حيث انتهى إليها، والنار تضطرم في شجرة خضراء، لا تزداد النار إلا توقدًا، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء.

قال ابن عباس وغيره[(١)]: لم تكن نارًا، إنما كانت نورًا يَتَوَهَّج.

وفي رواية عن ابن عباس[(٢)]: نور رب العالمين. فوقف موسى متعجبًا مما رأى، فنودي أن بورك من في النار. قال ابن عباس: أي قُدّس. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: من الملائكة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود -وهو الطيالسي- حدثنا شعبة والمسعودي، عن عمرو بن مُرَّة، سمع أبا عُبَيْدة يحدث، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل**». زاد المسعودي: «**وحجابه النور -أو النار- لو كشفها لأحْرَقَتْ سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره**»[(٣)]. ثم قرأ أبو عُبَيْدة: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ

(١، ٢) ولم أقف على سند صحيح عن ابن عباس بهذا، والأسانيد التي وقفت عليها فيها مقال.

(٣) مسلم (٢٤٩ و ٢٩٥ حديث ١٧٩) بنحوه.

وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيح لمسلم، من حديث عمرو ابن مُرَّة، به.

وقوله: ﴿ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: الذي يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئًا من مخلوقاته، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته، وهو العلي العظيم، المباين لجميع المخلوقات، ولا يكتنفه الأرض والسموات، بل هو الأحد الصمد، المنزه عن مماثلة المحدثات.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ ﴾ (إذ) منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾: خذ يا محمد بن آثار حكمته وعلمه قصة موسى؛ إذ قال لأهله: ﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾ أي: أبصرتها من بعد قال الحارث بن حلزة:

آنست نبأة وأفزعها القناص عصرًا وقد دنا الإمساء

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا ﴾ أي فلما جاء موسى الذي ظن أنه نار وهي نور قاله وهب بن منبه، فلما رأى موسى النار وقف قريبًا منها فرآها تخرج من فرع شجرة خضراء شديدة الخضرة[1] يقال لها العليق، لا تزداد النار إلا عظمًا وتضرمًا ولا تزداد الشجرة إلا خضرة وحسنًا، فعجب منها وأهوى إليها بضغث في يده ليقتبس منها، فمالت إليه فخافها فتأخر عنها، ثم لم تزل تُطمعه ويطمع فيها إلى أن وضح أمرها على أنها مأمورة، لا يدري من أمرها إلى أن ﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ وقد مضى هذا المعنى في (طه) ﴿ نُودِيَ ﴾ أي:

---

(١) قلت: ولم أقف على خبرٍ ثابت عن رسول الله ﷺ في ذِكر الشجرة. والله أعلم.

نـاداه الله كمـا قـال: ﴿ وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ [مـريم: ٥٢] ﴿ أَنْ بُورِكَ ﴾ قـال الزجاج: ﴿أَنْ ﴾ في موضع نصب أي بأنه قال: ويجوز أن تكون في موضع رفع جعلها اسم ما لـم يسم فاعله وحكى أبو حاتم أن في قراءة أبي وابـن عباس ومجاهد (**أَنْ بُورِكَت مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا**) قال النحـاس: ومثل هـذا لا يوجد بإسناد صحيح ولو صح لكان على التفسير فتكون البركة راجعة إلى النار ومن حولها الملائكة وموسى وحكى الكسائي عن العرب: باركك الله وبارك فيك الثعلبي العرب تقول: باركك الله وبارك فيك وبارك عليك وبارك لك أربع لغات، قال الشاعر:

فبوركـت مولـودًا وبوركـت ناشـئا وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

الطبري: قال ﴿ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ ولم يقل بورك في من في النار على لغة من يقول: باركك الله ويقال باركه الله وبارك له وبارك عليه وبارك فيه بمعنى أي: بـورك على من في النار وهو موسى أو على من في قرب النار لا أنه كان في وسطها وقال السدي: كان في النار ملائكة، فالتبريك عائد إلى موسى والملائكة أي بورك فيك يا موسى وفي الملائكة الذين هم حولها وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له كما حيًّا إبراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه قال: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [هـود: ٧٣] وقول ثالث قاله ابن عباس و الحسن وسعيد بن جبير: قدس من في النار وهو الله سبحانه وتعالى عني به نفسه تقدس وتعالى. قال ابـن عباس و محمد بـن كعب: النار نور الله ﷻ نادى الله موسى وهو في النور.... إلى آخر ما قاله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾؟

ج: أما قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فحاصل معناه: أن الله ﷻ أكرم موسى عليه السلام بكرامة عظيمة جدًّا، وهي كونه ناداه وكلمه بلا واسطة قائلًا له: إنه أنا الله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في كل شيء يشرعه ويقضيه.

ثم إن الله ﷻ أمره بأن يلق عصاه التي في يده، فألقاها عليه السلام، فتحوَّلت إلى حية عظيمة كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] والجآن نوعٌ من أنواع الحيات العظيمة شديدة الحركة، فلما رآها موسى هكذا انصرف مسرعًا هاربًا ولم يلتفت وراءه ولم يرجع فناداه ربُّه ﷻ: يا موسى لا تخف مما رأيت إني لا يخاف عندي المرسلون الذين أخذتهم واجتبيتهم، فهؤلاء لا يخافون لكن من ظلم منهم فإني أُخيفه بسبب ما صدر منه من ظلم، وقد قال بعض أهل العلم هاهنا: إن موسى عليه السلام إنما خاف لكونه قد ظلم بقتل نفسٍ لم يُؤمر بقتلها.

ورُوي عن بعض أهل العلم أن الأنبياء عليهم السلام كانت تذنب فتعاقب، أي: من ارتكب منهم شيئًا من الذنب عُوقب به، ونُقل هذا بأسانيد فيها بعض المقال عن بعض التابعين، وقال به بعض المفسرون.

هذا، ومن العلماء من قال: إن المعنى تمَّ عند قوله: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

أي: إني لا يخاف عندي رسلي إلا من ظلم منهم فإنه يخاف بسبب ذنبه.

أما قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقال بعض أهل العلم: إنه هنا مستقرٌّ محذوف مفهوم من السياق، والمعنى: أما من ظلم من سائر خَلْقي ثم عمل عملًا صالحًا مبتغيًا به وجه الله فإني غفورٌ لذنبه، رحيمٌ به.

هذا، ومن العلماء من قال إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ إلى هنا تم الكلام ثم استثناء منقطع حاصل معناه لكن من ظلم من سائر خلقي، ثم بدل حُسنًا بعد سوء فإني غفور له والله أعلم.

ويبقى هنا سؤالٌ واردٌ على من قال إن من ظلم من المرسلين يُخيفه الله ﷻ بسبب ظلمه، ألا وهو إن موسى عليه السلام لما قتل النفس التي لم يؤمر بقتلها استغفر من ذلك إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ فطلب المغفرة وغفر الله له إذ الله قال: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ فكيف يُخيفه الله وقد غفر له؟؟؟!!!

وجواب ذلك فيما أرى والله أعلم أن موسى آنذاك لم يكن أُوحي إليه، وإنما أُرسل عليه السلام بعد تكليم ربّه ﷻ له، فمن ثَمَّ لم يكن قد علم أن الله غفر له فبقي خائفًا من عقوبة ذنبه، ولحقه شيء من هذا الخوف في هذا المقام.

أو يُقال: إن الله ﷻ غفر له بعد هذه الوقائع.

أو يُقال: إنه لبيان أن من ظلم فإنه يخاف من عاقبة ظلمه.

أو يُقال: إلا من ظلم فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له والله أعلم.

وقال القرطبي رحمه الله:

فإن قال قائل: فما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟ قيل له: هذه سبيل العلماء بالله ﷻ أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين وهم أيضًا لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشراط التوبة شيء لم يأتوا به فهم يخافونه من المطالبة

به. وقال الحسن وابن جريج: قال الله لموسى: إني أخفتك لقتلك النفس. قال الحسن: وكانت الأنبياء تذنب فتعاقب. قال الثعلبي والقشيري والموردي وغيرهم: فالاستثناء على هذا صحيح أي إلا من ظلم نفسه من النبيين والمرسلين فيما فعل من صغيرة قبل النبوة وكان موسى خاف من قتل القبطي وتاب منه وقد قيل: إنهم بعد النبوة معصومون من الصغائر والكبائر قد مضى هذا في (البقرة).

قلت: والأول أصح لتنصلهم من ذلك في القيامة كما في حديث الشفاعة وإذا أحدث المقرب حدثًا فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باقٍ وما دام الأثر والتهمة قائمة، فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة والمتهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة، وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث في ذلك الفرعوني ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه، ثم غفر له ثم قال بعد المغفرة: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧] ثم ابتلي من الغد بالفرعوني الآخر وأراد أن يبطش به فصار حدثًا آخر بهذه الإرادة وإنما ابتلي من الغد؛ لقوله: ﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ وتلك كلمة اقتدار من قوله: لن أفعل فعُوقب بالإرادة حين أراد أن يبطش ولم يفعل فسلط عليه الإسرائيلي حتى أفشى سره؛ لأن الإسرائيلي لما رآه تشمر للبطش ظن أنه يريده فأفشى عليه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ ﴾ [القصص: ١٩] فهرب الفرعوني وأخبر فرعون بما أفشى الإسرائيلي على موسى وكان القتيل بالأمس مكتومًا أمره، لا يدرى مَنْ قتله فلما علم فرعون بذلك وُجِّه في طلب موسى ليقتله واشتد الطلب وأخذوا

مجامع الطرق، جاء رجل يسعى فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠] الآية فخرج كما أخبر الله فخوف موسى إنما كان من أجل هذا الحدث فهو وإن قربه ربُّه وأكرمه واصطفاه بالكلام فالتهمة الباقية ولَّت به ولم يعقب.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله لموسى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ في نقمته من أعدائه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره في خلقه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ في الكلام محذوف تُرك ذكره، استغناء بما ذُكِر عما حذف، وهو فألقاها فصارت حية تهتز ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ يقول: كأنها حية عظيمة، والجانّ: جنس من الحيات معروف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يقول تعالى ذكره: ولَّى موسى هاربًا خوفًا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول: ولم يرجع. من قولهم: عقب فلان: إذا رجع على عقبه إلى حيث بدأ.

وأورد الطبري بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ قال: لم يرجع ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ قال: لما ألقى العصا صارت حية، فرعب منها وجزع، فقال الله: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال: فلم يرعوا لذلك، قال: فقال الله له: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] قال: فلم يقف أيضًا على شيء من هذا حتى قال: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١] قال: فالتفت فإذا هي عصا كما

كانت فرجع فأخذها ثم قوي بعد ذلك حتى صار يرسلها على فرعون ويأخذها.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ يقول تعالى ذكره: فناداه ربه: يا موسى لا تخف من هذه الحية، إني لا يخاف لديّ المرسلون. يقول: إني لا يخاف عندي رسلي وأنبيائي الذين أختصهم بالنبوّة، إلا من ظلم منهم، فعمل بغير الذي أذن له في العمل به.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وقال الطبري – بعد أن أورد أقوالًا وبعض القراءات –:

قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء صحيح من قوله: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ منهم فأتى ذنبًا، فإنه خائف لديه من عقوبته، وقد بيَّن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى قيل الله لموسى ذلك، وهو قوله قال: إني إنما أخفتك لقتلك النفس.

فإن قال قائل: فما وجه قيله إن كان قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناءً صحيحًا، وخارجًا من عداد من لا يخاف لديه من المرسلين، وكيف يكون خائفا من كان قد وُعد الغفران والرحمة؟ قيل: إن قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ كلام آخر بعد الأوّل، وقد تناهى الخبر عن الرسل من ظلم منهم، ومن لم يظلم عند قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ ثم ابتدأ الخبر عمن ظلم من الرسل، وسائر الناس غيرهم، وقيل: فمن ظلم ثم بدّل حسنًا بعد سوء فإني له غفور رحيم.

فإن قال قائل: فعلام تعطف إن كان الأمر كما قلت بـ(ثُمَّ) إن لم يكن عطفًا على قوله: ﴿ظَلَمَ﴾؟ قيل: على متروك استغني بدلالة قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ عليه عن إظهاره؛ إذ كان قد جرى قبل ذلك من الكلام نظيره، وهو فمن ظلم من الخلق. وأما الذين ذكرنا قولهم من أهل العربية، فقد قالوا على

مذهب العربية، غير أنهم أغفلوا معنى الكلمة وحملوها على غير وجهها من التأويل. وإنما ينبغي أن يُحمل الكلام على وجهه من التأويل، ويلتمس له على ذلك الوجه للإعراب في الصحة مخرج لا على إحالة الكلمة عن معناها ووجهها الصحيح من التأويل.

وقوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ يقول تعالى ذكره: فمن أتى ظلمًا من خَلْق الله، وركَّب مأثمًا، ثم بدل حُسنًا، يقول: ثم تاب من ظلمه ذلك وركوبه المأثم، ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ﴾ يقول: فإني ساتر على ذنبه وظلمه ذلك بعفوي عنه، وترك عقوبته عليه ﴿رَّحِيمٌ﴾ به أن أعاقبه بعد تبديله الحسن بضده.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الحكيم، الذي عزَّ كل شيء وقهره وغلبه، الحكيم في أفعاله وأقواله.

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده؛ ليُظهر له دليلًا واضحًا على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شيء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حَيَّةً عظيمة هائلة في غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة، وأكثره اضطرابًا - وفي الحديث نَهْيٌ عن قتل جِنَّان البيوت - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولم يلتفت من شدة فرقه ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لا تخف مما ترى، فإني أريد أن أصطَفيك رسولًا واجعلك نبيًّا وجيهًا.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا استثناء منقطع،

وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على شيء ثم أقلع عنه، ورجع وأناب، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الهاء عماد وليست بكناية في قول الكوفيين والصحيح أنها كناية عن الأمر والشأن ﴿ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب الذي ليس كمثله شيء ﴿الْحَكِيمُ ﴾ في أمره وفعله وقيل: قال موسى: يا رب مَنِ الذي نادى؟ فقال له: ﴿إِنَّهُ ﴾ أي: أني أنا المنادي لك ﴿أَنَا اللَّهُ ﴾.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنها قُلبت له أولًا حية صغيرة فلما أنس منها قُلبت حية كبيرة وقيل: انقلبت مرة حية صغيرة ومرة حية تسعى وهي الأنثى ومرة ثعبانًا وهو الذكر الكبير من الحيات وقيل: المعنى انقلبت ثعبانًا تهتز كأنها جانٌّ، لها عظم الثعبان وخفة الجان واهتزازه وهي حية تسعى وجمع الجان جنان ومنه الحديث: «نهى عن قتل الجنان التي في البيوت» ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ خائفًا على عادة البشر ﴿ وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أي: لم يرجع قاله مجاهد. وقال قتادة: لم يلتفت ﴿ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ ﴾ أي: من الحية وضررها، ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وتمَّ الكلام، ثم استثنى استثناء منقطعا فقال: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ﴾ وقيل: إنه استثناء من محذوف والمعنى: إني لا يخاف لدي المرسلون وإنما يخاف غيرهم ممن ظلم ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴾ فإنه لا يخاف.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي الآية قول آخر: وهو أن يكون الاستثناء متصلًا والمعنى إلا من ظلم من المرسلين بإتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد سوى ما روي عن يحيى ابن زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما ذكره الله تعالى في نبينا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] ذكره المهدوي واختاره النحاس وقال: علم الله من عصى منهم يسرّ الخيفة فاستثناه فقال: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ فإنه يخاف وإن كنت قد غفرت له. الضحاك: يعني آدم وداود عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. الزمخشري: كالذي فرط من آدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف ومن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بوكزه القبطي.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره، فالذين اختصهم الله برسالته واصطفاهم لوحيه لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله خصوصًا عند زيادة القرب منه والحظوة بتكليمه.

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ أي: فهذا الذي هو محلُّ الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم وما تقدم له من الجُرْم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا من ظلم نفسه بمعاصي الله، وتاب وأناب فبدل سيئاته حسنات ومعاصيه طاعات فإن الله غفور رحيم، فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته فإنه يغفر الذنوب جميعًا وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

❀ ❀ ❀

س: هل هذه الآية، إدخال اليد في الجيب وإخراجها بيضاء من غير سوء،

داخلة في التسع أم أن الآيات تسعٌ غيرها، وهي العاشرة؟

ج: الظاهر – والله أعلم– أنها داخلة في تلك الآيات التسع فقوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ معناه والله أعلم ضمن تسع آيات.

وإن كان من العلماء من قال إنها تسعٌ غيرها وهي العاشرة، لكن ما قدمته أولى، ولقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ﴾ [الإسراء: ١٠١].

❁ ❁ ❁

الآيات التسع التي أيد بها موسى عليه السلام

س: ما هذه الآيات التسع؟

ج: منها بالاتفاق العصا واليد، العصا التي تحوَّلت إلى حية تسعى، وتلك التي ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرقٍ كالطود العظيم، وتلك التي ضرب بها الحجر قائلًا: ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر. واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء.

فهاتان آيتان العصا واليد:

ومنها المذكورات في قوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فهذه خمس آيات.

(الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم)

وثنتان في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ١٣٠] فالسنون سنوات الشدة التي حلَّت بهم ونزلت، بما فيها من فقر ومرض، ونقص الثمرات فهاتان اثنتان.

فيكون المجموع للمذكور كله تسع.

وهناك آيات تدخل ضمن المذكورات فالرجز المذكور في قولهم: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] داخلة في السنين (سنوات الشدة) أو داخل في الخمس المذكورات والله أعلم.

وهناك قرينة إيضاح لهذا في سورة الإسراء بحمد الله.

❁ ❁ ❁

س: وضح المعنى الإجمالي لقوله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾.

ج: يقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أي: في فتحة ثوبك، تلك الفتحة التي تُدخل فيها رأسك ثم أخرجها فإن أخرجتها خرجت بيضاء من غير مرض من غير برصٍ، خرجت بيضاء ناصعةً فهذه آية ومعجزة ضمن تسع آيات ومعجزات أيدناك بها وأرسلناك بها إلى فرعون وقومه فقد كانوا قومًا فاسقين، كافرين بالله جاحدين وحدانيته ونعمه.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله لنبيه موسى: ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ ذكر أنه تعالى ذكره أمره أن يدخل كفه في جيبه؛ وإنما أمره بإدخاله في جيبه؛ لأن الذي كان عليه يومئذٍ مِدرعة من صوف. قال بعضهم: لم يكن لها كُمٌّ. وقال بعضهم: كان كمُّها إلى بعض يده.

وقال:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ ﴾ قال: الكفُّ فقط في جيبك، قال: كانت مدرعة إلى بعض يده، ولو كان لها كُمٌّ أمره أن يدخل يده في كمه.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ يقول: تخرج اليد بيضاء بغير لون موسى ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ يقول: من غير برص ﴿فِي تِسْعِ ءَايَاتٍ﴾، يقول تعالى ذكره: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، فهي آية في تسع آيات مُرسل أنت بهنّ إلى فرعون؛ وترك ذكر مرسل لدلالة قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ على أن ذلك معناه، كما قال الشاعر:

رأَتْنِي بِحَبْلَيْهَا فَصَدَّتْ مَخافَةً ... وفِي الحَبْلِ رَوْعاءُ الفُؤَادِ فَرُوقُ

ومعنى الكلام: رأتني مقبلًا بحبليها، فترك ذكر «مقبل»استغناء بمعرفة السامعين معناه في ذلك؛ إذ قال: رأتني بحبليها؛ ونظائر ذلك في كلام العرب كثيرة.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿تِسْعِ ءَايَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ قال: هي التي ذكر الله في القرآن: العصا، واليد، والجراد، والقمل، والضفادع، والطوفان، والدم، والحجر، والطمس الذي أصاب آل فرعون في أموالهم.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ يقول: إن فرعون وقومه من القبط كانوا قومًا فاسقين، يعني: كافرين بالله، وقد بيَّنا معنى الفسق فيما مضى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصِدْق من جعل له معجزة، وذلك أن الله -تعالى- أمره أن يُدخل يده في جيب دِرْعِه، فإذا أدخلها وأخرجها خَرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف.

وقولـه: ﴿ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ ﴾ أي: هاتـان ثنتـان مـن تسـع آيـات أؤيـدك بهـن، وأجعلهن برهانًا لك ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وهـذه هي الآيـات التسـع التي قـال الله تعـالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍۖ ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك.

❁ ❁ ❁

س: وضـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – فلما جاءت آل فرعـون حججنا واضحة جلية منيرةً يستنيرون بها، ومضيئة يستضيئون بها وبصائر يستبصرون بها وصفوها بأنها سحر، فوصفوا العصا التي تحوَّلت إلى حية تسعى بأنها سحر، ووصفوا اليد التي تخرج بيضاء للناظرين بأنها سحر، فقالوا: هذا سحر مبين، سحرٌ مظهر لمن رآه، أن فاعله ساحر، أما قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: وكذبوا رسولنا لما جاءهم بهذه الآيات، وأنكروا أن تكون هذه معجزات من عند الله ﷻ مع كونهم في قرار أنفسهم يوقنون أنها من عند الله، ولكن كذبوا بها فظلموا أنفسهم بهذا التكذيب، وكذَّبوا بها كبراً وتعاليًا على الحق فأهلكوا أنفسهم بهذا الكبر وبـذاك التعـالي فـانظر بعـين الاعتبـار والاتعـاظ إلـى مـا حـلَّ بهـؤلاء القـوم المفسدين، وكيف كانت عاقبة أمرهم، وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما جاءت فرعون آياتنا، يعني: أدلتنا وحججنا، على حقيقة ما دعاهم إليه موسى وصحته، وهي الآيات التسع التي ذكرناها قبل. وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يقول: يبصر بها من نظر إليها ورآها حقيقة ما دلت عليه.

(٤٨٧) أحمر أسود

وقال في قوله:

﴿قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، يقول: قال فرعون وقومه: هذا الذي جاءنا به موسى سحر مبين، يقول: يبين للناظرين له أنه سحر.

وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ يقول: وكذبوا بالآيات التسع أن تكون من عند الله.

وقوله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ يقول: وأيقنتها قلوبهم، وعلموا يقينًا أنها من عند الله، فعاندوا بعد تبينهم الحق، ومعرفتهم به.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قول الله: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ قال: استيقنوا أن الآيات من الله حقٌّ، فلما جحدوا بها؟ قال: ظلمًا وعلوًّا.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يعني بالظلم: الاعتداء، والعلو: الكبر، كأنه قيل: اعتداءً وتكبرًا.

وقال:

ومعنى ذلك: وجحدوا بالآيات التسع ظلمًا وعلوًّا، واستيقنتها أنفسهم أنها من عند الله، فعاندوا الحقّ بعد وضوحه لهم، فهو من المؤخر الذي معناه التقديم.

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة تكذيب هؤلاء الذين جحدوا آياتنا حين جاءتهم مبصرة؟! وماذا حلَّ بهم من إفسادهم في الأرض ومعصيتهم فيها ربهم، وأعقبهم ما فعلوا؟! فإن ذلك أخرجهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، إلى هلاك في العاجل بالغرق، وفي الآجل إلى عذاب دائم، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. يقول:

وكذلك يا محمد سُنتي في الذين كذّبوا بما جئتهم به من الآيات على حقيقة ما تدعوهم إليه من الحق من قومك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة، ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين .

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا ﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿ وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حقٌّ من عند الله، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي: ظلمًا من أنفسهم، سَجِيَّة ملعونة، ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أي: استكبارًا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي: واضحة بينة. قال الأخفش: ويجوز مبصرة وهو مصدر كما يقال: الولد مجبنة ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي: تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرًا ولكنهم كفروا بها وتكبروا

أن يؤمنوا بموسى وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين و﴿ظُلْمًا﴾ ﴿وَعُلُوًّا﴾ منصوبان على نعت مصدر محذوف أي وجحدوا بها جحودًا ظلمًا وعلوًّا والباء زائدة أي: وجحدوها قاله أبو عبيدة ﴿فَانظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي: آخر أمر الكافرين الطاغين انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه الخطاب له والمراد غيره.

قصة نبي الله سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ
وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٥-١٩].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ - وَحُشِرَ - يُوزَعُونَ - لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ -أَوۡزِعۡنِيٓ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾	لغة الطير
﴿وَحُشِرَ﴾	جُمع
﴿يُوزَعُونَ﴾	يرد أوَّلهم لآخرهم وآخرهم لأولهم حتى يكونوا مجتمعين أو يكونون صفًّا واحدًا، وقيل: يُساقون، وقيل: يتقدمون
﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾	لا يكسرنكم
﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾	ألهمني

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾.

ج: هذا - والله أعلم - إخبارٌ من الله ﷻ بالذي منَّ به على داود وسليمان عليهما السلام، وبالذي أنعم به عليهما، وكيف وأنهما قابلا ذلك بالشكر وليس بالجحود والنكران، وهكذا كل من أنعم الله عليه يلزمه أن يقابل نعم الله بالشكر.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ والمراد النبوة وعلومها وسائر العلوم التي آتاهما الله إياها فمن ذلك ما ذكره في شأن داود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ

ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠]، وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، وكذا ما علمه الله سليمان من القضاء والفهم فيه، وتعليمه لغة الطير وغير ذلك، فلما آتاهما ذلك قالا شاكرين لله الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ وذلك علم كلام الطير والدواب، وغير ذلك مما خصّهم الله بعلمه. ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وقال داود وسليمان: الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا به من العلم الذي آتاناه، دون سائر خَلْقه من بني آدم في زماننا هذا على كثير من عباده المؤمنين به في دهرنا هذا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والمُلْك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾ أي: فهمًا قاله قتادة وقيل: علمًا بالدين والحكم وغيرهما كما قال: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ ﴾ [الأنبياء: ٨٠] وقيل: صنعة الكيمياء وهو شاذّ وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في

الأرض والزبور ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم وأن من أُوتيه فقد أُوتي فضلًا على كثير من عباد الله المؤمنين ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

❁ ❁ ❁

س: هل كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يفهم لغة الطير فقط؟

ج: الظاهر – والله أعلم – أنه كان يعلم لغة الحيوانات أيضًا، والدواب عمومًا بدليل فهمه للغة النمل على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن العربي: من قال إنه لا يعلم إلا منطق الطير فنقصان عظيم وقد اتفق الناس على أنه كان يفهم كلام من لا يتكلم ويخلق له فيه القول من النبات فكان كل نبت يقول له: أنا شجر كذا أنفع من كذا وأضر من كذا فما ظنك بالحيوان.

❁ ❁ ❁

س: كيف يجمع بين قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ وبين قول النبي ﷺ: «إنَّا مَعشر الأَنبيَاء لَا نُورث»؟

ج: الجمع بأن يقال: إن سليمان إنما ورث العلم والنبوة، وليس المراد وراثة المال، ولو كان المراد وراثة المال ما ورثه سليمان وحده بل كان سيرثه عموم ورثته، والله أعلم، وسيأتي مزيدٌ من ذلك في أقوال المفسرين إن شاء الله.

قال القرطبي:

وقال ابن العربي: فلو كانت وراثة مال لانقسمت على العدد فخص الله

سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة وزاده من فضله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، قال ابن عطية: داود من بني إسرائيل وكان ملكًا وورث سليمان ملكه ومنزلته من النبوة – بمعنى: صار إليه ذلك بعد موت أبيه فسمي ميراثًا تجوزًا وهذا نحو قوله: «**العلماء ورثة الأنبياء**» ويحتمل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث**» أن يريد أن ذلك من فعل الأنبياء وسيرتهم وإن كان فيهم من ورث ماله كزكرياء على أشهر الأقوال فيه، وهذا كما تقول: إنا معشر المسلمين إنما شغلتنا العبادة والمراد أن ذكر فعل الأكثر ومنه ما حكى سيبويه: إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف.

قلت: قد تقدم هذا المعنى في (مريم) وأن الصحيح القول الأول لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**إنا معشر الأنبياء لا نورث**» فهو عامٌّ ولا يخرج منه شيء إلا بدليل.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وورث نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ علم أبيه داود ونبوته عَلَيْهِ السَّلَامُ وقال شاكرًا لله مُذكرًا بنعمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، أي: لغة الطير ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الخيرات وما تحتاج إليه وما يحتاجه الخلق في دنياهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ﴾ المظهر لمن تأمله أننا ولله الحمد قد فُضلنا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ أباه ﴿دَاوُۥدَ﴾ العلم الذي كان آتاه الله في حياته، والمُلك الذي كان خصَّه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه داود دون سائر ولد أبيه ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ يقول: وقال سليمان

لقومه: يا أيها الناس عُلِّمنا منطق الطير، يعني: فهمنا كلامها؛ وجعل ذلك من الطير كمنطق الرجل من بني آدم إذ فهمه عنها.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يقول: وأعطينا ووهب لنا من كلّ شيء من الخيرات ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ يقول: إن هذا الذي أوتينا من الخيرات لهو الفضل على جميع أهل دهرنا المبين، يقول: الذي يبين لمن تأمَّله وتدبره أنه فَضْلٌ أعطيناه على من سوانا من الناس.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي: في الملك والنُّبوة، وليس المراد وراثَةَ المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخصَّ سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، فإنه قد كان لداود مائةُ امرأة. ولكن المراد بذلك وراثةُ الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «**نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[(١)].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من المُلْك التامِّ، والتمكين العظيم، حتى إنه سَخَّر له الإنس والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضًا، وهذا شيء لم يُعطَه أحد من البشر -فيما علمناه -مما أخبر الله به ورسوله. وَمَنْ زعم من الجهلة والرّعاع أنّ الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود- كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قولٌ بلا علم. ولو كان الأمر كذلك

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧١١، ٣٧١٢)، ومسلم (١٧٥٩)، ولفظه: «**ما تركنا فهو صدقة**»، من حديث عائشة ڤ عن أبي بكر مرفوعًا، وعن عائشة أيضًا مرفوعًا عند البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٥٨)، ومسلم (١٧٦١).

لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم، ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خُلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله - سبحانه وتعالى - كان قد أفهم سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مما يحتاج إليه الملك، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البيِّن لله علينا.

❀ ❀ ❀

س: ما مدى صحة هذا الحديث:

قال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع**». قال: «**فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لِمَنْ في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود، فجاء داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: مَنْ أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب، فقال داود: أنت والله إذًا ملك الموت. مرحبًا بأمر الله، فتزمل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ مكانه حتى قُبِضَت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للطير: أظلي على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحًا جناحًا**» قال أبو هريرة: يا رسول الله، كيف فعلت الطير؟

فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذٍ المضرَحية[(١)].

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يُجمعون ويرتبون ويُرد أوَّلهم حتى لا يتقدم ويرفع آخرهم حتى لا يتأخر، أي: كي يكونون مجتمعين.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير في مسير لهم فهم يوزعون.

وأورد الطبري عدة أقوال: في معنى يوزعون.

منها: يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا (أي: يرد أولهم على آخرهم).

ومنها: يساقون.

ومنها: يتقدمون.

واختار الطبري قول من قال: معناه يرد أولهم على آخرهم.

قال: وذلك أن الوازع في كلام العرب هو الكافّ، يقال: وزع فلان فلانًا عن الظلم: إذا كفَّه عنه.

ثم قال: وإنما قيل للذين يدفعون الناس عن الولاة والأمراء: وزعة: لكفهم إياهم عنه.

---

(١) أحمد (٢/ ٤١٩)، وفي سنده ضعف للانقطاع بين المطلب وأبي هريرة فالمطلب بن عبد الله بن حنطب لم يسمع أبا هريرة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقولـه تعـالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حُرًّا أظلته منه بأجنحتها[1].

وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: يكفُّ أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أُولاها على أخراها؛ لئلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما مرَّ مع جنوده في هذا الحشد الهائل العظيم من الجن والإنس والطير، مرَّ على وادي النمل فقالت نملة محذرةً قومها وبني جنسها: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم حفاظًا على حياتكم فقد يدمرنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ حتى إذا أتى سليمان وجنوده على وادي النمل ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ يقول: لا يكسرنكم ويقتلنكم سليمان وجنوده ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(١) قلت: وهذا الترتيب الذي ذكره لا أعلم دليلًا عليه.

يقول: وهم لا يعلمون أنهم يحطمونكم.

❁ ❁ ❁

س: في قول النملة: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى أمرٍ مهمٍّ من أمور المعتقد وضحه.

ج: هذا الأمر حاصله أن سليمان عليه السلام ومن معه لا يعلمون الغيب، فمع أنه سخِّرت له الجن فإنه وكذا الجن الذين معه قد لا يشعرون بأن النمل سيهلك وأنهم سيحطمون النمل، فإذا كان الأمر كذلك فحريٌّ بهم ألا يعلموا الغيب. والله أعلم.

س: في قول النملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى رأفة سليمان عليه السلام وضح ذلك.

ج: إيضاحه أن سليمان عليه السلام لن يحطم النمل ومساكنهم عن عمدٍ وعن قصدٍ، إنما إن صُدِرَ ذلك منه فيكون عن عدم علم. ففيه إذن إشارة إلى رأفة سليمان عليه السلام بالحيوان.

قال القرطبي رحمه الله:

فقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ التفاتة مؤمن أي: من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا.

وقال رحمه الله:

وقولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ إشارة إلى الدين والعدل والرأفة ونظير قول النملة في جند سليمان: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قول الله تعالى في جند محمد ﷺ ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]. التفاتًا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. إلا أن المثني على جند سليمان هي النملة بإذن الله تعالى، والمثني على جند محمد

ﷺ هو الله ﷻ بنفسه لما لجنود محمد ﷺ من الفضل على جند غيره من الأنبياء كما لمحمد ﷺ فضل على جميع النبيين ﷺ أجمعين.

س: هل كان لهذه النملة وصفٌ معينٌ تمتاز به عن سائر أنواع النمل؟

ج: لا أعلم لها وصفًا تمتاز به عن غيرها إنما هي أقوالٌ لبعض المفسرين لا مستند لها. من كتاب أو سنةٍ صحيحة، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض الوارد في النهي عن قتل النمل.

ج: من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قَرَصَت نبيًّا من الأنبياء نملة، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تُسَبِّح؟! فهلا نملة واحدة!».

وفي الحديث الآخر: «نهى النبي ﷺ عن قتل النمل والنحل والهدهد والصُّرد»[(١)].

❁ ❁ ❁

س: في قول النملة: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ إشارة إلى حرص النملة على بني جنسها، فتفضل بذلك على كثير من بني آدم وضح ذلك.

ج: إيضاحه – والله أعلم – أن النملة حرصت على سلامة بني جنسها، في الوقت الذي يدمر البشر بعضهم بعضًا، ويبيد بعضهم بعضًا، ويترك بعضهم الآخر جائعًا، مع أنه أي الثري يملك ملايين الأطنان من القمح في البحار والمحيطات ويتركون إخوانهم يموتون جياعًا.

(١) مسلم (٢٢٤١)، وسنده صحيح، وقد أورده البعض في العلل بما لا يكاد يؤثر، انظر علل ابن أبي حاتم رقم (٢٣٧٤).

❁❁❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: أن سليمان عليه السلام لما أفهمه الله ﷻ لغة النملة وقولها: تَبَسَّم تَبَسُّم الشاكر لله ﷻ الحامد له؛ إذ أعلمه قولها تَبَسَّم تَبَسُّم المسرور لحرصها على جنسها وتذكر نعمة الله عليه فطلب من الله ﷻ أن يعينه على شكر هذه النعم بقوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ألهمني يا رب شكر نعمتك التي أنعمت بها عليَّ وكذا نعمك التي أنعمت بها على والديَّ وألهمني أن أعمل عملًا صالحًا ترضاه وتتقبله وأدخلني برحمتك في عداد عبادك الصالحين وفي مدخل عبادك الصالحين، وهم الأنبياء والمرسلون والمؤمنون، ألا وهو جنات النعيم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فتبسم سليمان ضاحكًا من قول النملة التي قالت ما قالت، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يعني بقوله: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾: ألهمني.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قول الله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ قال: في كلام العرب، تقول: أوزع فلان بفلان، يقول: حرض عليه. وقال ابن زيد: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ألهمني وحرّضني على أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ.

قال الطبري: وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ يقول: وأوزعني أن أعمل

بطاعتك وما ترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقول: وأدخلني برحمتك مع عبادك الصالحين، الذين اخترتهم لرسالتك وانتخبتهم لوحيك، يقول: أدخلني من الجنة مداخلهم.

وأورد الطبري بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال: مع عبادك الصالحين الأنبياء والمؤمنين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها عليَّ، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أي: عملًا تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

❀ ❀ ❀

س: هل من فائدة للتقييد بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾ عقب قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ﴾؟

ج: أجاب على ذلك بعض العلماء بما حاصله أن التبسم قد يكون عن سعادةٍ وسرور، وقد يكون عن غضب، وقد يكون عن تعجب، وقد يكون عن سخرية، وقد صح عن النبي ﷺ في قصة كعب بن مالك، والثلاثة الذين خُلِّفوا، قال كعب: فتبسم النبي ﷺ تبسم المغضب(١)...

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها ولذلك أكد التبسم بقوله: ﴿ضَاحِكًا﴾؛ إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضًا، ألا تراهم يقولون تَبَسَّم تَبَسُّم الغضبان وتَبَسَّم تَبَسُّم المستهزئين وتبسم الضحك إنما هو عن سرور ولا يُسرُّ نبي بأمر دنيا وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين.

❁ ❁ ❁

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

(وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾
فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ
﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ
ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾)

[النمل: ٢٠-٢٨].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ - بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ - فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ - أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ - سَبَإِۭ - بِنَبَإٖ - يَقِينٍ - تَمۡلِكُهُمۡ - عَرۡشٌ عَظِيمٞ - وَزَيَّنَ لَهُمُ - فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ - فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ - أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ - ٱلۡخَبۡءَ - رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ - سَنَنظُرُ - بِّكِتَٰبِي - ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ - مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾	بحث عنهم – فتش في أمرهم – تفقد أحوالهم ومن الموجود ومن المتخلف الغائب
﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾	بحجة بينة – بعذر واضح جليّ
﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾	انتظر زمانًا ليس بالطويل
﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾	علمت أشياء لا تعلمها – أحطت علمًا بأمور لا تعلمها
﴿سَبَإِۭ﴾	بلاد سبأ باليمن (عند مأرب)
﴿بِنَبَإٖ﴾	بخبر مؤكد
﴿يَقِينٍ﴾	يقيني
﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾	يعني: أنها ملكة عليهم
﴿عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾	سرير ملك عظيم
﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ﴾	حسَّن لهم
﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾	فصدهم عن طريق الحق

(٥٠٦) أحمر أسود

﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾	لا يعرفون طريق الحق والصواب ولا يوقنون له
﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾	ألا يا هؤلاء اسجدوا – وقيل: إنه استفسار والله أعلم
﴿ٱلۡخَبۡءَ﴾	الشيء المخفي المكنون كوقت نزول الغيث وكذا الغائب المكنون في الأرض
﴿تُخۡفُونَ﴾	تسرون
﴿تُعۡلِنُونَ﴾	تظهرون
﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾	صاحب العرش العظيم
﴿سَنَنظُرُ﴾	سنبحث
﴿بِّكِتَٰبِي﴾	برسالتي
﴿فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾	فألقى عليهم
﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾	ثم تنح عنهم جانبًا – يعني: حتى يقرأ الرسالة – ابتعد عنهم
﴿مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾	بماذا يردون؟

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم – أن نبي الله سليمان عليه السلام تفقد الطير، نظر في أمرها وهل هي متواجدة أم لا؟ فقال: ما لي لا أرى الهدهد، أهو موجود ولكن بصري غفل عنه أم أنه غير موجود؟ ثم تهدده سليمان عليه السلام وتوعده

بقوله: لأعذبنه عذابًا شديدًا، قال فريق من العلماء: وذلك بنتف ريشه أو لأذبحنه أو ليأتيني بحجة بيِّنة تبين سبب تغيبه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ يعني بقوله: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ أخطأه بصري فلا أراه وقد حضر أم هو غائب فيما غاب من سائر أجناس الخلق فلم يحضر؟

وقوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: فلما أخبر سليمان عن الهدهد أنه لم يحضر، وأنه غائب غير شاهد، أقسم ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وكان تعذيبه الطير فيما ذُكر عنه إذا عذبها أن ينتف ريشها.

وقوله: ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ يقول: أو ليأتيني بحجة تبين لسامعها صحتها وحقيقتها.

وأورد آثارًا متعددة عن ابن عباس وغيره في قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ وذلك بنتف ريشه، أما السلطان المبين أي: بحجةٍ له فيها عذرٌ بيِّن.

❁ ❁ ❁

س: لماذا بحث سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الهدهد خاصة؟

ج: أورد الطبري هذا السؤال وأجاب عليه بقوله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَتَفَقَّدَ﴾ سليمان ﴿ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾.

وكان سبب تفقده الطير وسؤاله عن الهدهد خاصة من بين الطير، ما:

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران عن أبي مجلز، قال: جلس ابن عباس إلى عبد الله بن سلام، فسأله عن الهدهد: لم تفقَّده سليمان من بين الطير؟ فقال عبد الله بن سلام: إن سليمان

نزل منزلة في مسير له، فلم يدر ما بُعْد الماء، فقال: من يعلم بُعْد الماء؟ قالوا: الهدهد، فذاك حين تفقده.

قلت: وإسناده صحيح إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وأورد الطبري له شاهدًا آخر:

عن ابن عباس، قال: كان سليمان بن داود يوضع له ستّ مائة كرسي، ثم يجيء أشراف الإنس فيجلسون مما يليه، ثم تجيء أشراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس قال: ثم يدعو الطير فتظلهم، ثم يدعو الريح فتحملهم، قال: فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر، قال: فبينا هو في مسيره؛ إذ احتاج إلى الماء وهو في فلاة من الأرض، قال: فدعا الهدهد، فجاءه فنقر الأرض، فيصيب موضع الماء، قال: ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب، قال: ثم يستخرجون الماء. فقال له نافع بن الأزرق: قف يا وقاف، أرأيت قولك الهدهد يجيء فينقر الأرض، فيصيب الماء، كيف يبصر هذا، ولا يبصر الفخّ يجيء حتى يقع في عنقه؟ قال: فقال له ابن عباس: ويحك إن القدر إذا جاء حال دون البصر.

وسنده صحيح إلى ابن عباس أيضًا.

وأورد الطبري وجهًا آخر عن وهب بن منبه فقال: وقال وهب بن منبه: كان تفقده إياه وسؤاله عنه لإخلاله بالنوبة التي كان ينوبها، والله أعلم بأي ذلك كان؛ إذ لم يأتنا بأيّ ذلك كان تنزيل، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح.

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن سليمان أنه تفقد الطير؛ إما للنوبة التي كانت عليها وأخلت بها، وإما لحاجة كانت إليها عن بُعد الماء.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (تيسير الكريم الرحمن):

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه وحسن تنظيمه لجنوده وتدبيره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر وهو تفقد الطيور والنظر: هل هي موجودة كلها أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية.

وقال السعدي منتقدًا قول من قال: إن سليمان عليه السلام طلب الهدهد ليدله على مكان الماء.

ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل بل الدليل العقلي واللفظي دالٌّ على بطلانه، أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات أن هذه الحيوانات كلها ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك لذكره الله لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء فلما فقده قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو: «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضًا فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف -مع ذلك- يحتاج إلى الهدهد؟!!

وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة

وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل وينقلها المتأخر مسلمًا للمتقدم حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع، واللبيب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين الذي خاطب الله به الخلق كلهم عالمهم وجاهلهم وأمرهم بالتفكر في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالًا منقولة عن غير رسول الله ﷺ ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقته قبلها لكون اللفظ دالًّا عليها، وإن خالفته لفظًا ومعنًى أو لفظًا أو معنًى ردها وجزم ببطلانها؛ لأن عنده أصلًا معلومًا مناقضًا لها وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

وقال السعدي أيضًا:

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه وكمال فطنته حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه لقلة فطنتي به لكونه خفيًّا بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها بأن كان غائبًا من غير إذني ولا أمري؟

فحينئذٍ تغيَّظ عليه وتوعده فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل.

❁ ❁ ❁

س: في قوله: ﴿فَمَكَثَ﴾ قراءتان وضحهما.

ج: الأولى: فمكُث بضم الكاف.

والثانية: فمكَث بفتح الكاف.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم– أن الهدهد أقام زمنًا قصيرًا ليس طويلًا فجاء قائلًا لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: أحطت بعلم لا تعلمه وجئتك من سبإ بخبر يقين، خبر مؤكد.

وقال بعض العلماء: إن قوله: ﴿ فَمَكَثَ ﴾ عائد على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، والمعنى قريب، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ فمكث سليمان غير طويل من حين سأل عن الهدهد، حتى جاء الهدهد.

وقوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يقول: فقال الهدهد حين سأله سليمان عن تخلفه وغَيبته: أحطت بعلم ما لم تحط به أنت يا سليمان.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ يقول: وجئتك من سبإ بخبر يقين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى: ﴿ فَمَكَثَ ﴾ الهدهد ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي: غاب زمانًا يسيرًا، ثم جاء فقال لسليمان: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي: اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك، ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ أي: بخبر صدق حق يقين. وسبأ: هم: حِمْير، وهم ملوك اليمن.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

والضمير في (مكث) يحتمل أن يكون لسليمان والمعنى: بقي سليمان بعد التفقد والوعيد غير طويل أي غير وقت طويل ويحتمل أن يكون للهدهد وهو

الأكثر فجاء: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ وهي:

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ج: معناه – والله تعالى أعلم – أن الهدهد قال لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مبيِّنًا عذره في التأخر والتخلف: إني وجدت امرأةً تملك قوم سبإ هي الملكة عليهم وآتاها الله عَجَّلَ من كل شيء يحتاج إليه الملوك ويحتاج إليه الناس في دنياهم، ولها سرير ملكٍ تجلس عليه عظيم الشأن، وقد وجدتها – مع هذا النعيم الذي هي فيه – هي وقومها يعبدون غير الله، إنهم يسجدون للشمس من دون الله، وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم وزيَّنها في نفوسهم وقلوبهم فصرفهم بهذا التزيين عن طريق الله ومرضاته فهم لا يهتدون إلى طريق الحق ولا إلى طريق الثواب.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن قيل الهدهد لسليمان مخبرًا بعذره في مغيبه عنه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ يعني: تملك سبأ، وإنما صار هذا الخبر للهدهد عذرًا وحجة عند سليمان، درأ به عنه ما كان أُوعد به؛ لأن سليمان كان لا يرى أن في الأرض أحدًا له مملكة معه، وكان مع ذلك ﷺ رجلًا حُبِّب إليه الجهاد والغزو، فلما دلَّه الهدهد على مُلْك بموضع من الأرض هو لغيره، وقوم كفرة يعبدون غير الله، له في جهادهم وغزوهم الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآجل، وضمّ مملكة لغيره إلى ملكه، حقَّت للهدهد المعذرة، وصحّت له

الحجة في مغيبه عن سليمان.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يقول: وأوتيت من كلّ شيء يؤتاه الملك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة.

وقوله: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾ يقول: ولها كرسي عظيم. وعني بالعظيم في هذا الموضع: العظيم في قدره، وعظم خطره، لا عظمه في الكبر والسعة.

وقوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول: وجدت هذه المرأة ملكة سبأ، وقومها من سبإٍ، يسجدون للشمس فيعبدونها من دون الله. وقوله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ يقول: وحسَّن لهم إبليس عبادتهم الشمس، وسجودهم لها من دون الله، وحبَّب ذلك إليهم ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يقول: فمنعهم بتزيينه ذلك لهم أن يتبعوا الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي بعث به أنبياءه، ومعناه: فصدّهم عن سبيل الحقّ ﴿فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ يقول: فهم لما قد زيَّن لهم الشيطان ما زين من السجود للشمس من دون الله والكفر به لا يهتدون لسبيل الحقّ ولا يسلكونه، ولكنهم في ضلالهم الذي هم فيه يتردّدون.

وأورد الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوالًا غريبةً لا أرتضيها، وليس عليها مستند كقول قتادة كانت أمُّها جنية إلى آخر ما قال فأضربت عنه عمدًا، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الحسن البصري: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ وهي بلقيس بنت شَرَاحيل ملكة سبأ.

قلت (مصطفى): وكذا قال غير واحدٍ من أهل العلم أن اسمها بلقيس، ولم أقف على خبرٍ عن رسول الله ﷺ يؤيد ذلك ولا ينفيه. وهذا، وقد قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي: من متاع الدنيا ما يحتاج إليه الملك

المتمكن، ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ.

قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحًا ومساءً؛ ولهذا قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي: عن طريق الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ لما قال الهدهد: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ قال سليمان: وما ذلك الخبر؟ قال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ يعني: بلقيس بنت شراحيل تملك أهل سبأ ويقال: كيف خفي على سليمان مكانها وكانت المسافة بين محطِّه وبين بلدها قريبة وهي من مسيرة ثلاث بين صنعاء ومأرب؟ والجواب أن الله تعالى أخفى ذلك عنه لمصلحة كما أخفى على يعقوب مكان يوسف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مبالغة أي: مما تحتاجه المملكة. وقيل: المعنى أوتيت من كل شيء في زمانها شيئًا فحذف المفعول لأن الكلام دل عليه ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: سرير، ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان قيل: كان من ذهب تجلس عليه، وقيل: العرش هنا الملك والأول أصح؛ لقوله تعالى: ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨] الزمخشري: فإن قلت

كيف سوَّى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم ؟ قلت: بين الوصفين بَوْنٌ عظيم لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض.

❊ ❊ ❊

س: هل ثبت شيء عن رسول الله ﷺ يُفيد أن ملكة سبأ كانت أمها من الجن؟

ج: لم أقف على أي شيء ثابت عن رسول الله ﷺ يفيد ذلك. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

س: هل ثبت أن النبي ﷺ قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»؟ وما مناسبة ذلك؟ يُرجى إلقاء بعض الضوء على معناه؟

ج: نعم ثبت ذلك في البخاري، وكذا مناسبته ففي البخاري من حديث أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: لَقَدْ نَفَعَنِي اللهُ بِكَلِمَةٍ سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَيَّامَ الْجَمَلِ بَعْدَ مَا كِدْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِأَصْحَابِ الْجَمَلِ فَأُقَاتِلَ مَعَهُمْ؟ قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى قَالَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[(١)].

❊ ❊ ❊

المرأة والعمل بالقضاء

س: هل يجوز أن تعمل المرأة قاضية؟

---

(١) البخاري (٤٤٢٥).

ج: أما كونها تقضي بين الرجال كعمل دائم لها فهذا مما لا أعلم له مستندًا عن رسول الله ﷺ، ثم إن الصحابة والتابعين لم يظهر فيهم ذلك، ولا أتباع التابعين، والله أعلم.

ثم إن النساء ناقصات عقلٍ ودينٍ كما قال النبي محمد ﷺ.

ثم إن الفتنة من وراء عملها متأتية من دخول الرجال عليها وكلامهم المستمر معها إلى غير ذلك من الفتنة.

فضلًا عن كونه يُمكن الاستئناس بقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[(١)]. وعمل الصحابة، فمن بعدهم بمقتضاه، وعدم اتخاذهم قاضية من النساء ما يدل على المنع، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

روى البخاري من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا بنت كسرى قال: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»[(٢)] قال القاضي أبو بكر بن العربي: هذا نصٌّ في أن المرأة لا تكون خليفة ولا خلاف فيه ونقل عن محمد بن جرير الطبري أنه يجوز أن تكون المرأة قاضية ولم يصح ذلك عنه ولعله نقل عنه كما نقل عن أبي حنيفة أنها إنما تقضي فيما تشهد فيه وليس بأن تكون قاضية على الإطلاق ولا بأن يُكتب لها مسطور بأن فلانة مقدمة على الحكم وإنما سبيل ذلك التحكيم والاستبابة في القضية الواحدة وهذا هو الظن بأبي حنيفة و ابن جرير وقد روي عن عمر أنه قدم امرأة على حسبة السوق ولم يصح فلا تلتفتوا إليه فإنما هو من دسائس المبتدعة في الأحاديث

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم من حديث أبي بكرة عند البخاري.

وقد تناظر في هذه المسألة القاضي أبو بكر ابن الطيب المالكي الأشعري مع أبي الفرج ابن طرار شيخ الشافعية، فقال أبو الفرج: الدليل على أن المرأة يجوز أن تحكم أن الغرض من الأحكام تنفيذ القاضي لها وسماع البينة عليها والفصل بين الخصوم فيها وذلك ممكن من المرأة كإمكانه من الرجل فاعترض عليه القاضي أبو بكر ونقض كلامه بالإمامة الكبرى فإن الغرض منه حفظ الثغور وتدبير الأمور وحماية البيضة وقبض الخراج ورده على مستحقه وذلك لا يتأتى من المرأة كتأتيه من الرجل. قال ابن العربي: وليس كلام الشيخين في هذه المسألة بشيء فإن المرأة لا يتأتى منها أن تبرز إلى المجلس ولا تخالط الرجال ولا تفوضهم مفاوضة النظير للنظير لأنها إن كانت فتاة حَرُمَ النظر إليها وكلامها وإن كانت برزة لم يجمعها والرجال مجلس واحد تزدحم فيه معهم وتكون مناظرة لهم ولن يفلح قطُّ من تصور هذا ولا من اعتقده.

س: في قوله تعالى: ﴿أَلَّا﴾ قراءتان وضحهما مع بيان معنييهما.

ج: القراءة الأولى: أَلَا بالتخفيف والمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا لله.

والقراءة الثانية: ألَّا بالتشديد، والمعنى متعلق بما قبله، ألا وهو وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله أي وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم كي لا يسجدوا لله. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

اختلف القرّاء في قراءة قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ فقرأ بعض المكيين وبعض المدنيين والكوفيين «ألا» بالتخفيف، بمعنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا، فأضمروا «هؤلاء» اكتفاء بدلالة «يا» عليها. وذكر بعضهم سماعًا من العرب: ألا يا ارحمنا، ألا يا تصدّق علينا؛ واستشهد أيضا ببيت الأخطل:

أَلا يـا اسْـلَمي يـا هِنْـدَ هنْـدَ بَنِـي بَـدرٍ   وَإِنْ كــان حَيَّانــا عِــدًا آخِــرَ الــدَّهْر

فعلى هذه القراءة اسجدوا في هذا الموضع جزم، ولا موضع لقوله: «ألا» في الإعراب. وقرأ ذلك عامة قرّاء المدينة والكوفة والبصرة ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بتشديد ألا بمعنى: وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم لئلا يسجدوا لله ﴿أَلَّا﴾ في موضع نصب لما ذكرت من معناه أنه لئلا (ويسجدوا) في موضع نصب بأن.

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قرأة الأمصار قد قرأ بكلّ واحدة منهما علماء من القراء مع صحة معنييهما.

❀ ❀ ❀

س: هل عند قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ...﴾ الآية سجدة؟

ج: نعم عندها سجدةٌ عند جماهير أهل العلم، بل نُقل الإجماع على ذلك، وممن نقل الإجماع الطحاوي في شرح معاني الآثار[1]، ولكن اختلفوا في موضع السجود هل عند قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أما عقب قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ على قولين قويين لأهل العلم في ذلك. والأمر في ذلك واسع ولله الحمد.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم – أن الهدهد تعجب من سجود القوم لغير الله – سبحانه وتعالى – تعجب من سجودهم للشمس فقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ﴾

---

(١) شرح معاني الآثار (١/ ٣٥٩).

الشيء المخبوء في السموات، ومنه الغيث (الماء) والمخبوء من الأرض وهو النبات، والماء أيضًا، وكل مخبوءٍ، ويعلم ما أسررنا به من النوايا والأقوال والأعمال، وما أظهرناه من ذلك، إنه الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني بقوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ يخرج المخبوء في السموات والأرض من غيث في السماء، ونبات في الأرض ونحو ذلك.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ قال: خبء السماء والأرض ما جعل الله فيها من الأرزاق، والمطر من السماء، والنبات من الأرض، كانتا رتقا لا تمطر هذه، ولا تنبت هذه، ففتق السماء، وأنزل منها المطر، وأخرج النبات.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: يخرج الخبء في السموات والأرض؛ لأن العرب تضع «من» مكان «في» و«في» مكان «من» في الاستخراج ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ يقول: ويعلم السرّ من أمور خلقه، هؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم والعلانية منها، وذلك على قراءة من قرأ ﴿أَلَّا﴾ بالتشديد. وأما على قراءة من قرأ بالتخفيف فإن معناه: ويعلم ما يسره خلقه الذين أمرهم بالسجود بقوله: «ألا يا هؤلاء اسجدوا». وقد ذكر أن ذلك في قراءة أُبيّ: (**ألا تَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وما تُعْلِنُون**).

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول تعالى ذكره: الله الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إله إلا هو، لا معبود سواه تصلح له العبادة، فأخلصوا له العبادة،

وأفردوه بالطاعة، ولا تشركوا به شيئًا ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يعني بذلك: مالك العرش العظيم، الذي كل عرش وإن عظم، فدونه لا يُشبهه عرش ملكة سبأ ولا غيره.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد؛ في قوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هذا كله كلام الهدهد.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقرأ بعض القراء: «ألا يا اسجدوا لله» جعلها «ألا» الاستفتاحية، و«يا» للنداء، وحذف المنادى، تقديره عنده: «ألا يا قوم، اسجدوا لله».

وقوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعلم كل خبيئة في السماء والأرض.

وقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: هو المدعو الله، وهو الذي لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم، الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نُهِي عن قتله، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصُّرَد. وإسناده صحيح[(١)].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم - أن سليمان عليه السلام قال للهدهد لما أخبره عن سبب تغيّبه: قال: سننظر في خبرك واعتذارك هل أنت صادق فيما نقلت من أخبارٍ معتذرًا بها أم لا، وللتأكد من ذلك اذهب برسالتي هذه فألقها عليها ثم تنحَّى جانبًا - وهذا من أدب الرسول الذي يرسله شخص يتنحى عن المرسل إليه حتى ينظر في أمره بدقة، ثم يعيد الجواب - فانظر ما الردُّ الذي سيردون به، وقيل: إن في الجزء الأخير من الآية تقديمًا وتأخيرًا، والمعنى: فألقه إليهم فانظر ما ردهم، ثم تولَّ عنهم راجعًا إلينا.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ سليمان للهدهد: ﴿سَنَنظُرُ﴾ فيما اعتذرت به من العذر، واحتججت به من الحُجَّة لغيبتك عنا، وفيما جئتنا به من الخبر ﴿أَصَدَقْتَ﴾ في ذلك كله ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فيه ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

(١) سنن أبي داود (٥٢٦٧)، وأحمد (١/ ٣٣٢)، وابن ماجه (٣٢٢٣، ٣٢٢٤).

فاختلف أهل التأويل في تأويل ذلك؛ فقال بعضهم: معناه: اذهب بكتابي هذا، فألقه إليهم، فانظر ماذا يَرْجِعونَ، ثم تول عنهم منصرفًا إليّ، فقال: هو من المؤخَّر الذي معناه التقديم.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: فأجابه سليمان، يعني: أجاب الهدهد لما فرغ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ وانظر ماذا يرجعون، ثم تولَّ عنهم منصرفًا إليَّ. وقال: وكانت لها كوّة مستقبلة الشمس، ساعة تطلع الشمس تطلع فيها فتسجد لها، فجاء الهدهد حتى وقع فيها فسدَّها، واستبطأت الشمس، فقامت تنظر، فرمى بالصحيفة إليها من تحت جناحه، وطار حتى قامت تنظر الشمس.

قال الطبري: فهذا القول من قول ابن زيد يدلّ على أن الهدهد تولى إلى سليمان راجعًا بعد إلقائه الكتاب، وأن نظره إلى المرأة ما الذي ترجع وتفعل كان قبل إلقائه كتاب سليمان إليها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تولّ عنهم، فكن قريبًا منهم، وانظر ماذا يرجعون؛ قالوا: وفعل الهدهد، وسمع مراجعة المرأة أهل مملكتها، وقولها لهم: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن قيل سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للهدهد حين أخبره عن أهل سبإ وملكتهم: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾: وذلك أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كتب كتابًا إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحمله، قيل: في جناحه كما هو عادة الطير، وقيل: بمنقاره. وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها، فألقاه إليها من كُوّة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدبًا ورياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه وإنما صار صدق الهدهد عذرًا؛ لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد وكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ حُبِّب إليه الجهاد وفي الصحيح: «**ليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل**» وقد قبل عمر عذر النعمان بن عدي ولم يعاقبه ولكن للإمام أن يمتحن ذلك إذا تعلق به حكم من أحكام الشريعة كما فعل سليمان فإنه لما قال الهدهد: ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ لم يستفزه الطمع ولا استجره حبُّ الزيادة في الملك إلى أن يعرض له حتى قال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فغاظه حينئذٍ ما سمع وطلب الانتهاء إلى ما أخبر وتحصيل علم ما غاب عنه من ذلك فقال: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ ونحو منه ما رواه الصحيح عن المسور بن مخرمة حين استشار عمر الناس في إملاص المرأة وهي التي يضرب بطنها فتلقي جنينها فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبي ﷺ قضى فيه بغرة عبد أو أمةً قال: فقال عمر: ايتني بمن يشهد معك قال:

فشهد له محمد بن مسلمة وفي رواية فقال: لا تبرح حتى تأتي بالمخرج من ذلك فخرجت فوجدت محمد بن سلمة فجئت به فشهد ونحوه حديث أبي موسى في الاستئذان وغيره.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار كما تقدم في (آل عمران).

وقال: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أمره بالتولي حسن أدب ليتنحى حسب ما يتأدب به مع الملوك بمعنى: وكن قريبًا حتى ترى مراجعتهم قاله وهب بن منبه. وقال ابن زيد: أمره بالتولي بمعنى الرجوع إليه. أي: ألقه وارجع. قال: وقوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ واتساق رتبة الكلام أظهر أي: ألقه ثم تولَّ وفي خلال ذلك فانظر أي: انتظر وقيل: فاعلم كقوله: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] أي: اعلم ماذا يرجعون؟ أي: يجيبون، وماذا يردون من القول؟ وقيل: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يتراجعون بينهم من الكلام.

❁ ❁ ❁

(٥٢٥) أحمر أسود

قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا
كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ
أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ
ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ
أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً
وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ
عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى
عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ
هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾
فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا
مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النمل: ٢٩-٤٤].

(٥٢٦) أحمر أسود

س: وضح معنى ما يلي:

﴿ٱلْمَلَؤُا - أُلْقِىَ إِلَيَّ - كِتَٰبٌ كَرِيمٌ - أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ - مُسْلِمِينَ - أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى - قَاطِعَةً أَمْرًا - تَشْهَدُونِ - أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ - وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ - مَاذَا تَأْمُرِينَ - أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ - أَذِلَّةً - فَنَاظِرَةٌۢ - أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ - لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا - صَٰغِرُونَ - بِعَرْشِهَا - عِفْرِيتٌ - ءَاتِيكَ بِهِۦ - طَرْفُكَ - مُسْتَقِرًّا - نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا - أَتَهْتَدِىٓ - وَصَدَّهَا - ٱلصَّرْحَ - لُجَّةً - مُّمَرَّدٌ - قَوَارِيرَ - وَأَسْلَمْتُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱلْمَلَؤُا﴾	أشراف القوم – علية القوم ووجهاؤهم
﴿أُلْقِىَ إِلَيَّ﴾	ألقى الهُدهد عليَّ
﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾	رسالة كريمة مختومة بختم الملوك فيها بسم الله الرحمن الرحيم
﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ﴾	ألا تتكبروا على أمري – لا تعالوا عليَّ ولا تمتنعوا من امتثال ما أمرتكم به
﴿مُسْلِمِينَ﴾	مستسلمين خاضعين
﴿أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾	أشيروا عليَّ فيما أسألكم عنه
﴿قَاطِعَةً أَمْرًا﴾	مُبرمةً أمرًا – متخذة قرارًا – مُصدرة أمرًا
﴿تَشْهَدُونِ﴾	تحضروني وتُقروني
﴿أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾	أقوياء
﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾	عند جلادة وقوة في الحرب شديدة نُنَكّل بأعدائنا

﴿مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾	ما الذي تشيرين به؟
﴿أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ﴾	الوجهاء والأثرياء فيها
﴿أَذِلَّةٗ﴾	جمع ذليل – ذليلين
﴿فَنَاظِرَةُۢ﴾	منتظرة
﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾	أتعطونني مالًا – أتزيدونني مالًا
﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾	لا طاقة لهم بها – لم يعهدوا مثلها من قبل ولم يروا مثلها من قبل
﴿صَٰغِرُونَ﴾	أذلاء
﴿بِعَرۡشِهَا﴾	بسرير ملكها
﴿عِفۡرِيتٞ﴾	ماردٌ – رئيس – كبير من كبرائهم
﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾	أُحضره لك
﴿طَرۡفُكَ﴾	بصرك
﴿مُسۡتَقِرًّا﴾	ثابتًا أمامه قد جيء به
﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾	غيروا لها بعض ملامح سرير ملكها (زيدوا فيه وانقصوا منه)
﴿أَتَهۡتَدِيٓ﴾	أتفهم وجه الصواب أم لا – أتعرف عرشها وتهتدي إليه أم لا؟
﴿وَصَدَّهَا﴾	منعها (من الإيمان)

﴿ٱلصَّرۡحَ﴾	المكان المتسع الذي أمام القصر أو أمام المبنى عمومًا
﴿لُجَّةٗ﴾	موج عاتي من موج البحر – موجٌ شديدٌ – بحرٌ عميق
﴿مُّمَرَّدٞ﴾	مُملس
﴿قَوَارِيرَ﴾	زجاج
﴿وَأَسۡلَمۡتُ﴾	دخلت في دين الإسلام مستسلمةً لأمر الله ﷻ

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ٢٩ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾.

ج: المعنى - والله أعلم - أن الهدهد لما ألقى الرسالة على ملكة سبأ تناولتها واطلعت على ما فيها فقالت لأشراف قومها يا أيها الملأ! إني أُلقي إليَّ كتاب كريم، مكتوب فيه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تتكبروا عليَّ وأتوني مستسلمين طائعين خاضعين لله مُقرِّين له بالوحدانية وأنه لا شريك له.

وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فذهب الهدهد بكتاب سليمان إليها، فألقاه إليها فلما قرأته قالت لقومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾.

وقال:

وقوله: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ والملأ أشراف قومها، يقول تعالى

ذكره: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

واختلف أهل العلم في سبب وصفها الكتاب بالكريم، فقال بعضهم: وصفته بذلك لأنه كان مختومًا.

وقال آخرون: وصفته بذلك لأنه كان من ملك فوصفته بالكرم لكرم صاحبه. وممن قال ذلك ابن زيد.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ قال: هو كتاب سليمان حيث كتب إليها.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كُسِرت إنَّ الأولى والثانية على الردّ على «إني» من قوله: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾. ومعنى الكلام: قالت: يا أيها الملأ إني ألقي إلي كتاب، وإنه من سليمان.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ يقول: ألقي إليّ كتاب كريم ألا تعلوا عليّ.

ففي «أنْ» وجهان من العربية: إن جعلت بدلًا من الكتاب كانت رفعًا بما رفع به الكتاب بدلًا منه؛ وإن جعل معنى الكلام: إني ألقي إليّ كتاب كريم ألا تعلوا عليَّ كانت نصبًا بتعلق الكتاب بها.

وعني بقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ ألا تتكبروا ولا تتعاظموا عما دعوتكم إليه.

وأورد الطبري بسندٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ ألا تمتنعوا من الذي دعوتكم إليه إن امتنعتم جاهدتكم، فقلت لابن زيد: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ ألا تتكبروا عليَّ؟ قال: نعم؛ قال: وقال ابن زيد: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ذلك في كتاب سليمان إليها.

قال الطبري: وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يقول: وأقبلوا إليّ مذعنين لله بالوحدانية والطاعة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقرأته، فإذا فيه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ تعني بكرمه: ما رأته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فألقاه إليها، ثم تولى عنها أدبًا. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قِبَل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة، فإنه حَصّل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قبل سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

❀ ❀ ❀

س: في رسالة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى ملكة سبإٍ ما يفيد تواضع الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وضِّح ذلك.

ج: إيضاحه أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في رسالة قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ لم يقل من النبي الملك الذي سُخِّرت له الريح والجن والإنس والطير إلى غير ذلك، ولكن بكل تواضع ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ونحوه قول الرسول ﷺ: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ

اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»(١) ونحوه قول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ [يوسف: ٩٠].

❁ ❁ ❁

س: لماذا وُصف هذا الكتاب بأنه كريم؟

ج: قيل: لأنه كان مختومًا.

وقيل: لأنه كان من ملك.

وقيل: لأنها قرأت فيه ما لم تقرأه في غيره ولمست فيه من التواضع والإخلاص لله ما لم تلمسه من غيره وما لم تقرأه في غيره.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقيل: توهمت أنه كتاب جاء من السماء إذا كان الموصل طيرًا. وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ حسن كقوله: ﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ [الشعراء: ٥٨] أي: مجلس حسن، وقيل: وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة في الدعاء إلى عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سبًّا ولا لعنًا ولا ما يغير النفس ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل في الدعاء إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ألا ترى إلى قول الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه ﷺ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وقوله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وكلها وجوه حسان وهذا أحسنها وقد روي أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم أحد قبل سليمان.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) البخاري (حديث رقم ٧).

الوصف بالكريم في الكتاب غاية الوصف ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] وأهل الزمان يصفون الكتاب بالخطير وبالأثير وبالمبرور فإن كان لملك قالوا: العزيز وأسقطوا الكريم غفلة وهو أفضلها خصلة فأما الوصف بالعزيز فقد وصف به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١ – ٤٢] فهذه عزته وليست لأحد إلا له فاجتنبوها في كتبكم واجعلوا بدلها العالي توفية لحق الولاية وحياطة للديانة قاله القاضي أبو بكر ابن العربي.

❁ ❁ ❁

س: اذكر بعض ما يدل على مشروعية كتابة بسم الله الرحمن الرحيم في صدور الرسائل.

ج: من ذلك قول سليمان عليه السلام في رسالته: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وقول رسول الله ﷺ: «**بسم الله الرحمن الرحيم مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»[1]. وكذا في اتفاقية رسول الله ﷺ مع سهيل بن عمرو ففيها أن النبي ﷺ قال لعلي: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم..**»[2].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – أن ملكة سبأ قالت لأشراف قومها ووجهاءهم مستشيرةً لهم ومستخبرة أمرهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾، أشيروا عليَّ في

(١) البخاري (مع الفتح ١١/ ٤٧)، ومسلم (١٢/ ١٠٣).
(٢) مسلم (١٢/ ١٣٨) مع النووي، والبخاري (٢٧٣١)، و(٢٧٣٢).

الأمر الذي قد حلَّ بي ووقع بي فإني ما كنت قاضية أمرًا، مُبرمة أمرًا كهذا الذي سأبرمه حتى تحضروا عندي وتشيروا عليَّ، فأجابوها بقولهم: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ أي: أقوياء وذوو شدة في الحروب، والأمر إليك، أمر القتال من عدمه موكول إليك وأنت مفوضةٌ فيه، فأمرينا فيه بما تريدي.

وبنحو هذا قال العلماء

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت ملكة سبأ لأشراف قومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ تقول: أشيروا عليّ في أمري الذي قد حضرني من أمر صاحب هذا الكتاب الذي ألقي إليّ، فجعلت المشورة فتيا.

وقوله: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ تقول: ما كنت قاضية أمرًا في ذلك حتى تشهدون، فأشاوركم فيه.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد: دعت قومها تشاورهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ يقول في الكلام: ما كنت لأقطع أمرًا دونك ولا كنت لأقضي أمرًا، فلذلك قالت: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ بمعنى: قاضية.

وقوله: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ يقول تعالى ذكره: قال الملأ من قوم ملكة سبأ؛ إذ شاورتهم في أمرها وأمر سليمان: نحن ذوو القوّة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فَمُرينا نأتمر لأمرك.

وأورد بإسنادٍ حسن عن ابن زيد: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ عرضوا لها القتال، يقاتلون لها، ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ بعد هذا، ﴿فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ أي: حتى تحضرون وتشيرون.

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: مَنُّوا إليها بعَدَدهم وعُدَدهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مري فينا برأيك نمتثله ونطيعه.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فوضوا أمرهم إلى عِلْجة تضطرب ثدياها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأيًا منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سُخّر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهَدَت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرًا عجيبًا بديعًا، فقالت لهم: إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه، ويخلص إليّ وإليكم الهلاك والدمار دون غيرنا؛ ولهذا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ الملأ أشراف القوم وقد مضى في سورة (البقرة) القول فيه قال ابن عباس: كان معها ألف قَيْل، وقيل: اثنا عشر ألف قَيْل مع كل قَيْل مائة ألف. والقيل الملك دون الملك الأعظم فأخذت في حسن الأدب مع قومها ومشاورتهم في أمرها وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر يعرض بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ فكيف في هذه النازلة الكبرى فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثم سلموا الأمر إلى نظرها وهذه محاورة حسنة من الجميع. قال

قتادة: ذكر لنا أنه كان لها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا هم أهل مشورتها، كل رجل منهم على عشرة الآف.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تأويل قولهم:

﴿ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾ سلموا الأمر إلى نظرها مع ما أظهروا لها من القوة والبأس والشدة.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

في هذه الآية دليل على صحة المشاورة وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] في «آل عمران» إما استعانة بالآراء وإما مداراة للأولياء وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله: ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الشورى: ٣٨] والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس: ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوّهم وحزمهم فيما يقيم أمرهم وإمضائهم على الطاعة لها بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوِّها وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجَدُّهم كان ذلك عونًا لعدوهم عليهم وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم وربما كان في استبدادها برأيها وَهْنٌ في طاعتها ودخيلة في تقدير أمرهم وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم: ﴿ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾ قال ابن عباس: كان من قوة أحدهم أنه يركض فرسه حتى إذا احتدَّ ضم فخذيه فحبسه بقوته.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم – أن ملكة سبأ لما وُكِّل إليها قومها وأشراف قومها الأمر بقولهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فبينت لهم حينئذٍ أحوال الملوك قائلة: إن الملوك إذا دخلوا قرية خربوها، وجعلوا العزيز فيها ذليلًا، وجعلوا الحُر فيها مستعبدًا، وقتلوا وسفكوا الدماء وأسروا الأسارى، فقال الله لها مقرًّا على ما قالته: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قالت صاحبة سبأ للملإ من قومها؛ إذ عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان، إن أمرتهم بذلك: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً﴾ عنوة وغلبة ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ يقول: خرّبوها ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ وذلك باستعبادهم الأحرار، واسترقاقهم إياهم؛ وتناهى الخبر منها عن الملوك في هذا الموضع فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكما قالت صاحبة سبأ تفعل الملوك، إذا دخلوا قرية عنوة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال ابن عباس: أي إذا دخلوا بلدًا عنْوَة أفسدوه، أي: خَرّبوه، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي: وقصدوا مَنْ فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان؛ إما بالقتل أو بالأسر.

قال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، قال الرب عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسالمة والمخادعة والمصانعة، فقالت: ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ أي: سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكفُّ عنا، أو يضرب علينا خَرَاجًا نحمله إليه في كل عام، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة: رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ ﴾ أهانوا شرفاءها لتستقيم لهم الأمور فصدق الله قولها ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ قال ابن الأنباري: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗ﴾ هذا وقف تامٌّ فقال الله ﷻ تحقيقًا لقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ وشبيه به في سورة (الأعراف) ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠] تم الكلام فقال فرعون: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ وقال ابن شجرة: هو قول بلقيس فالوقف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ أي: وكذلك يفعل سليمان إذا دخل بلادنا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾.

ج: هذا قول ملكة سبإ لقومها بعد أن استشارتهم فوكلوا أمرهم إليها، فقالت: وإني مرسلة إليهم بهديةٍ فمنتظرة ردَّهم على تلك الهدية، إن قبلوها وكَفُّوا عنا فهذا الذي نريد، وإن ردُّوها فما أرى الرجل إلا نبيًّا يريد منا أن نتبعه على دينه، فلننتظر إذن ردُّ المرسلين الذي سنرسلهم وعلى إثر ذلك يأتي قرارنا، فكانت امرأة حكيمة عاقلة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذكر أنها قالت: إني مرسلة إلى سليمان؛ لتختبره بذلك وتعرفه به، أملك هو، أم نبيّ؟ وقالت: إن يكن نبيًّا لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا، إلا أن نتبعه

على دينه، وإن يكن ملكًا قبل الهدية وانصرف.

وقوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ تقول: فأنظر بأيّ شيء من خبره وفعله في هديتي التي أرسلها إليه ترجع رسلي، أبقبول وانصراف عنا، أم بردّ الهدية والثبات على مطالبتنا باتباعه على دينه؟

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هذا من حسن نظرها وتدبيرها أي: إني أجرب هذا الرجل بهدية وأعطيه فيها نفائس من الأموال وأغرب عليه بأمور المملكة: فإن كان ملكًا دنيويًّا أرضاه المال وعلمنا معه بحسب ذلك وإن كان نبيًّا لم يرضه المال ولازمنا في أمر الدين فينبغي لنا أن نؤمن به ونتبعه على دينه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي: منتظرة ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ قال قتادة: يرحمها الله أن كانت لعاقلة في إسلامها وشركها قد علمت أن الهدية تقع موقعًا من الناس وسقطت الألف في (بم) للفرق بين (ما) الخبرية وقد يجوز إثباتها قال:

على ما قام يشتمني لئيم ... كخنزير تمرغ في رماد

❁ ❁ ❁

س: هل ورد عن رسول الله ﷺ شيء في وصف هذه الهدية التي أرسلتها ملكة سبإ إلى سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

ج: لم يرد في ذلك خبر صحيح عن رسول الله ﷺ، وقد وردت أقوال لعدد من المفسرين في هذا الصدد، ذكر عددًا منها الطبري بأسانيد أغلبها ضعيف

إلى قائليها.

وقال ابن كثير إجمالًا:

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئٍ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت إليه بلَبِنَة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب.

قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهما: وأرسلت جوارٍ في زي الغلمان، وغلمان في زي الجواري، وقالت: إن عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي. قالوا: فأمرهم عليه السلام أن يتوضؤوا، فجعلت الجارية تُفرغ على يدها من الماء، وجعل الغلام يغترف، فميزهم بذلك.

وقيل: بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها، والغلام بالعكس.

وقيل: بل جعلت الجواري يغتسلن من أكفهن إلى مرافقهن، والغلمان من مرافقهم إلى أكفهم. ولا منافاة بين ذلك كله، والله أعلم.

وذكر بعضهم: أنها أرسلت إليه بقدح ليملأه ماء رواء، لا من السماء ولا من الأرض، فأجرى الخيل حتى عرقت، ثم ملأه من ذلك، وبخرزة وسلك فيجعله فيها، ففعل ذلك. والله أعلم أكان ذلك أم لا وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاءوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

قلت (مصطفى): ولا داعي للانشغال بصفة الهدية، فلا فائدة في ذلك فضلًا عن كون النبي ﷺ لم يذكر شيئًا في ذلك.

❀ ❀ ❀

س: لماذا ردَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الهدية؟

ج: ردَّها لأنها كانت رشوة عن الدين، أي: رشوة حتى يقبل بها دينهم الباطل. فلذا لم يقبلها عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان النبي ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها[1] ولا يقبل الصدقة وكذلك كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وسائر الأنبياء - صلوات الله عليهم أجمعين- وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما في نفسها على ما ذكرناه من كون سليمان ملكًا أو نبيًّا؛ لأنه قال لها في كتابه: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ وهذا لا تقبل فيه فدية ولا يؤخذ عنه هدية وليس هذا من الباب الذي تقرر في الشريعة عن قبول الهدية بسبيل وإنما هي رشوة وبيع الحق بالباطل وهي الرشوة التي لا تحل وأما الهدية المطلقة للتحبب والتواصل فإنها جائزة من كل أحد وعلى كل حال وهذا ما لم يكن من مشرك.

❀ ❀ ❀

باب في الهدايا وفضلها

س: اذكر بعض الوارد في فضل الهدية وشيئًا من فقهها.

ج: وها هي جملة نصوص عن رسول الله ﷺ في هذا الباب: باب قبول الهدية ومجازاة من أهدى إليك، والحث على الإهداء والهدية من الكافر ومن المسلم وللكافر والمسلم، والموانع التي قد تتدخل لمنع الهدية ولمنع قبولها أو كراهيتها وكراهية قبولها. وبالله التوفيق.

---

(١) وسيأتي إن شاء الله.

* أخرج البخاري[١] رحمه الله تعالى من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَيُثِيبُ عَلَيْهَا[٢].

* وفي «الصحيحين»[٣] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أُتِيَ بِطَعَامٍ سَأَلَ عَنْهُ: أَهَدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟ فَإِنْ قِيلَ: صَدَقَةٌ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: «كُلُوا» وَلَمْ يَأْكُلْ وَإِنْ قِيلَ: هَدِيَّةٌ ضَرَبَ بِيَدِهِ ﷺ فَأَكَلَ مَعَهُمْ.

الحثُّ على الهدية ولو بالقليل:

وحثَّ النبي ﷺ على الإهداء ولو بالقليل:

* فقال عليه الصلاة والسلام: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا**[٤] **وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**»[٥]. والفِرْسِن: هو موضع الحافر، والمراد أن النبي ﷺ، حثَّ المرأة على الإهداء لجارتها والجود بما تيسر عندها وإن كان هذا المُهدى قليلًا فهو خير من العدم، وهو دليلٌ على المودة، وفي الحديث أيضًا حثٌّ للمهدى إليها على قبول الهدية وإن قلَّت الهدية فهي دليل على تقدير المهدية للمُهدى إليها.

* وروي أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَهَادُوا تَحَابُوا**»[٦].

الحثُّ على قبول الهدية:

* وأخرج البخاري في «الأدب المفرد»[٧] بإسناد صحيح عن عبد الله

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٥٨٥)، وقد أعلَّه بعض العلماء بالإرسال وهو الصواب لكن انظر إلى الشواهد التي ذكرناها في هذا الباب.

(٢) معنى يثيب عليها أي: يجازي المهدي بهدية أيضًا.

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٢٥٧٦)، ومسلم (حديث ١٠٧٧).

(٤) وقد تطلق الجارة على الضُّرة أحيانًا، وهي هنا عامة فالمراد جارة المنزل والمراد الضُّرة أيضًا، والله أعلم.

(٥) أخرجه البخاري (٢٥٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٦) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (حديث ٥٩٤)، ومن المعلوم أن «الأدب المفرد» للبخاري غير «صحيح البخاري»، والحديث إسناده حسن لشواهده.

(٧) البخاري في «الأدب المفرد» (حديث ١٥٧)، وأحمد في «المسند» (١/ ٤٠٤)، وأبو يعلى

(وهو ابن مسعود) عن النبي ﷺ قال: «أَجِيبُوا الدَّاعِيَ وَلَا تَرُدُّوا الْهَدِيَّةَ[1] وَلَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ».

قبول النبي ﷺ قليل الهدية وكثيرها:

وكان عليه الصلاة والسلام يقبل القليل كما يقبل الكثير:

* ففي «الصحيح»[2] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

وَالْكُرَاعِ مِنَ الدَّابَّةِ: مَا دُونَ الْكَعْبِ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: وَخَصَّ الذِّرَاعَ وَالْكُرَاعَ بِالذِّكْرِ لِيَجْمَعَ بَيْنَ الْحَقِيرِ وَالْخَطِيرِ؛ لِأَنَّ الذِّرَاعَ كَانَتْ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِهَا وَالْكُرَاعِ لَا قِيمَةَ لَهُ.

إذا رددت الهدية فبين سبب ردِّها جبرًا للخاطر[4]:

وكذا إذا ردَّ هدية علَّل سبب الرد جبرًا لخاطر المُهدي:

* ففي «الصحيحين»[5] من حديث الصَّعْبِ بْنِ جَثَّامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَهْدَى لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِمَارًا وَحْشِيًّا، وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانَ، فَرَدَّهُ عَلَيْهِ فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ: «أَمَا إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرُمٌ».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِيهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَبُولُ مَا لَا يَحِلُّ مِنَ الْهَدِيَّةِ.

(٩/ ٢٨٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٥٥٥).

(١) ذكر فريقٌ من العلماء أن القاضي يحرم عليه قبول الهدية، خاصة ممن يقضي بينهم أو ممن يُظن أنه سيقضي بينهم أو ممن يشفع عنده في الأقضية.

(٢) البخاري (حديث ٢٥٦٨).

(٣) «فتح الباري» (٥/ ٢٣٦).

(٤) إذا كان الخاطر يُجبر بذلك؛ أما إذا كان الخاطر يُكسر ببيان سبب الرد فلا تبين والله أعلم.

(٥) أخرجه البخاري (حديث ٢٥٧٣)، ومسلم (حديث ١١٩٣).

أما عن قبول الهدية من المشركين والإهداء لهم(١):

وقبل نبينا ﷺ الهدية من المشركين:

* ففي «الصحيح»(٢) من حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ تَبُوكَ، وَأَهْدَى مَلِكُ أَيْلَةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ بَغْلَةً بَيْضَاءَ وَكَسَاهُ بُرْدًا.

* وفي «الصحيحين»(٣) كذلك أَنَّ يَهُودِيَّةً أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ فَأَكَلَ مِنْهَا.

* وَأَهْدَى أُكَيْدِرُ دُومَةِ الْجَنْدَلِ إلى النبي ﷺ حُلَّةً(٤).

* وانظر ترجمة مارية رضي الله عنها (أم إبراهيم عليه السلام وسرِّية رسول الله ﷺ) في «الإصابة» فقد ذُكر هناك أن المقوقس أهداها لرسول الله ﷺ.

* وأيضًا فإن إبراهيم الخليل ﷺ لما دخلت زوجته سارة على الجبار الكافر وردَّ الله يده وكبته الله أهداها هذا الكافر هاجر رضي الله عنها(٥).

وكذلك فالإهداء للمشركين جائز:

قال تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

---

(١) ومحل ذلك إذا لم تكن رشوة عن الدين أو للإقرار على باطل.

(٢) البخاري (حديث ٣١٦١)، ومسلم (حديث ١٣٩٢).

(٣) البخاري (حديث ٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) البخاري معلقًا (٢٦١٦)، ومسلم متصلًا (ص ١٩١٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) البخاري (٢٦٣٥) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَاجَرَ إِبْرَاهِيمُ بِسَارَةَ فَأَعْطَوْهَا فَأَعْطَوْهَا آجَرَ فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ: أَشَعَرْتَ أَنَّ اللهَ كَبَتَ الْكَافِرَ وَأَخْدَمَ وَلِيدَةً؟!» والحديث مطول في مواطن أخر من الصحيح.

* وفي «الصحيحين» من حديث أَسْمَاءَ بِنت أَبِي بَكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ قُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قَالَ: «**نَعَمْ صِلِي أُمَّكِ**»(١).

* وَأَهْدَى عُمَرُ حُلَّةً لِأَخٍ لَهُ مُشْرِكٌ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ أخوهُ(٢).

لكن إذا كان هذا الكافر سيتقوى بهذه الهدية على المسلمين ويؤذيهم ويتمرد عليهم ويتجبر فحينئذٍ لا يُهْدَى إليه، ولا كرامة.

* وأخرج الترمذي وأبو داود والبخاري في «الأدب المفرد» بإسناد صحيح(٣) من طريق مُجَاهِدٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**».

وهناك هدايا لا تُرد:

* منها: الطيب؛ ففي «صحيح البخاري» من حديث أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَرُدُّ الطِّيبَ.

* وصح عن رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيِّبُ الرِّيحِ**».

أما إذا كانت الهدية بمنزلة الرشوة فإنها تُرد كما فعل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ كانت الهدية رشوة عن الدين كي تُقرَّ على عبادة الشمس.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠) (٥٩٧٨) وهناك قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ...﴾ [الممتحنة: ٨، ٩]، وأخرجه مسلم (٣/ ٤١).

(٢) انظر البخاري (٢٦١٩).

(٣) الترمذي (حديث ١٩٤٣)، وأبو داود (٥١٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (حديث ١٠٥).

وكذا فإذا كانت الهدية بمثابة الرشوة لإبطال الحق وإثبات الباطل فلا تُقبل حينئذٍ.

وكذلك إذا كانت الهدية للأمراء والوزراء والمسئولين(١) كي يعطوك شيئًا ليس من حقك أو يتجاوزوا لك عن شيء لا ينبغي لهم أن يتجاوزوا عنه فحينئذٍ يحرم عليك الإهداء ويحرم عليهم قبول الهدية، وقد استعمل النبي ﷺ لفظًا شديدًا في الزجر في هذا الباب:

* ففي «الصحيحين»(٢) من حديث أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ: «ابْنُ اللتْبِيَّةِ» عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي. قَالَ: «**فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ - أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ- فَيَنْظُرَ يُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ، - ثُمَّ رَفَعَ بِيَدِهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَةَ إِبْطَيْهِ-: اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ**» ثَلَاثًا.

* ومن ثم روى البخاري معلقًا(٣) عن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: كَانَتْ الْهَدِيَّةُ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ هَدِيَّةً وَالْيَوْمَ رِشْوَةٌ.

---

(١) كالقضاة والشُّرط ونحوهم.

(٢) البخاري (حديث ٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢).

(٣) معلقًا (مع الفتح ٥/ ٢٦٠) قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: وَصَلَهُ ابْن سَعْد بِقِصَّةٍ فِيهِ، فَرَوَى مِنْ طَرِيق فُرَات بْن مُسْلِم قَالَ: اشْتَهَى عُمَر بْن عَبْد الْعَزِيز التُّفَّاح فَلَمْ يَجِدْ فِي بَيْته شَيْئًا يَشْتَرِي بِهِ، فَرَكِبْنَا مَعَهُ، فَتَلَقَّاهُ غِلْمَان الدَّيْر بِأَطْبَاقِ تُفَّاح، فَتَنَاوَلَ وَاحِدَة فَشَمَّهَا ثُمَّ رَدَّ الْأَطْبَاق، فَقُلْت لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: لَا حَاجَة لِي فِيهِ، فَقُلْت: أَلَمْ يَكُنْ رَسُول الله ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّة ؟ فَقَالَ: إِنَّهَا لِأُولَئِكَ هَدِيَّة وَهِيَ لِلْعُمَّالِ بَعْدهمْ رِشْوَة.

* وأخرج عبد الرزاق في «المصنف»[١] بإسناد صحيح لغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: السُّحت الرشوة في الدِّين. قال سفيان: يعني الحكم.

* وأخرج أبو داود[٢] وغيره بإسناد صحيح من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي».

وكذلك إذا كانت الهدية شيئًا مسروقًا أو شيئًا محرمًا فلا تقبل لما في ذلك من أكل الحرام والمعاونة على الإثم والعدوان.

* وفي «مسند الإمام أحمد»[٣] أن الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ صَحِبَ قَوْمًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَوَجَدَ مِنْهُمْ غَفْلَةً فَقَتَلَهُمْ وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ فَجَاءَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَقْبَلَهَا.

* وكذلك إذا كانت الهدية إنما أهداها صاحبها لأخذ أكثر منها وإن لم يأخذ أكثر منها يتسخط، فإذا عرف من عادته هذا فلك - والله أعلم - أن تتوقف في قبول هديته.

(١) عبد الرزاق (المصنف ١٤٦٦٤)، وانظر «السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٣٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠)، والترمذي (مع التحفة ٤/ ٥٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٧٧٥).

قال كثير من أهل العلم: إن الراشي هو معطي الرشوة والمرتشي هو آخذها والرائش هو الذي يسعى بينهما، وقالوا: الرشوة ما يُعطى لإبطال حقٍّ أو لإحقاق باطل، أما إذا أعطى ليتوصل به إلى حق أو ليدفع به عن نفسه ظلمًا فلا بأس به.

انظر ما ذكره المباركفوري في «تحفة الأحوذي» وكذلك شمس الحق العظيم أبادي في «عون المعبود»، وكذلك الخطابي في «معالم السنن» وغيرهم.

(٣) «المسند» (٤/ ٢٤٦) من طريق أبي معاوية ثنا هشام بن عروة عن أبيه عن المغيرة بن شعبة به.

وفي رواية أبي معاوية عن هشام مقال، لكن للحديث شاهد في البخاري ففيه (٢٧٣١، ٢٧٣٢)... وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: «**أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء**».

وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: ٣٩]، وهذا في مثل هذا الموطن، في رجل يهدي وينتظر من المهدي إليه أضعاف ما يقدمه له.

أو إن كان المهدي يعتبر هديته بمثابة الدَّين عليك، وأنت لا تريد أن تتحمل دينًا شرعًا ولا عرفًا، فلك في مثل هذه الحالة أن تتوقف مع اعتذارٍ لطيف للمهدي، اعتذارٍ لا يكسر له خاطرًا ولا يشوش عليه فكرًا.

وكذلك إذا كان المهدي منَّانًا يمنُّ بهديته ويتحدث بها فلك في مثل هذه الحال أن تتوقف.

وكل هذا يقدر بقدره والأصل استحباب الهدية واستحباب قبولها والإثابة عليها.

وكذلك يكره لك أن تهدي هدية لشخص سفيه يستعملها في معصية الله ﷻ وفي الفساد في الأرض، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ [النساء: ٥].

وكذلك فأثناء هديتك انتبه هل ستُصْلِح في باب وتُفسد في باب آخر أم أن الهدية كلها خير، فقد تهدي لابنٍ من أبنائك دون الآخرين فتسبب مفسدة وضغينة بين الأولاد:

قَالَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنهما(١): أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (حديث ١٦٢٣).

قَالَ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «فَاتَّقُوا اللهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ» قَالَ: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ.

* وأخرج عبد الرزاق [(١)] بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا أسلفت رجلًا سلفًا، فلا تقبل منه هدية كُراع ولا عارية ركوب دابة.

* وأخرج أيضًا[(٢)] من طريق سالم بن أبي الجعد قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إنه كان لنا جار سمَّاك فأقرضته خمسين درهمًا، وكان يبعث إليَّ من سمكه، فقال ابن عباس: حاسبه، فإن كان فضلًا فرُدَّ عليه، وإن كان كفافًا فقاصصه.

* وأخرج أيضًا [(٣)] بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة قال: إذا نزلت على رجل لك عليه دين فأكلت عليه فاحسبه له ما أكلت عنده، إلا أن إبراهيم كان يقول: إلا أن يكون معروفًا كانا يتعاطيانه قبل ذلك.

وثَمَّ جملة آثار أُخر في هذا الباب، وفي أسانيد كثير منها مقال[(٤)].

* قلت: لكن إذا أقرضت رجلًا مبلغًا من المال وردَّه إليك مع زيادة (بدون اشتراط منك) وكانت نفسه طيبة بذلك فلا مانع من قبوله، وذلك لما في «الصحيحين»[(٥)] من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ لِرَجُلٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سِنٌّ[(٦)] مِنَ الْإِبِلِ فَجَاءَه يَتَقَاضَاهُ فَقَالَ ﷺ: «أَعْطُوهُ» فَطَلَبُوا سِنَّهُ، فَلَمْ يَجِدُوا إِلَّا

(١) عبد الرزاق (المصنف ١٤٦٥٠).
(٢) عبد الرزاق (المصنف ١٤٦٥١)، وهو صحيح أيضًا، وأخرجه البيهقي (٥/ ٣٥٠).
(٣) عبد الرزاق (المصنف ١٤٦٤٩).
(٤) انظرها في «مصنف عبد الرزاق» (٥/ ١٤٢)، وفي «السنن الكبرى» للبيهقي (٥/ ٣٤٩).
(٥) البخاري (حديث ٢٣٩٣)، ومسلم (حديث ١٦٠١).
(٦) يعني جمل له سنٌّ معين.

سِنًّا فَوْقَهَا[١]، فَقَالَ: «أَعْطُوهُ» فَقَالَ: أَوْفَيْتَنِي أَوْفَى الله بك، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً».

وفي «الصحيحين»[٢] أيضًا من حديث جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَكَانَ لِي عَلَيْهِ دَيْنٌ فَقَضَانِي وَزَادَنِي.

وأيضًا ينبغي أن يتحفظ الشخص ويتورع عن الهدية إن كانت تقوم مقام الربا فقد يقترض شخص من شخص مالًا ويحل وقت السداد ولا يطيق المدين السداد؛ فيسلك مسلك الإهداء لصاحب المال حتى يسكته وحتى يصبر عليه فحينئذٍ من الورع ترك هذه الهدايا، نعم إنه يجوز قبولها ما لم يشترط لكن الأورع ترك الهدية إذا كانت بهذه المثابة.

وفي هذا الباب أذكر ما أخرجه البخاري[٣] رحمه الله من طريق أَبِي بُرْدَةَ قَالَ: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَلَقِيتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلَامٍ رضي الله عنه فَقَالَ: أَلَا تَجِيءُ فَأُطْعِمَكَ سَوِيقًا وَتَمْرًا وَتَدْخُلَ فِي بَيْتٍ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّكَ فِي أَرْضٍ الرِّبَا بِهَا فَاشٍ، إِذَا كَانَ لَكَ عَلَى رَجُلٍ حَقٌّ فَأَهْدَى إِلَيْكَ حِمْلَ تِبْنٍ أَوْ حِمْلَ شَعِيرٍ أَوْ حِمْلَ قَتٍّ فَلَا تَأْخُذْهُ فَإِنَّهُ رِبًا.

وكما أسلفنا فيجوز أن تهدي المرأة للرجل وأن يُهدي الرجل للمرأة، ومحل ذلك – كما هو معلوم- عند أمن الفتنة، أما إذا كانت هدية المرأة للرجل أو الرجل للمرأة يتأتى من ورائها فتنة، وتقع المرأة في قلب الرجل ويقع في قلبها ويحدث من وراء ذلك المحرم، فحينئذٍ تمنع الهدية لا لكونها حرامًا، ولكن سدًّا للذريعة الموصلة إلى الحرام فالله لا يحب الفساد.

(١) وفي رواية أخرى: لا نجد إلا سنًّا أفضل من سنِّه.
(٢) البخاري (حديث ٢٣٩٤)، ومسلم (ص ١٢٢٢، ١٢٢٣).
(٣) البخاري (حديث ٣٨١٤).

(٥٥٠) أحمر أسود

ولا ينبغي أن تحرج أحدًا وتحمله على الإهداء لك، فإنك إن فعلت أوشكت أن لا يبارك لك في هذا الشيء المهدى، ولكن إن أهدي إليك أو أخذت الشيء بغير مسألة ولا إشراف نفس بورك لك فيه، ولتحرص على أن تكون نفس المهدي طيبة وهو يهدي إليك.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – فلما جاءت رسل ملكة سبأ إلى سليمان عليه السلام بهداياها التي أرسلتها قال لهم سليمان عليه السلام: أتمدونني بمالٍ فالذي أعطانيه الله ومنَّ عليَّ به من المال والدنيا خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون، ارجع إلى قومك فلنأتينهم بجنودٍ لا طاقة لهم بها ولنخرجنهم من بلادهم أذلةً أشد الإذلال، مُهانون أشد الإهانة.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ يقول: قال سليمان لما جاء الرسول من قبل المرأة بهداياها: أتمدونن بمال.

وقوله: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ يقول: فما آتاني الله من المال والدنيا أكثر مما أعطاكم منها وأفضل ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ يقول: ما أفرح بهديتكم التي أهديتم إليّ، بل أنتم تفرحون بالهدية التي تُهدى إليكم؛ لأنكم أهل مفاخرة بالدنيا، ومكاثرة بها، وليست الدنيا وأموالها من حاجتي، لأن الله تعالى ذكره قد مكَّنني منها وملَّكني فيها ما لم يُمَلِّك أحدًا.

﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا قول سليمان لرسول المرأة: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ

﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على دفعهم عما أرادوا منهم.

﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ يقول: ولنخرجنّ من أرسلكم من أرضهم أذلة وهم صاغرون إن لم يأتوني مسلمين.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟! ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف.

قال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا. وفي هذا دلالة على جواز تهيؤ الملوك وإظهارهم الزينة للرسل والقصاد.

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: بهديتهم، ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي: لا طاقة لهم بقتالهم، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا﴾ أي: من بلدهم، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: مهانون مدحورون.

فلما رجعت إليها رسلُها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هي وقومها، وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة، معظمة لسليمان، ناوية متابعته في الإسلام. ولما تحقق سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قدومهم عليه ووفودهم إليه، فرح بذلك وسَرّه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى أتمدونني أتزيدونني مالا إلى ما تشاهدونه من أموالي.

قوله تعالى: ﴿ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ﴾ أي: فما أعطانيه من الإسلام والملك والنُّبوَّة خير مما أعطاكم فلا أفرح بالمال و(**آتان**) وقعت في كل المصاحف بغير ياء وقرأ أبو عمرو ونافع و حفص: ﴿ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ ﴾ بياء مفتوحة فإذا وقفوا حذفوا وأما يعقوب فإنه يثبتها في الوقف ويحذف في الوصل لالتقاء الساكنين والباقون بغير ياء في الحالين ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ج: هذا معناه – والله أعلم – أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال لعَلَيَّة القوم الذين معه ولكبرائهم: يا أيها الملأ أيكم يأتيني بسرير ملكها قبل أن يأتوني مستسلمين خاضعين، والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: لماذا سأل سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الملأ أن يأتوه بعرش ملكة سبأ قبل مجيئها مستسلمة مع قومها؟

ج: قال بعض العلماء: إنما قال ذلك حتى إذا أخذه قبل إسلامها لم يكن عليه جناح.

وقال آخرون: إنما أراد أن يختبرها به إذا جاءت.

وقال آخرون: إنما أخذه ليبين لها قدرة الله ﷻ على كل شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلف أهل العلم في السبب الذي من أجله خصّ سليمان مساءلة الملأ من جنده إحضار عرش هذه المرأة من بين أملاكها قبل إسلامها، فقال

بعضهم: إنما فعل ذلك لأنه أعجبه حين وصف له الهدهد صفته، وخشي أن تسلم فيحرُم عليه مالها، فأراد أن يأخذ سريرها ذلك قبل أن يحرُم عليه أخذه بإسلامها.

وقال آخرون: بل فعل ذلك سليمان ليعاتبها به، ويختبر به عقلها، هل تثبته إذا رأته، أم تنكره؟

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واختلفوا في فائدة استدعاء عرشها فقال قتادة: ذكر له بعظم وجوده فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم والإسلام على هذا الدين وهو قول ابن جريج. وقال ابن زيد: استدعاه ليريها القدرة التي هي من عند الله ويجعله دليلًا على نبوته لأخذه من بيوتها دون جيش ولا حرب ولا ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على هذا التأويل بمعنى مستسلمين وهو قول ابن عباس. وقال ابن زيد أيضًا: أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ﴾ وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيولد له منها ولد فلا يزالون في السخرة والخدمة لنسل سليمان، فقالت لسليمان في عقلها خلل فأراد أن يمتحنها بعرشها[١] وقيل: أراد أن يختبر صدق الهدهد في قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ قاله الطبري. وعن قتادة: أحب أن يراه لما وصفه الهدهد والقول الأول عليه أكثر العلماء؛ لقوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ولأنها لو أسلمت لحظر عليه مالها فلا يُؤتى به إلا بإذنها. روي أنه كان من فضة وذهب مرصعًا بالياقوت الأحمر والجوهر وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق.

❀ ❀ ❀

---

(١) ولا دليل على هذا القول فيما أعلم.

س: متى قال سليمان للملإ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؟

ج: جمهور المفسرين على أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قال ذلك بعد أن أتوه بالهدية وردَّها لهم.

وقال ابن عطية: وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد مجيء هديتها وردّه إياها، وبعثه الهدهد بالكتاب؛ وعلى هذا جمهور المتأولين.

❁ ❁ ❁

س: ما معنى قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؟

ج: الظاهر – والله أعلم –: أن المراد قبل أن يأتوني مستسلمين خاضعين، وذلك لأنهم إنما خرجوا من بلادهم متجهين إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، مستسلمين خاضعين لا عن رغبةٍ في الإسلام.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فقال بعضهم: معناه: قبل أن يأتوني مستسلمين طوعًا.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: قبل أن يأتوني مسلمين الإسلام الذي هو دين الله.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصّ سليمان بسؤاله الملإ من جنده بإحضاره عرش هذه المرأة دون سائر ملكها عندنا؛ ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، أنها خلَّفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله

من ذلك كله، بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليه من خلقه، وسلمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوّته.

فأما الذي هو أولى التأويلين في قوله: ﴿قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ بتأويله، فقول ابن عباس الذي ذكرناه قبل، من أن معناه طائعين؛ لأن المرأة لم تأت سليمان؛ إذ أتته مسلمة، وإنما أسلمت بعد مقدمها عليه وبعد محاورة جرت بينهما ومساءلة.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ٣٩﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن عِفريتًا من الجن، وهو المارد والداهية والرئيس فيهم: أنا أُحضر لك عرشها - سرير مُلكها - قبل أن تقوم من مقامك الذي أنت فيه، وقد قال بعض أهل العلم: إن المراد بالمقام المقام الذي كان يجلس فيه للحكم، وزعم بعضهم أنه كان يمتد إلى نصف النهار، وليس على هذا دليل لا من كتاب ولا من سنةٍ صحيحة، أما قوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ أي قادر على إحضاره، أمين على ما فيه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ يقول تعالى ذكره: قال رئيس من الجنّ مارد قويّ. وللعرب فيه لغتان: عفريت، وعفرية؛ فمن قال: عفرية، جمعه: عفاري؛ ومن قال: عفريت، جمعه: عفاريت.

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ يقول: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم

من مقعدك هذا.

وكان فيما ذُكر قاعدًا للقضاء بين الناس، فقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك هذا الذي جلست فيه للحكم بين الناس. وذُكِرَ أنه كان يقعد إلى انتصاف النهار.

وقوله: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ على ما فيه من الجواهر، ولا أخون فيه.

وقد قيل: أمين على فَرْج المرأة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعفريت من الشياطين القوي المارد والتاء زائدة وقد قالوا: تعفرت الرجل إذا تخلق بخلق الأذاية.

صفات مستحبة في الأجير

س: يستحب لصاحب العمل أن يُراعي في الأجير الذي يستأجره أمرين، قوته وقدرته على العمل، والثاني الأمانة، دلِّل على ذلك.

ج: من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول العفريت الجني: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ فذكر مؤهلاته لذلك، وهي القوة والأمانة.

وقول بنت العبد الصالح لأبيه في شأن موسى عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وقول الصديق يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، فذكر الحفظ وهو مقتضى الأمانة، وذكر العلم بتدبير الأمور وهو من مقتضيات القوة. وبالله التوفيق.

❀❀❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: قال الذي عنده علم من الكتاب لسليمان عليه السلام مُقدمًا عرضًا أسرع من العرض الذي ذكره عفريت من الجن، أن آتيك بسرير ملكها قبل أن يرتد إليك طرفك، أي: قبل أن يرجع إليك بصرك إذا نظرت، فارفع بصرك وانظر إلى نهاية بصرك فلن تغمض عينك من تعب بصرك إليَّ وهو حاضرٌ عندك قيل إنما من عينك. فوافق سليمان عليه السلام على ذلك فإذا بسرير ملكها أمانة بين يديه فقال شاكرًا لله: هذا من فضل ربي ليختبرني أأشكره

على نعمه أم أكفر نعمه عليَّ.

ثم قال مُذكرًا: ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي: أن فائدة الشكر عائدةٌ عليه هو لا على أحدٍ سواه، فإن الله غنيٌّ عن العباد، ولكن يُجازي الشكور.

قال سليمان: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: ومن جحد نعم الله عليه ولم يُقرَّ بها ولم يقدم لها شكرًا فإن ربي غني عنه كريم سبحانه، ومن كرمه تفضله على الخلق مع جحودهم نعمه ﷻ وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معناه: أنا آتيك به قبل أن يصل إليك من كان منك على مدّ البصر.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: من قبل أن يبلُغ طرفك مداه وغايته.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: قبل أن يرجع إليك طرفك من أقصى أثره، وذلك أن معنى قوله: ﴿يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ﴾ يرجع إليك البصر، إذا فتحت العين غير راجع، بل إنما يمتدّ ماضيًا إلى أن يتناهى ما امتدَّ نوره. فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله إنما أخبرنا عن قائل ذلك ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ﴾ لم يكن لنا أن نقول: أنا آتيك به قبل أن يرتدّ راجعًا ﴿إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ من عند منتهاه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ يقول: فلما رأى سليمان عرش ملكة سبإ مستقرًّا عنده. وفي الكلام متروك استُغني بدلالة ما ظهر عما ترك، وهو: فدعا الله، فأتى به؛ فلما رآه سليمان مستقرًّا عنده.

وقال:

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ يقول: هذا البصر والتمكن والملك والسلطان الذي أنا فيه حتى حمل إليّ عرش هذه في قدر ارتداد الطرف من مأرب إلى الشام، من فضل ربي الذي أفضله عليّ وعطائه الذي جاد به علي، ليبلوني، يقول: ليختبرني ويمتحنني، أأشكر ذلك من فعله عليّ، أم أكفر نعمته عليّ بترك الشكر له.

وقد قيل: إن معناه: أأشكر على عرش هذه المرأة إذ أتيت به، أم كفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني.

وقوله: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: ومن شكر نعمة الله عليه، وفضله عليه، فإنما يشكر طلب نفع نفسه؛ لأنه ليس ينفع بذلك غير نفسه؛ لأنه لا حاجة لله إلى أحد من خَلْقه، وإنما دعاهم إلى شكره تعريضًا منه لهم للنفع، لا لاجتلاب منه بشكرهم إياه نفعًا إلى نفسه، ولا دفع ضُرّ عنها ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ يقول: ومن كفر نعمه وإحسانه إليه، وفضله عليه، لنفسه ظلم، وحظَّها بخَس، والله غنيّ عن شكره، لا حاجة به إليه، لا يضرّه كفر من كفر به من خَلْقه، كريم، ومن كرمه إفضاله على من يكفر نعمه، ويجعلها وصلة يتوصل بها إلى معاصيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما عاين سليمان ومَلَؤه ذلك، ورآه مستقرًّا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾ أي: ليختبرني، ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وكقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، ﴿كَرِيمٌ﴾

أي: كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، وهذا كما قال موسى: ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾.

[إبراهيم: ٨]

وفي صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم [ثم أوفيكم إياها] فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ أي: ثابتًا عنده ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى ﴾ أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ﴾ قال الأخفش: المعنى لينظر ﴿ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ وقال غيره: معنى ﴿ لِيَبْلُوَنِىٓ ﴾: ليتعبدني وهو مجاز والأصل في الابتلاء الاختبار أي: ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها ﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي: لا يرجع نفع ذلك إلا إلى نفسه، حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها والشكر قيد النعمة الموجودة وبه تُنال النعمة المفقودة ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ ﴾ أي: عن الشكر ﴿ كَرِيمٌ ﴾ في التفضل.

❁ ❁ ❁

الذي عنده علمٌ من الكتاب

س: مَنْ هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب؟

ج: لم أقف على خبر ثابت عن رسول الله ﷺ يبين فيه من هذا الذي عنده

(١) مسلم (٢٥٧٧).

علم من الكتاب.

والظاهر من الآية الكريمة أنه عالمٌ، شخصٌ من أهل العلم بالكتاب.

وإن كان أكثر أهل العلم على أنه رجلٌ من البشر علَّمه الله اسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل وكان صدِّيقًا يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

وهناك أقوالٌ أُخر في اسمه منها:

قول قتادة: أنه بليخا.

ومنها: أنه أسطوم.

وأقول أُخر غريبة: منها أنه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفسه، ومنها أنه الخضر وكل ذلك لا دليل عليه، والاجتزاء بما في كتاب الله أسلم والله أعلم.

❋ ❋ ❋

س: ما المراد بـ﴿عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؟

ج: قال أكثر المفسرين: إنه العلم باسم الله الأعظم.

❋ ❋ ❋

اسم الله الأعظم

س: ما اسم الله الأعظم؟

ج: لم أقف على دليل ثابت في هذا عن رسول الله ﷺ، والأخبار المنقولة عنه – صلوات الله وسلامه عليه– في ذلك معلولة.

وقد قال الجمهور[(١)]: إنه لفظ الجلالة (الله) فلما اعترض عليهم في ذلك بأن كثيرًا من الناس يدعون بهذا الاسم ولا يستجاب لهم، أجيب بأنهم تخلفوا عن سائر شرائط الدعاء فلم يأتوا بها، فالله أعلم.

س: الابتلاء وكما أنه يكون بالضراء فإنه أيضًا يكون بالسراء، وأهل الفهم يفهمون ذلك دلِّل على ذلك.

ج: نعم فإن الابتلاء وكما أنه يكون بالضراء فإنه يكون بالسراء كذلك، وهكذا فهم نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رأى عرش ملكة سبأ مستقرًّا عنده، قال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾.

وقد قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ۝٤١﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لجنده وأتباعه: غيِّروا لملكة سبإ سرير ملكها الذي آتيتموني به، زيدوا فيه أشياء، وأنقصوا منه أشياء حتى نرى مدى فهمها وذكائها وقوة عقلها، وذلك إذا اهتدت إلى معرفة عرشها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال سليمان -لما أتى عرش بلقيس صاحبة سبإٍ

(١) انظر حاشية رد المحتار (١/ ٧)، والدعاء المأثور للطرطوسي (٩٧)، وشرح مشكل الآثار (١/ ١٦٢)، والقرطبي (١/ ١٠٢) وغيرهم.

وقدمت هي عليه – لجنده: غيِّروا لهذه المرأة سريرها.

وقوله: ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ يقول: ننظر أتعقل فتثبت عرشها أنه هو الذي لها ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ يقول: من الذين لا يعقلون فلا تثبت عرشها.

وقيل: إن سليمان إنما نكَّر لها عرشها، وأمر بالصرح يعمل لها، من أجل أن الشياطين كانوا أخبروه أنه لا عقل لها، وأن رجلها كحافر حمار، فأراد أن يعرف صحة ما قيل له من ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لما جيء سليمان عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ بعرش بلقيس قبل قدومها، أمر به أن يغير بعض صفاته؛ ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ أي غيروه قيل: جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه وقيل: غير بزيادة أو نقصان. قال الفراء وغيره: إنما أمر بتنكيره لأن الشياطين قالوا له: إن في عقلها شيئا فأراد أن يمتحنها وقيل: خافت الجن أن يتزوج بها سليمان فيولد له منها ولد فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدًا فقالوا لسليمان: إنها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار فقال: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا﴾ لنعرف عقلها وكان لسليمان ناصح من الجن فقال: كيف لي أن أرى قدميها من غير أن أسألها كشفها؟[١] فقال: أنا أجعل في هذا القصر ماء وأجعل فوق الماء زجاجًا تظن أنه ماء فترفع ثوبها فترى قدميها فهذا هو الصرح الذي أخبر الله تعالى عنه.

---

(١) وليست هناك أسانيد ثابتة إلى رسول الله ﷺ بهذا والعلم عند الله.

❁ ❁ ❁

س: قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ مَنْ قائله؟ بيِّن ذلك مع إيضاح معناه.

ج: لأهل العلم في ذلك قولان:

أحدهما: أن قائل ذلك هو سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وحاصل معناه: أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: وأوتينا العلم بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ والعلم الذي علمنا الله إياه عمومًا من قبل مجيء هذه المرأة وكنا مسلمين لله قبل مجيئها متدينين بدين الإسلام.

الثاني: أن قائلة ذلك هي المرأة، والمعنى: وأوتينا العلم بأنك نبيٌّ من قبل أن نرى هذه المعجزة التي ظهرت لنا من نقل عرشنا إلى بلادك، وجئناك مستسلمين خاضعين.

وبنحو هذين القولين قال أهل العلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ قيل: هو من قول بلقيس أي: أوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه الآية في العرش ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ منقادين لأمره وقيل: هو من قول سليمان أي: أوتينا العلم بقدرة الله على ما يشاء من قبل هذه المرة وقيل: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وقيل: هو من كلام قوم سليمان والله أعلم.

وسيأتي مزيدٌ عما قريب إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أن ملكة سبإ لما جاءت إلى سليمان عليه السلام أطلعها سليمان عليه السلام على العرش بعد أن غيَّر منه بعض الأشياء، وزاد ونقص، وقيل لها: أهكذا عرشك؟ أهكذا سرير ملكك الذي كنت تجلسين عليه؟ أهكذا سرير ملكك الذي كنت تجلسين عليه؟ قالت: كأنه هو شبهته به وهذا من وافر عقلها لم تنكر أن يكون عرشها، ولم تثبت يقينًا لكونه تركته وراءها في بلادها.

أما قول: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ فللعلماء فيه قولان سبقت الإشارة إليهما، وهذا مزيد من أقوال العلماء في الآية الكريمة.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: لما جاءت صاحبة سبإ سليمان، أخرج لها عرشها، فقال لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ قالت وشبهته به: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد: كان أبي يحدّثنا هذا الحديث كله، يعني حديث سليمان، وهذه المرأة ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شكت.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل سليمان، وقال سليمان: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أي: هذه المرأة، بالله وبقدرته على ما يشاء، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ لله من قبلها.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يريد بلقيس ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ شبهته به لأنها خلفته تحت الأغلاق فلم تقر بذلك ولم تنكر فعلم سليمان كمال عقلها.

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: عرض عليها عرشها، وقد غُيِّرَ ونُكِّر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لُبٌّ ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته، وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية في الذكاء والحزم.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: قال مجاهد: سليمان يقوله.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟

ج: هذه تحتمل جملة من المعاني:

الأول: وهو الأظهر عندي والله أعلم.

أما (ما) اسم موصول بمعنى الذي، والمعنى إجمالًا ومنعتها الآلهة التي كانت تعبدها من دون الله ﷻ، منعتها من عبادة الله فقد كانت من قوم كافرين.

أي: ومنعها من الإيمان عبادتها للشمس.

أي: أن عبادتها وعبادة قومها للشمس جعلتها تنصرف عن عبادة الله وحده لا شريك له.

الثاني: أن الذي صدَّها هو سليمان عليه السلام والمعنى، وصدها، أي: ومنعها سليمان عليه السلام عن ما كانت تعبد من دون الله، أي: ومنعها سليمان عن عبادة غير الله، أي: عن عبادة الشمس فقد كانت من قومٍ كافرين.

الثالث: وصدها عن عبادة الله وحده لا شريك له كونها كانت من قومٍ كافرين، فصدوها عن عبادة الله بعبادتهم الشمس وجهلهم، وإلا فقد كانت موفورة العقل.

الرابع: وصدها الله ﷻ عن عبادة غيره بما أطلعها عليه من معالم قدرته

ووحدانيته. والله أعلم.

وهذه أقوال بعض العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ومنع هذه المرأة صاحبة سبإ ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، وذلك عبادتها الشمس أن تعبد الله.

وأورد عن مجاهد بإسنادين قد يُحسنا قال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ قال: كفرها بقضاء الله، صدها أن تهتدي للحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولو قيل: معنى ذلك: وصدّها سليمان ما كانت تعبد من دون الله، بمعنى: منعها وحال بينها وبينه، كان وجهًا حسنًا. ولو قيل أيضا: وصدّها الله ذلك بتوفيقها للإسلام، كان أيضًا وجهًا صحيحًا.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ يقول: إن هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين. وكُسِرَت الألف من قوله: «إنها» على الابتداء. ومن تأوَّل قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ التأويل الذي تأولنا، كانت «ما» من قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ في موضع رُفِعَ بالصد؛ لأن المعنى فيه لم يصدها عن عبادة الله جهلها، وأنها لا تعقل، إنما صدها عن عبادة الله عبادتها الشمس والقمر، وكان ذلك من دين قومها وآبائها، فاتبعت فيه آثارهم. ومَنْ تأوَّله على الوجهين الآخرين كانت «ما» في موضع نصب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾: هذا من تمام كلام سليمان، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -في قول مجاهد، وسعيد بن جبير، رحمهما الله -أي: قال

سليمان: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وهي كانت قد صدها، أي: منعها من عبادة الله وحده. ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾. وهذا الذي قاله مجاهد وسعيد حَسَنٌ، وقاله ابن جرير أيضًا.

ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون في قوله: ﴿وَصَدَّهَا﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله ﷻ تقديره: ومنعها ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدَّها عن عبادة غير الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾.

قلت: ويؤيد قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتي.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الوقف على ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حسن والمعينة: منعها من أن تعبد الله ما كانت تعبد من الشمس والقمر فـ(ما) في موضع رفع. النحاس: المعنى أي: صدها عبادتها من دون الله وعبادتها إياها عن أن تعلم ما علمناه عن أن تسلم ويجوز أن يكون (ما) في موضع نصب؛ ويكون التقدير: وصدها سليمان عما كانت تعبد من دون الله أي حال بينها وبينه ويجوز أن يكون المعنى: وصدها أي منعها الله عن عبادتها غير فحذفت (عن) وتعدَّى الفعل نظيره: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه وأنشد سيبويه:

ونبئت عبد الله بالجوِّ أصبحت ... كرامًا مواليها لئيمًا صميمها

وزعم أن المعنى عنده نبئت عن عبد الله ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ قرأ سعيد ابن جبير: (أنها) بفتح الهمزة وهي في موضع نصب بمعنى لأنها ويجوز أن

يكون بدلًا من (ما) فيكون في موضع رفع إن كانت (ما) فاعلة الصد والكسر على الاستئناف.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهر العقول فأمرها أن تدخل الصرح وهي المجلس المرتفع المتسع وكان مجلسًا من قوارير تجري تحته الأنهار.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أنه قيل لملكة سبأ لما وصلت إلى سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحدَّثها ببعض ما ذُكر، قيل لها ادخلي الصرح، وهو المكان الرحيب الفسيح الذي يكون في البيت أو أمامه فلما رأته حسبته لجة بحر؛ إذ قد كان - على ما ذكر عدد من العلماء - ماءٌ يجري وفوقه زجاج - فلم تتفطن لوجود الزجاج لشفافيته الزائدة فرأت الماء فكشفت عن ساقيها، فقال لها سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ إنه صرح مُمرد -مُصَنَّع من قوارير من زجاج- فما وسعها إلا الإقرار بالإسلام، والاعتراف بظلم النفس، فقالت معلنة عن إسلامها: ربِّ إني ظلمت

نفسي بما صدر مني من عبادة الشمس من دون الله، وأسلمت مع سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لله رب العالمين، وتدينت بدين الإسلام الذي هو الطاعة والانقياد لله مع الإقرار له بالوحدانية فلا شريك له ولا ربِّ سواه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذُكر أن سليمان لما أقبلت صاحبة سبإ تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحًا، وهو كهيئة السطح من قوارير، وأجرى من تحته الماء ليختبر عقلها بذلك، وفهمها على نحو الذي كانت تفعل هي من توجيهها إليه الوصائف والوصفاء ليميز بين الذكور منهم والإناث معاتبة بذلك كذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقيل: إن سليمان إنما أمر ببناء الصرح على ما وصفه الله؛ لأن الجنّ خافت من سليمان أن يتزوّجها، فأرادوا أن يُزهّدوه فيها، فقالوا: إن رجلها رجل حمار، وإن أمها كانت من الجنّ، فأراد سليمان أن يعلم حقيقة ما أخبرته الجنّ من ذلك.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ يقول: فلما رأت المرأة الصرح حسبته لبياضه واضطراب دواب الماء تحته لجة بحر، كشفت من ساقيها؛ لتخوضه إلى سليمان.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: قال سليمان لها: إن هذا ليس ببحر، إنه صرح ممرّد من قوارير، يقول: إنما هو بناء مبني مشيد من قوارير.

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ ...﴾ الآية، يقول تعالى

ذكره: قالت المرأة صاحبة سبإ: ربِّ إني ظلمت نفسي في عبادتي الشمس، وسجودي لما دونك ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ﴾ تقول: وانقدت مع سليمان مذعنة لله بالتوحيد، مفردة له بالألوهة والربوبية دون كل من سواه.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فعرفت أنها قد غلبت ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ وذلك أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أمر الشياطين فبنوا لها قصرًا عظيما من قوارير، أي: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه. واختلفوا في السبب الذي دعا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى اتخاذه، فقيل: إنه لما عزم على تزويجها واصطفائها لنفسه؛ ذكر له جمالها وحسنها، ولكن في ساقيها هُلْبٌ عظيم، ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة. فساءه ذلك، فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا؟ -هذا قول محمد بن كعب القُرَظي، وغيره- فلما دخلت وكشفت عن ساقيها، رأى أحسن الناس وأحسنه قدمًا، ولكن رأى على رجليها شعرًا؛ لأنها ملكة ليس لها بعل فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل لها: الموسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجنِّ: اصنعوا شيئًا غير الموسى يذهب به هذا الشعر، فصنعوا له النُّوْرَةَ. وكان أول من اتخذت له النّورَة[1].

❁ ❁ ❁

(١) وورد ذلك بأسانيد عن عددٍ من السلف لكن في جلِّها مقال، ولا يثبت منها شيء عن النبي ﷺ.

س: اذكر مزيدًا من الأقوال في تفسير الصرح.

ج: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وكان الصرح صحنًا من زجاج تحته ماء وفيه الحيتان، عمله ليريها مُلكًا أعظم من ملكها قاله مجاهد وقال مجاهد: كان من قوارير خلفه ماء (حسبته لُجَّة) أي: ماء وقيل: الصرح القصر عن أبي عبيدة كما قال:

تحسـب أعلامهـن الصُّـروحا

وقيل: الصرح: الصحن كما يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها بمعنى وحكى أبو عبيدة في الغريب المصنف أن الصرح كل بناء عالٍ مرتفعٍ من الأرض وأن الممرد الطويل. النحاس: أصل هذا أنه يقال لكل بناء عمل عملًا واحدًا صرح من قولهم: لبن صريح إذا لم يشبه ماء ومن قولهم: صرح بالأمر ومنه: عربي صريح وقيل: عمله ليختبر قول الجن فيها إن أمها من الجن ورجلها رجل حمار قاله وهب بن منبه. فلما رأت اللُّجة، فزعت وظنت أنه قصد بها الغرق: وتعجبت من كون كرسيه على الماء ورأت ما هالها ولم يكن لها بُدٌّ من امتثال الأمر ﴿ وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ﴾ فإذا هي أحسن الناس ساقًا سليمة مما قالت الجن غير أنها كانت كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد، قال لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها: ﴿ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ والممرد المحكوك المملس ومنه الأمرد وتمرد الرجل إذ أبطأ خروج لحيته بعد إدراكه قاله الفراء ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق عليها ورملة مرداء إذا كانت لا تنبت والممرد أيضًا المطول ومنه قيل للحصن: مارد. أبو صالح: طويل على هيئة النخلة. وابن شجرة: واسع في طوله وعرضه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أصل الصرح في كلام العرب: هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله سبحانه وتعالى إخبارًا عن فرعون -لعنه الله -أنه قال لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ الآية [غافر:٣٦، ٣٧].

والصرح: قصر في اليمن عالي البناء، والممرد أي: المبنى بناء محكمًا أملس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ أي: زجاج. وتمريد البناء تمليسه. ومارد: حصن بدومة الجندل.

والغرض أن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليُريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله – تعالى – وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرَفت أنه نبيٌّ كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله عَزَّوَجَلَّ وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديرًا.

❀ ❀ ❀

شيء من ذكر نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ
طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ
ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

[النمل: ٤٥-٥٣]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿فَرِيقَانِ - يَخۡتَصِمُونَ - تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ - ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ - طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ - تُفۡتَنُونَ - تِسۡعَةُ رَهۡطٖ - تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ - لَنُبَيِّتَنَّهُۥ - لِوَلِيِّهِۦ - مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ - وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا - عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ - خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿فَرِيقَانِ﴾	قسمان – فرقتان (مؤمنون وكافرون)
﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾	بينهما خصومة
﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾	تطلبون العقوبة وتستعجلون وقوعها بدلًا من طلبكم الرحمة والعفو والمغفرة من الله
﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾	تشاءمنا بك وبوجودك معنا (فمنذ أن رأيناك والمصائب تحل بنا)
﴿طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾	ما حلّ بكم مقدَّرٌ عند الله – عذابكم مقدر من الله عليكم (بسبب كفركم)
﴿تُفۡتَنُونَ﴾	تختبرون
﴿تِسۡعَةُ رَهۡطٖ﴾	تسعة أفراد
﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾	أقسم بعضهم لبعض بالله
﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾	لنقتلنه ليلًا
﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾	لأقربائه وأولياء دمه وعصبته

﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾	وقت هلاكه وهلاك أهله
﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا﴾	دبروا تدبيرًا، تآمروا مؤامرةً
﴿عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾	نهاية أمر تدبيرهم – جزاء تآمرهم
﴿خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾	فارغة منهم، فقد أبيدوا وأهلكوا بسبب ظلمهم

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ج: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام فاستجاب له فريق منهم وعارضه آخرون، وتخاصم الفريقان وطلب فريق الكفار نزول العذاب عليهم مكذبين به منكرين وقوعه فقالوا مكذبين وبعد أن عقروا الناقة التي أيَّدَ الله بها نبيه صالحًا عليه السلام: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فقال لهم صالحٌ عليه السلام: يا قوم لم تطلبون نزول العذاب وحلوله بكم ولا تسألون الله أن يرحمكم، هلا استغفرتم الله وتبتم إليه وسألتموه أن يرحمكم لعلكم ترحمون؟!!!

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده لا شريك له، ولا تجعلوا معه إلهًا غيره ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يقول: فلما

أتاهم صالح داعيًا لهم إلى الله صار قومه من ثمود فيما دعاهم إليه فريقين يختصمون، ففريق مصدّق صالحا مؤمن به، وفريق مكذّب به كافر بما جاء به.

وقوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال صالح لقومه: يا قوم لأيّ شيء تستعجلون بعذاب الله قبل الرحمة.

وقوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يقول: هلا تتوبون إلى الله من كفركم، فيغفر لكم ربكم عظيم جرمكم، يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ يقول: ليرحمكم ربكم باستغفاركم إياه من كفركم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين بعثه الله إليهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد: مؤمن وكافر -كقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾.

[الأعراف: ٧٥، ٧٦]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾، أي: لم تدعون بحضور العذاب، ولا تطلبون من الله رحمته؟ ولهذا قال: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ تقدم معناه ﴿فَإِذَاهُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد: أي: مؤمن وكافر قال: والخصومة ما قصَّه الله تعالى في قوله: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الأعراف: ٧٥] إلى قوله: ﴿كَٰفِرُونَ ﴾ وقيل: تخاصمهم أن كل فرقة قالت: نحن على الحق دونكم.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ قال مجاهد: بالعذاب قبل الرحمة المعنى: لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتقدمون الكفر الذي يوجب العقاب فكان الكفار يقولون لفرط الإنكار: ايتنا بالعذاب وقيل: أي: لم تفعلون ما تستحقون به العقاب لا أنهم التمسوا تعجيل العذاب ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي: هلا تتوبون إلى الله من الشرك ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ لكي ترحموا وقد تقدم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله أعلم -: أن قوم صالح عليه السلام لما دعاهم إلى الله عز وجل كذَّبوه وعارضوه، بل وتشاءموا بوجوده، فكلما حلَّت بهم مصيبة قالوا: إن المتسبب فيها صالح عليه السلام ومن معه، كأنهم قالوا: منذ أن رأيناكم والمصائب تحلُّ بنا فقال لهم صالح عليه السلام: بل الذي يقع بكم ويحلُّ بكم مقدرٌ من الله عز وجل عليكم، ولكنكم قوم تبتلون وتختبرون.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قالت ثمود لرسولها صالح: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أي: تشاءمنا بك وبمن معك من أتباعنا، وزجرنا الطير بأنا سيصيبنا بك وبهم المكاره والمصائب، فأجابهم صالح فقال لهم: ﴿طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ما زجرتم من الطير لما يصيبكم من المكاره عند الله علمه، لا يدري أيّ ذلك كائن، أما تظنون من المصائب أو المكاره، أم ما لا ترجونه من العافية والرجاء والمحاب.

وقوله: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ يقول: بل أنتم قوم تختبرون، يختبركم ربكم إذ أرسلني إليكم، أتطيعونه، فتعملون بما أمركم به، فيجزيكم الجزيل من ثوابه؟ أم تعصونه فتعملون بخلافه، فيحلّ بكم عقابه؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أي: ما رأينا على وجهك ووجوه مَنِ اتبعك خيرًا. وذلك أنهم -لشقائهم- كان لا يصيب أحدًا منهم سوء إلا قال: هذا من قبل صالح وأصحابه.

قال مجاهد: تشاءموا بهم. وهذا كما قال تعالى إخبارًا عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ [النساء: ٧٨] أي: بقضاء الله وقدره. وقال مخبرًا عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ [يس: ١٨، ١٩]. وقال هؤلاء: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: الله يجازيكم على ذلك

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ قال قتادة: تبتلون بالطاعة والمعصية.

والظاهر أن المراد بقوله: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ أي: تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾ أي تشاءمنا. والشؤم النحس. ولا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة. ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء، أو يدفع مقدورا فقد جهل. وقال الشاعر :

طيرة الدهر لا ترد قضاء فاعذر الدهر لا تشبه بلوم

أي يوم يخصه بسعود والمنايا ينزلن في كل يوم

ليس يوم إلا وفيه سعود ونحوس تجري لقوم فقوم

وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة، وكانت إذا أرادت سفرا نفرت طائرا، فإذا طار يمنة سارت وتيمنت، وإن طار شمالا رجعت وتشاءمت.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي مصائبكم. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أي تمتحنون. وقيل : تعذبون بذنوبكم.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾، قال بعض العلماء: تختبرون. وقال بعضهم: تعذبون؛ كقوله: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، وقد قدمنا أن أصل الفتنة في اللغة، وضع الذهب في النار ليختبر بالسبك أزائف هو أم خالص؟ وأنها أطلقت في القرآن على أربعة معانٍ:

الأول: إطلاقها على الإحراق بالنار؛ كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾،

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: حرقوهم بنار الأخدود على أحد التفسيرين، وقد اختاره بعض المحققين.

المعنى الثاني: إطلاق الفتنة على الاختبار، وهذا هو أكثرها استعمالاً؛ كقوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

الثالث: إطلاق الفتنة على نتيجة الاختبار إن كانت سيئة خاصة، ومن هنا أطلقت الفتنة على الكفر والضلال؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: لا يبقى شرك، وهذا التفسير الصحيح، دلَّ عليه الكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقد دلَّ عليه قوله بعده في «البقرة»: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾، وفي «الأنفال»: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾، فإنه يوضح أن معنى: ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، أي: لا يبقى شرك؛ لأن الدين لا يكون كله لله، ما دام في الأرض مشرك، كما ترى.

وأما السنة: ففي قوله ﷺ: «**أمرت أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله**»، الحديث. فقد جعل ﷺ الغاية التي ينتهي إليها قتاله للناس، هي شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وهو واضح في أن معنى: ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾: لا يبقى شرك، فالآية والحديث كلاهما دال على أن الغاية التي ينتهي إليها قتال الكفار هي ألا يبقى في الأرض شرك، إلا أنه تعالى في الآية عبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، وقد عبّر ﷺ عنه بقوله: «**حتى يشهدوا ألا إله إلا الله**»، فالغاية في الآية والحديث واحدة في المعنى، كما ترى.

الرابع: هو إطلاق الفتنة على الحجة، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ

أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي: لم تكن حجتهم، كما قاله غير واحد، والعلم عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

ج: هذا – والله أعلم – إخبار عن مكر قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بنبيهم، وكيف أن الله ﷻ قد انتقم منهم فقد كان في المدينة تسعة أشخاص تسعة نفر هم أكابر المجرمين فيها كثيرو الإفساد فيها بالكفر والظلم والدعوة إلى الكفر، وقد قيل: إنهم الذين حرضوا على قتل الناقة، الحاصل أن شأنهم الإفساد في الأرض وعدم الإصلاح فكل عملهم فساد، فتآمر هؤلاء فيما بينهم واجتمعوا وأقسم بعضهم لبعض بالله لنقتلن صالحًا وأهله من الليل ثم إذا التقينا بأولياء الدم، أولياء صالح لنقولن لهم: ما حضرنا قتل أهله، ولا رأينا ذلك ولا نعلم عن ذلك شيئًا، وإننا لصادقون فيما نقوله لكم فنووا القتل، وعزموا على الكذب.

وبنحوه قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وكان في مدينة صالح، وهي حِجر ثمود، تسعة أنفس يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وكان إفسادهم في الأرض، كفرهم بالله، ومعصيتهم إياه، وإنما خصّ الله جلّ ثناؤه هؤلاء التسعة الرهط بالخبر عنهم أنهم كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون، وإن كان أهل الكفر كلهم في الأرض مفسدين؛ لأن هؤلاء التسعة هم الذين سعوا فيما بلغنا في عقر الناقة،

وتعاونوا عليه، وتحالفوا على قتل صالح من بين قوم ثمود.وقد ذكرنا قصصهم وأخبارهم فيما مضى من كتابنا هذا.

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾ يقول تعالى ذكره: قال هؤلاء التسعة الرهط الذين يُفسدون في أرض حجر ثمود، ولا يصلحون. تقاسموا بالله: تحالفوا بالله أيها القوم، ليحلف بعضكم لبعض: لنبيتن صالحًا وأهله، فلنقتلنه، ثم لنقولن لوليه: ما شهدنا مهلك أهله.

وأورد الطبري[1] بإسناده إلى ابن إسحاق: قال التسعة الذين عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحًا، فإن كان صادقًا -يعني فيما وعدهم من العذاب بعد الثلاث- عجلناه قبله، وإن كان كاذبًا نكون قد ألحقناه بناقته، فأتوه ليلًا ليبيتوه في أهله، فدمغتهم الملائكة بالحجارة؛ فلما أبطئوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم مشدوخين قد رضخوا بالحجارة.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ نقول لوليه -وإنا لصادقون- أنا ما شهدنا مهلك أهله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهمُّوا بقتل صالح أيضًا، بأن يبيتوه في أهله ليلًا فيقتلوه غيْلَة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي: مدينة ثمود، ﴿تِسْعَةُ

(١) وفي سنده إلى ابن إسحاق عند الطبري ضعف، ولكن بين ابن إسحاق والقصة بون شاسع.

رَهْطٍ﴾ أي: تسعة نفر، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كبراء فيهم ورؤساءهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكانوا أهل كفر ومعاصٍ جمة، وجملة أمرهم أنهم يفسدون ولا يصلحون والرهط اسم للجماعة فكأنهم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم رهط والجمع أرهط وأراهط قال:

يا بؤس للحرب التي ... وضعت أراهط فاستراحوا

وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار عاقر الناقة ذكره ابن عطية.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم – ودبَّر أهل الإجرام من قوم صالحٍ، وهم التسعة نفر، دبروا لصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهله كي يقتلوه ويقتلوا أهله ودبَّر الله عَزَّ وَجَلَّ لهم ومكر بهم، فهم يرتبون لقتل صالحٍ ومن معه، وربي عَزَّ وَجَلَّ يستدرجهم من حيث لا يعلمون، فانظر بعين الاعتبار وبعين التفكر والتدبر إلى ماذا آل أمر هؤلاء وكيف كانت عاقبتهم، لقد دمرهم الله عَزَّ وَجَلَّ ودمر قومهم أجمعين، فها هي بيوتهم فارغةً منهم شاهدة على الدمار الذي حلَّ بهم وعلى النكال الذي نالهم والعذاب الذي أصابهم إن في ذلك لدلالة وعلامة على قدرتنا وانتقامنا من أعدائنا، لدلالة لقوم يعلمون قدرتنا، ويعلمون وحدانيتنا وأنه لا شريك لنا في ملكنا، ثم يخبر تعالى عن مصير أهل الإيمان والتقوى، أهل التوحيد وطاعة

الله فيقول تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ كانوا يتقون الشرك بالله، ويتقون عذاب الله وغضبه وعقابه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وغدر هؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض بصالح بمصيرهم إليه ليلًا ليقتلوه وأهله، وصالح لا يشعر بذلك ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يقول: فأخذناهم بعقوبتنا إياهم، وتعجيلنا العذاب لهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا.

وقد بيَّنا فيما مضى معنى: مكر الله، بمن مكر به، وما وجه ذلك، وأنه أخذه من أخذه منهم على غرة، أو استدراجه منهم من استدرج على كفره به، ومعصيته إياه، ثم إحلاله العقوبة به على غرة وغفلة.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ قال: احتالوا لأمرهم، واحتال الله لهم، مكروا بصالح مكرًا، ومكرنا بهم مكرًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بمكرنا وشعرنا بمكرهم، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنحن نفرغ منه وأهله قبل ذلك، وكان له مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم، وقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم، فبادروا الغار، فطبقت الصخرة عليهم فم ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم؟ ولا يدرون ما فعل بقومهم، فعذب الله تبارك وتعالى هؤلاء ههنا، وهؤلاء هنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ﴾ يقول تعالى ذكره: فانظر يا محمد بعين قلبك إلى عاقبة غدر ثمود بنبيهم صالح، كيف كانت؟ وما الذي أورثها اعتداؤهم وطغيانهم وتكذيبهم؟ فإن ذلك سنتنا فيمن كذب رسلنا، وطغى علينا من سائر الخلق، فحَذِّرْ قومك من قريش، أن ينالهم بتكذيبهم إياك، ما نال ثمود بتكذيبهم صالحا من المثلات.

وقوله: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ يقول: إنا دمرنا التسعة الرهط الذين يفسدون في الأرض من قوم صالح وقومهم من ثمود أجمعين، فلم نبق منهم أحدًا.

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ فتلك مساكنهم خاوية خالية منهم، ليس فيها منهم أحد، قد أهلكهم الله فأبادهم ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ يقول تعالى ذكره: بظلمهم أنفسهم بشركهم بالله، وتكذيبهم رسولهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في فعلنا بثمود ما قصصنا عليك يا محمد من القصة، لعظة لمن يعلم فعلنا بهم ما فعلنا، من قومك الذين يكذِّبونك فيما جئتهم به من عند ربك وعِبرة.

﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يقول: وأنجينا من نقمتنا وعذابنا الذي أحللناه بثمود رسولنا صالحًا والمؤمنين به. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ يقول: وكانوا يتقون بإيمانهم، وبتصديقهم صالحًا الذي حلَّ بقومهم من ثمود ما حل بهم من عذاب الله، فكذلك ننجيك يا محمد وأتباعك، عند إحلالنا عقوبتنا بمشركي قومك من بين أظهرهم.

وذكر أن صالحًا لما أحل الله بقومه ما أحل، خرج هو والمؤمنون به إلى الشام، فنزل رملة فلسطين.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد في الحِجْر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أي: غار هناك ليلًا فقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، ففرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضَب حيالهم، فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار، فلا يدري قومهم أين هم، ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء هاهنا، وهؤلاء هاهنا، وأنجى الله صالحًا ومن معه، ثم قرأ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ أي: فارغة ليس فيها أحد ﴿بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

❁ ❁ ❁

س: كيف أنجى الله ﷻ صالحًا والمؤمنين معه من العذاب الذي أنزله على القوم الكافرين؟

ج: ذهب بعض أهل العلم إلى أن صالحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرج بمن آمن معه وتركوا البلاد فنزل بأهلها العذاب هذا، وقد ذكر البعض في كيفية الإنجاء أقوالًا لا أعلم لها مستندًا صحيحًا، ولكن يقينًا فإن الله ﷻ أنجاهم.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(٥٨٨) أحمر أسود

قيل: آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل والباقون خرج بأبدانهم - في قول مقاتل وغيره - خراج مثل الحمص وكان في اليوم الأول أحمر ثم صار من الغد أصفر، ثم صار في الثالث أسود وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد. قال مقاتل: فقعت تلك الخراجات وصاح جبريل بهم خلال ذلك صيحة فخمدوا وكان ذلك ضحوة وخرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت فلما دخلها مات صالح فسُمِّيت حضرموت. قال الضحاك: ثم بنى الأربعة الآلاف مدينة يقال لها: حاضورا.

وكما أسلفت فليس لهذه الأقوال كبير مستندٍ ولكن الله أنجاهم كما أخبر على وجه الإجمال والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(٥٨٩) أحمر أسود

شيءٌ من ذِكر نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ٥٤
أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥ ۞ فَمَا
كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ
يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٥٧
وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨ ﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

س: وضح معنى ما يلي:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ - تُبْصِرُونَ - لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ - تَجْهَلُونَ - يَتَطَهَّرُونَ - قَدَّرْنَٰهَا - ٱلْغَٰبِرِينَ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا - فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾	أتفعلون الفعلة الفاحشة
﴿تُبْصِرُونَ﴾	يرى بعضكم بعضًا أمام بعضكم - تعلمون أنها فاحشة
﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ مِن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾	لتجامعون الرجال في أدبارهم بدلًا من النساء
﴿تَجْهَلُونَ﴾	تجهلون عاقبة أمركم - تفعلون فعل الجهلاء
﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾	يتنزهون عن أدبار الرجال - لا يأتون الرجال
﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾	كتبنا عليها
﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾	الباقين في العذاب - الهالكين
﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾	أرسلنا عليهم حجارة
﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾	فساء ذلك المطر من أُنذروا وحُذِّروا فلم يقبلوا ولم يحذروا، أي: فساءهم ذلك المطر وما سرهم وما فرحوا به بل كان نكدًا عليهم وكربا عليهم وبلاء

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: واذكر نبي الله لوطًا عليه السلام إذ قال لقومه الذين كانوا يرتكبون الفواحش القذرة المستقذرة التي لم يسبقهم إليها أحدٌ، فقد كانوا يأتون الذكران من العالمين، كان الرجل يجامع الرجل، ويترك جماع النساء، كانوا يفعلون ذلك أمام بعضهم البعض، يُبصر بعضهم بعضًا وهم يفعلون تلك الفاحشة، يفعلونها وهم يعلمون أنها فاحشة، وأنهم لم يسبقهم بها أحدٌ، فقد كانوا أهل جهل وغباء، يجهلون حتى الآداب والأخلاق، فضلًا عن جهلهم بشرائع الله واستخفافهم بها، يجهلون عقوبة من فعل ذلك ليس جهلًا عن قلة علم، بل جهل المستخف المستهزئ المنكر الجاحد، وإلا فقد حذرهم لوطٌ عليه السلام أشد التحذير، ونصحهم أبلغ نُصح وذكَّرهم أجمل تذكير، ولكن ما انتفعوا بشيء من ذلك، فما كان جواب قومه إلا أن طالبوا بإخراجه وإخراج أهله من بلادهم لا لجرمٍ فعلوه، ولكن أخرجوهم لتطهرهم!!

أخرجوهم لبعدهم عن الفواحش؟!!

أخرجوهم لامتناعهم عن أدبار الرجال ومجامعة الرجال؟!!

فحقًّا إنها انتكاسات في الأفهام، وانتكاسات في الأخلاق فضلًا عن ضياع الدين وذهابه؛ إذ يريدون إخراج المتطهر من بينهم، وطرده من بينهم.

أصبح التطهر - في عُرْف قوم لوط - جريمة يستحق فاعلها الطرد من

البلاد والإخراج منها.

فهكذا حين يُطمس على القلوب، يصبح الحق باطلًا في الأفهام ويصبح المنكر معروفًا في الأذهان، ويُطرد أهل الفضل والصلاح من البلاد، ويبقى الأشرار والأراذل وأهل الإجرام.

ولكن ربي بالمرصاد، بالمرصاد لكل من خالف شرعه وعاند رسله وكذبهم، ربي يكرم أولياءه وينتقم من أعدائه، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ ﴾ فقد كانت خائنة له في دينها تدل أهل الشرك على خباياه، وعلى من آمن به فيسومونهم سوء العذاب، تدل على أضيافه إذا جاءه أضياف فلذا قدَّر الله عليها أن تكون من المعذبين، من الغابرين الباقين في العذاب الذي لحق بقوم لوط ألا وهو المطر ولكن أي مطر! إنها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك، كل حجر عليه اسم صاحبه، حجارة من سجيل منضود، بعد أن قلَّب الله قريتهم، بعد أن جعل عاليها سافلها، أمطر عليها حجارة من سجيل منضود، فساء هذا المطر وبئس هذا المطر الذي أُمطر على هؤلاء القوم الذين أُنذروا فلم ينتفعوا بالنذر ولم تغن عنهم النذر.

وبنحو ما ذُكِرَ قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وأرسلنا لوطًا إلى قومه؛ إذ قال لهم: يا قوم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة؛ لعلمكم بأنه لم يسبقكم إلى ما تفعلون من ذلك أحد. وقوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ منكم بذلك من دون فروج النساء التي أباحها الله لكم بالنكاح. وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ يقول: ما

ذلك منكم إلا أنكم قوم سفهاء جهلة بعظيم حق الله عليكم، فخالفتم لذلك أمره، وعصيتم رسوله.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾.

يقول تعالى ذكره: فلم يكن لقوم لوط جواب له؛ إذ نهاهم عما أمره الله بنهيهم عنه من إتيان الرجال، إلا قيل بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ عما نفعله نحن من إتيان الذكران في أدبارهم.

وقال: في تأويل قوله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾.

يقول تعالى ذكره: فأنجينا لوطًا وأهله سوى امرأته من عذابنا حين أحللناه بهم، ثم ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ يقول: فإن امرأته قدرناها: جعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ من الباقين ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ وهو إمطار الله عليهم من السماء حجارة من سجيل ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يقول: فساء ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم الله عقابه على معصيتهم إياه، وخوفهم بأسه بإرسال الرسول إليهم بذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عن عبده لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة عظيمة، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، قال: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي: يرى بعضكم بعضًا، وتأتون في ناديكم المنكر؟

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أي: لا تعرفون شيئًا لا طبعًا ولا شرعًا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي: يتحرجون من فعل ما تفعلونه، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم. فعزموا على ذلك، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ أي: من الهالكين مع قومها؛ لأنها كانت ردءًا لهم على دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط؛ ليأتوا إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها.

وقوله: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ ﴾ أي: حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد؛ ولهذا قال: ﴿ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذبوه، وَهمُّوا بإخراجه من بينهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ أي: وأرسلنا لوطًا أو اذكر لوطًا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أهل سدوهم وقال لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنها فاحشة وذلك أعظم لذنوبكم وقيل: يأتي بعضكم بعضًا وأنتم تنظرون إليه وكانوا لا يستترون عتوًّا منهم

وتمردًا. ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أعاد ذكرها لفرط قبحها وشنعتها ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ إما أمر التحريم أو العقوبة واختيار الخليل وسيبويه تخفيف الهمزة الثانية من ﴿ أَئِنَّكُمْ ﴾ فأما الخط فالسبيل فيه أن يكتب بألفين على الوجوه كلها؛ لأنها همزة مبتدأة دخلت عليها ألف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ أي: عن أدبار الرجال يقولون ذلك استهزاء منهم قاله مجاهد. وقال قتادة: عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء. ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ وقرأ عاصم: (قَدَرْنَا) مخففًا والمعنى واحد ويقال: قد قدرت الشيء قدرا وقدرا وقدرته. قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ أي: من أنذر فلم يقبل الإنذار.

❁ ❁ ❁

بعض الأدلة على وحدانية الله ﷻ

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩
أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ
حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ
هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا
يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ
خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ
فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ
ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤ قُل
لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥ بَلِ
ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦﴾

[النمل: ٥٩-٦٥]

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ٱصۡطَفَىٰٓۚ - حَدَآئِقَ - ذَاتَ بَهۡجَةٖ - يَعۡدِلُونَ - قَرَارٗا - خِلَٰلَهَآ - رَوَٰسِيَ - حَاجِزًاۗ - ٱلۡمُضۡطَرَّ - وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ - خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ - تَذَكَّرُونَ - يَهۡدِيكُمۡ - بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ - تَعَٰلَى ٱللَّهُ - يَبۡدَؤُاْ - يُعِيدُهُۥ - بُرۡهَٰنَكُمۡ - ٱلۡغَيۡبَ - أَيَّانَ - ٱدَّٰرَكَ - شَكّٖ - عَمُونَ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿ٱصۡطَفَىٰٓۚ﴾	اختار ووفق للإيمان، اختار للرسالة وللنبوة
﴿حَدَآئِقَ﴾	بساتين
﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾	ذات منظر حسن بهيج يسر الناظرين
﴿يَعۡدِلُونَ﴾	يميلون عن عبادته إلى عبادة غيره – يُساوون بين الله وغيره
﴿قَرَارٗا﴾	مستقرة ساكنة
﴿خِلَٰلَهَآ﴾	بينها
﴿رَوَٰسِيَ﴾	جبالًا
﴿حَاجِزًاۗ﴾	مانعًا من اختلاط العذب بالمالح
﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾	الذي ألجأته الضرورة والحاجة وانقطع رجاؤه في الخلق ولم يعدله من ينتظر عنده الفرج إلا الله فلجأ إليه
﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾	يعافي من البلاء – يصرف المكروه
﴿خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾	يخلف بعضكم بعضًا – يأتي بعضكم خلفًا للآخر

(٥٩٨) أحمر أسود

﴿تَذَكَّرُونَ﴾	تتعظون وتعتبرون
﴿يَهْدِيكُمْ﴾	يرشدكم
﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾	مبشرات بالخير قبل نزول المطر
﴿تَعَالَى اللَّهُ﴾	تعاظم الله وتنزَّه
﴿يَبْدَؤُا﴾	يخلق الخلق لأول مرة
﴿يُعِيدُهُ﴾	يبعثه يوم القيامة
﴿بُرْهَانَكُمْ﴾	حجتكم ودليلكم
﴿الْغَيْبَ﴾	ما غاب عن البشر واستأثر الله ﷻ بعلمه كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...﴾ الآية.
﴿أَيَّانَ﴾	متى
﴿ادَّارَكَ﴾	تتام وتكامل – تتابع وتوارد
﴿شَكٍّ﴾	ريب من وقوعها
﴿عَمُونَ﴾	العمه عمى القلب، والعمى عمى البصر

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم-: ﴿قُلِ﴾ (يا رسول الله) وكذا قل يا عبد الله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه التي لا تُحصى، تلك النعم السابغة الظاهرة والباطنة وعلى آلائه التي لا تُعد.

الحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان، وكذا الحمد لله على انتقامه من الظالمين كقوم لوط وثمود وغيرهم ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ وأمانٌ من الله ﷻ وسلامة لهم من العذاب، سلام على هؤلاء المرسلين الذين اصطفاهم الله، أمانٌ عليهم فقد أمَّنهم الله وحفظهم، سلام على أمة محمد ﷺ أمان لها مما أصاب به ربنا قوم لوط الأشرار، سلام على أهل التوحيد، وقل يا رسول الله لأهل الشرك هؤلاء: آلله خيرٌ وعبادة الله وحده لا شريك له خيرٌ أم هذه الأوثان وتلك الأصنام والآلهة الباطلة وعبادتها والركوع لها والسجود؟!

فبلا شك أن الله ﷻ خير وبلا ريب ولا تردد فعبادة الله خير ولكن سلهم هذا السؤال على سبيل التوبيخ والتأنيب والتبكيت. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمه علينا، وتوفيقه إيانا لما وفّقنا من الهداية، ﴿وَسَلَٰمٌ﴾ يقول: وأمنة منه من عقابه الذي عاقب به قوم لوط، وقوم صالح، على الذين اصطفاهم، يقول: الذين اجتباهم لنبيه محمد ﷺ، فجعلهم أصحابه ووزراءه على الدِّين الذي بعثه بالدعاء إليه دون المشركين به، الجاحدين نبوة نبيه.

وقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء الذين زيَّنا لهم أعمالهم من قومك فهم يعمهون: آلله الذي أنعم على أوليائه هذه النعم التي قصَّها عليكم في هذه السورة، وأهلك أعداءه بالذي أهلكهم به من صنوف العذاب التي ذكرها لكم فيها خير، أما تشركون من أوثانكم التي لا تنفعكم ولا تضركم، ولا تدفع عن أنفسها، ولا عن أوليائها سوءًا، ولا تجلب إليها ولا إليهم نفعا؟ يقول: إن هذا الأمر لا يشكل على من له عقل، فكيف تستجيزون أن تشركوا

عبادة من لا نفع عنده لكم، ولا دفع ضر عنكم في عبادة من بيده النفع والضرّ وله كل شيء؟ ثم ابتدأ تعالى ذكره تعديد نعمه عليهم، وأياديه عندهم، وتعريفهم بقلة شكرهم إياه على ما أولاهم من ذلك، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على نعَمه على عباده، من النعم التي لا تعدُّ ولا تُحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العُلى والأسماء الحسنى، وأن يُسَلِّم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم، وهم رسله وأنبياؤه الكرام – عليهم من الله الصلاة والسلام – هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيره: إن المراد بعباده الذين اصطفى: هم الأنبياء، قال: وهو كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وقال الثوري، والسدي: هم أصحاب محمد ﷺ، ورضي عنهم أجمعين، وروي نحوه عن ابن عباس.

ولا منافاة، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى، فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر، أن يحمدوه على جميل أفعاله، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار.

قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى.

ثم شرع تعالى يبين أنه المتفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ قال الفراء: قال أهل المعاني: قيل للوط: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على هلاكهم وخالف جماعة من العلماء الفراء في هذا وقالوا: هو مخاطبة لنبينا محمد ﷺ أي: قل الحمد لله على هلاك كفار الأمم الخالية. قال النحاس: وهذا أولى لأن القرآن مُنزَّل على النبي ﷺ وكل ما فيه فهو مخاطب به عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره وقيل: المعنى أي: ﴿ قُلِ ﴾ يا محمد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ يعني: أمته عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الكلبي: اصطفاهم الله بمعرفته وطاعته وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ وقيل: أمر رسول الله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الناطقة بالبراهين على وحدانيته وقدرته على كل شيء وحكمته وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه والمصطفين من عباده وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بهما والاستظهار بمكانهما على قبول ما يلقى إلى السامعين وإصغائهم إليه وإنزاله من قلوبهم المنزلة التي يبغيها المستمع ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرًا عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله وصلوا على رسول الله ﷺ أمام كل علم مفاد وقبل كل عِظة وفي مفتتح كل خُطبة وتبعهم المترسلون فأجروا عليه أوائل كتبهم في الفتوح والتهاني وغير ذلك من الحودث التي لها شأن.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ اختار أي: لرسالته وهم الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ودليله قوله تعالى: ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨١].

❁ ❁ ❁

س: من هم العباد الذين اصطفاهم الله؟

ج: هؤلاء هم المرسلون، وكذا هم أمة محمد ﷺ وكذا السابقون من سائر الأمم.

قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

❁ ❁ ❁

س: معلوم أن الأصنام ليس فيها خيرٌ على الإطلاق ولا في عبادتها أي خيرٌ، فكيف يوجه قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾؟

ج: هذا – والله أعلم – من باب أفعل التفضيل الذي ليس في المقابل منه شيء.

كقوله تعالى: ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤].

وليس في أصحاب النار خيرٌ.

وكقول الصحابيات لعمر رضي الله عنه: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ» وليس في رسول الله ﷺ أية فظاظة ولا أية غلظة.

هذا وقد قال القرطبي رحمه الله:

(خير) ههنا ليس بمعنى أفضل منك وإنما هو مثل قول الشاعر:

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

فالمعنى: فالذي فيه الشر منكما للذي فيه الخير الفداء ولا يجوز أن يكون بمعنى (من) لأنك إذا قلت: فلان شرٌّ من فلان ففي كل واحد منهما شرٌّ وقيل:

المعنى: الخير في هذا أم في هذا الذي تشركونه في العبادة ! وحكى سيبويه: السعادة أحب إليك أم الشقاء وهو يعلم أن السعادة أحب إليه وقيل: هو على بابه من التفضيل والمعنى: الله خير أم ما تشركون، أي: أثوابه خير أم عقاب ما تشركون وقيل: قال لهم ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيرًا فخاطبهم الله ﷻ على اعتقادهم وقيل: اللفظ لفظ الاستفهام ومعناه الخبر.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أآلهتكم خيرٌ وعبادتها خيرٌ أم الله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له، ذلكم الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً يغيثكم به وينفعكم به ويحييكم به فأنبت به بساتين وحدائق ذات منظرٍ حسن بهيج ما كان بإمكانكم ولا باستطاعتكم أبدًا أن تنبتوا شجرها أمعبود يُعبد مع الله فعل هذا؟؟

كلا فلا معبود مع الله يقدر على فعل هذا، ولكنهم قوم ينصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، ويجعلون ربًّا لهم مع الله ﷻ يدعونه ويرجونه ويسألونه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره للمشركين به من قُريش: أعبادة ما تعبدون من أوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير، أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني: مطرًا، وقد يجوز أن يكون مريدًا به العيون التي

فجَّرها في الأرض؛ لأن كل ذلك من خلقه ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ يعني: بالماء الذي أنزل من السماء ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي جمع حديقة، والحديقة: البستان عليه حائط محوط، وإن لم يكن عليه حائط لم يكن حديقة. وقوله: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ يقول: ذات منظر حسن. وقيل: ذات بالتوحيد. وقد قيل: حدائق، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقد بيَّنت ذلك فيما مضى.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ يقول تعالى ذكره: أنبتنا بالماء الذي أنزلناه من السماء لكم هذه الحدائق؛ إذ لم يكن لكم لولا أنه أنزل عليكم الماء من السماء، طاقة أن تنبتوا شجر هذه الحدائق، ولم تكونوا قادرين على ذهاب ذلك؛ لأنه لا يصلح ذلك إلا بالماء.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يقول تعالى ذكره: أمعبود مع الله أيها الجهلة خلق ذلك، وأنزل من السماء الماء، فأنبت به لكم الحدائق؟ فقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ﴾ مردود على تأويل: أمع الله إله، ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: بل هؤلاء المشركون قوم ضلال، يعدلون عن الحق، ويجورون عليه، على عمد منهم لذلك، مع علمهم بأنهم على خطإ وضلال ولم يعدلوا عن جهل منهم، بأن من لا يقدر على نفع ولا ضر، خير ممن خلق السموات والأرض، وفعل هذه الأفعال، ولكنهم عدلوا على علم منهم ومعرفة، اقتفاء منهم سُنة من مضى قبلهم من آبائهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فقال: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: تلك السموات بارتفاعها وصفائها وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي

والقفار، والأشجار والزروع، والثمار والبحور والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك.

وقوله: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ أي: جعله رزقا للعباد، ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ﴾ أي: بساتين ﴿ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا ﴾ أي: منظر حسن وشكل بهي، ﴿كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ ﴾ أي: لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المنفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد، كما يعترف به هؤلاء المشركون، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٣] أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرَدَ بالعبادة مَن هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: أإله مع الله يعبد. وقد تبين لكم، ولكل ذي لُبٍّ مما يعرفون به أيضًا أنه الخالق الرازق.

ومن المفسرين من يقول: معنى قوله: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: أإله مع الله فعل هذا. وهو يرجع إلى معنى الأول؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون: ليس ثَمَّ أحدٌ فعل هذا معه، بل هو المتفرد به. فيقال: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والتدبير؟ كما قال: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ [النحل: ١٧].

وقوله هاهنا: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾: ﴿ أَمَّنۡ ﴾ في هذه الآيات تقديره: أمن يفعل هذه الأشياء كَمَنْ لا يقدر على شيء منها؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾.

ثم قال في آخر الآية: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أي: يجعلون لله عدلًا ونظيرًا. وهكذا قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر: ٩] أي: أمن هو هكذا كَمَنْ ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: أَمَنْ هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيره، كَمَنْ هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التي عبدوها؟ ولهذا قال: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ قال أبو حاتم: تقديره آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقد تقدم ومعناه: قدر على خلقهن وقيل: المعنى أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق السموات والأرض؟ فهو مردود على ما قبله من المعنى وفيه معنى التوبيخ لهم والتنبيه على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وعجز آلهتهم ﴿ فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ الحديقة البستان الذي عليه حائط والبهجة المنظر الحسن. قال الفراء: الحديقة البستان المحظر عليه حائط وإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة وقال قتادة وعكرمة: الحدائق النخل ذات بهجة والبهجة الزينة والحسن يبهج به من رآه ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ (ما) للنفي ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا أي: ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم ولا يقع تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ إذ هم عجزة عن مثلها لأن ذلك إخراج الشيء من العدم إلى الوجود.

ثم قال على جهة التوبيخ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: هل معبود مع الله يعينه على ذلك؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ بالله غيره وقيل: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ عن الحق والقصد أي: يكفرون وقيل: (إله) مرفوع بـ(مع) تقديره: أمع الله ويلكم إله والوقف على (مع الله) حسن.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ج: المعنى –والله أعلم-: آلهتكم خيرٌ وعبادتها خيرٌ أم الله ﷻ وعبادته وحده لا شريك له ذلكم الله الذي جعل لكم الأرض مستقرةً بكم لا تميد بكم بل ثابتة كي تسيروا عليها وتقضوا عليها حوائجكم، وجعل خلالها أنهارًا وشقها فيها وجعلها جارية بما ينفع العباد، وكذا جعل في الأرض جبالًا رواسي هي سبب في استقرارها وثباتها وكذا جعل بين البحر المالح والماء العذب حاجزًا يحجز هذا عن ذاك حتى لا يختلط به ويفسد على الناس معايشهم، أمعبود مع الله ﷻ يفعل ذلك؟! كلا فلا معبود مع الله يفعل ذلك، ولكن أكثرهم جهلة لا يعلمون عظمة الله ولا يعلمون قدره، ولا يقدرونه حق قدره ومن ثَمَّ فلا يخلصون العبادة له وحده لا شريك له لجهلهم قدره ﷻ.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أعبادة ما تشركون أيها الناس بربكم خير وهو لا يضر ولا ينفع، أم الذي جعل الأرض لكم قرارًا تستقرون عليها لا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ﴾ لكم ﴿خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ يقول: بينها أنهارًا ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ وهي ثوابت الجبال،

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بين العذب والملح، أن يفسد أحدهما صاحبه ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سواه فعل هذه الأشياء فأشركتموه في عبادتكم إياه؟

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله، وما عليهم من الضر في إشراكهم في عبادة الله غيره، وما لهم من النفع في إفرادهم الله بالألوهة، وإخلاصهم له العبادة، وبراءتهم من كل معبود سواه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي: قارة ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهادًا بساطًا ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾.

[غافر: ٦٤]

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي: جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم؛ حيث ذرأهم من أرجاء الأرض، سَيَّرَ لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا شامخة ترسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أي: جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزًا، أي: مانعًا يمنعها من الاختلاط؛ لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس. والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالًا

تسقى الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحًا أجاجًا؛ لئلا يفسد الهواء بريحها، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]؛ ولهذا قال: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي: فعل هذا؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: في عبادتهم غيره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أي: مستقرًا ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾ أي: وسطها مثل: ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ ﴾ يعني: جبالًا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ مانعًا من قدرته لئلا يختلط الأُجاج بالعذاب. وقال ابن عباس: سلطانًا من قدرته فلا هذا يُغيِّر ذاك ولا ذاك يغير هذا والحجز: المنع ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ أي: إذا ثبت أنه لا يقدر على هذا غيره فلم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع؟! ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني كأنهم يجهلون الله فلا يعلمون ما يجب له من الوحدانية.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: أآلهتكم التي جعلتموها ندًّا لله، وعبادتها خير أم الله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له أم الله الذي يجيب من ألجأته الضرورة والحاجة إليه، فالمضطر هو الذي انقطع وعجز عن كل الأسباب ولم يعد له في

(٦١٠) أحمر أسود

الدنيا بابٌ يلتمسه فكل الأبواب أغلقت في وجهه، فاتجه حينئذٍ إلى الله ﷻ يسأله ويرجوه أن يمنحه ويعطيه ويكشف عنه الضرَّ، آلله الذي يجيب المضطر ويكشف الضر، ويصرف السوء والمكروه، ويجعل الخلق خلفاء على هذه الأرض يخلف بعضهم بعضًا عليها، أمعبود معه؟؟ كلا فلا إله إلا الله ولا ربَّ سواه ولا معبود غيره، ولكن قلَّ اتعاظكم، وقلَّ من يتعظ منكم، وقلَّ من ينتفع بالذكرى منكم.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم ما تُشركون بالله خير، أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ يقول: ويستخلف بعد أمرائكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم. وقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ يقول: أإله مع الله سواه يفعل هذه الأشياء بكم، وينعم عليكم هذه النعم؟ وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تَذَكُّرًا قليلًا من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ينبه تعالى أنه هو المدعُو عند الشدائد، المرجُو عند النوازل، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]. وهكذا قال هاهنا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أي: مَنْ هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: يُخْلِفُ قرنًا لقرن قبلهم وخَلَفًا لسلف، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا كما قدمنا تقريره. وهكذا هذه الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، وقومًا بعد قوم. ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضَهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب. ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحدًا حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد، فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض. ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يُكَثِّرهم غاية الكثرة، ويذرأهم في الأرض، ويجعلهم قرونًا بعد قرون، وأممًا بعد أمم؛ حتى ينقضي الأجل وتفرغ البَشرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعَدَّهم عَدًّا، ثم يقيم القيامة، ويُوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ أي: يقدر على ذلك، أو أإله مع الله يُعْبد، وقد علم أن الله هو المنفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق، ويهديهم إلى الصراط المستقيم.

(٦١٢) أحمر أسود

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه وأخبر بذلك عن نفسه والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجاء ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه وللإخلاص عنده سبحانه موقع وذمة وُجِدَ من مؤمن أو كافر طائع أو فاجر كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالمظلوم مضطر ويقرب منه المسافر لأنه منقطع عن الأهل والوطن منفرد عن الصديق والحميم لا يسكن قلبه إلى مسعد ولا مُعين لغربته فتصدق ضرورته إلى المولى فيخلص إليه في اللجاء وهو المجيب للمضطر إذا دعاه وكذلك دعوة الوالد على ولده لا تصدر منه مع ما يعلم من حنته عليه وشفقته إلا عند تكامل عجزه عنه وصدق ضرورته وإياسه عن برِّ ولده مع وجود أذيته فيسرع الحق إلى إجابته.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: آلهتكم التي تعبدون من دون الله خيرٌ أم الله ﷻ الذي يهديكم إذا ضللتم في ظلمات البر والبحر، بما أودعه في الكون من آياته ودلالاته كالنجوم التي تهتدون بها كما قال: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل: ١٦] وبما رزقكم من الأفهام التي تهتدون بها.

وكذا الذي أرسل الرياح قبيل نزول المطر تبشركم بنزوله بعد أن يئستم من رحمة الله، أمعبود يفعل ذلك غير الله؟ كلا، بل الله يفعل ذلك وحده لا شريك له – تعالى الله عن شرككم علوًّا كبيرًا.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير، أم الذي يهديكم في ظلمات البر والبحر إذا ضللتم فيهما الطريق، فأظلمت عليكم السبل فيهما؟

قوله: ﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ﴾ يقول: والذي يرسل الرياح نُشرًا لموتان الأرض بين يدي رحمته، يعني: قدام الغيث الذي يحيي موات الأرض. وقوله: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أإله مع الله سوى الله يفعل بكم شيئًا من ذلك فتعبدوه من دونه، أو تشركوه في عبادتكم إياه ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ يقول: لله العلو والرفعة عن شرككم الذي تشركون به، وعبادتكم معه ما تعبدون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول: ﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ أي: بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية، كما قال: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ ﴾ الآية.
[الأنعام: ٩٧]

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: بين يدي السحاب الذي فيه مطر، يغيث به عباده المجدبين الأزلين القنطين، ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يرشدكم الطريق ﴿فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ إذا سافرتم إلى البلاد التي تتوجهون إليها بالليل والنهار وقيل: وجعل مفاوز البر التي لا أعلام لها ولجج البحار كأنها ظلمات لأنه ليس لها علم يهتدى به ومن يرسل الرياح نشرًا بين يدي رحمته أي: قدام المطر باتفاق أهل التأويل ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يفعل ذلك ويعينه عليه ﴿تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من دونه.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: آلهتكم التي عبدتموها من دون الله خير؟ أم الله عَزَّ وَجَلَّ الذي خلق الخَلْقِ لأول مرة، وقد اعترفتم بذلك وأقررتم به، آلله الذي خلق الخَلْق لأول مرة، ثم يميتهم ثم يحييهم، والذي يرزقكم من السموات من غيث والأرض من نباتها وكنوزها أمعبود يفعل ذلك مع الله؟! كلا فلا ربَّ غيره ولا معبود سواه، فإن زعمتم أن معه إلهًا فهاتوا دليلكم وبرهانكم على هذا إن كنتم صادقين في دعواكم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون أيها القوم خير، أم الذي يبدأ الخلق ثم

يعيده، فينشئه من غير أصل، ويبتدعه ثم يفنيه إذا شاء، ثم يعيده إذا أراد كهيئته قبل أن يفنيه، والذي يرزقكم من السماء والأرض فينزل من هذه الغيث، وينبت من هذه النبات لأقواتكم، وأقوات أنعامكم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سوى الله يفعل ذلك؟ وإن زعموا أن إلهًا غير الله يفعل ذلك أو شيئًا منه فـ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي: حجتكم على أن شيئا سوى الله يفعل ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم. ومن التي في «أمَّن» و«ما» مبتدأ في قوله: أما يشركون، والآيات بعدها إلى قوله: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أي: هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق، ثم يعيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]، وقال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركًا فيسكنه في الأرض، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير، وغير ذلك من ألوان شتى، ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: فعل هذا؟ وعلى القول الآخر: يعبد؟ ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كانوا يقرون أنه الخالق الرازق فألزمهم الإعادة أي: إذا قدر على الابتداء فمن ضرورته القدرة على الإعادة وهو أهون عليه ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويبدئ ويعيد ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم أن لي شريكًا أو حجتكم في أنه صنع أحد شيئا من هذه الأشياء غير الله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: قل يا رسول الله للسائلين عن الساعة – عن القيامة – متى هي؟ قل لهم: لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الذي استأثر الله بعلمه إلا الله، ومن ذلك الغيب وقت قيام الساعة، فلا يعلم أحدٌ متى تقوم الساعة إلا الله وما يشعر هؤلاء متى يبعثون من قبورهم، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُل﴾ يا محمد لسائليك من المشركين عن الساعة متى هي قائمة؟ ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ﴾ الذي قد استأثر الله بعلمه، وحجب عنه خلقه غيره والساعة من ذلك ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يدري من في السموات والأرض من خلقه متى هم مبعوثون من قبورهم لقيام الساعة.

وأورد بسندٍ صحيح عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: من زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد، فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

﴿ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول معلمًا لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ استثناء منقطع، أي: لا يعلم أحد ذلك إلا الله ﷻ فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له، كما قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ﴾ الآية [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة، كما قال: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، أي: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

❁ ❁ ❁

س: في قوله تعالى: ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ قراءتان، وضحهما.

ج: القراءة الأولى: (أدرك).

والثانية: (ادَّارك).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء أهل المدينة سوى أبي جعفر وعامة قراء أهل الكوفة: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ بكسر اللام من «بل» وتشديد الدال من «ادراك»، بمعنى: بل تدارك علمهم

(١) مسلم (١١٧).

أي: تتابع علمهم بالآخرة هل هي كائنة أم لا، ثم أُدغمت التاء في الدال كما قيل: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨] وقد بيَّنا ذلك فيما مضى بما فيه الكفاية من إعادته.

وقرأته عامة قراء أهل مكة: «بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ» بسكون الدال وفتح الألف، بمعنى: هل أدرك علمهم علم الآخرة؟

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ج: أولًا:

تأويل الآية على قراءة من قرأ (ادارك) معناها بل تم علمهم بالساعة يوم القيامة، أما في الدنيا فقد كانوا متشككين في وقوعها، وفي عماية عنها وكانت قلوبهم في عمًى عنها.

أو بصياغة أُخرى: إن هؤلاء المنكرين للقيامة كَمُلَ علمهم بوقوعها يوم القيامة؛ حيث لا ينفعهم حينئذٍ علم، وقد كانوا في دنياهم في شك منها وارتياب، وكانت قلوبهم في عمًى عن وقوعها، وهم وإن كان علمهم تكامل في الآخرة إلا أن إيمانهم آنذاك لم ينفعهم.

هذا هو الوجه الأول: على قراءة من قرأ (ادارك).

والوجه الثاني: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة، فهذا يقول فيها قولًا وآخر يقول فيها قولًا، وهكذا تتابعت أقوالهم في شأنها هل هي كائنة أم لن تكون؟! وكلٌّ أدلى برأيه في ذلك، بل هم إجمالًا في شكٍّ من وقوعها وفي عماية عنها وعن العمل لها.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أصل: «آدَّارَكَ» تدارك؛ أدغمت الدال في التاء وجيء بألف الوصل؛ وفي معناه قولان: أحدهما: أن المعنى بل تكامل علمهم في الآخرة؛ لأنهم رأوا كل ما وُعِدوا به معاينة فتكامل علمهم به. والقول الآخر أن المعنى: بل تتابع علمهم اليوم في الآخرة؛ فقالوا تكون وقالوا لا تكون.

ثانيًا:

أما القراءة الثانية **(بل أدرك علمهم في الآخرة)** فمعناها قريب من المعنى الأول، وحاصله بل أدرك علمهم في الآخرة حقيقتها حين عاينوها وقد كانوا في الدنيا في شكٍّ منها، بل وقد كانت قلوبهم في عمًى عن وقوعها. ولكن لا ينفعهم علمهم بها في الآخرة.

والوجه الثاني في معناها على قراءة (أدرك) بمعنى تساوى علمهم في شأن الآخرة ألا وهو عدم المعرفة بوقتها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقرأ آخرون: «بل أدرك علمهم»، أي: تساوى علمهم في ذلك، كما في الصحيح لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة -: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟**» أي: تساوى في العجز عن دَرْك ذلك علم المسؤول والسائل.

وقوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ عائد على الجنس، والمراد: الكافرون، كما قال تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٤٨] أي: الكافرون منكم. وهكذا قال هاهنا: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ﴾ أي: شاكُّون في وجودها ووقوعها، ﴿ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ أي: في

(٦٢٠) أحمر أسود

عمَاية وجهل كبير في أمرها وشأنها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

القراءة الثانية فيها أيضًا قولان: أحدهما: أن معناه كَمُلَ في الآخرة وهو مثل الأول. قال مجاهد: معناه يدرك علمهم في الآخرة ويعلمونها إذا عاينوها حين لا ينفعهم علمهم لأنهم كانوا في الدنيا مكذبين والقول الآخر: أنه على معنى الإنكار وهو مذهب أبي إسحاق واستدل على صحة هذا القول بأن بعده ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ أي: لم يدرك علمهم علم الآخرة وقيل: بل ضَلَّ وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب على قراءة من قرأ «بَلْ أَدْرَكَ» القول الذي ذكرناه عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس، وهو أن معناه: إذا قرئ كذلك ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ بل أدرك علمهم نفس وقت ذلك في الآخرة حين يبعثون، فلا ينفعهم علمهم به حينئذٍ، فأما في الدنيا فإنهم منها في شك، بل هم منها عمون.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما على قراءة من قرأه ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ ﴾ بكسر اللام وتشديد الدال، فالقول الذي ذكرنا عن مجاهد، وهو أن يكون معنى بل: أم، والعرب تضع أم موضع بل، وموضع بل: أم، إذا كان في أول الكلام استفهام كما قال الشاعر:

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَسَلْمَى تَغَوَّلَتْ ... أَمِ النَّوْمُ أَمْ كُلٌّ إِلَيَّ حَبِيبُ

يعني بذلك بل كل إلي حبيب، فيكون تأويل الكلام: وما يشعرون أيان يبعثون، بل تدارك علمهم في الآخرة يعني: تتابع علمهم في الآخرة أي: بعلم

الآخرة أي: لم يتتابع بذلك ولم يعلموه، بل غاب علمهم عنه، وضل فلم يبلغوه ولم يدركوه.

وقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ﴾ يقول: بل هؤلاء المشركون الذين يسألونك عن الساعة في شكٍّ من قيامها، لا يوقنون بها ولا يصدقون بأنهم مبعوثون من بعد الموت ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ يقول: بل هم من العلم بقيامها عمون.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

أظهر أقوال أهل العلم عندي في هذه الآية الكريمة أن المعنى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾، أي: تكامل علمهم في الآخرة حين يعاينونها، أي: يعلمون في الآخرة علمًا كاملاً، ما كانوا يجهلونه في الدنيا، وقوله: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾، أي: في دار الدنيا، فهذا الذي كانوا يشكون فيه في دار الدنيا، ويعمون عنه مما جاءتهم به الرسل، يعلمونه في الآخرة علمًا كاملاً لا يخالجه شك، عند معاينتهم لما كانوا ينكرونه منه البعث والجزاء.

وإنما اخترنا هذا القول دون غيره من أقوال المفسرين في الآية؛ لأن القرآن دلَّ عليه دلالة واضحة في آيات متعددة؛ كقوله تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، فقوله: ﴿ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ ﴾، بمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم للحق الذي كانوا ينكرونه يوم يأتوننا، أي: يوم القيامة، وهذا يوضح معنى قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾، أي: تكامل علمهم فيها لمبالغتهم في سمع الحق وإبصاره في ذلك الوقت، وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، يوضح معنى قوله: ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾، لأن ضلالهم المبين اليوم، أي: في دار الدنيا، هو شكهم في الآخرة، وعماهم عنها؛

وكقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، أي: علمك اليوم بما كنت تنكره في الدنيا مما جاءتك به الرسل حديد، أي: قوي كامل.

❁ ❁ ❁

(٦٢٣) أحمر أسود

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا
نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ
كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ
٧٠ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم
بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا
يَشۡكُرُونَ ٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ
ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي
بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩
إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ
عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١ ﴾

[النمل: ٦٧-٨١]

(٦٢٤) أحمر أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿لَمُخْرَجُونَ - أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ - عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ - ٱلْوَعْدُ - رَدِفَ لَكُم - تَسْتَعْجِلُونَ - تُكِنُّ - غَآئِبَةٍ - كِتَٰبٍ مُّبِينٍ - يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ - بِحُكْمِهِۦ - فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ - ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ - ٱلصُّمَّ - وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ - بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ - إِن تُسْمِعُ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿لَمُخْرَجُونَ﴾	لمخرجون أحياءً من قبورنا يوم القيامة – لمبعوثون
﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾	ما سطره الأولون الذين سبقونا من الخرافات والحكايات والقصص
﴿عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾	نهاية أمر أهل الإجرام
﴿ٱلْوَعْدُ﴾	الوعد بالعذاب – ما تعدنا به من العذاب
﴿رَدِفَ لَكُم﴾	دنا واقترب
﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾	تطلبون وقوعه عاجلًا
﴿تُكِنُّ﴾	تُخفي
﴿غَآئِبَةٍ﴾	أي أمرٍ غائب
﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾	المراد اللوح المحفوظ
﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾	يخبرهم – يخبر بني إسرائيل بحقيقة الأمور التي يختلفون فيها
﴿بِحُكْمِهِۦ﴾	بعدله وقضائه

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾	فاعتمد على الله
﴿ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾	الحق الواضح الظاهر – الحق المظهر لمن تأمله أنه الحق الذي لا مرية فيه
﴿ٱلصُّمَّ﴾	الذين لا يسمعون
﴿وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾	انصرفوا معرضين
﴿بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾	بموفق عُمي البصيرة وبمنقذهم من ضلالتهم
﴿إِن تُسْمِعُ﴾	ما تسمع

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝٦٧ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: وقال الذين جحدوا وحدانية الله ﷻ وعبدوا معه غيره، قالوا منكرين للبعث والثواب والعقاب، قالوا: إئذا كنا ترابًا بعد موتنا، وقد كان آباؤنا من قبل ترابًا كذلك أسنعود أحياءً ويعود آباؤنا أحياءً بعد الممات وبعد صيرورتنا إلى تراب؟ لقد وُعدنا هذا، لقد وعدتنا يا محمد بهذا من قبل مرات ومرات، وكذا وُعد آباؤنا بهذا من قبل مرات ومرات، ولم يتحقق شيءٌ من الذي وعدنا به نحن وآباؤنا فما هذا الذي ذكرتموه لنا إلا أساطير سطَّرها الأولون وخرافات كتبوها في كتبهم ليس لها في الواقع حقيقة.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال الذين كفروا بالله: أئنا لمخرجون من قبورنا أحياء،

كهيئتنا من بعد مماتنا بعد أن كنا فيها ترابًا قد بلينا؟ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ يقول: لقد وَعَدنا هذا من قبل محمد واعدون، وعدوا ذلك آباءنا، فلم نر لذلك حقيقة، ولم نتبين له صحة ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يقول: قالوا: ما هذا الوعد إلا ما سطَّر الأولون من الأكاذيب في كتبهم، فأثبتوه فيها وتحدثوا به من غير أن يكون له صحة.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا عن منكري البعث من المشركين: أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظامًا ورفاتًا وترابًا ثم قال: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعًا.

وقولهم: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾: يعنون: ما هذا الوعد بإعادة الأبدان، ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: أخذه قوم عمَّن قبلهم، مَنْ قبلهم يتلقاه بعضهم عن بعض، وليس له حقيقة.

قال الله تعالى مجيبًا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد:

❊ ❊ ❊

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: قل يا رسول الله لهؤلاء المنكرين للبعث الجاحدين وحدانية الله، سيروا في الأرض أيها الناس فانظروا إلى مدائن قوم لوط، وإلى ديار عادٍ وثمود، وإلى القرى التي أبادها الله وأفناها ودمرها، تلك القرى التي قالت بنحو قولكم وكذَّبت كتكذيبكم، انظروا كيف كان عقاب الله

لهم واعتبروا بذلك، فمنهم من خسف الله به الأرض ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أغرقه الله ومنهم من أرسلنا عليهم الريح العقيم، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظُّلَّة، إلى غير ذلك من صور العذاب، فانظروا إليهم بعين الاعتبار والاتعاظ فلا تحزن يا رسول الله على قومك المكذبين لك فالله أعلم بهم، وهو ناصرك فلا تكن في حرج ولا في ضيق مما يخوفونك به، ومما يمكرون بك فيه.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين ما جئتهم به من الأنباء من عند ربك: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾ إلى ديار من كان قبلكم من المكذبين رسل الله ومساكنهم كيف هي، ألم يخربها الله، ويهلك أهلها بتكذيبهم رسلهم، وردهم عليهم نصائحهم فخلت منهم الديار وتعفَّت منهم الرسوم والآثار، فإن ذلك كان عاقبة إجرامهم، وذلك سنة ربكم في كل من سلك سبيلهم في تكذيب رسل ربهم، والله فاعل ذلك بكم إن أنتم لم تبادروا الإنابة من كفركم وتكذيبكم رسول ربكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولا تحزن على إدبار هؤلاء المشركين عنك وتكذيبهم لك ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ يقول: ولا يضيق صدرك من مكرهم بك، فإن الله ناصرك عليهم، ومهلكهم قتلًا بالسيف.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قولـه تعـالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ﴿قُلۡ﴾ لهـؤلاء الكفـار ﴿سِيرُواْ﴾ في بلاد الشام والحجاز واليمن ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ أي: بقلوبكم وبصائركم ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المكذبين لرسلهم. ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على كفار مكة إن لـم يؤمنوا ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ في حرج ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ نزلـت في المستهزئين الـذين اقتسموا عقاب مكة وقد تقدم ذكرهم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿قُلۡ﴾ يـا محمـد لهـؤلاء: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: المكذِّبين بالرسل وما جاءوهم به من أمر المعاد وغيره، كيف حلت بهم نقَمُ الله وعذابه ونكالـه، ونجَّى الله من بينهم رسله الكرام وَمَنِ اتبعهم من المؤمنين، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته.

ثم قال تعالى مسليًا لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه-: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: المكذبين بما جئت به، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات، ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ أي: في كيدك وردِّ ما جئت به، فإن الله مؤيدك وناصرك، ومظهرٌ دينك على مَنْ خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ج: المعنـى - والله تعـالى أعلـم-: ويقولـون: (أي: ويقـول أهـل الشـرك والتكذيب بالبعث) متى هذا الوعد بقيام الساعة وبالثواب وبالعقاب إن كنتم صادقين يا أهل الإسلام في دعواكم إن الساعة قائمة؟! فقل لهؤلاء المنكرين

المستعجلين للعذاب: عسى أن يكون قد اقترب العذاب الذي تستعجلونه، فقوله: ﴿رَدِفَ﴾ بمعنى اقترب ودنا. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويقول مشركو قومك يا محمد، المكذبوك فيما أتيتهم به من عند ربك ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدُناه من العذاب، الذي هو بنا فيما تقول حال ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا به ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ يقول جل جلاله: قل لهم يا محمد: عسى أن يكون اقترب لكم ودنا ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من عذاب الله.

وقال الطبري أيضًا:

واختلف أهل العربية في وجه دخول اللام في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ وكلام العرب المعروف: ردفه أمرٌ، وأردفه، كما يقال: تبعه وأتبعه، فقال بعض نحويي البصرة: أدخل اللام في ذلك فأضاف بها الفعل كما يقال: ﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، و﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وقال بعض نحويي الكوفة: أدخل اللام في ذلك للمعنى؛ لأن معناه: دنا لهم، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَها الحَاجَاتُ يَطْرَحْنَ بالفَتى

فأدخل الباء في يطرحن، وإنما يقال طرحته؛ لأن معنى الطرح: الرمي، فأدخل الباء للمعنى؛ إذ كان معنى ذلك يرمين بالفتى، وهذا القول الثاني هو أولاهما عندي بالصواب، وقد مضى البيان عن نظائره في غير موضع من الكتاب، بما أغنى عن تكراره في هذا الموضع.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن المشركين، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ قال الله مجيبًا لهم: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾. [قال ابن عباس أن يكون قرب –أو: أن يقرب –لكم بعض الذي تستعجلون]. وهكذا قال مجاهد، والضحاك، وعطاء الخراساني، وقتادة، والسدي.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقال تعالى ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وإنما دخلت «اللام» في قوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ ؛ لأنه ضُمن معنى «عَجِل لكم» كما قال مجاهد في رواية عنه: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم ﴾: عجل لكم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ من العذاب فكان ذلك يوم بدر. وقيل: عذاب القبر.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾؟

ج: المعنى – والله أعلم –: وإن ربك لذو نعم على الناس؛ إذ يؤخر عنهم العذاب والعقاب كي يتوبوا، ونعمه عليهم لا تحصى ويرزقهم مع عصيانهم له ولكن أكثر الناس لا يقدمون لذلك شكرًا، وإن ربك ليعلم ما تخفيه

صدورهم، وما يظهرونه من الأقوال والأعمال وكل شيء ربي به عليم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بتركه معاجلتهم بالعقوبة على معصيتهم إياه، وكفرهم به، وذو إحسان إليهم في ذلك وفي غيره من نعمه عندهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرونه على ذلك من إحسانه وفضله عليهم، فيخلصوا له العبادة، ولكنهم يشركون معه في العبادة ما يضرهم ولا ينفعهم ومن لا فضل له عندهم ولا إحسان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يقول: وإن ربك ليعلم ضمائر صدور خلقه، ومكنون أنفسهم، وخفي أسرارهم، وعلانية أمورهم الظاهرة، لا يخفى عليه شيء من ذلك، وهو محصيها عليهم حتى يجازي جميعهم بالإحسان إحسانًا وبالإساءة جزاءها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: يعلم السرائر والضمائر، كما يعلم الظواهر، ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: ٥].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وما من أمرٍ غائب عن الناس عن علمهم وعن

أعينهم وعن حواسهم، أي أمر كان في السماء والأرض، إلا وعلمه عند الله ﷻ في كتاب مبين لمن نظر فيه أن الله يعلم ذلك تمام العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَامِنْ﴾ مكتوم سر وخفي أمر يغيب عن أبصار الناظرين ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ وهو أم الكتاب الذي أثبت ربُّنا فيه كلّ ما هو كائن من لدن ابتدا خلق خلقه إلى يوم القيامة. ويعني بقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنه يبين لمن نظر إليه، وقرأ ما فيه مما أثبت فيه ربنا جل ثناؤه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: ﴿وَمَامِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يعني: وما من شيء، ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَمَامِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ قال الحسن: الغائبة هنا القيامة وقيل: ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض حكاه النقاش. وقال ابن شجرة: الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم وهذا عامٌّ وإنما دخلت الهاء في ﴿غَآئِبَةٍ﴾ إشارة إلى الجمع أي: ما من خصلة غائبة عن الخَلْق إلا والله عالم بها قد أثبتها في أمِّ الكتاب عنده فكيف يخفى عليه ما يسرُّ هؤلاء وما يعلنونه وقيل: أي كل شيء هو مثبت في أُمِّ

الكتاب يخرجه للأجل المؤجل له فالذي يستعجلونه من العذاب له أجل مضروب لا يتأخر عنه ولا يتقدم عليه والكتاب اللوح المحفوظ أثبت الله فيه ما أراد ليعلم بذلك من يشاء من ملائكته.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۝٧٦﴾.

ج: المعنى –والله أعلم–: إن هذا القرآن الذي أنزلناه عليك يا رسول الله يقص القصص الحق في أكثر المسائل التي يختلف فيها الإسرائيليون، وذلك أنهم اختلفوا فيما بينهم في مسائل كثيرة فنزل كتاب الله ﷻ ببيان وجوه الحق والصواب فيها كاختلافهم الشديد المتباين في شأن عيسى عليه السلام؛ إذ اتهمته اليهود بأشد الاتهامات وكذا اتهموا أمه بأشد الاتهامات، وهما بريئان من تلك التهم، وغالت فيه النصارى أشد الغلو فأنزلوه منزلة الإله ونسبوه إلى الله يعنون بذلك أنه ابنٌ لله ﷻ وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

إلى غير ذلك من صور الاختلافات التي جرت بين الإسرائيليين فنزل القرآن بالفصل فيها.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلته إليك يا محمد يقص على بني إسرائيل الحق، في أكثر الأشياء التي اختلفوا فيها، وذلك كالذي اختلفوا فيه من أمر عيسى، فقالت اليهود فيه ما قالت، وقالت النصارى فيه ما قالت، وتبرأ

لاختلافهم فيه هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء، وغير ذلك من الأمور التي اختلفوا فيها، فقال جل ثناؤه لهم: إن هذا القرآن يقص عليكم الحق فيما اختلفتم فيه فاتبعوه، وأقروا لما فيه، فإنه يقصُّ عليكم بالحق، ويهديكم إلى سبيل الرشاد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبينات والفرقان: إنه يقصُّ على بني إسرائيل -وهم حملة التوراة والإنجيل- ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا، والنصارى غَلَوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام - عليه الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وذلك أنهم اختلفوا في كثير من الأشياء حتى لعن بعضهم بعضًا فنزلت والمعنى: إن هذا القرآن يبين لهم ما اختلفوا فيه لو أخذوا به وذلك ما حرفوه من التوراة والإنجيل وما سقط من كتبهم من الأحكام.

❀ ❀ ❀

س: لماذا قيل: ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقل كل الذي فيه يختلفون؟

ج: ذلك – والله أعلم – سترًا عليهم ولعدم فضيحتهم، فقد اختلفوا في أمور لو ظهرت الحقائق فيها لكان في ذلك فضيحة عظيمة لهم فهنالك أمور فعلوها فمسخوا قردة وخنازير، وأمور أُخر لم تُذكر سترًا عليهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴾. أي ويستر على كثير لا يخبركم به.

هذا، وثَمَّ توجيه آخر لقوله: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ حاصله أن هناك مسائل يختلفون فيها تنطعًا وجدالًا لا تستحق أن تُذكر فأهمل ذكرها والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: وإن هذا القرآن لدلالة على الحق لأهل الإيمان، يدلهم على الحق والخير وطريق الجنان، ويوفقون بسببه لسلوك هذا الطريق المستقيم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن لهُدًى، يقول: لبيان من الله، يبين به الحق فيما اختلف فيه خلقه من أمور دينهم ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يقول: ورحمة لمن صدق به وعمل بما فيه.

❁ ❁ ❁

س: لماذا خُصّت الهداية بالمؤمنين؟

ج: لأنهم هم المنتفعون به الذين قبلوا هذا القرآن واستفادوا منه واهتدوا

بهديه. والله أعلم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم-: إن ربك يفصل بينهم ويحكم بينهم بحكمه الذي لا يظلم فيه ولا يجور، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته يوم القيامة ويظهر المحق من المبطل، وكذا قيل يقص بينهم في الدنيا فيظهر ما حرَّفوه، وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يرد أمره ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم﴾ يقول: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل ﴿بِحُكۡمِهِۦۚ﴾ فيهم، فينتقم من المبطل منهم، ويجازي المحسن منهم المحق بجزائه، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ يقول: وربك العزيز في انتقامه من المبطل منهم ومن غيرهم، لا يقدر أحد على منعه من الانتقام منه إذا انتقم العليم بالمحق المحسن من هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه، ومن غيرهم من المبطل الضال عن الهدى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في انتقامه، ﴿ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم.

❀ ❀ ❀

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

ج: المعنى -والله أعلم- فاعتمد في شؤونك كلها على الله ﷻ وفوِّض

أمورك إليه ولا تتشكك فيما أنت عليه فإنك على الحق الواضح الجلي، المظهر لمن تأمله أنك على الحق بلا ريب ولا امتراء.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ففوِّض إلى الله يا محمد أمورك، وثق به فيها، فإنه كافيك. ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ لمن تأمّله، وفكر ما فيه بعقل، وتدبره بفهم، أنه الحق، دون ما عليه اليهود والنصارى، المختلفون من بني إسرائيل، ودون ما عليه أهل الأوثان، المكذبوك فيما أتيتهم به من الحق، يقول: فلا يحزنك تكذيب من كذبك، وخلاف من خالفك، وامض لأمر ربك الذي بعثك به.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في أمورك، وبلّغ رسالة ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: أنت على الحق المبين وإن خالفك مَنْ خالفك، ممَّنْ كتبت عليه الشقاوة وحَقَّت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فوض إليه أمرك واعتمد عليه فإنه ناصرك ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الظاهر وقيل: المظهر لمن تدبر وجه الصواب.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ۝٨١﴾.

ج: المعنى - والله تعالى أعلم -: توكل على الله يا رسول الله وفوض أمرك إليه ﷻ فإنه ناصرك ومعينك ولا تحزن على تكذيب هؤلاء المشركين واليهود

لك فإنك على الحق المبين ولن يهتدي بما جئت به أهل الكفر الذين كُتِبَت عليهم الشقاوة فإنهم موتى القلوب فلن ينتفعوا بمواعظك وبما تلقينه عليهم وتذكرهم به، وفضلًا عن كونهم موتى القلوب فإنهم لا يُقبلون على هذا القرآن بل ينصرفون عنه فارِّين هاربين، فكيف تسمعهم وهم موتى وكيف تسمعهم وقد انصرفوا هاربين مدبرين مع موات قلوبهم كذلك، وكذا لن تستطيع هداية الأعمى الذي سلك طريق الضلال والبعد عن الحق إنما تسمع فقط من آمن بهذا القرآن وصدق أنه من عند الله ﷻ، وأقبل على هذا القرآن يستنير بنوره ويهتدي بهداه فهؤلاء هم المسلمون الذين تدينوا بدين الإسلام وعملوا بتعاليمه، هم كذلك المستسلمون الخاضعون لأمر الله ﷻ المنتهون عما نهاهم عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يقول: إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهم الحق من طبع الله على قلبه فأماته؛ لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يقول: ولا تقدر أن تسمع ذلك من أصم الله عن سماعه سمعه ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ يقول: إذا هم أدبروا معرضين عنه، لا يسمعون له لغلبة رَيْن الكفر على قلوبهم، ولا يُصغون للحقّ، ولا يتدبرونه، ولا ينصتون لقائله، ولكنهم يعرضون عنه، وينكرون القول به، والاستماع له.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِهَٰدِى﴾ من أعماه الله عن الهدى والرشاد فجعل على بصره غشاوة أن يتبين سبيل الرشاد عن ضلالته التي هو فيها إلى طريق الرشاد وسبيل الرشاد. وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقول: ما تقدر أن

تُفهم الحق وتوعيه أحدًا إلا سمع من يصدق بآياتنا، يعني: بأدلته وحججه وآي تنزيله ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ فإن أولئك يسمعون منك ما تقول ويتدبرونه، ويفكرون فيه، ويعملون به، فهم الذين يسمعون.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني: الكفار لتركهم التدبر فهم كالموتى لا حس لهم ولا عقل وقيل: هذا فيمن علم أنه لا يؤمن ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يعني: الكفار الذين هم بمنزلة الصم عن قبول المواعظ فإذا دعوا إلى الخير أعرضوا وولوا كأنهم لا يسمعون نظيره: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] كما تقدم وقرأ ابن محيصن وحميد وابن كثير وابن أبي إسحاق وعباس عن أبي عمرو: **(ولا يسمع)** بفتح الياء والميم (الصم) رفعًا على الفاعل الباقون ﴿تُسْمِعُ﴾ مضارع أسمعت ﴿ٱلصُّمَّ﴾ نصبًا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: لا تسمعهم شيئًا ينفعهم فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفي آذانهم وقر الكفر ولهذا قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: إنما يستجيب لك مَنْ هو سميع بصير، السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة الخاضع لله، ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

ومن الآيات النازلة تسلية له ﷺ، قوله هنا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: لا تسمع من أضله الله إسماع هدى وقبول، ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، يعني:

ما تسمع إسماع هدى وقبول، إلا من هديناهم للإيمان بآياتنا ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

والآيات الدالَّة على هذا المعنى كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ الآية. [النحل: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الآية. [المائدة: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات. ولو كان معنى الآية وما شابهها: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: الذين فارقت أرواحهم أبدانهم لما كان في ذلك تسلية له ﷺ، كما ترى.

❁ ❁ ❁

(٦٤١) أحمر أسود

قَالَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ:

(﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ
يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا
جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ
ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ
ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ
مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ
هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ
ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ
أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٩٣﴾ ﴾ [النمل: ٨٢-٩٣].

(٦٤٢) أحمر أسود

س: اذكر معنى ما يلي:

﴿ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم - لَا يُوقِنُونَ - نَحْشُرُ - فَوْجًا - يُوزَعُونَ - لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ - ٱلصُّورِ - دَٰخِرِينَ - جَامِدَةً - تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ - أَتْقَنَ - بِٱلْحَسَنَةِ - فَزَعٍ - بِٱلسَّيِّئَةِ - فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ - ٱلْبَلْدَةِ - حَرَّمَهَا - أَتْلُوَا۟ - ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

ج:

الكلمة	معناها
﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾	وجب عليهم العذاب –انتهى أمرهم فلم يعد يقبل من الناس إيمان
﴿لَا يُوقِنُونَ﴾	لا يصدقون بالبعث
﴿نَحْشُرُ﴾	نجمع
﴿فَوْجًا﴾	جماعة
﴿يُوزَعُونَ﴾	يرد أولهم على آخرهم ويساق آخرهم حتى يلحق بأولهم
﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾	ليناموا فيه – ليستريحوا فيه
﴿ٱلصُّورِ﴾	قرنٌ ينفخ فيه
﴿دَٰخِرِينَ﴾	أذلاء
﴿جَامِدَةً﴾	قائمة
﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾	تسير كما يسير السحاب
﴿أَتْقَنَ﴾	أحكم

(٦٤٣) أحمر أسود

﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾	بـ لا إله إلا الله
﴿فَزَعٍ﴾	خوفٍ
﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾	بالشرك
﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾	طُرحت وجوههم – طُرحوا على وجوههم
﴿ٱلْبَلْدَةِ﴾	المراد بها مكة
﴿حَرَّمَهَا﴾	جعلها حرامًا لا يعضد شوكها ولا ينفر صيدها ولا تلتقط لقطتها ولا يُختلى خلاها.. إلى آخر ما يخص مكة لكونها حرم
﴿أَتْلُوَا﴾	اقرأ – اتبع
﴿ٱلْمُنذِرِينَ﴾	المبلغين عن الله المُحذرين من عقابه وناره

❁ ❁ ❁

دابة الأرض وشيءٌ من الوارد في شأنها

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾.

ج: أما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾.

فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: إذا وجب عليهم العذاب.

الثاني: إذا انتهى أمر إيمان الناس ولن يؤمن إلا مَنْ قد آمن، أي: حق القول عليهم بأنهم لا يؤمنون.

الثالث: إذا وجب عليهم الغضب.

* أما متى تخرج دابة الأرض هذه، فقد قال عدد من العلماء: إن خروجها من أشراط الساعة الكبرى، أي: أن خروجها قبيل قيام الساعة.

وقد قيل إن ذلك حين ينتهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما من أي مكان تخرج: فلم أقف في ذلك على خبرٍ ثابت عن رسول الله ﷺ، وإن كان كثير من المفسرين ذكروا أنها تخرج من مكة، وقال بعضهم: من جبل الصفا بمكة على وجه الخصوص.

أما عن صفة هذه الدابة: فلم أقف فيها على خبر ثابت عن رسول الله ﷺ.

أما قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي: تنطق وتكلمهم كلامًا، وقد قيل أن تقول للمؤمن: يا مؤمن، وللكافر: يا كافر.

أما قوله تعالى: ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾.

فللعلماء فيه أقوال:

أحدها: تكلمهم تخبرهم بأن أهل الكفر كانوا لا يوقنون بالقرآن ولا برسالة رسول الله محمد - عليه الصلاة والسلام.

الثاني: تكلمهم ببطلان الأديان سوى دين الإسلام.

وقيل: تكلمهم بما يسوؤهم.

وقيل: تكلمهم. تقول لهم: إن الناس كانوا بخروجي لا يوقنون.

وقيل: تكلمهم. تجرجرهم وتسمهم على وجوههم. والله أعلم

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله وفرض وقته.

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً ﴾ خارجة ﴿ مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أو دابة من دواب الأرض ليست من السماء.

وهذه الدابة ﴿ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله، فإظهار الله هذه الدابة من آيات الله العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث لم يذكر الله ورسوله كيفية هذه الدابة، وإنما ذكر أثرها، والمقصود منها، وأنها من آيات الله تكلم الناس كلامًا خارقًا للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله فتكون حجة وبرهانًا للمؤمنين وحجة على المعاندين.

❁ ❁ ❁

باب في ذكر الدابة من الآيات والأحاديث

س: اذكر بعض الوارد في ذكر الدابة وخروجها.

ج: من ذلك ما يلي:

قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

ومن ذلك أيضًا ما يلي: ما أخرجه مسلم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ[1]: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا».

وعند مسلم أيضًا من حديث حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: اطَّلَعَ عَلَيْنَا رسول الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ. فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ» فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَ...

وعند مسلم أيضًا من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا...، أَوِ الدَّابَّةَ..»[2].

هذا وقد ورد في هذا الباب جملة أحاديث ضعيفة، منها:

ما أخرجه الطيالسي في «مسنده» رقم (١٠٦٩) عن طَلْحَةَ بْنِ عَمْرٍو، وَجَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، قَالَ طَلْحَةُ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللهِ بْنُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤١)، وأبو داود (٤٣١٠) وغيرهما.

(٢) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (٣/ ٣٧٤): (هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يُخرج الله لهم دابة من الأرض. قيل: من مكة، وقيل من غيرها).

عُبَيْدِ اللهِ، أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ حَدَّثَهُ، عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدٍ الْغِفَارِيِّ أَبِي سَرِيحَةَ، وَأَمَّا جَرِيرٌ، فَقَالَ: عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَيرٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَحَدِيثُ طَلْحَةَ أَتَمُّهَا وَأَحْسَنُهَا، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّابَّةَ، فَقَالَ: «لَهَا ثَلاَثُ خَرَجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ: فَتَخْرُجُ فِي أَقْصَى الْبَادِيَةِ ولَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ - يَعْنِي مَكَّةَ- ثُمَّ تَكْمُنُ زَمَانًا طَوِيلاً، ثُمَّ تَخْرُجُ خَرْجَةً أُخْرَى دُونَ ذَلِكَ، فَيَعْلُو ذِكْرُهَا أَهْلَ الْبَادِيَةِ وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ -يَعْنِي: مَكَّةَ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ عَلَى اللهِ حُرْمَةً، خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، لَمْ يَرُعْهُمْ إِلاَّ وَهِيَ تَرْغُو بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ، فَارْفَضَّ النَّاسُ مَعَهَا شَتَّى وَمَعًا، وَثَبَتَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا اللهَ، فَبَدَأَتْ بِهِمْ، فَجَلَتْ وُجُوهَهُمْ حَتَّى تَجْعَلَهَا كَأَنَّهَا الْكَوْكَبُ الدُّرِّي، وَوَلَّتْ فِي الأَرْضِ لاَ يُدْرِكُهَا طَالِبٌ، وَلاَ يَنْجُو مِنْهَا هَارِبٌ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَعَوَّذُ مِنْهَا بِالصَّلاَةِ، فَتَأْتِيهُ مِنْ خَلْفِهِ، فَتَقُولُ: يَا فُلاَنُ يَا فُلاَنُ الآنَ تُصَلِّي، فَيُقْبِلُ عَلَيْهَا، فَتَسِمُهُ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ يَنْطَلِقُ، وَيَشْتَرِكُ النَّاسُ فِي الأَمْوَالِ، وَيَصْطَحِبُونَ فِي الأَمْصَارِ، يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكَافِرِ، حَتَّى إِنَّ الْمُؤْمِنَ، يَقُولُ: يَا كَافِرُ، أَقْضِنِي حَقِّي، وَحَتَّى إِنَّ الْكَافِرَ، يَقُولُ: يَا مُؤْمِنُ! أَقْضِنِي حَقِّي».

قلت: وهذا إسناده ضعيف جدًّا، فيه ثلاث علل:

العلة الأولى: طلحة بن عمرو، وهو: ابن عثمان الحضرمي المكي، وقد أطبق أهل العلم على تضعيفه.

العلة الثانية: كون جرير (وهو أثبت بلا شك من طلحة) روى الحديث عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن مسعود وهذا الرجل مبهم.

العلة الثالثة: كون الحديث روي موقوفًا ببعضه عند ابن جرير الطبري في «التفسير» (١٠/ ١١).

حديث آخر ضعيف:

قال ابن جرير الطبري (٢٠/ ١١): حدثنا عصام بن روَّاد بن الجراح، قال: ثنا أبي، قال: ثنا سفيان بن سعيد الثوري، قال: ثنا منصور بن المعتمر، عن ربعي بن حراش، قال: سمعت حُذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ يقول: وذكر الدابة، فقال حُذيفة: قلت: يا رسول الله! من أين تخرج؟ قال: «مِنْ أَعْظَمِ المَساجِدِ حُرْمَةً عَلى اللهِ، بَيْنَما عِيسَى يَطُوفُ بالبَيْتِ وَمَعَهُ المُسْلِمُونَ؛ إذْ تَضْطَرِبُ الأَرْضُ تحتَهُمْ، تُحَرِّكُ القِنْدِيلِ، وَيَنْشَق الصَّفا ممَّا يَلي المَسْعَى، وَتَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنَ الصَّفا، أَوَّلُ ما يَبْدُو رأْسُها، مُلَمَّعَةٌ ذَاتُ وَبَرٍ وَرِيشٍ، لَمْ يُدْرِكْها طالِبٌ، وَلَنْ يَفُوتَها هارِبٌ، تَسِمُ النَّاسَ مُؤْمِنٌ وكافِرٌ، أَمَّا المُؤْمِنُ فَتَتْرُكَ وَجْهَهُ كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌ، وتَكْتُبُ بينَ عَيْنَيْهِ مُؤْمِنٌ، وأَمَّا الكافِرُ فَتَنْكُتُ بينَ عَيْنَيْهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاء كافِرٌ».

قلتُ: وآفة هذا الحديث «عصام بن رواد» ضعيف.

وأيضًا: أبوه رواد بن الجراح قد روى هذا الحديث عن سفيان الثوري، وفي روايته عن سفيان الثوري ضعف.

وقد روى بنحو هذا الإسناد، استعجبه أهلُ العلم واستنكروه، ولأنه في باب الفتن، فنورده مع التنبيه على أنه ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ («التفسير» ٢٢/ ٧٢-٧٣) آخر تفسير سورة سبأ: حدثنا عصام بن روَّاد بن الجراح قال: ثنا أَبي قال: ثنا سفيان بن سعيد

قال: ثني منصور بن المعتمرِ عن رِبْعيٍّ بن حِراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: قال رسول الله ﷺ، «وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب، قال: فبينما هم كذلك؛ إذ خرج عليهم السفياني من الوادي اليابس في فورة ذلك، حتى ينزل دمشق، فيبعث جيشين؛ جيشًا إلى المشرق، وجيشًا إلى المدينة، حتى ينزلوا بأرض بابل في المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف، ويبقرون بها أكثر من مائة امرأة، ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخربون ما حولها، ثم يخرجون متوجهين إلى الشأم، فتخرج راية هذا من الكوفة، فتلحق ذلك الجيش منها على الفئتين، فيقتلونهم لا يفلت منهم مخبر، ويستنقذون ما في أيديهم من السبي والغنائم، ويخلي جيشه التالي بالمدينة، فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة، حتى إذا كانوا بالبيداء، بعث الله جبريل، فيقول: يا جبرائيل! اذهب فأبدهم، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم، فذلك قوله في سورة سبإ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ ...﴾ [سبأ: ٥١] الآية، ولا ينفلت منهم إلا رجلان؛ أحدهما بشير والآخر نذير، وهما من جُهينة، فلذلك جاء القول: وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ اليَقِينُ».

حدثنا محمد بن خلف العسقلاني قال: سألت رواد بن الجراح، عن هذا الحديث الذي حدَّث به عنه، عن سفيان الثوري، عن منصور، عن ربعي عن حذيفة، عن النبي ﷺ، عن قصة ذكرها في الفتن، قال: فقلت له: أخبرني عن هذا الحديث سمعته من سفيان الثوري؟ قال: لا قلت: فقرأته عليه؟ قال: لا قلت: فقرئ عليه وأنت حاضر؟ قال: لا قلت: فما قصته فما خبره؟ قال:

جاءني قوم فقالوا: معنا حديث عجيب، أو كلام هذا معناه، نقرؤه وتسمعه، قلت لهم: هاتوه، فقرؤوه عليَّ، ثم ذهبوا فحدثوا به عني، أو كلام هذا معناه.

قلت (القائل مصطفى): فهذا مما يؤيد ضعف رواية رواد عن سفيان. والله أعلم.

وأخرج ابن جرير الطبري أيضًا من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَخْرُجُ الدَّابَّةُ وَمَعَهَا خَاتَمُ سُلَيْمَانَ وَعَصَا مُوسَى، فَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا، وَتَخْتِمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هذَا: يا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يا كَافِرُ**».

قلتُ: وإسناده ضعيف، أيضًا فيه: علي بن زيد، وهو: ابن جدعان، وهو ضعيف.

وأخرج ابن ماجه (٤٠٦٧) من حديث بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ: ذَهَبَ بِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَوْضِعٍ بِالْبَادِيَةِ قَرِيبٍ مِنْ مَكَّةَ، فَإِذَا أَرْضٌ يَابِسَةٌ حَوْلَهَا رَمْلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَخْرُجُ الدَّابَّةُ مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِذَا فِتْرٌ فِي شِبْرٍ**».

قلت: وإسناده ضعيف جدًّا، ففي إسناده خالد بن عبيد أبو تميلة وهو ضعيف جدًّا.

وأخرج أحمد (٥/ ٢٦٨) من طريق حُجَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى، ثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ – يَعْنِي: ابْنَ أَبِي سَلَمَةَ الْمَاجِشُونَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ دِلَافٍ الْمُزَنِيِّ – لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ يَرْفَعُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَخْرُجُ الدَّابَّةُ، فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يَغْمُرُونَ فِيكُمْ، حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الْبَعِيرَ فَيَقُولُ: مِمَّنِ اشْتَرَيْتَهُ؟ فَيَقُولُ: اشْتَرَيْتُهُ مِنْ أَحَدِ الْمُخَطَّمِينَ**».

قلت: وفي إسناده عمر بن عبد الرحمن بن عطية بن دلاف، لم يوثقه معتبر، أما قول من قال: «إن مالكًا روى عنه، ورواية مالك عنه توثيق له» فهذا القول مما لا يلاقي عندنا قبولًا سريعًا، فنحن الآن على جهالة الرجل. والحديث ضعيف.

هذا وقد أورد ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ وكذلك الحافظ ابن كثير جملة آثار في هذا الباب توضِّح من أين تخرج الدابة وصفتها وما معها وما تعمل إلى غير ذلك، وفي أغلب الأسانيد التي ذكروها نظر، ولم نقف على شيء مرفوع يُعول عليه في هذا الباب. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى هذه الآيات: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم-: واذكر يا رسول الله، واذكر يا عبد الله يوم القيامة، يوم يجمع الله من كل أمة، من كل قرن، جماعة من المكذبين بحججنا وأدلتنا فهم يدفعون إلى النار، وقيل: يرد أولهم إلى آخرهم وآخرُهم إلى أولهم حتى لا يتقدم أحدٌ عن أحدٍ حتى إذا أوقفوا بين يدي الله كما قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤].

سألهم ربهم ﷻ أكذبتم في الدنيا بحججي وأدلتي ورسلي وما جاءوكم به من البينات، ولم تعرفوا آياتي وحججي حق المعرفة، أم ماذا كنتم تعملون في

آياتي وحججي، وما كان موقفكم منها.

وأيضًا أكذبتم بحججي وأدلتي ورسلي ولم تحيطوا علمًا ببطلانها، أي أكذبتم بآياتي بدون علمٍ وكذبتم بها بجهل أم ماذا كان موقفكم منها؟؟

أما قوله تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ فمعناه: ووجب عليهم العذاب بسبب ظلمهم، إذا ليس لهم عذرٌ يعتذرون به ولا جواب يجيبون به.

ثم يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون بآياتي وحججي ألم يروا قدرتي وكوني جعلت الليل لهم سكنًا هادئًا ينامون فيه فيستريحون ويهدأون، وجعلت لهم النهار مضيئًا مشرقًا يلتمسون فيه المعاش ويسافرون ويروحون ويجيئون طلبًا للرزق، إن في ذلك الاختلاف اختلاف الليل والنهار بما فيه من مصالح لهم وراحة لأبدانهم وسبيلًا لقضاء حوائجهم، إن في ذلك لدلالات يستدل به أهل التصديق على وحدانية الله ﷻ وقدرته وعظيم فضله.

وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ويوم نجمع من كل قرن وملة فوجًا، يعني: جماعة منهم، وزمرة ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يقول: ممن يكذب بأدلتنا وحججنا، فهو يحبس أولهم على آخرهم؛ ليجتمع جميعهم، ثم يساقون إلى النار.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى ﴾ يقول تعالى ذكره: حتى إذا جاء

من كل أمة فوج ممن يكذب بآياتنا فاجتمعوا قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ أي: بحججي وأدلتي ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ يقول: ولم تعرفوها حق معرفتها، ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيها من تكذيب أو تصديق.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره: ووجب السخط والغضب من الله على المكذبين بآياته ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ يعني: بتكذيبهم بآيات الله، يوم يحشرون ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

يقول: فهم لا ينطقون بحجة يدفعون بها عن أنفسهم عظيم ما حل بهم ووقع عليهم من القول. وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ألم ير هؤلاء المكذَّبون بآياتنا تصريفنا الليل والنهار، ومخالفتنا بينهما بتصييرنا هذا سكنًا لهم يسكنون فيه ويهدءون، راحة أبدانهم من تعب التصرُّف والتقلب نهارًا، وهذا مضيئًا يبصرون فيه الأشياء ويعاينونها فيتقلبون فيه لمعايشهم، فيتفكروا في ذلك، ويتدبروا، ويعلموا أن مصرِّف ذلك كذلك هو الإله الذي لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه إماتة الأحياء، وإحياء الأموات بعد الممات، كما لم يتعذر عليه الذهاب بالنهار والمجيء بالليل، والمجيء بالنهار والذهاب بالليل مع اختلاف أحوالهما ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن في تصييرنا الليل سكنًا، والنهار مبصرًا لدلالة لقوم يؤمنون بالله على قدرته على ما آمنوا به من البعث بعد الموت، وحجة لهم على توحيد الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله

ورسله إلى بين يدي الله ﷻ ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا، تقريعًا وتوبيخًا، وتصغيرًا وتحقيرًا فقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي: من كل قوم وقرن فوجًا، أي: جماعة، ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾، كما قال تعالى: ﴿ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧].

وقوله: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون. وقال قتادة: وَزَعَةٌ ترد أولهم على آخرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يساقون.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا ﴾ أي: أوقفوا بين يدي الله ﷻ في مقام المساءلة، ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي: ويسألون عن اعتقادهم، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، فحينئذٍ قامت عليهم الحجة، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به، كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي: بهتوا فلم يكن لهم جواب؛ لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم قال تعالى منبهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره، وتصديق أنبيائه فيما جاءوا به من الحق الذي لا مَحيد عنه، فقال: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم، وتهدأ أنفاسهم، ويستريحون من نَصَب التعب في نهارهم. ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي: منيرًا مشرقًا، فبسبب ذلك يتصرفون في

المعايش والمكاسب، والأسفار والتجارات، وغير ذلك من شئونهم التي يحتاجون إليها، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أي: زمرة وجماعة ﴿ مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ يعني: بالقرآن وبأعلامنا الدالة على الحق ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أي: يدفعون ويساقون إلى موضع الحساب قال الشماخ:

وكم وزعنا من خميس جحفل وكم حبونا من رئيس مسحل

وقال قتادة: ﴿يُوزَعُونَ ﴾ أي: يرد أولهم على آخرهم حتى إذا جاؤوا قال أي: قال الله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي ﴾ التي أنزلتها على رسلي وبالآيات التي أقمتها دلالة على توحيدي ﴿ وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ أي ببطلانها حتى تعرضوا عنها بل كذبتم جاهلين غير مستدلين. ﴿ أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ أي: ماذا كنتم تعملونه حين لم تبحثوا عنها ولم تتفكروا ما فيها ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا ﴾ أي: وجب العذاب عليهم بظلمهم أي بشركهم. ﴿ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أي: ليس لهم عذر ولا حجة وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون قاله أكثر المفسرين.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي: يستقرون فينامون ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أي: يبصر فيه لسعي الرزق ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ذكر الدلالة على إلهيته وقدرته أي: يعلموا كمال قدرتنا فيؤمنوا.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

ج: المعنى – والله أعلم –: واذكر يوم يُنفخ في الصور، والصور: قرنٌ ينفخ

فيه، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، فعند ذلك يفزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وقد قيل في الذين استثناهم الله إنهم الملائكة وقيل: الشهداء، وقيل: المؤمنون، وقيل غير ذلك فالله أعلم.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أي: اتوه يوم القيامة أذلة صاغرون.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفَزَع في الصُّور، وهو كما جاء في الحديث: «قرن ينفخ فيه». وفي حديث (الصُّور) أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى، فينفخ فيه أولًا نفخة الفزع ويطولها، وذلك في آخر عمر الدنيا، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء، فيفزع مَنْ في السموات ومَنْ في الأرض ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

ثم أورد ابن كثير رحمه الله: حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه مسلم[١] وفيه:

قَالَ: سَمِعْتهَا مِنْ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «فَيَبْقَى شِرَار النَّاس فِي خِفَّة الطَّيْر وَأَحْلَام السِّبَاع. لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا. فَيَتَمَثَّل لَهُمْ الشَّيْطَان فَيَقُول: أَلَا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ: فَمَا تَأْمُرنَا؟ فَيَأْمُرهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَان. وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقهمْ، حَسَن عَيْشهمْ، ثُمَّ يُنْفَخ فِي الصُّور. فَلَا يَسْمَعهُ أَحَد إِلَّا أَصْغَى لِيْتًا. وَرَفَعَ لِيْتًا. قَالَ: وَأَوَّل مَنْ يَسْمَعهُ رَجُل يَلُوط حَوْض إِبله قَالَ: فَيُصْعَق وَيُصْعَق النَّاس ثُمَّ يُرْسِل الله –أَوْ قَالَ يُنْزِل الله –مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلّ أَوْ الظِّلّ (نُعْمَان الشَّاكّ) فَتَنْبُت مِنْهُ أَجْسَاد النَّاس. ثُمَّ يُنْفَخ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَام يَنْظُرُونَ. ثُمَّ

(١) مسلم (٢٩٤٠).

يُقَال: يَا أَيّهَا النَّاس! هَلُمَّ إِلَى رَبّكُمْ. ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]، ثُمَّ يُقَال: أَخْرِجُوا بَعْث النَّار. فَيُقَال: مِنْ كَمْ؟ فَيُقَال: مِنْ كُلّ أَلْف، تِسْعمِائَةٍ وَتِسْعَة وَتِسْعِينَ. قَالَ: فَذَاكَ يَوْم يَجْعَل الْوِلْدَان شِيبًا وَذَلِكَ يَوْم يُكْشَف عَنْ سَاق».

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فقوله: «ثُمَّ يُنْفَخ فِي الصُّور. فَلَا يَسْمَعهُ أَحَد إِلَّا أَصْغَى لَيْتًا. وَرَفَعَ لَيْتًا» الليت: هو صفحة العنق، أي: أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدًا.

فهذه نفخة الفزع. ثم بعد ذلك نفخة الصعق، وهو الموت. ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين، وهو النشور من القبور لجميع الخلائق؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ -قرئ بالمد، وبغيره على الفعل، وكلٌّ بمعنى واحد- و﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين مطيعين، لا يتخلف أحد عن أمره، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٥]. وفي حديث الصور: أنه في النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح، فتوضع في ثقب في الصور، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعدما تنبت الأجساد في قبورها وأماكنها، فإذا نفخ في الصور طارت الأرواح، تتوهج أرواح المؤمنين نورًا، وأرواح الكافرين ظُلمة، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها. فتجيء الأرواح إلى أجسادها، فتدب فيها كما يَدب السُّمُّ في اللديغ، ثم يقومون فينفضون التراب من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣].

وأورد الطبري بسندٍ ضعيف من حديث أبي هريرة: أنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! ما الصور؟ قال: «قَرنٌ»، قال: وكيف هو؟ قال: «قَرْنٌ عَظِيمٌ يُنْفَخُ

فِيهِ ثَلاثُ نَفَخاتٍ: الأولى: نَفْخَةُ الفَزَعِ، والثَّانِيَةُ: نَفْخَةُ الصَّعْقِ، والثَّالِثَةُ: نَفْخَةُ القِيَامِ لِلهِ رَبِّ العَالَمينَ، يَأْمُرُ اللهُ إِسْرَافِيلَ بالنَّفْخَةِ الأولى، فيَقُولُ: انْفُخْ نَفْخَةَ الفَزَعِ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الفَزَعِ، فَيَفْزَعُ أَهْلُ السَّمَوَاتِ وأَهْلُ الأَرْضِ، إلا مَنْ شاءَ اللهُ، وَيأْمُرُهُ اللهُ فَيَمُدُّ بِها ويطوِّلها، فَلا يَفْتُرُ، وَهيَ الَّتي يَقُولُ اللهُ: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فَيُسَيِّرُ اللهُ الجِبالَ، فَتَكُون سَرَابًا، وَتُرَجُّ الأَرْضُ بأَهْلِها رَجًّا، وهي التي يقول الله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨] فَتَكُونُ الأرضُ كالسَّفِينَةِ المُوثَقَةِ فِي البَحْرِ، تَضْرِبُها الأَمْوَاجُ، تُكْفأُ بأَهْلِها، أَوْ كالقِنْدِيلِ المُعَلَّقِ بالوَتَر، تُرَجِّحُهُ الأَرْياحُ، فَتَمِيدُ النَّاسُ على ظَهْرِها، فَتَذْهَلُ المَرَاضِعُ، وَتَضَعُ الحَوامِلُ، وَتَشِيبُ الوِلْدَانُ، وَتَطِيرُ الشَّياطِينُ هارِبَةً، حَتَّى تَأتِي الأَقْطارَ، فَتَتَلَقَّاهَا المَلائِكَةُ، فَتَضْرِبُ وُجُوهَها، فَتَرْجِعُ، وَيُوَلِّي النَّاسُ مُدْبِرينَ يُنادي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهُوَ الَّذي يَقُولُ اللهُ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢-٣٣] فبَيْنَما هُمْ عَلى ذلكَ إذْ تَصَدَّعَتِ الأَرْضُ مِنْ قُطْرٍ إِلى قُطْرٍ، فَرَأَوا أَمْرًا عَظِيمًا، فَأَخَذَهُمْ لِذَلكَ مِنَ الكَرْبِ ما اللهُ أَعْلَمُ بِهِ، ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى السَّماءِ، فإِذَا هِيَ كَالمُهْلِ، ثُمَّ خُسِفَ شَمْسُها وَقَمَرُها، وانْتَثَرَتْ نُجُومُها، ثُمَّ كُشِطَتْ عَنْهُمْ». قال رسول الله ﷺ: «والأَمْوَاتُ لا يعْلَمُون بِشَيْءٍ مِنْ ذلكَ، فقال أبو هريرة: يا رسول الله! فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: «أولَئِكَ الشُّهَدَاءُ، وإِنَّمَا يَصِلُ الفَزَعُ إِلى الأحْياءِ، أُولَئِكَ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، وَقاهُمُ اللهُ فَزَعَ ذَلِكَ اليَومِ وآمَنَهُمْ، وَهُوَ عَذَابُ اللهِ يَبْعَثُهُ عَلى شِرارِ خَلْقِه».

وأورد بسندٍ حسن: عن قَتادة، قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ أي: في الخلق. قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ففزع من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من الجن والإنس والشياطين، من هول ما يعاينون ذلك اليوم.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قيل: إن الذين استثناهم الله في هذا الموضع من أن ينالهم الفزع يومئذٍ الشهداء، وذلك أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وإن كانوا في عداد الموتى عند أهل الدنيا، وبذلك جاء الأثر عن رسول الله ﷺ، وقد ذكرناه في الخبر الماضي.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ يقول: وكل أتوه صاغرين.

وأورد بسند صحيح عن ابن زيد: في قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قال: الداخر: الصاغر الراغم، قال: لأن المرء الذي يفزع إذا فزع إنما همته الهرب من الأمر الذي فزع منه، قال: فلما نُفخ في الصور فزعوا، فلم يكن لهم من الله منجى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾ أي: واذكر يوم أو ذكرهم يوم في ينفخ في الصور ومذهب الفراء أن المعنى: وذلكم يوم ينفخ في الصور وأجاز فيه الحذف والصحيح في الصور أنه قرن من نور ينفخ فيه إسرافيل. وقال مجاهد: كهيئة البوق وقيل: هو البوق بلغة أهل اليمن وقد مضى في (الأنعام) بيانه وما للعلماء في ذلك ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ قال أبو هريرة قال النبي ﷺ: «**إن الله لما فرغ من خلف السموات خلق الصور فأعطاه إسرافيل**

فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر بالنفخة» قلت: يا رسول الله ما الصور؟ قال: «**قرن والله عظيم والذي بعثني بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة البعث والقيام لرب العالمين**» وذكر الحديث ذكره علي بن معبد والطبري والثعلبي وغيرهم وصححه ابن العربي وقد ذكرته في كتاب التذكرة وتكلمنا عليه هنالك وأن الصحيح في النفخ في الصور أنهما نفختان لا ثلاث وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأرين لازمان لهما أي: فزعوا فزعًا ماتوا منه أو إلى نفخة البعث وهو اختيار القشيري وغيره فإنه قال في كلامه على هذه الآية: والمراد النفخة الثانية أي: يحيون فزعين يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: ٥٢] ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم وهذا النفخ كصوت البوق لتجتمع الخلق في أرض الجزاء قاله قتادة وقال الماوردي: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ هو يوم النشور من القبور قال وفي هذا الفزع قولان: أحدهما: أنه الإسراع والإجابة إلى النداء من قولهم: فزعت إليك في كذا إذا أسرعت إلى ندائك في معونتك والقول الثاني: إن الفزع هنا هو الفزع المعهود من الخوف والحزن؛ لأنهم أزعجوا من قبورهم ففزعوا وخافوا وهذا أشبه القولين.

قلت: والسنة الثابتة من حديث أبي هريرة وحديث عبد الله بن عمرو يدل على أنهما نفختان لا ثلاث. خرجهما مسلم.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وترى يا رسول الله – يوم القيامة يوم ينفخ في الصور – ترى الجبال تحسبها قائمة، ولكنها تسير وتتحرك بسرعة كما يتحرك السحاب، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وكما قال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، فهذا صنع الله ﷻ، صنع الله الذي أحكم صناعة كل شيء، إنه خبير بكل ما تفعلونه أيها الناس.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ يا محمد ﴿تَحْسَبُهَا﴾ قائمة ﴿وَهِىَ تَمُرُّ﴾.

وإنما قيل: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنها تجمع ثم تسير، فيحسب رائيها لكثرتها أنها واقفة، وهي تسير سيرًا حثيثًا، كما قال الجعدي:

بِأَرْعَنَ مِثْلَ الطَّوْدِ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ وُقُوفٌ لِحَاجٍّ والرّكَابُ تُهَمْلِجُ

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وأوثق خلقه.

وأورد بإسناد حسن عن قتادة: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله ذو علم وخبرة بما يفعل عباده من خير وشر وطاعة له ومعصية، وهو مجازٍ جميعهم على جميع ذلك على الخير الخيرَ، وعلى الشرِّ الشر نظيره.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ أي: تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه، وهي تمر مر السحاب، أي: تزول عن أماكنها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع، ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: هو عليم بما يفعل عباده من خير وشرٍّ فيجازيهم عليه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ قال ابن عباس: أي: قائمة وهي تسير سيرًا حثيثًا. قال القتبي: وذلك أن الجبال تجمع وتسير فهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير وكذلك كل شيء عظيم وجمع كثير يقصر عنه النظر لكثرته وبُعْدِ ما بين أطرافه وهو في حسبان الناظر كالواقف وهو يسير قال النابغة في وصف جيش:

بأرعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج

قال القشيري: وهذا يوم القيامة أي: هي لكثرتها كأنها جامدة أي: واقفة في مرأى العين وإن كانت في أنفسها تسير سير السحاب والسحاب المتراكم يظن أنها واقفة وهي تسير أي: تمر مر السحاب حتى لا يبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠] ويقال: إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريغ الأرض منها وإبراز ما كانت تواريه فأول الصفات الاندكاك وذلك قبل الزلزلة ثم تصير كالعهن المنفوش وذلك إذا صارت السماء كالمهل وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ

كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ - ٩] والحالة الثالثة أن تصير كالهباء وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن والحالة الرابعة أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارة في مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها لتبرز فإذا نسفت فبإرسال الرياح عليها والحالة الخامسة أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعًا في الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجسادًا جامدة وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة والحالة السادسة أن تكون سرابًا فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئًا منها كالسراب.

❋ ❋ ❋

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم– من جاء ربه يوم القيامة بالتوحيد بـ(لا إله إلا الله) التي كان يقولها في الدنيا خالصًا من قلبه فله أجر ذلك مضاعف أضعافًا كثيرة، وهم من فزع يوم القيامة آمنون، آمنون من الفزع، آمنون من الخوف، لا يفزع إذا فزع الناس، ومن جاء ربَّه يوم القيامة بـ(الشرك) أي: أنه كان في الدنيا مشركًا ومات على ذلك، فيُلقى على وجهه يوم القيامة في نار جهنم والعياذ بالله، وما ظلمناه بإلقائه في النار على وجهه، وإنما جازيناه بعمله السيئ الذي كان يعمله في الدنيا، جازيناه بعبادته غير الله، جازيناه بشركه الذي أشرك.

وهذه أقوال بعض العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿مَن جَآءَ﴾ الله بتوحيده والإيمان به، وقول لا إله إلا الله موقنًا به قلبه ﴿فَلَهُۥ﴾ من هذه الحسنة عند الله ﴿خَيۡرٌ﴾ يوم القيامة، وذلك الخير أن يثيبه الله ﴿مِّنۡهَا﴾ الجنة، ويؤمنه ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ الصيحة الكبرى وهي النفخ في الصور. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يقول: ومن جاء بالشرك به يوم يلقاه، وجحود وحدانيته ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ في نار جهنم.

وأورد الطبري عدة آثار مفادها أن السيئة: الشرك، وأن الحسنة: قول لا إله إلا الله.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره. يقال لهم: هل تجزون أيها المشركون إلا ما كنتم تعملون؛ إذ كبكم الله لوجوهكم في النار، وإلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا بما يسخط ربكم؛ وترك «يقال لهم» اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ -قال قتادة: بالإخلاص. وقال زين العابدين: هي لا إله إلا الله -وقد بيَّن في المكان الآخر أن له عَشْر أمثالها ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقال: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقوله: ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ ﴾ أي: مَنْ لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو: قد رجحت سيئاته على حسناته، كلٌّ بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

أما القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فقد نقل الإجماع على أن الحسنة لا إله إلا الله، وأن السيئة الشرك في هذه الآية.

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ ﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: قل يا رسول الله لأهل الشرك: إنما أمرني ربي ﷻ أن أعبده وحده لا شريك له فهو ربُّ هذه البلدة مكة البلد الحرام الذي جعلها محرمةً، جعلها حرمًا آمنًا فكان ذلك سببًا في أمانكم وهيبتكم عند الناس، فالناس من حولكم يُتخطفون، يقتل بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا، ويسرق بعضهم بعضًا. أما أنتم فقد جعلكم الله ببلدة حرام حرمها هو سبحانه وقذف في الناس هيبتها فلا يعتدي عليكم معتدٍ ولا يبغي عليكم باغ كما قال تعالى: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ [قريش: ٣، ٤].

فإني من ثمَّ أعبده وحده لا شريك له فهو ربي وربكم وربُّ هذه البلدة وربُّ البلاد كلها وله كل شيء مُلكًا وخلقًا وأمرًا ونهيًا يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء.

الأشياء كلها ملك له سبحانه وتعالى، وكذا فإنه يأمر فيها بما يشاء ويقضي

فيها بما يريد، وقد أمرني ربي أن أكون من المستسلمين الخاضعين المنقادين له ﷻ، وكذا من المتدينين له بدين الإسلام.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد قل: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ وهي مكة ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ على خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، أو يصاد صيدها، أو يختلى خلاها دون الأوثان التي تعبدونها أيها المشركون.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ يقول: ولربِّ هذه البلدة الأشياء كلها ملكًا. فإياه أمرت أن أعبد، لا من لا يملك شيئًا. وإنما قال جل ثناؤه: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فخصها بالذكر دون سائر البلدان، وهو ربّ البلاد كلها؛ لأنه أراد تعريف المشركين من قوم رسول الله ﷺ، الذين هم أهل مكة، بذلك نعمته عليهم، وإحسانه إليهم، وأن الذي ينبغي لهم أن يعبدوه هو الذي حرَّم بلدهم، فمنع الناس منهم، وهم في سائر البلاد يأكل بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، لا من لم تجر له عليهم نعمة، ولا يقدر لهم على نفع ولا ضر. وقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ يقول: وأمرني ربي أن أسلم وجهي له حنيفًا، فأكون من المسلمين الذين دانوا بدين خليله إبراهيم وجدكم أيها المشركون، لا من خالف دين جده المحق، ودان دين إبليس عدو الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾، كما قال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ

أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ﴾ [يونس: ١٠٤].

وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها، كما قال: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾.

[قريش: ٣-٤]

وقوله: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أي: الذي إنما صارت حرامًا قدرًا وشرعًا، بتحريمه لها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لُقَطَتُه إلا لِمَنْ عرفها، ولا يختلى خلاها**»(١) الحديث بتمامه. وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع، كما هو مبين في موضعه من كتاب الأحكام، ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾: من باب عطف العام على الخاص، أي: هو رب هذه البلدة، ورب كل شيء ومليكه، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ يعني: مكة التي عظم الله حرمتها أي: جعلها حرما آمنًا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يصاد فيها صيد ولا يعضد فيها شجر.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ﴾ خلقًا وملكًا ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أي: من

(١) البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

المناقدين لأمره والموحدين له.

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

ج: المعنى – والله تعالى أعلم –: وأمرت أن أتلو عليكم القرآن فمن اتبع هذا القرآن واهتدى بهديه واستنار بآياته واستبصر بها فإن ثواب استقامته واتباعه للقرآن وآياته عائدٌ على نفسه، ومن ضلَّ وحاد عن طريق الهداية والاستقامة فإثمه على نفسه وإنما عليَّ البلاغ والإنذار فحسب. والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ و﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ يقول: فمن تبعني وآمن بي وبما جئت به، فسلك طريق الرشاد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾ يقول: فإنما يسلك سبيل الصواب باتباعه إياي، وإيمانه بي، وبما جئت به لنفسه؛ لأنه بإيمانه بي، وبما جئت به يأمن نقمته في الدنيا وعذابه في الآخرة. وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ يقول: ومن جار عن قصد السبيل بتكذيبه بي وبما جئت به من عند الله ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فقل يا محمد لمن ضلّ عن قصد السبيل، وكذبك، ولم يصدّق بما جئت به من عندي: إنما أنا ممن ينذر قومه عذاب الله وسخطه على معصيتهم إياه، وقد أنذرتكم ذلك معشر كفار قريش، فإن قبلتم وانتهيتم عما يكرهه الله منكم من الشرك به، فحظوظَ أنفسكم تصيبون، وإن رددتم وكذبتم فعلى أنفسكم جنيتم، وقد بلغتكم ما أمرت بإبلاغه إياكم، ونصحت لكم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾ أي: على الناس أبلغهم إياه، كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وكقوله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣] أي: أنا مبلغ ومنذر، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أي: لي سوية الرسل الذين أنذروا قومهم، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم، وخَلَصُوا من عهدتهم، وحساب أممهم على الله، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢].

❁ ❁ ❁

س: وضح معنى قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

ج: وقل الحمد لله على عموم نعمه، وعلى نعمة الإسلام التي هدانا إليها وعلى القرآن الذي أنزله عليَّ فاتبعته وتلوته، وسيريكم ربي آياته فيكم سينزل عليكم عذابًا فتعرفون صدقي فيما أخبرتكم به من الحقائق، ستعرفون حقيقة أقوالي، وسيريكم آياته في الآفاق، تلك الآيات الدالة على قدرته ووحدانيته فتعلمون صدق ما دعوتكم إليه من توحيد الله ﷻ، وما ربك بغافل عن أعمالهم التي يعملونها وعن أقوالهم التي يقولونها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين لك من مشركي قومك: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على نعمته علينا بتوفيقه إيانا للحق الذي أنتم عنه عمون، سيريكم ربكم آيات عذابه وسخطه،

فتعرفون بها حقيقة نصحي كان لكم، ويتبين صدق ما دعوتكم إليه من الرشاد.

وقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وما ربك يا محمد بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون، ولكن لهم أجل هم بالغوه، فإذا بلغوه فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: فلا يحزنك تكذيبهم إياك، فإني من وراء إهلاكهم، وإني لهم بالمرصاد، فأيقن لنفسك بالنصر، ولعدوّك بالذلّ والخزي.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾، أي: لله الحمد الذي لا يُعذِّب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، والإعذار إليه؛ ولهذا قال: ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾. [فصلت: ٥٣]

وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: بل هو شهيد على كل شيء.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: على نعمه وعلى ما هدانا ﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي: في أنفسكم وفي غيركم كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السموات وفي الأرض نظيره قوله تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠ - ٢١] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

❀ ❀ ❀